دراسات في تاريخ وحضارة

المشرق الإسلامي

الأستاذ الدكتور

عبد الواحد ذنون طه




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



دراسات في تاريخ
وحضارة المشرق الإسلامي


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

دراسات في تاريخ وحضارة

المشرق الإسلامي

تأليف

د. عبد الواحد ذنون طه

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير/أي النار 2005 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 5928/ 2004
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-212-6
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb
ص.ب. 14/6703 ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،
هاتف: 00218.21.3407010 - 00218.21.3407012 - 00218.21.3407013 - 00218.21 فاكس: 00218.21.3407011
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

الإهــــداء

إلى

الأستاذ الدكتور هاشم يحيي الملاح

ولروح المرحوم

الأستاذ منهل جبر إسماعيل

عرفاناً لفضلهما وجهودهما في دراسة التاريخ

الإسلامي، والحفاظ على التراث والآثار



تقديم المؤلف

يسعدنا أن نقدم إلى القارئ العربي الكريم هذه المجموعة من الدراسات والبحوث التي تم إعدادها في العقود الثلاثة الأخيرة، عن تاريخ المشرق الإسلامي وحضارته. تناولت ثمانية منها موضوعات حضارية وسياسية مختلفة عن الدولة العربية الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي، ولا سيما التركيز على أقاليم معينة، مثل بلاد الشام، التي اختصت ببحثين: أحدهما: عن إدارة بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، والثاني: دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في العصر الأموي. أما العراق، فقد تم الحديث عن عملية التعريب فيه، ونقل الدواوين من الفارسية إلى العربية في أثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، وكذلك عن حدوده الجنوبية وامتداداتها في ذلك العصر، وتناولت ثلاثة بحوث أعمال الجهد العسكريٰ في هذا الإقليم ولاسيما منطقة الأنبار، ودور العراق في قيادة وتوجيه الفتوح الإسلامية في المشرق، وهو دور تميز بالريادة في هذا المجال.

أما بقية البحوث فقد تناولت جوانب مختلفة من تاريخ وحضارة المشرق منها ما هو متداخل بين العصرين الأموي والعباسي، مثل أهمية موقعة القادسية في هذين العصرين، ومنها ما هو خاص بالعصر العباسي

وحضارته. وقد ركّز أحد هذه البحوث على دراسة أسرة معروفة في العصر العباسي، تولى عدد من أفرادها الوزارة، وهي أسرة آل الجرّاح. كما تطرّق بحث آخر إلى المجتمع البغدادي، كما صوره مؤلف معاصر في حكاية (أبو القاسم البغدادي) في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، وقد اختص بحث آخر في موارد الصفوة من المجتمع، أي الخلفاء العباسيين، ومقدار ثرواتهم، وضياعهم السلطانية الخاصة، محللاً مصادر هذه الثروة، وأوجه إنفاقها، واهتم الثالث عشر بالحديث عن جهاز الأمن والشرطة السرية في العصر العباسي، مركِّزاً على مهام صاحب الشرطة، وصاحب الخبر وأهل الأخبار، وأسلحة الشرطة العباسية.

ولم تغفل هذه الدراسات عن الإشارة إلى ما ساد أوائل العصر العباسي من أفكار وآراء ومعتقدات، تبنتها فئات مختلفة من جماعات غير عربية، بهدف زعزعة الكيان العربي الإسلامي وإضعافه، فتم تناول هذه الحركة التي تسمى (بالشعوبية)، والإشارة إلى تاريخها، وطبيعتها، وأساليبها، وأهدافها، بشكل خاص في البحث الخامس عشر. وأخيراً تطرقنا إلى بعض التأثيرات الحضارية المشرقية، التي أثرت في الحضارة الغربية، والتي انتقلت في العصور الوسيطة، ولا سيما في مجال العلوم الطبية، التي مثلها أحد العلماء المسلمين وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي انتقلت كتبه إلى الغرب، ودُرِّست في المدارس الطبية الأوروبية لقرون عديدة.

إن خمساً من هذه الدراسات قُدمت في ندوات ومؤتمرات علمية، فالبحثان الخاصان بإدارة بلاد الشام، ودور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في العصر الأموي، قدِّما في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، والندوتان: الثالثة، والرابعة، اللتان عقدتا في عمان في آذار (مارس) 1985، وتشرين الأول (أكتوبر) 1987. أما بحث طبيعة الحركة الشعوبية،

فقدِّم إلى ندوة الدس الشعوبي، التي عقدت في بغداد في شهر أيار (مايو) 1988. وقدِّم البحث الخاص بالهوية العربية في العصر الأموي، التي عقدت في حزيران (يونيو) ببغداد سنة 1997، وقدِّم بحث: الأحوال السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية إلى الندوة الرابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في العصر الأموي، التي كان يفترض أن تعقد في الرياض خلال آذار (مارس) 1991.

وقد نُشر بعض هذه الدراسات والبحوث في مجلات علمية مختلفة، مثل مجلة المجمع العلمي العراقي، ومجلة رسالة الخليج العربي التي يصدرها مكتب التربية العربي لدول الخليج، ومجلة التربية والعلم التي تصدرها كلية التربية في جامعة الموصل، ومجلة آداب الرافدين التي تصدرها كلية الآداب في جامعة الموصل، ومجلتي آفاق عربية والمورد اللتين تصدرهما وزارة الإعلام في العراق. وقد ارتأينا جمع هذه البحوث ونشرها في كتاب واحد، بالنظر إلى ترابط مواضيعها الحضارية، ليسهل الرجوع إليها من قبل المهتمين بتاريخ المشرق وحضارته. وقد اعتمدت في جميع هذه البحوث المصادر الأولية الأصلية التي أشير إليها في حواشي ومراجع البحوث. كما تم الرجوع أيضاً إلى الدراسات الحديثة الخاصة بكل بحث، فضلاً عن بعض البحوث الأجنبية الرصينة. نرجو أن تتم بهذه الدراسات الفائدة لطلبة وأساتذة التاريخ، والباحثين والمثقفين بعامة، ومن الله التوفيق.

عبد الواحد ذنون طه



إدارة بلاد الشام
في عهد الخليفة عمر بن الخطاب

نشر هذا البحث في مجلة آداب الرافدين،
العدد 16، الموصل، 1986

تمهيد

تعد دراسة الشؤون الإدارية في العصور الإسلامية المختلفة من المواضيع الصعبة، بسبب قلة المعلومات المتوافرة عنها في المصادر، وتزداد هذه الصعوبة عندما تختص الدراسة بالبحث عن الفترات الأولى من تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ولا يخفى أن معظم مصادرنا المعتمدة تركز على الناحية السياسية، ولا تشير إلى القضايا الإدارية إلا عرضاً، وهذا، بطبيعة الحال، لا يتيح للباحث أن يحصل على ما يريد من معلومات بسهولة، بل عليه أن يكون دقيقاً غاية الدقة في استخلاص مادته من خلال المعلومات المتناثرة في المصادر، والتي لا تأتي عادة ضمن سياق منتظم.

أما بالنسبة إلى هذا البحث فإننا نجد عدداً كبيراً من المصادر يركِّز على مسألة الفتوح ومعارك التحرير التي خاضتها الجيوش العربية الإسلامية في بلاد الشام، وتولي اهتماماً زائداً لتحركات هذه الجيوش والانتصارات التي حققتها على البيزنطيين. وهذا أمر في غاية الأهمية لمن يريد دراسة الفتح، لكن الأمر يختلف بالنسبة إلى من يهتم بالمسائل الإدارية، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية. ومع هذا، فلا يمكن إغفال ما تحويه بعض المصادر من معلومات أساسية عن الشؤون الإدارية لهذا العهد المبكر، وأخص منها بالذكر تاريخ خليفة بن خياط، وكتاب فتوح البلدان للبلاذري، وتاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري.

إن الطريقة التي اتبعت في كتابة هذا البحث تعتمد بالدرجة الأولى على استخلاص المعلومات الإدارية من المصادر الأساسية، وتحليلها ووضعها ضمن سياق حديث يخدم البحث، مع الإشارة إلى بعض الآراء الحديثة للكتّاب المحدثين، من أجل التوصل إلى صورة قريبة من واقع النظام الإداري الذي كان يسود بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). ولم يتطرق البحث إلى الحديث عن الفتح وكيفية إنجازه، وذلك لكثرة ما كتب عنه، ولأنه لا يدخل في صلب الموضوع الحالي، ولكن كان لا بد من الكلام عن الإدارة العسكرية لبلاد الشام ودور الخليفة في توجيه الفتح، كما أشار البحث أيضاً إلى التقسيمات الإدارية لبلاد الشام، والولاة وطريقة اختيارهم، وسياسة الخليفة إزاءهم، وإلى استقرار العرب في بلاد الشام، والأسس التي تم بموجبها هذا الاستقرار. كذلك تضمن البحث التنظيمات الإدارية والمالية التي أعقبت الفتح، ووضع أهل البلاد ومدى تعاونهم مع الإدارة الجديدة.

(1)

كان دور الخليفة واضحاً جداً في الإدارة العسكرية لبلاد الشام في

أثناء الفتح، فقد كانت المراسلات مستمرة بين القائد أبي عبيدة والخليفة قبل معركة اليرموك وبعدها. فعلى سبيل المثال، كتب إلى الخليفة بشأن الغنائم التي جُمعت في الجابية، فجاء الرد بعدم التصرف فيها إلا بعد فتح بيت المقدس[1]. وكان أبو عبيدة يستشير الخليفة في معظم المسائل الحربية المهمة، فحين علم بتجمع عدد كبير من البيزنطيين في فحل من بلاد الأردن ووصول إمدادات معادية من حمص إلى دمشق، تردد هل يبدأ القتال بفحل أم بدمشق، فكتب إلى الخليفة بذلك، وجاءه الرد: «أما بعد فابدؤوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم واشغلوا بخيلكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تُغِيروا على فحل، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأحلهما بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته»[2].

ويدل هذا الجواب بطبيعة الحال على مدى اطلاع الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على أوضاع بلاد الشام السياسية والعسكرية وخبرته الكبيرة في أمورها. فقد كانت تقديراته صائبة في معظم الأحوال، ما أدى إلى التعجيل بالنصر للمسلمين. ونجد شواهد أخرى كثيرة على توجيه الخليفة للفتح وإرشاداته للقادة بكيفية التحرك والتصرف. وكذلك على توجيه الأوامر للقائد الأعلى بتوجيه قائد معين إلى منطقة معينة لمعالجتها وافتتاحها[3].

---

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، النجف، 1974 : 2/ 130، 131، 135.

(2) الطبري (برواية سيف بن عمر التميمي)، تاريخ الرسل والملوك، نشر : دي غوييه، ليدن، 1879 ـ 1901: 1/ 2150.

(3) انظر على سبيل المثال: المصدر نفسه : 1/ 2393، 2397 ـ 2398، البلاذري، فتوح =

ولم تقتصر توجيهات الخليفة لأمراء الأجناد على الأمور العسكرية البحتة، بل كانوا يستشيرونه في معظم المسائل ذات الصلة بسلامة ومستقبل المسلمين وأحوالهم في المناطق المفتوحة. فبعد فتح أنطاكية كتب الخليفة إلى أبي عبيدة أن يرتب بها جماعة من المسلمين ويجعلهم بها مرابطة، ولا يحبس عنهم العطاء[4]. وأشار إلى معاوية بن أبي سفيان بإجراءات مماثلة بالنسبة إلى السواحل[5]، وكتب إليه أبو عبيدة أيضاً يستشيره بشأن جماعة من المسلمين أصابوا الشراب، فجاء جواب الخليفة: «أن ادعُهم فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين جلدة...»[6]. وحين سماع الخليفة بانتشار الطاعون في بلاد الشام كتب إلى أبي عبيدة يقول: «أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة...»[7]. فلما جاءه الكتاب سار بالناس حتى نزل الجابية في هضبة الجولان.

وهكذا كانت المراسلات لا تنقطع بين بلاد الشام ومركز الدولة العربية في المدينة المنورة، وكان التعاون التام يسود بين القادة والخليفة، ولم يكن القادة معزولين عمَّا يحدث في المدينة، فلمَّا حلَّت بالحجاز ضائقة اقتصادية عام 18هـ/639م كتب الخليفة إلى أمراء الأمصار للمساعدة، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعمائة راحلة من الطعام، فقسَّمها بنفسه فيمن حول المدينة، ثم رجع بعد ذلك إلى الشام[8].

= البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة، 1959، ص148. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، 1979: 2/ 497.

(4) المصدر نفسه: 2/ 495.

(5) فتوح البلدان، ص134.

(6) الطبري (برواية سيف): 1/ 2571، انظر: الواقدي، كتاب فتوح الشام نشر: وليم ناسوليس، كلكتا، 1854: 2/ 28.

(7) الطبري (برواية محمد بن إسحاق): 1/ 2518، ابن الأثير: 2/ 558 ـ 559.

(8) الطبري (برواية سيف): 1/ 2576 ـ 2577، ابن الأثير: 2/ 556.

وعلى الرغم من المركزية التي تلاحظ على إدارة الخليفة عمر وتعامله مع قادته[9]، يمكن للباحث أن يميز نوعاً من حرية التصرف بالنسبة إلى أمراء الأجناد، ولاسيما فيما يخص العمل على إنجاز الفتح وتوجيه قادة الجند إلى مناطق بلاد الشام المختلفة. فبعد افتتاح دمشق على سبيل المثال، استخلف أبو عبيدة، يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وعمرو بن العاص على فلسطين، وشرحبيل بن حسنة على الأردن، كما استخلف على حمص بعد افتتاحها عبادة بن الصامت الأنصاري مع تخويله صلاحيات عقد الصلح والاتفاق مع المناطق المجاورة[10]. وفي سنة 15هـ/ 636م افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن كلها، وذلك بأمر من أبي عبيدة، كما بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد فسيطر على أرض البقاع وعقد الصلح مع أهل بعلبك[11]. وفي سنة 16 هـ/ 637م بعث أبو عبيدة عمرو بن العاص بعد فراغه من اليرموك إلى قنّسرين، فصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وافتتح سائر أرض قنّسرين عنوة[12]. وحينما وُلّيَ يزيد بن أبي سفيان بعد أبي عبيدة، وكَّل أخاه معاوية لمحاصرة وفتح قيسارية، ففتحها وكتب إليه بفتحها، فكتب به يزيد إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رض)[13].

وكان التعاون يسود بين قادة بلاد الشام في أثناء الفتح، وأبرز مثال على ذلك كتمان أبي عبيدة بن الجراح لأمر تعيينه قائداً بدلاً من خالد بن الوليد، لأن جيش المسلمين كان محاصراً لدمشق والناس في حرب، ولما

(9) عن مركزية عمر انظر: سليمان محمد الطماوي، عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة، دراسة مقارنة، القاهرة، 1969، ص288 فما بعدها.

(10) فتوح البلدان، ص 137، 138، 139.

(11) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، 1967هـ 1/ 117.

(12) المصدر نفسه: 1/ 124، اليعقوبي: 2/ 130 ـ 131.

(13) فتوح البلدان، ص146.

سأله خالد عن سبب كتمانه للأمر، أجاب أبو عبيدة : «كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو. . .»[14]، وقد أجاز أبو عبيدة عقود الصلح التي أبرمها القادة الذين كانوا يعملون معه، ففي أثناء فتح دمشق دخل خالد بن الوليد من الباب الشرقي صلحاً، في حين أن أبا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة، فلما التقى القائدان، أجاز أبو عبيدة صلح خالد وأمانه لأهل دمشق، فقال بعض المسلمين «والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه، فقال أبو عبيدة : إنه يجيز على المسلمين أدناهم وأجاز صلحه وأمضاه ولم يلتفت إلى ما فتح عنوة، فصارت دمشق صلحاً كلها، وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر وأنفذه..»[15] وكذلك صالح السمط بن الأسود الكندي أهل حمص، فلما قدم أبو عبيدة أمضى صلحه، كما أقر أيضاً صلح عياض بن غنم مع أهل حلب ومنبج[16].

(2)

لقد كانت بلاد الشام قبل الإسلام مقسمة إلى أربع مقاطعات عسكرية كل واحدة تُدعى (جند). وكان في كل جند بعض المدن المتميزة، ذلك أن النظام الإداري لهذه البلاد عني بالمدن سواء في عهد الإغريق أو الرومان أو البيزنطيين. وقد فُسح في المجال لهذه المدن بإدارة نفسها، وظلت تتمتع بمكانة جيدة على الرغم من تقليص بعض امتيازاتها على حساب السلطة المركزية في عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان (527-

(14) المصدر نفسه، ص122، وانظر : رواية ابن إسحاق عند الطبري: 1/ 2146 وقارن : ابن عساكر، التاريخ الكبير، باعتناء: الشيخ عبد القادر أفندي بدران، مطبعة روضة الشام، 1329 هـ: 1/ 151 ـ 152، قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، شرح وتعليق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، 1981، ص289.

(15) فتوح البلدان، ص127 ـ 129، قدامة بن جعفر، الخراج، ص293.

(16) فتوح البلدان، ص137، 152، 155.

565م)[17]. وهذه الأجناد هي دمشق، وحمص والأردن وفلسطين، وكان العرب يعرفون هذا التقسيم، فعندما قدموا لافتتاح الشام كان كل أمير منهم يقصد إلى ناحية ليحررها، فتوجه عمرو بن العاص إلى فلسطين، وتوجه شرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وتوجه يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق[18]. ويشير البلاذري إلى أن المسلمين اختلفوا في تسمية هذه الأجناد، «فقال بعضهم إن المسلمين سمّوا فلسطين جنداً لأنه جمع كوراً، وكذلك الأردن، وكذلك حمص مع قنسرين، وقال بعضهم: سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جنداً...»[19]، أي إن كل ناحية مفردة تعتمد في عطاء جندها على خراجها سُمّيت (جند).

وبعد الفتح قسّمت بلاد الشام إدارياً إلى قسمين: أحدهما حاضرته حمص، وكانت قنسرين تابعة له، والثاني حاضرته دمشق، ويتبعه الأردن[20]، أما فلسطين فظلت قسماً قائماً بذاته، لكن الخليفة عمر بعد مجيئه إلى بلاد الشام وحضوره الجابية سنة 17هـ/ 638م، قسّم فلسطين إلى نصفين، الأول: وكان يحتوي على إيلياء وحيزها، والثاني: وكان يحتوي على الرملة وحيزها. ويبدو أن هذا التنظيم الخاص بفلسطين جاء بناء على طلب من أهل إيلياء نفسها حينما قابلوا الخليفة[21]، لكن البلاذري يشير إلى أن الرملة لم تكن قد بنيت قبل سليمان بن عبد الملك وكان موضعها

(17) انظر: صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1981، ص58.

(18) فتوح البلدان، ص123.

(19) المصدر نفسه، ص137 ـ 138.

(20) المصدر نفسه، ص137، وانظر: حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ط3، القاهرة، 1962، ص154، صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، 1978، ص309.

(21) الطبري (برواية سالم بن عبدالله): 1/ 3/ 2403، 2407، وانظر: ابن الأثير: 2/ 501.

رملة. ويذكر أيضاً أن اللدّ هي التي كانت مركزاً للجند في فلسطين[22]، ما يرجح أن العرب اتخذوا اللد وإيلياء مركزين لهم في فلسطين، كما اتخذوا أيضاً طبرية مركزاً لهم في الأردن[23].

إن التعرف بدقة إلى أسماء القادة الذين أنيطت بهم ولاية هذه المناطق الإدارية، أو الأجناد، ليس بالأمر الهين، ذلك لأنه لم تصلنا وثائق معاصرة فيها سجلات وافية عن الوظائف والموظفين في بلاد الشام، وإن كان هذا الأمر صعباً بالنسبة إلى العهد الأموي[24]، فإنه أكثر تعقيداً بالنسبة إلى الفترة التي سبقت هذا العهد، حيث نجد العديد من الأسماء التي عُين بعضها مباشرة من قبل الخليفة عمر، وعُين بعضها الآخر من قبل أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية.

لقد كان القادة العسكريون في بلاد الشام، قبل تولي الخليفة عمر، يقودهم إذا ما اجتمعوا للحرب عمرو بن العاص، حتى قدم خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، فكان أمير المسلمين في كل المواقع، فلما تولى الخليفة عمر عزل خالد بن الوليد وولى أبا عبيدة بن الجراح على بلاد الشام كلها[25]. وقد تولى هذه المهمة أبرز الولاة الأولين، فبالإضافة إلى أبي عبيدة، شغل هذا المنصب بعده يزيد بن أبي سفيان، ثم معاوية بن أبي سفيان، وكان لكل جند من أجناد الشام والٍ. وفيما يأتي محاولة لترتيب أسماء ولاة الأجناد الذين شغلوا مناصبهم في فترات مختلفة من عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض):

---

(22) فتوح البلدان، ص149.

(23) قارن : صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام، ص64.

(24) انظر : صالح أحمد العلي، موظفو بلاد الشام في العهد الأموي، مجلة الأبحاث، السنة 19، جا، بيروت، 1966، ص46.

(25) فتوح البلدان، ص123.

الولاة الذين استخلفهم أبو عبيدة بعد فتح دمشق سنة 14 هـ / 635 م:

على دمشق: يزيد بن أبي سفيان[26].

ثم سويد بن كلثوم بن قيس الفهري[27].

على فلسطين: عمرو بن العاص[28].

على الأردن: شرحبيل بن حسنة[29].

على حمص: عبادة بن الصمت[30].

بعد أن افتتحت عام 15هـ/ 636م

الولاة بعد مؤتمر الجابية سنة 17هـ/ 638م[31]:

على حمص: أبو عبيدة بن الجراح ويعاونه على قنسرين خالد بن الوليد.

على دمشق: يزيد بن أبي سفيان.

على الأردن: معاوية بن أبي سفيان.

على فلسطين: علقمة بن مُجَزِّز.

على الساحل: عبد الله بن قيس.

---

(26) المصدر نفسه، ص137.

(27) الأزدي، تاريخ فتوح الشام، تحقيق: عبد المنعم عبدالله عامر القاهرة، 1970، ص148، ابن حجر الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1972: 3/ 228 ـ 229، تاريخ الرهاوي المجهول، (بالسريانية)، المطبعة البطريركية السريانية، بيروت، 1900، الفقرة 116، ص88 (وقد استعنت بترجمة عربية مخطوطة، قام بها السيد سهيل قاشا).

(28) فتوح البلدان، ص137.

(29) المصدر نفسه، ص137.

(30) المصدر نفسه، ص137، ابن حجر، الإصابة: 3/ 62.

(31) الطبري: 1/ 2526، ابن الأثير: 2/ 535 ـ 536.

الولاة بعد طاعون عمواس سنة 18 هـ / 639 م :

على حمص وما والاها من قنسرين : عياض بن غنم[32].

وبعد وفاة عياض أمّر الخليفة عمر مكانه:

سعيد بن عامر بن حِذْيم الجمحمي[33].

عبد الله بن قرط الثمالي (تولى حمص لمدة سنة بعد وفاة يزيد بن أبي سفيان ثم عزله الخليفة وولى مكانه:

عبادة بن الصامت[33أ].

معاذ بن جبل[33ب].

يزيد بن أبي سفيان، وبعد وفاته تولى:

معاوية بن أبي سفيان[33ج].

الولاة في سنة 21هـ/ 641-642م[33د]:

على دمشق والبثنية وحوران وحمص وقنسرين والجزيرة : عمير بن سعد الأنصاري

على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وأنطاكية ومعرة مصرين وقلقية: معاوية بن أبي سفيان.

---

(32) الطبري: 1/ 2865، اليعقوبي : 2/ 139.

(33) الطبري: 1/ 2865 ـ 2866، ابن حجر، الإصابة: 3/ 110.

(33أ) الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص 274، وقارن: ابن حجر، الإصابة: 3/ 625 الذي يشير إلى ولاية عبادة بن الصامت لحمص في زمن أبي عبيدة، ويبدو أن الأخير عزله، وولى عبد الله بن قرط بعده.

(33ب) اليعقوبي : 2/ 139.

(33ج) المصدر نفسه: 2/ 139 ؛ الطبري : 1/ 2866.

(33د) المصدر نفسه: 1/ 2464؛ ابن الأثير: 3/ 20 ـ 21.

الولاة سنة وفاة الخليفة عمر بن الخطاب 23هـ/ 643 ـ 644م(33هـ).

على دمشق والأردن : معاوية بن أبي سفيان.

على حمص وقنسرين : عمير بن سعد الأنصاري.

على فلسطين : علقمة بن مُجْزر.

ومن ملاحظة جداول الولاة هذه يتبين لنا أن الأجناد لم تكن مستقرة خلال هذه الفترة، وكذلك لم يكن الولاة ثابتين في ولاياتهم، فهم في حالة تغيير دائم، فبعد أن كانت دمشق منطقة إدارية واحدة، أصبحت تضم بعد سنة 21 هـ مناطق أخرى حولها، مثل البثنية وحوران وحمص وقنّسرين والجزيرة. ورجعت في سنة 23 هـ فاندمجت مع الأردن، وأصبح لها والٍ واحد هو معاوية بن أبي سفيان، وكذلك الأمر مع حمص، ففي بداية الفتح عُين لها والٍ خاص بها، ثم أُلحق به من يعاونه على قنسرين، ثم دُمجت هي وقنّسرين مع دمشق بإمرة والٍ واحد هو عمير بن سعد الأنصاري، أما الأردن فقد عُين لها في البداية أيضاً والٍ خاص بها، واستمر الأمر كذلك حتى سنة 21هـ بحيث أصبحت ضمن إمرة والٍ واحد مع عدد آخر من المناطق كالبلقاء، وفلسطين والسواحل، وأنطاكية ومعرّة مصرين وقلقية. وعادت حين وفاة الخليفة عمر إلى الاندماج مع دمشق.

فهل يعني هذا التغيير وجود فوضى إدارية في بلاد الشام في هذا العصر، أم أن العرب واجهوا قدراً من المشاكل بحيث اضطروا إلى هذا التغيير والتعديل في القيادات والوحدات الإدارية؟ من المرجح أن ظروف البلاد ومشاكلها الجديدة بعد الفتح، وعدم حسم مسألة الاستقرار بالنسبة إلى القبائل العربية المساهمة بالفتح حتى زيارة الخليفة عمر إلى الشام، كانت أحد العوامل المساعدة في هذا التذبذب. ويبدو أيضاً أن طاعون

(33هـ) اليعقوبي: 2/150؛ الطبري: 1/2737، 2866؛ ابن الأثير: 3/77.

عمواس كان له أثر في ذلك، فقد ترك فراغاً في القيادة، ما أدى إلى التغيير السريع في الولاة، ولا سيما بعد وفاة أبي عبيدة بن الجراح، ويزيد ابن أبي سفيان.

وكان أول إجراء إداري قام به الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بالنسبة إلى بلاد الشام هو تغيير خالد بن الوليد وتعيين أبي عبيدة بن الجراح. وقد كثرت التعليلات بشأن هذا التغيير، فهناك من أرجعه إلى طريقة معالجة خالد بن الوليد لردة مالك بن نويرة، واستياء الخليفة عمر ابن الخطاب من ذلك[34]، وهناك من أشار إلى قول الخليفة عن تبذير خالد للأموال وتوزيعها على أصحاب الشرف والبأس، وحبسها عن الضعفاء[35]، وقد رجّح أحد المؤرخين المحدثين[36]، أن هذا التغيير له علاقة بضمان انسجام الجند الموجود في بلاد الشام، حيث كان ضمن هذا الجند عدد من الذين ساهموا في الردة، وبما أن خالداً كان شديد المناهضة للمرتدين فقد استبدل به الخليفة أبا عبيدة بن الجراح الذي لم يكن أكفأ من خالد، لكنه كان أكثر اعتدالاً، ويمكنه أن يتعاون بسهولة مع كل عناصر الجيش. ويمكن للمرء أن يوافق على أن أبا عبيدة كان أكثر اعتدالاً من خالد، لكن إقحام مسألة الردة أمر غير جائز، لأن رجال القبائل الذين ساهموا في الردة وأرسلهم الخليفة إلى جبهة الشام كانوا قليلي العدد، فهم في حدود سبعمائة رجل فقط بقيادة قيس بن المكشوح المرادي، وحتى هذه القوة لم تمكث في بلاد الشام كثيراً، فقد حوّلت بعد اليرموك مباشرة إلى العراق للمساهمة في معركة القادسية[37]، وهذا

(34) الطبري (برواية محمد بن إسحاق) 1/ 2148.

(35) الواقدي، كتاب فتوح الشام : 2/5، ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق : زينب إبراهيم القاروط، بيروت، 1980، ص108، 156.

(36) M.A.Shaban, Islamic History, Cambridge, 1971, Vol. I. P.31.

(37) فتوح البلدان، ص275، الطبري (برواية ابن إسحاق): 1/ 2350.

العدد قليل جداً بالنسبة إلى الجيوش التي كانت موجودة في بلاد الشام والتي يبلغ مجموعها أكثر من عشرين ألف رجل[38]، فكيف يغيّر الخليفة القائد من أجل وجود سبعمائة رجل فقط من أصل أكثر من عشرين ألفاً؟

إن المتتبع لكتب الخليفة إلى أبي عبيدة يجد تأكيدات كثيرة على التروي وعدم تقديم المسلمين إلى التهلكة[39]، وهذا يفسر أن اعتدال أبي عبيدة كان السبب في اختياره. وقد ألمح الخليفة عمر نفسه إلى أحد أسباب عزل خالد، وهو افتتان الناس به وبانتصاراته الباهرة، فعزله حتى يعلم أن الله ينصر دينه، وليس خالد هو الذي يصنع الانتصارات[40]، ولم يبخس الخليفة حق خالد، فحين قدم الجابية قرّب خالداً وأدناه، وأمَّرَه وسار في الناس على مقدمته[41]، وقد اعترف الخليفة بكفاءة خالد، وأشار إلى حسن اختيار أبي بكر الصدّيق له، وذلك بعد ما سمع عن موقف خالد في افتتاح قنسرين، حيث لم يقاتله أهل الحاضر[42]، وأرسلوا إليه يقولون إنهم عرب وإنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم، وقد سُرّ الخليفة عمر بهذا الموقف من خالد، وقال: «أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني...». وقال عن عزله هو والمثنى بن حارثة الشيباني: «إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس

(38) فتوح البلدان، ص116، الطبري (برواية سيف): 1/ 2087.

(39) المصدر نفسه: 1/ 2144 ـ 2145، الواقدي، كتاب فتوح الشام: 2/ 6.

(40) أبو يوسف، الخراج، المطبعة، القاهرة، 1382 هـ، ص148، ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1968: 3/ 286، وانظر: ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، دار النفائس، بيروت، 1982/ 1/ 515.

(41) اليعقوبي: 2/ 135.

(42) حاضر قنسرين: حي كبير يسكنه أصناف من العرب من تنوخ، نزلوا به في خيم الشعر أولاً، ثم ابتنوا به المنازل. ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، 1977: 2/ 206، فتوح البلدان، ص150.

عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عن رأيه»[43].

وقد أشرنا إلى مسألة تغيير خالد بن الوليد وتعيين أبي عبيدة بن الجراح لأهميتها في التعرف إلى نوعية الصفات التي كان الخليفة عمر يبتغيها في من يولّيه قيادة الجند، وولاية البلدان، فكان يريدهم أن يتبعوا الحق والعدل، ويعلّموا الناس دينهم وسنّة نبيهم، وأن يقسّموا فيهم الفيء بالقسط، وإن أشكل بعد ذلك عليهم شيء رفعوه إليه[44]، وكان يتحرى القادة ذوي الشخصيات القوية. أما بالنسبة إلى بلاد الشام فإن الخليفة عمر طبّق هذه القاعدة، ورجح الأقوى من الرجال على القوى، فقد استعمل عبدالله بن قيس على السواحل، وعزل شرحبيل بن حسنة، فقال له شرحبيل: «أعن سخطة عزلتني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا إنك لكما أحب، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل...»[45].

ولقد اعتمد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في إدارته للأقاليم وتتبعه لأحوال ولاته فيها على استخبارات منظمة تنقل له حركات وتصرفات عماله في الأمصار المختلفة، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش إلا وله عليه عين لا يفارقه ما وجده، (فكانت) كما يقول الجاحظ[46]: «ألفاظ من في المشرق والمغرب

---

(43) الطبري: 1/ 2393، وانظر: رواية سيف بن عمر/ 12528، ابن الأثير 2/ 494، 537.

(44) الطبري: 1/ 2740.

(45) المصدر نفسه: 1/ 2523، وانظر: ظافر القاسمي، المرجع السابق: 1/ 476، الطماوي، المرجع السابق، ص272 ـ 274.

(46) التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، القاهرة 1914 ص168 ـ 169، وانظر أيضاً: البيهقي، المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، 1970، ص143 ـ 144، وقارن: محمد عبد القادر خريسات، عمر بن الخطاب والولاة، مجلة المؤرخ العربي، العدد 25، 1984، ص168.

عنده في كل ممسى ومصبح، وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به» وعلى الرغم من المبالغة الواضحة في كلام الجاحظ، فإن الخليفة كان يهتم بأحوال عماله وأفعالهم، ولهذا نجد أن رد فعله كان سريعاً جداً حين علم بإجازة خالد بن الوليد الذي كان عاملاً على قنسرين، للأشعث بن قيس الكندي بمبلغ كبير من المال، وطلب من أبي عبيدة التحقيق في ما إذا كانت الإجازة من مال خالد الخاص أم (من إصابة أصابها) وتبين بعد التحقيق أن المبلغ كان من مال خالد الخاص، ولكن مع ذلك استقدمه الخليفة إلى المدينة وطالبه بمبلغ كبير لبيت المال[47].

وبالإضافة إلى الرقابة الشديدة التي اتبعها الخليفة عمر مع وُلاته في بلاد الشام وغيرها من البلدان، فقد طبق عليهم ما يطلق عليه اليوم (براءة الذمة) أو ما سمي (بالمشاطرة والمقاسمة)، فقد شاطر الخليفة جماعة من عماله، منهم: سعيد بن أبي العاص، وعمرو بن العاص، وأبو هريرة، وخالد بن الوليد، وأبو موسى الأشعري، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم[48]، وفي هذه السياسة نوع من سد الذرائع، فلا يجوز إغناء فرد بإفقار أُمّة، ولا إسعاد فئة بإشقاء مجموع[49].

وكان مبدأ التدقيق مع الولاة يطبَّق من قِبَل الخليفة عمر في كل المناسبات، ولاسيما في بلاد الشام حيث حظيت هذه البلاد بزيارته دون غيرها من البلدان الأخرى. فلمّا كان في الجابية وصلته شكاية عن بعض أمراء أجناد الشام الذين يأكلون لحوم الطير والخبز النقي الذي لا يتوافر

---

(47) الطبري (برواية سيف) : 1/ 2526 ـ 2572، ابن الأثير 2/ 536، وانظر : الطماوي، المرجع السابق، ص285 ـ 287.

(48) ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/ 282، اليعقوبي: 2/ 146.

(49) خريسات، عمر بن الخطاب والولاة، ص169.

لعامة الناس، فألزم الخليفة هؤلاء الأمراء بأن ضمنوا له القوت للمسلمين في كل يوم رغيفين لكل رجل وما يحتاجه من مواد غذائية، كالحنطة والشعير والخل والزيت والعسل[50].

وقد توافر لبلاد الشام في عهد الخليفة عمر بعض الولاة الذين كانوا مثال النزاهة والبساطة، من أبرزهم: أبو عبيدة بن الجراح، حيث زاره الخليفة في بيته بالشام، فلم ير فيه سوى لبد فرسه الذي هو فراشه وسرجه ووسادته في آن، وبعض كِسَرٍ يابسة من الخبز[51]، وكان أبو عبيدة يظهر للناس وعليه الصوف الجافي الذي لم يغيره رغم كثرة من كان يشير عليه بذلك[52]، وكذلك سعيد بن عامر بن حِذْيم عامله على حمص الذي شكاه أهل حمص إلى الخليفة، لأنه لا يخرج إليهم كثيراً، وقد استدعى الخليفة هذا العامل إلى المدينة، وحقق معه، فتبين أنه رجل مخلص مؤمن تقي، وأنه لا يخرج إليهم لأنه مشغول بعمل بيته، وبالعبادة، وقد أمر له الخليفة بمبلغ من المال ليستعين به على قضاء حوائجه[53].

(3)

انفردت بلاد الشام عن بقية المناطق المفتوحة في عهد الخليفة عمر ابن الخطاب (رض) أنها حظيت بزيارته، وبحسبما تذكر الروايات فإنه زارها غير مرة[54]، ولكن ما يتوافر لدينا من معلومات يؤكد أن الخليفة

(50) الواقدي، كتاب فتوح الشام: 2/ 263، الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص256، اليعقوبي: 2/ 135 ـ 136.

(51) الأزدي، ص255، ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص150.

(52) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1964: 2/ 315.

(53) المصدر نفسه: 2/ 314، وانظر: ابن حجر، الإصابة: 3/ 110.

(54) الطبري (برواية سيف بن عمر): 1/ 2401 ابن الأثير: 2/ 50، ابن عساكر، التاريخ الكبير: 1/ 174 ـ 175.

عمر زار بلاد الشام مرة واحدة في أثناء خلافته بعد معركة اليرموك في أواخر عام 17هـ/ 638م[55]، أما بقية الزيارات فلم يرد عنها تفصيل يؤكدها، اللهم إلا ما يذكر عن الزيارة الثالثة التي غادر فيها المدينة بالفعل متوجهاً إلى بلاد الشام حتى وصل إلى سَرْغ، وهي مكان بين الحجاز والشام ويبعد عن المدينة ثلاث عشرة مرحلة[56]، ولكنه عدل عن الاستمرار في رحلته بسبب انتشار مرض الطاعون في بلاد الشام[57].

وتعد زيارة الخليفة لبلاد الشام على درجة كبيرة من الأهمية لما تمخض عنها من نتائج أثرت على مستقبل إدارة البلاد. فما هي يا ترى الأسباب التي دعت الخليفة إلى القيام بها؟ تشير بعض المصادر إلى رواية تقليدية، وهي أن أهل إيلياء، وهي مدينة بيت المقدس، طلبوا إلى أبي عبيدة أن يكون المتولي لعقد الصلح معهم هو الخليفة عمر بن الخطاب (رض) نفسه. فكتب بذلك إلى الخليفة، فحضر إلى بلاد الشام[58]. ويذكر ابن عساكر في رواية عن سفيان بن وهب، أن أمراء الأجناد أرسلوا إلى الخليفة عمر حين اجتمع لديهم الفيء، أن يأتي إلى بلاد الشام ليقسِّمه بين المسلمين[59]. والواقع أن هذين الأمرين لا يمكن أن يكونا السبب في رحلة الخليفة، لأن كل واحد من أمراء الأجناد في الشام كان بإمكانه أن يقوم بهما دون الحاجة إلى مجيء الخليفة، ولكن

---

(55) الطبري (برواية سيف بن عمر) : 1/ 2552، 2524.

(56) ياقوت، معجم البلدان، 3/ 211 ـ 212.

(57) ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/ 283، تاريخ خليفة بن خياط: 1/ 126 الطبري (برواية سيف بن عمر): 1/ 2511 ـ 2513، 2515، ابن الأثير 2/ 559، وابن الجوزي، مناقب، ص68 ـ 69.

(58) الواقدي، فتوح الشام : 2/ 254 ـ 255، الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص248 ـ 249، فتوح البلدان، ص144، اليعقوبي: 2/ 135، الطبري (برواية سيف بن عمر) 1/ 2404، ابن الأثير: 2/ 500، تاريخ الرهاوي المجهول، الفقرة 120، ص91.

(59) التاريخ الكبير: 1/ 175.

يبدو أنه كانت هناك بالفعل مشاكل خطيرة تطلبت حضوره، ولاسيما مسألة استقرار الفاتحين في البلاد[60]. فقد كتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية، وهي قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفر شمالي حوران ويقال لها أيضاً جابية الجولان[61]، ليوم معلوم سماه لهم، وأن يستخلفوا على أعمالهم، فجاء إليه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، أما عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، فلم يحضرا أولاً، لأن الموقف في فلسطين، حيث كانا، لم يحسم بعد، ولكنهما جاءا بعد عقد الصلح مع أهل إيلياء[62]، وكانت مدة إقامة الخليفة بالجابية عشرين يوماً[63].

أما السبب في التوجه إلى الجابية دون غيرها، فلأنها كانت مركزاً لتجمع الجيوش العربية في بلاد الشام[64]. فقد كان موقعها الجغرافي في هضبة الجولان، وارتفاعها يؤهلانها لأن تكون مركزاً لإنفاذ الجيوش القادمة من الحجاز ومناطق شبه الجزيرة إلى بلاد الشام وفلسطين ومصر[65]، وكانت خطة العرب الأصلية إنشاء حامية عسكرية في هذه المنطقة للسيطرة على بلاد الشام، كما كانت الحال بالنسبة إلى الكوفة والبصرة في العراق. لكن ظروف بلاد الشام كانت تختلف عن ظروف العراق، ولاسيما بعد معركة اليرموك، لأن انتصارات العرب لم تؤد إلى القضاء على الدولة البيزنطية التي ظلت تهدد العرب بجيوشها من الشمال،

---

(60) انظر: Shaban, Op. Cit., Vol. I. PP. 40-41.

(61) ياقوت، معجم البلدان: 2/ 91.

(62) الطبري (برواية سيف بن عمر) : 1/ 2401، 2402.

(63) ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/ 283.

(64) الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص76، 84، 251.

(65) انظر: صالح العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام، ص75. الطبري (برواية سيف بن عمر) : 1/ 2401، 2402.

وبأساطيلها من الغرب، ولهذا فمن وجهة النظر العسكرية كان يجب تأسيس خطوط دفاعية كبيرة على كلتا الجبهتين، ما كان يتطلب توزيع القوات العربية وانتشارها في عدة أماكن غير الجابية.

لقد كانت مشكلة توزيع القبائل العربية في بلاد الشام من أهم المشاكل التي واجهت وجودهم هناك، وكان لابد لهذه المشكلة من حل عاجل بالنظر إلى الظروف العسكرية الصعبة، والهجمات البيزنطية. ولهذا تحرك الخليفة لعلاج هذه المشكلة، وما زاد في تفاقم الأمر أن السكان العرب الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام قبل مجيء المسلمين استغلوا فرصة وجود الكثير من المدن والمنازل والأراضي الصالحة للزراعة، التي تركها البيزنطيون ومن تبعهم ممن غادر البلاد إثر انتصارات المسلمين، فاستفادوا منها، وسيطروا عليها لاعتقادهم أن المسلمين قد اقتنعوا بالجابية، وقد أدى هذا الوضع إلى حرمان الفاتحين من ثمار فتحهم، لأن سكان البلاد العرب كانوا أكبر عدداً من الفاتحين المسلمين[66].

لقد تمخضت عن مؤتمر الجابية الذي حضره قادة الأجناد في بلاد الشام نتائج مهمة جداً ولا سيما بالنسبة إلى الاستمرار، فقد أعاد الخليفة توزيع الدُّور والأراضي بين جميع المسلمين والعرب، سواء أكانوا من السكان الأصليين أم من الفاتحين، ولم يكتف الخليفة بهذا، بل نظم أمور الولاية تنظيماً جيداً، فقسَّم الأرزاق، وفرض العطاء، وسمى الشواتي والصوائف، وقام بجولة في كُوَرِ البلاد، كما أصدر بعض الأوامر الإدارية، منها تعيين عبدالله بن قيس على السواحل، وعمرو بن عنبسة على الأهراء، كما قسم مواريث الذين توفوا نتيجة العمليات العسكرية،

(66) انظر فتوح البلدان، ص122، 123، 129، 133، 141، 142، وقارن: Shaban, Op. Cit: Vol. 1. 41.

بين الأحياء من أقاربهم[67]، واستعمل عمير بن سعد الأنصاري على قضاء حمص. وأعطى الخليفة توجيهات بالنسبة إلى الخطة العسكرية القادمة، فأمر أبا عبيدة بالسير إلى حلب، كما أمر يزيد بن أبي سفيان بقتال قيسارية حتى يفتحها الله عليه[68]، وتشير إحدى الروايات التي أوردها ابن عبد الحكم إلى اهتمام الخليفة بأمر مصر والتفكير في فتحها، فقد عرض عليه عمرو بن العاص في اجتماع مغلق استعداده للمسير إلى مصر وافتتاحها[69].

وبالنظر إلى وجود الخليفة عمر في الفترة التي تم فيها الصلح مع أهل إيلياء، فقد جاء وفد من هذه المدينة إلى الجابية، واكتتبوا منه على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها فصالحهم الخليفة وكتب لكل كورة من كُوَرِ فلسطين العشر كتاباً واحداً باستثناء أهل إيلياء الذين كتب لهم كتاباً خاصاً للصلح[70].

ونتيجة للسياسة الجديدة التي اقتضتها الظروف العسكرية بعدم الاكتفاء بالجابية كمقر للجيوش العربية الفاتحة، فقد توسع المسلمون في الاستقرار ببلاد الشام لمواكبة المتطلبات العسكرية وظروف البلاد، وكانت أهم مدينتين اتخذهما العرب للاستقرار هما دمشق وحمص. ففي دمشق أعطي رجال القبائل الفاتحون الدور والممتلكات التي شغرت بسبب لحاق عدد كبير من الناس بهرقل حين كان في أنطاكية، فنزلها هؤلاء المسلمون. أما في حمص، فقد كانت نسبة الاستقرار فيها أكثر لقربها من خط الدفاع

---

(67) الطبري (برواية سيف بن عمر): 1/ 2523 ـ 2524 ابن الأثير : 2/ 562، ابن عساكر: 1/ 175، وانظر : ابن الجوزي، مناقب، ص100، 156.

(68) الواقدي، فتوح الشام : 2/ 271.

(69) فتوح مصر وأخبارها، باعتناء: جارلس توري، نيوهيفن، 1920، ص56، وقارن: الواقدي، فتوح الشام: 2/ 271.

(70) الطبري (برواية سالم بن عبد الله): 2403، 2404 ـ 2406.

في الجبهة الشمالية[71]. وقد تولى هذه المهمة القائد السمط بن الأسود الكندي الذي «قسم حمص خططاً بين المسلمين حتى نزلوها وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو مساحة متروكة»[72]، وقد ساعد شرحبيل بن السمط أباه الذي طلبه من الكوفة، فحوَّله الخليفة عمر إلى الشام حيث نزل حمص مع أبيه[73].

أما بالنسبة إلى السواحل، فقد كان الاستقرار فيها أيضاً ضرورياً من أجل مواجهة الخطر البيزنطي من البحر، فقد أوعز الخليفة عمر إلى القائد أبي عبيدة بن الجراح أن يرتب بأنطاكية جماعة من المسلمين ويجعلهم فيها مرابطة يأخذون العطاء[74]، كذلك اتُّخذت إجراءات مماثلة بالنسبة إلى بقية المناطق الساحلية الأخرى، مثل اللاذقية، وأنطرطوس، وقورس، ومرقية، وبلنياس[75]، وقد أصبح الجند المستقرون في هذه السواحل قوة فعالة في الدفاع ضد الهجمات البيزنطية من البحر[76]، وهكذا استمرت سياسة أبي عبيدة في توزيع القبائل العربية على المناطق المفتوحة، فولّى كل كورة جرى فتحها عاملاً وضم إليه جماعة من المسلمين، وشحن النواحي الخطيرة بالرجال. ولم يقتصر الأمر على المسلمين فحسب، بل شملت إجراءات أبي عبيدة العرب الذين كانوا في بلاد الشام، فقد رتب ببالس، وهي بلدة بين حلب والرقة، جماعة من المقاتلة، وأسكنها قوماً من العرب من أهل الشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين، وأسكنها أيضاً

(71) فتوح البلدان، ص143.
(72) المصدر نفسه، ص137، وانظر : الطبري (رواية سيف)/ 1/ 2392، ابن الأثير : 2/ 492.
(73) فتوح البلدان، ص143.
(74) المصدر نفسه، ص153.
(75) المصدر نفسه، ص138 ـ 139، 154 وانظر : معجم البلدان : 1/ 270، 4/ 412، 489، 5/ 109.
(76) فتوح البلدان، ص133، وقارن: P.48 shaban, Op. Cit., I p.48.

قوماً لم يكونوا من البعوث، جاؤوا من البوادي من قيس، وفعل الشيء نفسه مع قاصرين بالقرب من بالس[77].

ولم يقتصر الاستقرار على المدن والسواحل، بل شمل مناطق أخرى تقع خارج المدن، ولا سيما الأراضي والمروج والقرى والمزارع التي تركها أهلها في أثناء الفتح وهربوا إلى البيزنطيين في الشمال، أو الذين قُتلوا في المعارك مع المسلمين، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين، فنزل فيها الجند، ومن هذه المناطق مرج بردى ما بين المزة ومرج شعبان. وكذلك كانت هناك مروج مباحة في ما بين دمشق وقراها، ليست ملكاً لأحد، فأقاموا فيها، وأحيا كل قوم محلتهم، ورفعوا الأمر إلى الخليفة عمر، فأقرَّهم على استقرارهم، فبنوا الدور، وغرسوا الشجر[78].

(4)

وبعد اكتمال افتتاح الشام واستقرار القبائل العربية فيه كان لا بد من اتخاذ إجراءات إدارية وتنظيمات مالية تنظم الحياة العامة للمسلمين والسكان المحليين أيضاً. وكانت التنظيمات الإدارية التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في إدارة البلاد والأقاليم المفتوحة بعامة، وبلاد الشام، موضوع بحثنا بخاصة، تستند إلى احترام أسس خلقية معينة، وإلى تعاليم الإسلام، كاحترام الأنفس، والأموال، والأديان، وغيرها[79].

وكان القضاء يتصدر الأمور المهمة التي تشغل بال الخليفة، واهتمامه

---

(77) فتوح البلدان، ص155، وانظر : معجم البلدان: 1/ 328، 4/ 297.

(78) ابن عساكر : 1: 182 ـ 183، 184 ـ 185.

(79) قارن : شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، 1987 ص60 فما بعدها، فاروق عمر فوزي، النظم الإسلامية، العين، 1983، ص71 ـ 74.

بهذا الجانب معروف بالنسبة إلى جميع الأقاليم[80]، ففي فترة الفتوح يبدو أن القادة العسكريين كانوا هم الذين يتولون مهمة القضاء، ويتضح هذا الأمر من رسالة بعث بها الخليفة إلى أبي عبيدة بن الجراح يقول فيها : «أما بعد، فإني أكتبُ إليك بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً، اِلْزم خمس خصال يسلم لك دينك وتحفظ بأفضل حظك: إذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول والأيمان القاطعة، ثم ادن الضعيف حتى ينبسط لسانه ويجترئ قلبه، وتعاهد الغريب، فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته وانصرف الى أهله، وإذا الذي أبطل حقه من لم يرفع به رأساً، واحرص على الصلح ما لم يبن لك القضاء. . والسلام»[81].

ولكن بعد استقرار الأمور وتوطيد السلطة العربية في بلاد الشام، أنيطت مهمة القضاء برجال متخصصين، وأعفي منها الولاة، فكان الخليفة يعيّن رجالاً من أصحاب الرسول ﷺ لتسلُّم مهمة الصلاة والقضاء. فلما وُلّيَ معاوية بن أبي سفيان على الشام بعد وفاة أخيه يزيد، ولى معه رجلين للصلاة والقضاء، الأول : أبو الدرداء، تولى دمشق والأردن وصلاتهما، والثاني : عبادة بن الصامت، تولى قضاء حمص وقنّسرين وصلاتهما[82]، وربما كان هذان الرجلان مسؤولين عن تعيين أشخاص آخرين لينوبوا عنهما في هذه المهمة بالنسبة إلى المناطق الإدارية التي تتبع أجناد دمشق وحمص وقنّسرين.

ومن أجل استمرار الحياة الاقتصادية، وحركة التعامل التجاري في أثناء الفتح وبعده، ارتضى الخليفة عمر نموذج النقود البيزنطية التي كانت سائدة في بلاد الشام، ويدل على هذا الكميات الكبيرة من القطع البرونزية

---

(80) انظر: الطماوي، عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة، ص231 فما بعدها.

(81) ابن الجوزي، مناقب، ص130، وقارن : أبو يوسف، الخراج، ص117.

(82) فتوح البلدان، ص146.

التي تم العثور عليها، والتي ضربت في عهد الخليفة عمر على الطراز البيزنطي. ولدى استعراض هذه (الفلوس) نجد على أحد وجْهَيِ القطعة صورة هرقل الإمبراطور البيزنطي واقفاً وتحيط به الشارات المسيحية وهي «الصليب الذي يعلو التاج والصليب فوق عصا المطرانية بيده اليمنى والكرة التي يعلوها الصليب محمولة باليد اليسرى، وعلى الوجه الآخر مجد الرمز النقدي M الذي يشير إلى الرقم 40 في الأبجدية اليونانية بمعنى أن القطعة تساوي أربعين نميا Nummia وفوق هذا الحرف نجد الصليب، كما نرى التاريخ الهجري سنة 17 هـ مكتوباً باليونانية، وتحمل أقدم هذه النقود اسم دار الضرب دمشق باليونانية»[83].

لكن العرب ابتدأوا بالتدرج يقللون من التأثير البيزنطي على النقود، ولاسيما بعد ازدياد خبرتهم في هذا المجال، وبعد إحكامهم للسيطرة العسكرية على البلاد. وقد ابتدأت الكتابات العربية تظهر إلى جانب الكتابات اليونانية، فنجد مثلاً أن دمشق تكتب باليونانية والعربية معاً، وكذلك حمص وطبرية، كما أخذت تظهر على القطع بعض العبارات التي تشير إلى الوزن الشرعي الصحيح، مثل لفظ (طيب) أو (جائز) أو (واف). ولكن مع ذلك، ظلت صورة هرقل ومعه صورة ابنيه تظهر على النقود العربية، غير أن الكتابات العربية أخذت تميل بمرور الزمن إلى احتلال مكان أكبر على الفلوس البرونزية، فظهرت البسملة (بسم الله) وأعقبها بعد قليل شهادة الوحدانية والرسالة المحمدية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)[84].

وقد اقتصر الضرب في عهد الخليفة عمر على الفلوس البرونزية،

---

(83) عبد الرحمن فهمي محمد، النقود الإسلامية ماضيها وحاضرها، القاهرة، 1964، ص26 ـ 27.

(84) المرجع نفسه، ص27 ـ 28.

ولكن يحتمل أن تكون بعض الدراهم المضروبة على الطراز البيزنطي قد سُكّت أيضاً في عهده[85]، ويبدو أن بعض قادة الجند في أثناء الفتح قد سكّوا بعض النقود باسمهم على الطراز البيزنطي، فهناك من يرى أن خالد بن الوليد قد سكّ باسمه نقوداً في طبرية على الطراز البيزنطي سنة 15 أو 16هـ/ 636 أو 637م[86]. وقد أسلفنا أن الخليفة عمر وافق ضمناً على سكّ مثل هذه النقود، وربما يكون قد خول القادة القيام بمثل هذا الإجراء حيثما كان ذلك ضرورياً لتسهيل التعامل بين الجيش الفاتح والسكان المحليين.

أما بالنسبة إلى التنظيم المالي الذي اتخذه العرب في بلاد الشام، فقد كان سهلاً كتنظيم الاستقرار فيها، وهو يلائم هذا الاستقرار ومتعلق به[87]، فقد كان المسلمون يدفعون عشورهم على الأراضي التي يمتلكونها، وهي عادة تلك التي جلا عنها أهلها، وأقطعت للمسلمين، فأحيوها وكانت مواتاً لا حقّ لأحد فيها[88] أما غير المسلمين فاستمروا في دفع ضرائبهم، ولاسيما الجزية، بالاستناد إلى النظام البيزنطي وهذا ما يفسر بقاء العديد من موظفي الضرائب السابقين الذين أُبقي عليهم من أجل تسيير عجلة الإدارة الجديدة[89]، وهكذا نرى أن الإسلام لم يستحدث الجزية، بل إنها

---

(85) J. Walker, A Catalogue of the Arab- Byzantine and post- Reform Umaiyad Coins, London, 1956, P. 46.

(86) Ibid., p. 47.

لمحة عن تاريخ النقود: منشور مع كتاب النقود وعلم النميات للأب انستانس الكرملي، القاهرة، 1939، ص91، جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، بيروت، 1967: 1/ 35.

(87) انظر: Shaban, Op. Cit., Vol I. P. 43.

(88) فتوح البلدان، ص157.

(89) انظر: آرثر ستانلي ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، القاهرة، 1967، ص13، 14.

كانت قديمة، بحيث فرضها اليونان على سكان آسيا الصغرى في القرن الخامس ق.م. كذلك ألزم الرومان والفرس الأمم التي خضعت لهم بدفع الجزية، إلا أنها كانت أضعاف الجزية التي وضعها المسلمون على أهل الذمة[90].

وقد كانت الجزية في بادئ الأمر في بلاد الشام جريباً من الحنطة عن كل جريب أرض[91]، وديناراً واحداً عن كل فرد من الفلاحين، ثم نظمها الخليفة عمر، فجعلها على كل الذكور من غير المسلمين الذين يعيشون في المدن والأرياف، بمعدل يراوح ما بين دينار واحد ودينارين أو أربعة دنانير، تبعاً لحالة دافع الضريبة المالية، يستوي في ذلك اليهود والنصارى[92]. وأما تحديد الطبقات فكان يتم على الشكل الآتي، كما أورده قدامة بن جعفر[93]: «أهل العليا هم الذين لهم المال المشهور من الصامت والضياع والدور والرقيق الذي لا يمكنهم ستره. وأهل الوسطى هم الذين تعرف لهم دور ويسار ويوثق بهم في الأموال ويؤتمنون على المتاع، وأهل الدون هم سائر من دون هذه الطبقة».

ولم تكن الجزية تؤخذ من المسكين الذي يُتصدق عليه، ولا من الأعمى الذي لا حرفة له ولا عمل، ولا من المقعد، ولا من الرهبان وأهل الصوامع، إلا إذا كانوا من أهل اليسار، ولا من الشيخ الكبير الذي

---

(90) انظر: صبحي الصالح، النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، ص364.

(91) مكيال (الجريب) في صدر الإسلام كان يساوي 715 و 22 كغم قمح، والجريب مساحة يساوي 1592 متر مربع: انظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان 1970، ص61، 96.

(92) فتوح البلدان، ص131، قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، ص295 ابن عساكر: 1/179.

(93) الخراج وصنعة الكتابة، ص225 ـ 226.

لا يستطيع العمل، ولا من المجنون[94].

وبالإضافة إلى المبالغ النقدية كان على كل ذمي أن يدفع ما يسمى بالأرزاق، وهي: مُدَّان من الحنطة[95]، وثلاثة أقساط من الزيت في كل شهر[96]، وكميات أخرى من الودك (أي دسم اللحم)، والعسل، والثياب[97].

وبالنسبة إلى الأراضي فقد عمل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على أن تبقى في أيدي أصحابها الذين يقومون بالعناية بها وزراعتها، وفي مقابل ذلك يدفعون للمسلمين ضريبة الأرض أو الخراج بنسب معلومة على المنتجات التي تجبى كل سنة من الأرض المزروعة، وبضعها أيضاً الواجبات العينية التي أشرنا إليها من حنطة وزيت وعسل وغيرها. وتختلف معاملة الأراضي على قيمة هذه الضريبة، أما إذا أُخذت البلد عنوة، فتعتبر فَيْئاً للمسلمين، ويؤخذ عنها الخراج أيضاً إذا أراد الخليفة أن يتركها بأيدي أصحابها بدلاً من أن يوزعها على المحاربين[98].

لقد كانت سياسة الخليفة عمر العامة إزاء مسألة الأراضي، هي عدم القسمة، وتركها بأيدي أهلها، كما فعل في أرض السواد[99]. وبالنسبة إلى

---

(94) أبو يوسف، الخراج، ص122 ـ 123، أبو عبيد، الأموال، القاهرة، 1353 هـ، ص37 فما بعدها، الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، 1966، ص144.

(95) المد يساوي 812.5 غرام (قمح)، انظر: فالتر هنتس، المرجع السابق، ص74.

(96) القسط : منه حجمان، القسط الصغير وسعته 1.2158 لتر، والقسط الكبير كان ضعف الصغير تماماً، ولا يوجد لدينا ما يشير إلى أي القسطين هو المقصود هنا، انظر: هنتس، المرجع السابق، 65.

(97) فتوح البلدان، ص131، قدامة بن جعفر، الخراج، ص226، ابن عساكر: 1/ 179.

(98) أبو يوسف، الخراج، ص59، 69، أبو عبيد، الأموال، ص74، قدامة، الخراج، ص204، 206.

(99) أبو يوسف، الخراج، ص26، 36، أبو عبيد، الأموال، ص40 ـ 41، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص148 174 ـ 175.

بلاد الشام يذكر أبو يوسف، أن أبا عبيدة بن الجراح كتب إلى الخليفة يسأله إمكانية تلبية طلب المسلمين الذين معه بشأن قسمة الأراضي عليهم، فأجابه الخليفة أن يترك الأرض بأيدي أصحابها لأنهم «...عمار الأرض فهم أعلم بها وأقوى عليها ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك أن تجعلهم فَيْئاً وتقسمهم للصلح الذي جرى بينك وبينهم ولأخذك الجزية منهم بقدر طاقتهم... أرأيت لو أخذنا أهلها فاقتسمناهم ما كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين؟»[100]. إذن نظر الخليفة إلى المستقبل، وأراد أن يشرك أكبر عدد ممكن من الناس في الاستفادة من الأرض، ولاسيما الذين يأتون بعد جيل الفتح، يضاف إلى ذلك استخدام واردات هذه الأرض لسد نفقات الثغور وتحصين السواحل، ولتوفير المال اللازم لأعطيات المقاتلين، وأرزاقهم حتى يستطيعوا أن يدافعوا عن الأراضي المفتوحة، ويستمروا في جهاد العدو[101].

وقد نظمت الضرائب التي تؤخذ على التجارة أيضاً، وكانت قاعدة العشور هي المعمول بها بالنسبة إلى التجارة، فكان على التجار المسلمين أن يدفعوا ربع العشر أي 2 1/2 ٪، وعلى أهل الذمة نصف العشر أي 5٪، أما أهل الحرب، أي رعايا الدولة البيزنطية، فكان عليهم دفع العشر أي 10٪، ويبدو أنه كانت هناك حالة من التبادل التجاري بين مناطق الحدود، أي الثغور، والمناطق التي وقعت بأيدي المسلمين، فقد طلب قوم من أهل منبج التجارة في الأراضي الإسلامية، فكتبوا إلى الخليفة عمر: «دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشّرنا» فوافق الخليفة بعد أن شاور أصحاب رسول الله ﷺ، فكان أهل منبج أول من عُشِّر من أهل

(100) أبو يوسف، الخراج، ص140 ـ 141.

(101) انظر: فتوح البلدان، ص156، أبو يوسف، الخراج، ص26 ـ 27، ابن عساكر، 1/ 180 ـ 181.

الحرب[102]. وبطبيعة الحال، لم يكن أهل منبج الوحيدين الذين مارسوا التجارة مع الأراضي الإسلامية، ولا شك أن هناك حالات أخرى كثيرة مشابهة، ولا شك أن عشور التجارة كانت تشكل مورداً لا بأس به للدولة، وليس أدل على أهميتها من أن الخليفة عيَّن موظفاً خاصاً لعشور العراق والشام، لكن أبا يوسف، الذي ذكر لنا هذا الخبر، لم يحدد موقعه بالضبط، وأين كان مركزه بالنسبة إلى بلاد الشام[103].

وكانت واردات الضرائب، بصورة عامة، تستعمل في بناء التحصينات على السواحل[104]، وربما في الإعداد لبناء أسطول عربي في البحر المتوسط لصد الغارات البحرية البيزنطية. يضاف إلى ذلك، أن هذه الواردات كانت تغطي النفقات الإدارية الاعتيادية، ورواتب القادة والجند، أي أعطياتهم، وعلى الرغم من أن نظام العطاء لم يكن قد استقر بعد في بلاد الشام في هذه الفترة المبكرة، فإن المصادر تشير إلى بعض الحالات التي قد تساعدنا في تكوين فكرة أولية عن العطاء في بلاد الشام خلال هذا العهد. فلقد كان أعلى عطاء للذين اشتركوا في عمليات الفتح الأولى، أي معركة اليرموك وما قبلها، ألفي درهم في السنة، وأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة[105]. وقد تدرج عطاء الجند من هذا الحد الأعلى إلى ثلاثمائة، وإلى مئتي درهم، بحسب بلائهم ومساهمتهم في الفتح، أما الذين جاءوا إلى بلاد الشام بعد معركة اليرموك، فقد فُرض لهم ألف درهم، ثم فُرض للروادف من الذين جاءوا بعهدهم بخمسمائة درهم، ولمن بعدهم مئتين وخمسين درهماً، ثم مئتي درهم وهكذا...[106] أما

---

(102) أبو يوسف، الخراج، ص135.

(103) المصدر نفسه، ص135.

(104) المصدر نفسه، ص153.

(105) الطبري: 1/ 2412، ابن الأثير: 2/ 503.

(106) الطبري: 1/ 2413، ابن الأثير: 2/ 503، ابن سعد، الطبقات الكبرى: 3/ 297.

المواد العينية، كالحنطة والزيت وغيرها، فربما كانت توزع على الجند الذين كانوا يسكنون المدن، والذين لم يعطوا أراضي، أما الذين استقروا في الأرياف، فكان عليهم أن يكتفوا بإنتاجهم[107].

(5)

وبعد هذا العرض السريع للإجراءات الإدارية والمالية التي اتخذت في بلاد الشام خلال عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، لا بد من الإشارة إلى موقف السكان المحليين، ومدى تأثرهم بهذه الإجراءات، ولكن لا بد من التنويه أن ليس من هدف هذا البحث الاستطراد في الحديث عن مدى تسامح العرب مع السكان المحليين، وتساهلهم معهم في شؤون الضرائب، بحيث إن هذا الأمر كان ولا يزال من الحقائق المعروفة التي أشار إليها الكثير من الباحثين[108]. لقد كان هذا التسامح، وسيرة المسلمين الحسنة مع أهل المنطقة أحد العوامل الرئيسية في تعاون هؤلاء السكان مع الفاتحين، ولم يكن للدين المسيحي الذي يعتنقه كل من البيزنطيين وأهل الشام أثر رابط بين الاثنين، لأن الأهالي كانوا على المذهب اليعقوبي الذي لم يعتنقه الحكام الأرثوذكس، ما زاد في تعاون أهل الشام مع الجيوش العربية. ولكن مع ذلك كانت هناك عوامل أخرى تحكمت في موقف أهل البلاد من المسلمين، ولا سيما قبل معركة اليرموك، منها حال قوة المسلمين ومركزهم إزاء قوة البيزنطيين وإغراءاتهم

(107) انظر: Shaban, Op. Cit., Vol. I, 44

(108) انظر على سبيل المثال: فان فلوتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة : حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم، القاهرة، 1965، ص26، سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة : حسن إبراهيم حسن وآخرين، القاهرة، 1971، ص74، 75، كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة، بدر الدين القاسم، بيروت، 1972: 27/1 ,Bernard Lewis, The Arabs in History. London ,1975,p.58.

المادية، وعلاقة البيزنطيين مع بعض أمراء العرب الغساسنة وغيرهم، وميل بعضهم إلى بيزنطة طمعاً في المال وإبقاءً على سلطانهم ونفوذهم، وقد أدت هذه العوامل إلى اختلاف موقف عرب الشام من الفتح الإسلامي. ولكن بعد معركة اليرموك تغير الموقف لصالح المسلمين، وتضاءلت الاعتبارات التي كانت تغري بالانضمام إلى البيزنطيين أمام انتصارات المسلمين المتلاحقة، فاقتنع العرب في بلاد الشام بعزل قضيتهم عن قضية البيزنطيين، وأن مصيرهم وقدرهم هو مع إخوانهم المسلمين[109]. وقد أدى هذا الموقف الإيجابي إلى اقتناع الخليفة بأهمية الاستفادة من عرب الشام للوقوف أمام البيزنطيين، فكتب إلى أبي عبيدة أن يستعين بهم في معارك الجبهة الشمالية من بلاد الشام[110].

ولقد وقف بالفعل بعض أهالي الشام موقفاً مشرِّفاً مع المسلمين، وتطوعوا بالعمل مع الجيش الفاتح، مثال ذلك الجراجمة بالقرب من أنطاكية، حيث صالحوا حبيب بن مسلمة الفهري، الذي ولاّه أبو عبيدة على أنطاكية، على أن يكونوا أعواناً للمسلمين ومسالح في جبل اللكام، وفي مقابل ذلك أُعفوا من الجزية، وأُعطوا نصيبهم من الغنائم في المعارك التي شاركوا فيها[111]. لأن الجزية، كما هو معروف، كانت تؤخذ من الذمي القادر على حمل السلاح لقاء حمايته وإعفائه من الخدمة العسكرية، لكنه إذا ما دخل في خدمة الجيش الإسلامي، سقطت عنه الجزية، كما هي الحال مع الجراجمة الذين أشرنا إلى موقفهم من المسلمين، وقد أعفى أبو عبيدة بن الجراح السامرة، وهم يهود في الأردن وفلسطين، من الخراج واكتفى بأخذ الجزية منهم، لأنهم ساعدوا المسلمين بأن يكونوا

---

(109) انظر: محمد ضيف الله البطاينة، «العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الإسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق»، مجلة المؤرخ العربي، العدد 22، 1982، ص81 ـ 85.

(110) الطبري: 1/ 2393.

(111) فتوح البلدان، ص164.

عيوناً وأدلاء لهم على أعدائهم[112]، كما عمل بعض أنباط الشام أيضاً جواسيس للمسلمين ينقلون إليهم أنباء أعدائهم من البيزنطيين[113]. بل إن قادة المسلمين وثقوا بهم إلى درجة كبيرة، حتى إن أبا عبيدة بن الجراح استخدم أحد أنباط الشام النصارى ليحمل كتاباً إلى الخليفة عمر في المدينة[114].

وكانت شروط الصلح التي يعقدها المسلمون مع مدن الشام تتضمن تعهدات أساسية باحترام الشعائر الدينية للسكان المسيحيين، والإبقاء على كنائسهم وعلى ألا يمنعوا من التمتع بأعيادهم[115]، بل إن الخليفة عمر كتب إلى أبي عبيدة أن يسمح للمسيحيين أن يخرجوا وهم يحتفلون برفع صلبانهم في عيد الفصح خارج المدينة[116]، وقد حرص الخليفة عمر حين كان يزور بلاد الشام على ألا يأمر بأي إجراء قد يفهم منه نقض أو تراجع عن عهود المسلمين للسكان المحليين[117]، وكان يستمع إلى شكاواهم ويأمر قادته بالرفق بهم، وعدم تعذيبهم أو تكليفهم بما لا يطيقون من دفع الجزية أو الخراج[118]، ويشير البلاذري إلى أن الخليفة عمر أمر بإعطاء

---

(112) المصدر نفسه، ص162.

(113) ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، حيدر آباد الدكن، 1968: 1/ 175.

(114) المصدر نفسه: 1/ 187 ـ 189. وللاستزادة عن دور الأنباط في الفتوح الإسلامية، انظر: صالح الحمارنة، «دور الأنباط في الفتوح الإسلامية»، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية، م7، العدد 1 حزيران، 1980، ص167 ـ 178، وعن استخدام نصارى العرب كجواسيس وعيون للمسلمين، انظر: أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق: دار النفائس، بيروت، 1982، ص467 ـ 468.

(115) انظر: تاريخ خليفة بن خياط: 1/ 112، فتوح البلدان، ص137، 139، 152، الطبري: 1/ 2405، ابن الأثير: 2/ 495، ابن عساكر: 1/ 178.

(116) أبو يوسف، الخراج، ص141.

(117) فتوح البلدان، ص145.

(118) الواقدي، فتوح الشام، 2/ 259، أبو يوسف، الخراج، ص125، اليعقوبي: 2/ 136، ابن عساكر: 1/ 179، وانظر: ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص157 ـ 158.

الصدقات وإجراء القوت على جماعة من النصارى المجذومين حين رآهم في طريقه إلى الجابية[119].

وليس أدل على حسن معاملة المسلمين لأهل الشام من أنهم ردوا على أهل المدن أموال الضرائب التي أخذوها منهم، وذلك حين اضطروا لترك هذه المدن والتجمع لقتال البيزنطيين في اليرموك. وقد كتب أبو عبيدة لسويد بن كلثوم عامله على الشام[120]، ولولاته أن يقولوا لأهل البلاد: «إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم...»[121]، وقد أثار هذا الموقف السامي مشاعر أهالي المدن، وعبروا لقادة المسلمين عن حبهم لولايتهم وعدلهم، واستعدادهم للدفاع عن مدنهم مع المسلمين، استوى في ذلك اليهود والنصارى في حمص ودمشق وغيرهما من المدن التي اتفقت على الصلح مع المسلمين[122]. وبعد انتصار المسلمين فرح أهل الشام وخرجوا لملاقاتهم بسرور عظيم، وأيّدوا معهم الوعود والعهود السابقة بكل ودّ ومحبة[123].

بهذه الروح الإنسانية ابتدأ العرب إدارتهم لبلاد الشام وتعاملهم مع أهلها، واستمروا على هذا الموقف في أثناء الفتح وبعده، يتبعون في كل ذلك توجيهات الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، الذي وضع القواعد الأساسية السليمة لهذه الإدارة، وقد سار على هذا النهج وأكمله معاوية بن أبي سفيان، سواء في فترة ولايته لبلاد الشام أم في فترة خلافته اللاحقة

(119) فتوح البلدان، ص 135

(120) تاريخ الرهاوي المجهول، الفقرة 116، ص88.

(121) أبو يوسف، الخراج، ص139.

(122) فتوح البلدان، 143.

(123) تاريخ الرهاوي المجهول، الفقرة، 116، ص88.

بعد سنة 41هـ/ 661م هو وبقية الخلفاء الأمويين، وما الإنجازات الكبيرة التي تمَّت في عهد عبد الملك بن مروان، وابنيه الوليد وهشام من تعريب للدواوين، وإصلاح للنقود، وفتوح عظيمة، إلا ثمرة للسياسة الإدارية الحكيمة التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في هذه البلاد.

قائمة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن الأثير، علي بن أبي الكرم.

1 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، 1979.

* الأزدي، محمد بن عبدالله.

2 ـ تاريخ فتوح الشام، تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر، القاهرة، 1970.

* ابن أعثم الكوفي، أحمد بن عثمان.

3 ـ كتاب الفتوح، حيدر آباد الدكن، 1968.

* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر.

4 ـ فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة، 1959.

* البيهقي، إبراهيم بن محمد.

5 ـ المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، 1970.

* الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.

6 ـ التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، القاهرة، 1914.

* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.

7 ـ مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق: زينب إبراهيم القاروط، بيروت، 1980.

* ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

8 ـ الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1972.

* ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري.

9 ـ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، 1967.

* الرهاوي، مجهول.

10 ـ تاريخ الرهاوي المجهول، بالسريانية، المطبعة البطريركية السريانية، بيروت، 1900.

* ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع.
11 ـ الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1968.
* الطبري، محمد بن جرير.
12 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1901.
* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله.
13 ـ فتوح مصر وأخبارها، باعتناء : جارلس توري (نيوهيفن)، 1920، أعادت طبعة مكتبة المثنى ببغداد.
* أبو عبيد، القاسم بن سلام.
14 ـ الأموال، القاهرة، 1335 هـ.
* ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن.
15 ـ التاريخ الكبير، باعتناء : الشيخ عبد القادر أفندي بدران، مطبعة روضة الشام، 1329هـ.
* قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر.
16 ـ الخراج وصنعة الكتابة، شرح وتعليق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، 1981.
* الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد.
17 ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، 1968.
* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين.
18 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1964.
* الواقدي، محمد بن عمر.
19 ـ كتاب فتوح الشام، نشر: وليم ناسوليس، كلكتا، 1854.
* ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي.
20 ـ معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.
* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.
21 ـ تاريخ اليعقوبي، النجف، 1974.
* أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم.
22 ـ الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، 1382هـ.

ب ـ المراجع الثانوية:

* حسن، حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن.
23 ـ النظم الإسلامية، ط3، القاهرة، 1962.

* زيدان، جرجي زيدان.

24 ـ تاريخ التمدن الإسلامي، بيروت، 1967.

* الصالح، صبحي الصالح.

25 ـ النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، 1978.

* الطماوي، سليمان محمد الطماوي.

26 ـ عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة، دراسة مقارنة، القاهرة، 1969.

* العلي، صالح أحمد العلي.

27 ـ امتداد العرب في صدر الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1981.

* عمر، فاروق عمر.

28 ـ النظم الإسلامية، العين، 1983.

* فيصل، شكري فيصل.

29 ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، 1978.

* القاسمي، ظافر القاسمي.

30 ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، دار النفائس، بيروت، 1982.

* الكرملي، أنستانس ماري الكرملي.

31 ـ كتاب النقود وعلم النميات، ومنشور معه لمحة عن تاريخ النقود، القاهرة 1939.

* كمال أحمد عادل كمال.

32 ـ الطريق إلى دمشق، دار النفائس، بيروت، 1982.

* محمد، عبد الرحمن فهمي محمد.

33 ـ النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة، 1964.

* آرنولد، سيرتوماس آرنولد.

34 ـ الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، القاهرة، 1971.

* ترتون، آرتر ستانلي ترتون.

35 ـ أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، القاهرة، 1967.

* كاهن، كلود كاهن.

36 ـ تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة : بدر الدين القاسم، بيروت، 1972.

* فلوتن، فان فلوتن.

37 ـ السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، القاهرة، 1965.

* هنتس، فالتر هنتس.

38 ـ المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1970.

* Lewis, B.

39 - The Arabs in History, London, 1975.

* Shaban, M. A.

40 - Islamic History, Vol.1 Cambridge, 1971.

* Walker, J.

41 - A catalogue of the Arab- Byzantine and post Reform Umayyad Coins, London, 1956.

* البطاينة، محمد ضيف الله البطاينة.

44 ـ العلاقة بين العرب وحركة الفتح الإسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق، مجلة المؤرخ العربي، العدد 22، طبع في لندن، 1982.

* الحمارنة، صالح الحمارنة.

45 ـ دور الأنباط في الفتوح الإسلامية، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية، م7، العدد 1 عمان، 1980.

* خريسات، محمد عبد القادر خريسات.

46 ـ عمر بن الخطاب والولاة، مجلة المؤرخ العربي، العدد 25، بغداد، 1984.

* العلي، صالح أحمد العلي.

47 ـ موظفو بلاد الشام في العهد الأموي، مجلة الأبحاث، السنة 19، العدد 1، بيروت، 1966.

دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ إبّان العصر الأموي

ألقي هذا البحث في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام،
الندوة الثالثة التي عقدت في عمان من 2 ـ 7 ربيع الأول 1408هـ/24 ـ 29
تشرين الأول 1987، وطبع ضمن محاضر هذه الندوة
القسم العربي، المجلد الأول، عمان، 1989

تمهيد:

يعود اهتمام العرب بالتاريخ إلى العصور التي سبقت ظهور الإسلام، فقد عرفوا نوعاً من التاريخ الشفهي الذي يعتمد على رواة هم أقرب إلى القصاص، كانوا يرون أخبار القبائل وأيامها التي تدور حول غزواتهم ومعاركهم، كما كانت كل قبيلة تحفظ نسبها، لتبقى نقية من كل شائبة، ولتفاخر به بقية القبائل الأخرى. وقد استمر اهتمام العرب بالتاريخ إلى ما بعد ظهور الإسلام، وازداد بسبب ظهور عوامل جديدة، منها العناية بدراسة الحديث، وسيرة الرسول ﷺ، بالإضافة إلى القضايا السياسية والإدارية والاجتماعية الأخرى التي برزت على مسرح الأحداث، ولاسيما

مسألة الخلافة وإدارة المناطق المحررة، وطرق تنظيمها وحكمها[124].

ونتيجة لهذا، فقد سارت بدايات علم التاريخ عند العرب، كما يرى أحد الباحثين[125]، في اتجاهين أساسيين، هما: الاتجاه الإسلامي، أو الاتجاه الذي ظهر ضد عند أهل الحديث، والاتجاه القبلي، أو اتجاه (الأيام) الذي يعكس التيار القبلي الذي استمر في مجتمع صدر الإسلام، وقد نشأ هذان الاتجاهان في مركزين ثقافيين في الدولة العربية الإسلامية، الأول في المدينة المنورة، التي هي دار سنّة الرسول عليه الصلاة والسلام، والثاني في الكوفة والبصرة اللتين أنشئتا بعد تحرير العراق.

ويشير الباحثون عادة إلى مدرستين تاريخيتين تمثل كل منهما أحد هذين الاتجاهين، هما مدرسة المدينة، ومدرسة العراق[126].

وعلى الرغم من الأهمية البالغة لهاتين المدرستين التاريخيتين في نشأة علم التاريخ عند العرب وتطوره، فإنه لا يمكن إغفال دور المراكز الأخرى في الدولة العربية، والتي أثرت بشكل أو بآخر على نشأة علم التاريخ، ومما لاشك فيه أن دور بعض هذه المراكز كان محدوداً، الأمر الذي دعا أحد المؤرخين المحدثين إلى أن يطلق عليها اسم (المدارس

(124) أحمد أمين، فجر الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط8، القاهرة، 1961، ص156.

(125) عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960، ص119. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ.

(126) انظر: المرجع نفسه، ص19، 61، 118؛ شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج2، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1979، جـ1، ص149، 169، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : مصطفى، التاريخ العربي؛ وانظر أيضاً :

A.A. Duri, "The Iraq School of History to the Ninth Century- asketch", in: Historians of the Middle East, ed Bernard Lewis, Oxford Univ. Press, London, 1964, P. 46

الصغرى) تميزاً لها عن (المدارس الكبرى) في المدينة والعراق[127]. وتأتي مدرسة اليمن، ومدرسة بلاد الشام في طليعة هذه المراكز التي لم تحظ بدراسات وافية من الباحثين، لتركيز الاهتمام على مدرستي المدينة والعراق. وتعد جهود الأستاذ شاكر مصطفى في التعريف بهما، والإشارة إليهما من المحاولات الجادة في هذا المجال[128]. لكن دراسته جاءت عامة ضمن اهتمامه الواسع بالتاريخ العربي والمؤرخين عبر العصور، لذا فإن الحاجة لا تزال قائمة إلى إلقاء المزيد من الضوء على أهمية هذه المدارس وإبراز دورها في نشأة علم الحياة علم التاريخ عند العرب، ولا سيما دور بلاد الشام في العصر الأموي.

اهتمام أهل الشام المبكر بالتاريخ:

لقد عني أهل الشام بالأنساب وبتاريخ العرب قبل الإسلام، فضلاً عن دراسة السيرة ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، والفتوح التي سادت عصر الراشدين. وكان اهتمام هذا البلد بتلقي العلوم كبيراً جداً، حتى قيل إن كل عمود من أعمدة جامع دمشق كان يضم شيخاً، وعليه الناس يكتبون العلم[129]، وقد قيل أيضاً من أراد العلم فلينزل بداريا من عنس وخولان، وهما قريتان قريبتان من دمشق فيهما مسجدان، واحد لعنس، والآخر لخولان «فإذا كان هذا في أهل داريا وهي قرية من قرى دمشق، فما ظنك بأهل البلد الكبير الذي حوى الخلق»[130].

وقد عُرف أهل الشام بتخصصهم في المغازي ومنافستهم لمدرسة

---

(127) مصطفى، التاريخ العربي، ج1، ص 118.

(128) المرجع نفسه، جـ1، ص119 فما بعدها.

(129) علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر (ت 57181175م). تهذيب تاريخ دمشق الكبير، 7م تهذيب: الشيخ عبد القادر بدران، دار المسيرة، ط2، بيروت، 1979، م1، ص70. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن عساكر، تهذيب.

(130) ابن عساكر، تهذيب، م1، ص71.

المدينة في هذا المجال، فينقل عن عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت157هـ/ 773م) قوله: «... إن مغازي رسول الله ﷺ وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق، فإنها محدثة فتحاً»[131]. وكان من المعروف لدى الناس في ذلك الوقت تخصص المدارس التاريخية بحسب الأقاليم المختلفة، فمدرسة المدينة متخصصة بالمغازي، والشام بالمغازي والفتوح، والعراق بالأيام والأنساب. وقد أشار سفيان بن عيينة (ت198هـ/ 814م) إلى تخصص أهل الشام بقوله: «من أراد المناسك فعليه بأهل مكة ومن أراد مواقيت الصلاة فعليه بأهل المدينة ومن أراد السير فعليه بأهل الشام...». وفي رواية أخرى: «وإذا أردت المغازي فعليك بأهل الشام...»، وفي لفظ آخر: «... ومن أراد المقاسم وأمر الغزو فعليه بأهل الشام»[132].

ويؤكد ابن تيمية[133] (ت728هـ/ 1327م) هذه الحقيقة بقوله: «إن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ثم أهل الشام ثم أهل العراق، فأهل المدينة أعلم بها لأنها عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم، ولهذا عظّم الناس كتاب أبي أسحق الفزاري إبراهيم بن محمد الذي صنفه في ذلك وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار». وعلى الرغم من أن أبا إسحق الفزاري متأخر عن العصر الأموي (ت186هـ/ 802م)، فإنه كما سنرى،

---

(131) يعقوب بن إبراهيم، أبو يوسف (182هـ/ 798م). الرد على سير الأوزاعي، تحقيق: أبي الوفا الأفغاني، حيدر آباد، 1357هـ، (مقدمة المدقق، ص2 ـ 3 نقلاً عن شرح السير الكبير للسرخسي).

(132) ابن عساكر، تهذيب، م1، ص71، وانظر: مصطفى، التاريخ العربي، ج1، ص119 ـ 120.

(133) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، ط1، الكويت، 1971، ص60.

اعتمد هو وغيره من المؤرخين اللاحقين على ما قدمه الرواد الأوائل في بلاد الشام من روايات شفوية، ومصادر مدونة كانت أساساً للمؤلفات التي ظهرت في العصور التالية.

وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى احتمال وجود وثائق في دمشق وغيرها من البلدان العربية في العصر الأموي، استخدمت من قبل المصنفين المتأخرين لتحديد الإطار الزمني للأحداث، وقوائم الولاة، وأمراء الحج، وغير ذلك من الأمور، لكل عام من الأعوام(134) ولا شك أن المؤرخين اللاحقين اعتمدوا عليها، فكانت عاملاً مساعداً من عوامل تطور التدوين التاريخي في هذه الحقبة المتقدمة.

يتبين مما سبق اهتمام بلاد الشام بالدراسات التاريخية، ولاسيما عنايتها بأمر الفتوح والمغازي، وأن هذا الاهتمام لم يقتصر على طلبة العلم فحسب، بل كان يعبر عن رغبة اجتماعية وثقافية أيضاً(135). ولأجل التوصل إلى دور هذه البلاد الحقيقي في نشأة علم التاريخ، لابد من التركيز على محورين أساسيين، الأول: هو التعرف إلى أولئك الرواد الذين كان لهم دور في خلق هذا التاريخ، وساهموا في أحداثه ورواية وقائعه، ومن تبعهم من الرعيل الثاني، الذين عاشوا في هذه البلاد،

---

(134) هاملتون جب، علم التاريخ، ترجمة : إبراهيم خورشيد ورفقائه، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، 1981، ص60 ـ 61، ولنفس المؤلف أيضاً : دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة، إحسان عباس ورفاقه، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1974، ص150 ـ 151، وانظر أيضاً : أدولف جروهمان، أوراق البردى العربية، اشترك مع المؤلف في نقله إلى العربية: حسن إبراهيم حسن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1934، م1، ص11 ـ 35، فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، التدوين التاريخي، نقله إلى العربية : محمود فهمي حجازي، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1403هـ/ 1983، م1، ج2، ص8، 20، 24، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : سزكين.

(135) الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص76.

وعاصروا الفترة الأموية فيها، والثاني: هو موقف الخلفاء الأمويين واهتمامهم بالدراسات التاريخية، وتشجيعهم لها، الأمر الذي أدى إلى انتعاشها في بلاد الشام، فأصبحت دمشق، بحكم وجود مقر الخلافة فيها، مطمح أنظار العديد من المشتغلين بالتاريخ، الذي ساهموا في نشأته في هذه البلاد، على الرغم من انتماء بعضهم إلى المدارس الأخرى في العراق والحجاز.

الرواد الأوائل:

يشير المؤرخون في رواياتهم عن فتوح الشام بخاصة إلى مشايخ عاصروا الأحداث، وعاشوا الوقائع، وتخصصوا في أخبار هذه البلاد، بحيث إنهم الرواد الذين ينتهي بهم عدد كبير من أسانيد هؤلاء المؤرخين، وهم يمثلون مناطق متعددة، فهناك على سبيل المثال: (مشايخ أهل أنطاكية)[136]، و (مشايخ من أهل عسقلان)[137]، و (مشايخ من أهل حمص)[138]، و(شيوخ دمشق)[139]، و (أشياخ من غسان وبلقين)[140]، و(قدماء مشايخ دمشق)[141]، و(مشيخة ساحل دمشق)[142]، وغيرها من

(136) أحمد بن يحيى بن جابر، البلاذري (ت 279هـ/ 892م) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة، مصر، 1959، ص124 ـ سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البلاذري، فتوح.

(137) المصدر نفسه، ص148.

(138) المصدر نفسه، ص138.

(139) تاريخ مدينة دمشق، 2م، تحقيق : صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1951، م1، ص520، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ.

(140) محمد بن جرير الطبري، (ت310هـ/ 945م)، تاريخ الرسل والملوك، 3م، نشر : دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1901، م1، ص2391، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

(141) إسماعيل بن عمر، ابن كثير (ت774هـ/ 1372م). البداية والنهاية في التاريخ، 14م، =

أماكن بلاد الشام، وتشير إحدى الروايات التي يوردها عليّ بن الحسن، المعروف بابن عساكر (ت571هـ/ 1175م) للمؤرخ الدمشقي الوليد بن مسلم (ت195هـ/ 810م)، أن هؤلاء الشيوخ كانوا من قدماء الجند «ممن كان يلزم الجهاد في الزمان الأول»[143]. وكذلك فإن بعضهم كان من الصحابة، أو من التابعين، الذين استقروا في بلاد الشام بعد الفتح، ولقد ظهر اهتمام هؤلاء بصورة مبكرة بتاريخ بلاد الشام، ورواية الأحاديث النبوية في فضائلها، وتمييزها عن غيرها من البلدان، وبقاء أهلها ظاهرين على الحق[144].

ومن الذين برزوا في هذا المجال، عبد الله بن حوالة الأزدي، وهو صحابي نزل الأردن، وتوفي في الشام سنة 58هـ/ 677م[145]. وقد نقل عنه محمد بن جرير الطبري (ت310هـ/ 945م) بواسطة أبي مخلف لوط بن يحيى الأزدي (ت157هـ/ 774م)، رواية تشير إلى اهتمامه بتتبع أخبار الصراع بين الإمام علي بن أبي طالب (ت40هـ/ 661م)، ومعاوية بن أبي

= مكتبة المعارف، ط2، بيروت، 1977، م7، ص10، سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البداية والنهاية.

(142) الطبري، تاريخ، م1، ص2839.

(143) ابن عساكر، تاريخ، م1، ص261.

(144) م1، ص51 ـ 52، 160، 185، 192، 220، 245 ـ 246؛ وانظر أيضاً: Sami Dahan, "The Origin and Development of the local Histories of Syria;" in: Historians of the Middle East, P. 108.

(145) انظر: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت230هـ/ 844م)، الطبقات الكبرى، 8م، دار صادر، بيروت، 1968، م7، ص414، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن سعد، طبقات ؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت 430هـ/ 1038م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10م، مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة، ط1، مصر، 1933، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: حلية الأولياء؛ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ/ 1448م)، تهذيب التهذيب، 12م حيدر آباد الدكن، 1325هـ، م5، ص194 ـ سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : تهذيب التهذيب.

سفيان (ت60هـ/ 680م) وبيعة أهل الشام لمعاوية بالخلافة[146]. كما اهتم بذكر فضائل أهل الشام أيضاً كل من: جبير بن نفير الحضرمي (ت80هـ/ 699م)، وابنه عبد الرحمن بن جبير (ت118هـ/ 736م)، وأبي أمامة صدى ابن عجلان الباهلي (ت81 أو 86هـ/ 700 أو 705م)، وخالد بن معدان الكلاعي (ت103 أو 104هـ/ 721 أو 722م)، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، والوضين بن عطاء (ت149هـ/ 766م)، وغيرهم ممن سنشير إلى إسهامهم في نشأة علم التاريخ في بلاد الشام إبان العصر الأموي.

لقد كانت أحداث الفتوح المحور الأساسي الذي تركز عليه الاهتمام التاريخي لهؤلاء الرواد الأوائل، كما تطرق بعضهم أيضاً إلى السير والمغازي، وبعض أحداث العصرين الراشدي والأموي، وفيما يلي نماذج لبعض هؤلاء الرواد واهتماماتهم:

عبادة بن الصامت بن قيس، صحابي من نقباء الخزرج، خرج إلى الشام زمن الفتوح، وتوفي بالرملة سنة 34هـ/ 654م[147]. وقد ساهم بشكل فعال في فتوح الشام، وشهد معركة اليرموك وروى تفاصيلها بدقة متناهية[148]. كما اشترك في بعض صوائف معاوية بن أبي سفيان البرية

(146) الطبري، تاريخ، م1، ص3396.

(147) ابن سعد، طبقات، م7، ص387؛ محمد بن إسماعيل الجعفي، البخاري (256هـ/ 869م)، كتاب التاريخ الكبير، ، 4م، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط1، حيدر آباد الدكن، 1362هـ، ق2، ج3، ص92، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البخاري، التاريخ الكبير؛ عبد الله بن مسلم، ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ/ 889م)، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1960، ص255؛ علي بن أحمد بن سعيد، ابن حزم (ت456هـ/ 1063م)، جمهرة أنساب العرب، =تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1962، ص354.

(148) الطبري، تاريخ، م1، ص2100؛ وانظر أيضاً: محمد بن عمر الواقدي (ت207هـ/ 822م)، فتوح الشام، 2م، مطبعة العلوم الأدبية بمصر، بدون تاريخ، م1، ص113 - 114.

والبحرية ضد البيزنطيين[149].

شراحيل بن مرثد، ويكنّى بأبي عثمان الصنعاني، أدرك الخليفة أبا بكر الصديق (ت13هـ/ 634) وشهد اليمامة، وفتح دمشق[150]. وقد أورد له المؤرخون وصفه لفتح حمص وحصار دمشق[151]، وإرسال الجيوش إلى الشام في عهد أبي بكر[152].

أبو الزهراء القشيري (لم أعثر على اسمه الكامل وتاريخ وفاته). ساهم في فتوح الشام، وقد أرسله يزيد بن أبي سفيان (ت18هـ/ 639م) بعد فتح دمشق إلى البثنية وحوران، فعقد معهما الصلح على غرار صلح دمشق[153]. وقد أورد له الطبري روايات عن فتح حمص، ومغادرة هرقل (Heraclius) بلاد الشام إلى القسطنطينية[154]. كما ذكر له أيضاً ثلاثة أبيات من الشعر قالها بمناسبة استشهاد ضرار بن الأزور سنة 18هـ/ 639م[155].

جنادة بن أمية الأزدي (ت75هـ/ 694م)، وهو من الصحابة الذين سكنوا الأردن، وساهم بشكل فعال بقيادة الحملات البحرية على جزيرة رودس وغيرها من الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط وقد ذكر له الطبري من طريق سيف بن عمر (ت180هـ/ 796م) روايته لمراسلات الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (23هـ/ 644م) مع معاوية بن أبي سفيان بشأن غزو البحر[156].

(149) الطبري، تاريخ، م1، ص2737، 2798، 2820.

(150) ابن عساكر، تهذيب، م6، ص298؛ تهذيب التهذيب، م4، ص320.

(151) البلاذري، فتوح، ص130؛ ابن عساكر، تاريخ، م1، ص501.

(152) البداية والنهاية، م7، ص23.

(153) الطبري، تاريخ، م1، ص2154 ـ 2155؛ وانظر : ابن عساكر، تاريخ، م1، ص217 ـ 218.

(154) الطبري، تاريخ، م1، ص2391، 2395، 2396.

(155) المصدر نفسه، م1، ص2573.

(156) المصدر نفسه، م1، ص2821، 2822؛ وانظر عنه أيضاً: م2، ص157، 163، 173، 181، 188، 196؛ تهذيب التهذيب، م2، ص115 ـ 116.

عبدالله بن قيس الكندي، ويسمى أيضاً بأبي بحرية الكندي (ت77هـ/696م) كان حاضراً لأحداث فتح الشام، وشهد خطبة الخليفة عمر بالجابية، وكان ممن التقاه به أثناء قدومه إلى الشام[157]. وقد روى محاولة الخليفة عمر لقسمة الأرض التي افتتحت عنوة بين المسلمين[158]. كما ساهم في أثناء ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام بقيادة إحدى الحملات على البيزنطيين سنة 20هـ/ 640 ـ 41م[159].

جبير بن نفير الحضرمي، أدرك الرسول (رض)، وتوفي سنة (80هـ/699م)[160] سكن الشام، وروى عدداً من أخبارها، منها حوادث فتح قبرص سنة 28هـ/ 648م التي ساهم فيها بنفسه[161]. كما اهتم أيضاً بسيرة الرسول ﷺ[162].

أبو أمامة صدى بن عجلان الباهلي (ت81 أو 86هـ/ 700 أو 705م)، من الصحابة الذين سكنوا الشام[163]، وشارك في معركة اليرموك، وروى بعض أحداثها[164]، كما ساهم في حصار دمشق، وكان له دور فعال في الفتح، ويتبين ذلك من الرواية التالية التي احتفظ لنا بها الطبري:

«قال أبو أمامة: فبعثت طليعة من مرج الصفر معي فارسان حتى دخلت الغوطة فجستها بين أبياتها وشجراتها، فقال أحد صاحبي: قد

---

(157) البلاذري، فتوح، ص145؛ تهذيب التهذيب، م5، ص364 ـ 365.

(158) البلاذري، فتوح، ص156.

(159) الطبري، تاريخ، م1، ص2594.

(160) ابن سعد، طبقات، م7، ص440؛ البخاري، التاريخ الكبير، ص2، جـ1، ص223؛ تهذيب التهذيب، م2، ص64 ـ 65.

(161) الطبري، تاريخ، م1، ص2826.

(162) المصدر نفسه، م1، ص1166، م3، ص2468.

(163) ابن سعد، طبقات، م7، ص411 ـ 412؛ ابن قتيبة، المعارف، ص309؛ تهذيب التهذيب، م4، ص420 ـ 421.

(164) الطبري، تاريخ، م1، ص2100 ـ 2101، 2104.

بلغت حيث أُمرت فانصرف لا تهلكنا، فقلت: قف مكانك حتى تصبح أو آتيك فسرت حتى دفعت إلى باب المدينة وليس في الأرض أحد ظاهر فنزعت لجام فرسي وعلقت عليها مخلاتها وركزت رمحي ثم وضعت رأسي فلم أشعر إلا بالمفتاح يحرّك عند الباب ليُفتّح فقمت فصليت الغداة ثم ركبت فرسي فحملت عليه فطعنت البواب فقتلته ثم انكفأت راجعاً وخرجوا يطلبوني...»[165].

وقد اهتم أبو أمامة أيضاً بالسيرة، وذكر أخبار الإسلام الأولى، وبعض أخبار الخليفة عمر بن الخطاب[166].

عبد الرحمن بن غنم الأشعري (ت87هـ/ 705 ـ 706م) وهو من التابعين، ويعتبره بعض الصحابة، بعثه الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه الناس بها[167]. وقد روى له الطبري رواية عن عام الرمادة[168]، كما أورد له البلاذري أيضاً بعض أحداث فتح قنّسرين، التي شارك في المرابطة حولها[169]. واشترك أيضاً في معركة اليرموك، وذكر له ابن عساكر رواية عن دور أبي سفيان بن حرب فيها (13هـ/ 651م)[170].

خالد بن معدان الكلاعي، كان من وجوه أهل الشام، وقد عمل صاحباً للشرطة في زمن يزيد بن معاوية (ت64هـ/ 683م)، سكن في

(165) المصدر نفسه، م1، ص2104 ـ 2105؛ وانظر أيضاً: ابن عساكر، تاريخ، م1، ص551.

(166) الطبري، تاريخ، م1، ص1334، 1721، 2515.

(167) ابن سعد، طبقات، م7، ص441؛ الطبري، تاريخ ،م1، ص2960، م3، ص2416؛ تهذيب التهذيب،م6، ص250 ـ 251.

(168) تاريخ الرسل والملوك، م1، ص2576.

(169) فتوح البلدان، ص150 ـ 151؛ وانظر: مصطفى، التاريخ العربي، جـ1، ص122، إلى الذي يشير إلى هذه الأحداث على أنها في فلسطين.

(170) تاريخ مدينة دمشق، م1، ص550.

حمص، وتوفي سنة (103 أو 104هـ/ 724 أو 723م)[171]. وقد أشار الطبري إلى مساهمته في حملة مسلمة بن عبد الملك (ت121هـ/ 739م) على القسطنطينية سنة (89هـ/ 716م)[172]. كما روى له عدة روايات عن معاوية بن أبي سفيان لغزو البحر في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) (ت35هـ/ 656م)، ثم إقرار الأخير لعمال الخليفة عمر على الشام، ومعلومات عن بقية عمال الشام، واستخلاصها أخيراً إلى معاوية بعد سنتين من خلافة عثمان[173]. كما أشار الطبري أيضاً إلى عدة روايات معظمها من طريق سيف بن عمر، تنتهي بخالد بن معدان وعبادة بن نسي الشامي (ت118هـ/ 736م)، وهي عن أحداث فتح العرب لبلاد الشام، ولاسيما معركة اليرموك، وفتح دمشق، وقيسارية، وبيت المقدس، وصلح أهل إيلياء[174].

علي بن أبي حملة القرشي (ت106هـ/ 724م)، أدرك معاوية بن أبي سفيان، وكان على دار الضرب بدمشق لعمر بن عبد العزيز، وتولى كتابة الخراج لهشام بن عبد الملك بفلسطين[175]. وقد أورد له أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ/ 892م) رواية عن موقف عمر بن عبد العزيز من إحدى كنائس دمشق، وردّها إلى أهلها[176].

---

(171) انظر: ابن سعد، طبقات، م7، ص455؛ البخاري، التاريخ الكبير، ق1، ج2، ص176؛ الطبري، تاريخ، م3، ص2482 ـ 2483؛ حلية الأولياء، م1، ص210 ـ 221؛ ابن عساكر، تهذيب، م5، ص89 ـ 90؛ تهذيب التهذيب، م3، ص118 ـ 120.

(172) تاريخ الرسل والملوك، م1، ص1315.

(173) المصدر نفسه، م1، ص2823، 2836، 2867.

(174) المصدر نفسه، م1، ص2084، 2086، 2090، 2095، 2100، 2147، 2150، 2396، 2403، 2405، 2407، وانظر أيضاً: ابن عساكر، تاريخ، م1، ص513، 529، 548، 550.

(175) تهذيب التهذيب، م7، ص314 ـ 315.

(176) فتوح البلدان، ص130.

رجاء بن حيوة الكندي (ت112هـ/ 730م)، أصله من بيسان، ثم انتقل إلى فلسطين[177]. ويذكر محمد بن سعد (ت230هـ/ 844م) أنه كان ينزل الأردن، وهو عالم ثقة، كثير العلم[178] وقد تولى ديوان الخاتم لسليمان بن عبد الملك، كما كتب لعمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة[179]. وإضافة إلى اشتهاره برواية الحديث، فقد وصفه محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ/ 869م) بأنه كان (قاصاً)[180]، وهذه الإشارة على درجة كبيرة من الأهمية، لأنها تدل صراحة على اهتمامه بالتاريخ، ورواية أحداثه، وقد أورد لنا الطبري مجموعة كبيرة من رواياته في هذا المجال، منها على سبيل المثال، زيارة عمر بن الخطاب للجابية[181]، وغزو أهل حمص في البحر[182]، وأحداث عام الرمادة في المدينة المنورة[183]، وطموح معاوية لنيل منصب الخلافة في عهد عثمان بن عفان[184]. كذلك روى له الطبري بعض الأحداث التي وقعت في أثناء العهد الأموي في بلاد الشام، منها رواية من طريق محمد بن عمر الواقدي (207هـ/ 823م) يشير فيها إلى موقف عبد الملك بن مروان (ت86هـ/ 705م) بعد مقتل عمرو بن سعيد بن العاص (ت68هـ/ 687م)[185]، وأخرى عن كيفية تولي عمر بن عبد العزيز

---

(177) تهذيب التهذيب، م3، ص266.

(178) الطبقات الكبرى، م7، ص454 ـ 455؛ وانظر عنه أيضاً : البخاري، التاريخ الكبير، ص1، جـ2، ص312؛ ابن قتيبة، المعارف، ص472 ـ 473؛ حلية الأولياء، م3، ص265؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص429، أحمد بن محمد بن أبي بكر، ابن خلكان (681هـ/ 1282م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 8م، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968 ـ 1972، م2، ص301 ـ 303.

(179) الطبري، تاريخ، م2، ص838.

(180) التاريخ الكبير، ق1، جـ2، ص312.

(181) الطبري، تاريخ، م1، ص2408.

(182) المصدر نفسه، م1، ص2501.

(183) المصدر نفسه، م1، ص2576.

(184) المصدر نفسه، م1، ص2947.

(185) المصدر نفسه، م2، ص804 ـ 805.

للخلافة، ووفاة سليمان بن عبد الملك سنة (99هـ/ 717م). وتتميز روايته الأخرى التي ذكرها الطبري أيضاً من طريق الواقدي بدقتها، ووضعها التفصيلي للساعات الأخيرة من حياة سليمان بن عبد الملك، وكيفية استخلافه لعمر بن عبد العزيز(186).

عبادة بن نسي الشامي الكندي الذي سكن الأردن وتولى قضاء طبرية، وتوفي في عهد هشام بن عبد الملك سنة (118هـ736م)(187). وقد سبقت الإشارة إلى بعض رواياته المشتركة مع خالد بن معدان الكلاعي، كما روى له الطبري أيضاً من طريق سيف بن عمر روايتين عن مراسلات معاوية بن أبي سفيان مع الخليفة عمر بن الخطاب بشأن غزو البحر، رواهما عبادة عن جنادة بن أبي أمية الأزدي(188). ورواية ثالثة من طريق الواقدي، عن مسير هرقل بحراً سنة (35هـ/ 655م) لحرب المسلمين(189). ويشير البلاذري إلى رواية تستند إلى (رجل من أهل دمشق يقال له عبد بن الوليد)(190)، وتنتهي بعبادة بن نسي، وهي تخص بعض غزوات معاوية بن أبي سفيان للبيزنطيين في سنوات مختلفة، وقد اعتمد عبد الله بن الوليد - لم أعثر على تاريخ وفاته - الذي ربما كان من علماء الشام في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد(191)، على كتاب يسمى (مغازي معاوية). إن وجود مثل هذا الكتاب الذي يعتمد في أخباره على رواة متقدمين نسبياً من أمثال عبادة بن نسي، يمثل جهداً ملحوظاً ساهم في

(186) المصدر نفسه، م2، ص1340 - 1345.

(187) انظر: ابن سعد، طبقات، م7، ص456؛ البخاري، التاريخ الكبير، ق2، جـ3، ص95؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص429؛ تهذيب التهذيب، م5، ص113 - 114.

(188) الطبري، تاريخ، م1، ص2821، 2822.

(189) المصدر نفسه، م1، ص3087.

(190) فتوح البلدان، ص169.

(191) انظر: الطبري، تاريخ، م1، ص2747؛ تهذيب التهذيب، م6، ص70؛ مصطفى، التاريخ العربي، جـ1، ص122.

نشأة علم التاريخ في بلاد الشام في العصر الأموي.

عبد الرحمن بن جبير بن نفير (ت118هـ/ 736م)[192]. روى أحداث الفتح عن والده وغيره من شيوخ بلاد الشام، ولا سيما تجهيز الجيوش من قِبل أبي بكر إلى الشام[193]، واستدعاء خالد بن الوليد (ت21هـ/ 641 ـ 142م) لنجدة جيوش المسلمين في الشام[194]. كما روى أيضاً صلح المسلمين مع أهل دمشق وحمص[195]، ونزول البيزنطيين قرب اليرموك، وفتح مدينة دمشق[196].

سالم بن عبد الله، ويكنى بأبي العلاء (لم أعثر على تاريخ وفاته)، وهو مولى الخليفة هشام بن عبد الملك، وكاتبه، وكان على ديوان الرسائل في عهد هذا الخليفة، وكذلك في عهد الوليد بن يزيد (ت136هـ/ 744م). كما كان صهراً وأستاذاً لعبد الحميد بن يحيى الكاتب (ت125هـ/ 750م). وهو يعد من الفصحاء والبلغاء في العصر الأموي[197]. ويبدو أنه كتب تاريخاً لعصر الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد نقل البلاذري من هذا الكتاب قائلاً: «قرأت في كتب سالم كاتب هشام كتاباً نسخته تناولت أمر هشام بن عبد الملك إخراج زيد بن علي من الكوفة». كما أشار إلى رواية أخرى عن مرض هشام بن عبد الملك وغضبه على الوليد بن

---

(192) انظر عنه: ابن سعد، طبقات، م7، ص455؛ البخاري، التاريخ الكبير، ق1، جـ3، ص267؛ حلية الأولياء، م5، ص133 ـ 138.

(193) الطبري، تاريخ، م1، ص1166، م3، ص2468.

(194) ابن عساكر، تاريخ، م1، ص497 ـ 497.

(195) المصدر نفسه، م1، ص531.

(196) البداية والنهاية، م7، ص6 ـ 7، 24.

(197) محمد بن إسحق، ابن النديم (ت385هـ/ 995م) الفهرست، دار المعرفة، بيروت، 1978، ص171، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الفهرست، ابن عساكر، تهذيب، م6، ص57.

يزيد[198]. ويدل هذا على وجود تأليف تاريخي مبكر في أواخر العصر الأموي في بلاد الشام، وقد استفاد منه المؤرخون اللاحقون كالبلاذري الذي نص صراحة على ذلك.

أبو بشر مؤذن مسجد دمشق (لم أعثر على اسمه الكامل)، وهو شامي تابعي ثقة (ت130هـ 747م)[199]، ويروي البلاذري روايتين عن هذا الرجل: الأولى: عن قدوم الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام، وتفرقهم في نواحيها المختلفة[200]، والثانية: عن افتتاح بُصْرَى صلحاً[201]. ويبدو أنه كان معروفاً بين الأوساط العلمية في بلاد الشام، فقد روى الحديث عن عمر بن عبد العزيز، وروى عنه معاوية بن صالح الحضرمي (ت158هـ/ 774م)[202].

الوضين بن عطاء بن كنانة بن عبدالله الخزاعي، روى الحديث عن أبي عثمان الصنعاني، وخالد بن معدان الكلاعي، وتوفي في دمشق سنة (149هـ/ 766م)[203]. أورد له البلاذري روايات عن فتح عدة مدن في بلاد الشام، مثل: عكا، وصور، ودمشق، وصيدا، وجبيل، وبيروت[204].

---

(198) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ892م)، أنساب الأشراف، تحقيق : الشيخ محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط1، بيروت، 1947، م3، ص238؛ وانظر : محمد جاسم حمادي، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في كتابه «أنساب الأشراف»، 2م، رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة، جامعة بغداد، كلية الآداب، آذار، 1983، م2، ص120.

(199) تهذيب التهذيب، م12، ص21.

(200) فتوح البلدان، ص123.

(201) المصدر نفسه، ص132.

(202) تهذيب التهذيب، م12، ص21.

(203) ابن سعد، طبقات، م7، ص466؛ وانظر : الطبري، تاريخ، م3، ص408 ـ 409؛ تهذيب التهذيب، م11، ص120 ـ 121.

(204) فتوح البلدان، ص123، 133، 134.

وأشار ابن عساكر إلى رواية أخرى له عن فتح دمشق[205].

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، ولد في بعلبك سنة (88هـ/ 706 ـ 707م)، وهو من الأوزاع، بطن من همدان، وكان يسكن بيروت، اشتهر بالحديث، وله مذهب في الفقه انتشر في الأندلس في بداية الوجود العربي الإسلامي فيها، وتوفي في بيروت سنة (157هـ/ 773م)[206]. كان الأوزاعي عارفاً بالسِّيَر والمغازي والفتوح، وقد أورد له المؤرخون روايات عديدة في هذه المجالات كافة، منها ما ذكره له الطبري عن زمن بعثه الرسول ﷺ[207]، وعن صنيع المشركين به[208]، وعن أصحاب بئر معونة[209]. كما أورد له روايتين أخريين، الأولى: عن وفاة أبي بكر الصديق (رض)[210]، والثانية عن مرض معاوية بن أبي سفيان، وما قاله قبل وفاته[211].

وللأوزاعي أيضاً روايات عن وضع الجزية في بلاد الشام[212]، وعن بعض أحداث الفتوح في هذه البلاد، مثل فتح قنسرين وفلسطين[213]. وقد نقل له البلاذري رواية أخرى من طريق أبي إسحق الفزاري، يشير فيها إلى فتح قبرص، والصلح الذي أعقب ذلك بين أهلها والمسلمين[214]. وأخيراً

---

(205) تاريخ مدينة دمشق، م1، ص503.

(206) انظر: ابن سعد، طبقات، م7، ص488؛ ابن قتيبة، المعارف، ص496 ـ 497؛ الطبري، تاريخ، م3، ص2514؛ حلية الأولياء، م6، ص135 ـ 149؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، م3، ص127؛ مصطفى، التاريخ العربي، ج1، ص127 ـ 128.

(207) تاريخ الرسل والملوك، م1، ص1139 ـ 1140.

(208) المصدر نفسه، م1، ص 1186.

(209) المصدر نفسه، م1، ص 1447.

(210) المصدر نفسه، م1، ص 2130.

(211) المصدر نفسه، م2، ص201.

(212) البلاذري، فتوح، ص131.

(213) المصدر نفسه، ص 145.

(214) المصدر نفسه، ص 162.

يشير ابن عساكر إلى روايتين للأوزاعي، يذكر في الأولى منهما كتاب الصلح الذي عقد بين أهل دمشق والمسلمين، حيث يورد الأوزاعي نصه الكامل بالاستناد إلى أبي سراقة عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي(215). ويتحدث في الرواية الثانية عن تاريخ بناء بعض مرافق جامع دمشق(216). إن هذه الروايات تمثل وثائق مهمة ساهمت في حفظ الأحداث، وهيأت لمن جاء بعد الأوزاعي وصحبه من المهتمين بالتاريخ، مادة عظيمة القيمة، استفادوا منها في مصنفاتهم المدونة عن المغازي والسِّيَر، وتاريخ الأمة وتجاربها في العهود الإسلامية الأولى.

رجاء بن أبي سلمة (ت161هـ/ 777م) كان يسكن البصرة ثم تحوّل إلى الشام، وهو من المحدثين الثقات، روى عن عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة وغيرهما(217). وقد أورد له البلاذري رواية عن تصرف عمر بن عبد العزيز إزاء إحدى القضايا التي تخص إحدى كنائس دمشق(218). كما أشار ابن عساكر أيضاً إلى رواية أخرى له عن عمر بن عبد العزيز، يقول فيها: «أنه كان في عهد دمشق خمس عشرة كنيسة»(219).

يحيى بن سعيد بن أبان الأموي (ت194هـ/ 809م) على الرغم من تأخر عصر هذا الرجل الذي يصفه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت456هـ/ 1063 ـ 1064م) بـ «صاحب السِّيَر والتواريخ»(220)، إلا أنه ذُكِر

(215) ابن عساكر، تاريخ، م1، ص502، 570.

(216) المصدر نفسه، م2، ص 46.

(217) البخاري، التاريخ الكبير، ق1، جـ2، ص313؛ تهذيب التهذيب، م3، ص267.

(218) فتوح البلدان، ص130.

(219) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق : صلاح الدين المنجّد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1954، م2، ق1، ص126.

(220) جمهرة أنساب العرب، ص82.

هنا بسبب اعتماده على أبيه، سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص في رواية بعض أحداث فتح بلاد الشام، كوقعتي أجنادين وفحل، وافتتاح دمشق[221]. وقد وُلد يحيى سنة (114هـ ـ 732)[222]، وهذا يعني أن والده سعيد بن أبان كان معاصراً للعهد الأموي، وهو أحد الذين رووا أحداث بلاد الشام في أثناء الفتح.

تشجيع الخلفاء الأمويين لنشأة علم التاريخ في بلاد الشام:

كان اهتمام الخلفاء الأمويين بالتاريخ امتداداً لشعور العرب بأهمية العناية بهذه المادة التي تضم معارف كثيرة، كانت موضع تقدير كبير في المجتمع العربي القديم، فقد سبق أن كلف الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ثلاثة من كبار نسابي قريش، وهم: جبير بن مطعم (ت59هـ/ 678م)، وعقيل بن أبي طالب (ت60هـ/ 679م)، ومخرمة بن نوفل (ت54هـ/ 673 ـ 674م) بأن يعدّوا له جدولاً بالأنساب[223]، للاستفادة منه في إحصاء الناس لعمل الديوان، وكان هذا التوجه ينطوي أيضاً على شعوره بالحاجة إلى التاريخ لخدمة أغراض الدولة، ولاسيما أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة كانوا أيضاً على معرفة بالشعر وأخبار العرب[224]. وقد شجع الإمام علي (رض) أيضاً الاهتمام بدراسة تاريخ الأقوام الماضية،

---

(221) ابن عساكر، تاريخ، م1، ص497، ص499.

(222) انظر: ابن سعد، طبقات، م6، ص398؛ ابن قتيبة، المعارف، ص514؛ تهذيب التهذيب، م11، ص213 ـ 214؛ سزكين، م1، ج2، ص97.

(223) ابن سعد، طبقات، م3، ص295؛ البلاذري، فتوح، ص436؛ الطبري، تاريخ، م1، ص2750؛ وانظر أيضاً: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير، جمع وتحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط1، الرياض، 1401هـ/ 1981م، ص18.

(224) قارن: أحمد أمين، فجر الإسلام، ص157؛ سزكين، م1، ج2، ص14؛ حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، منشورات اقرأ، ط2، بيروت، 1980، ص17.

فقد رفع وهب بن منبه (ت114هـ/ 732م) كلاماً عنه أنه قال: «حدِّثوا عن حمير فإن في أحاديثها عبر»[225]. ولما جاء الخلفاء الأمويون إلى الشام، ساروا بهذا الاتجاه، وكانوا يسألون علماء أهل الشام والمدينة عن الأحداث الماضية[226]. وقد امتدت مساحة اهتمامهم فشملت فروعاً عديدة من المعرفة التاريخية، كالقصص، والأنساب، والمغازي والسير. وتشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان أول من اهتم بهذه المعرفة التاريخية من الأمويين، وشجعها، فبذر البذور الأولى لكتابة التاريخ العربي في بلاد الشام[227].

وقد استعان معاوية ببعض العلماء اليمانيين لتحقيق هذه الغاية، أشهرهم عبيد بن شرية الجرهمي (ت70هـ/ 689م) الذي استدعاه ليروي له الأخبار المتقدمة عن الماضين من العرب وغيرهم، ولاسيما ملوك اليمن، وتواريخ حكمهم[228]. فحدّثه في مجالس كثيرة عن وقائع العرب

(225) أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت218هـ / 833م)، كتاب التيجان في ملوك حمير واليمن، نشر: كرنكو، حيدر آباد الدكن، 1347هـ، أعاد طبعه مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الجمهورية العربية اليمنية، صنعاء، 1979، ص91.

(226) ابن عساكر، تهذيب، م1، ص70 ـ 71.

(227) انظر: p.109. Sami Dahan, Op. Cit.

(228) التيجان في ملوك حمير واليمن، ص325 ـ 316؛ أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت235هـ/ 849م)، كتاب المعمرين، باعتناء: محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، ط1، القاهرة، 1905، ص39 ـ 40؛ ابن قتيبة، المعارف، ص514؛ علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت346هـ/ 957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، القاهرة، 1967، م2، ص85، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج؛ الفهرست، ص132؛ أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت626هـ/ 1229م). معجم الأدباء، 20م، دار المستشرق، بيروت، بدون تاريخ، م2، ص72 ـ 73. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم الأدباء، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1974، جـ1، ص250 ـ 251. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي؛ سزكين، م1، جـ2، ص32 ـ 33.

وأشعارهم وأخبارهم، وقد أمر معاوية كتّابه بتدوين هذه المعارف وتسجيلها، ونسبتها إلى عبيد بن شرية خوفاً عليها من الضياع[229]. وذلك لينتفع بها الناس مقروءة لا مروية، وليحفظ لصاحبها حقه الأدبي فيها، وهذا معنى راق يدل على وعي مبكر بقدر العلماء ورواة الأخبار[230]. وقد دونت هذه المعلومات تحت عنوان: «كتاب الملوك وأخبار الماضين»[231]، وطبع الجزء الذي وجد منه في حيدر آباد الدكن سنة 1347هـ/ 1928م ملحقاً لكتاب «التيجان في ملوك حمير واليمن»، باسم «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها».

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب ليس كتاباً تاريخياً بالمعنى المصطلح عليه، بل هو مجالس سمر تاريخية مدوَّنة، فإنه يشيع فيها الأسلوب الحواري، لكنه كما يقول حسين نصار: «ذو أهمية كبيرة، لا في تطور حركة التأليف التاريخي فحسب، وإنما لأنه يكشف النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدر الأول من الإسلام، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية وخاصة اليمن...»[232].

ولم يقتصر دور معاوية الأول على استدعاء عبيد بن شرية وغيره من علماء اليمن للاطلاع على المعرفة التاريخية، وتشجيع تدوينها وشيوعها في بلاد الشام، بل اعتمد على مصدر محلي لا يمكن الجزم في تحديد جذوره تماماً، فكان من برنامجه اليومي أن ينام ثلث الليل «ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر، فيها سِيَر الملوك وأخبار الحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة

(229) التيجان في ملوك حمير واليمن، ص326، ص326، 327؛ الفهرست، ص132.
(230) انظر: مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب/ قسم الأدب، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1974، ص51.
(231) الفهرست، ص132.
(232) نشأة التدوين التاريخي عند العرب، ص32.

جمل من الأخبار والسِّيَر والآثار وأنواع السياسات....»[233].

إن هذا النص يتضمن عدة حقائق أشار إليها الأستاذ شاكر مصطفى[234]، منها وجود معارف تاريخية واسعة بحيث تقرأ كل ليلة، وأن هذه المعارف كانت معلومة ومكتوبة بالعربية، ومصنفة في دفاتر أو كتب، يقوم عليها غلمان موكلون بها. وقد استبعد الأستاذ مصطفى أن تكون هذه المعلومات مما يتعلق بالمغازي والسِّيَر، أو عن تاريخ العهد الراشدي، أو مطلع العهد الأموي، وهي في رأيه «كتب في تواريخ الأمم السالفة»، كتبها له أو ترجمها علماء الروم ليتعرف بها إلى الأحوال والسياسات السابقة.

والواقع أنه لا يمكن إنكار وجود حركة علمية ومؤلفات غير عربية سابقة، وعلماء نصارى ساهموا في تأليف أو ترجمة مثل هذه المؤلفات[235]. لكن الجزم باقتصار ما ورد في النص المذكور أعلاه على هذه المعارف فقط، أمر فيه بعض المبالغة، ولا بد من أن تلك «الدفاتر» كانت تتضمن أيضاً شيئاً من الأخبار الماضية للعرب، والمغازي والسِّيَر، التي اشتهر أهل الشام بتخصصهم فيها، كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا البحث.

وقد شجع الخلفاء الأمويون دراسات الأنساب، التي خدمت علم التاريخ في المادة وفي خطة الكتابة. وكانت الحاجات الإدارية كتنظيم العطاء، وإسكان القبائل في الأمصار، قد أدت إلى وضع سجلات

---

(233) المسعودي، مروج، م3، ص46.

(234) التاريخ العربي والمؤرخون، ج2، ص124.

(235) انظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج1، ص256؛ خليل داود الزرو، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الآفاق الجديدة، ط1، بيروت، 1971، ص13 ـ 17.

بالأنساب، وعززت الاهتمام بها، هذا فضلاً عن الخصومات القبلية، وأثر الأوضاع السياسية والاجتماعية الجديدة على القبائل، فظهر النسابون الأولون في العصر الأموي، وكانت عنايتهم بالأنساب واضحة[236].

ومن أشهر النسابين الذين قرَّبهم معاوية دغفل بن حنظلة البكري (ت65هـ/ 685م)[237] الذي ضمه لتعليم ابنه يزيد[238].

وسار يزيد الأول على خطى والده فقرَّب علاقة بن كريم الكلابي، أحد تلامذة عبيد بن شرية الجرهمي، وجعله من سماره، وكان علاقة عالماً بالأنساب والأخبار وأحاديث العرب القديمة، وله كتاب في «الأمثال» رآه محمد بن إسحاق بن النديم[239]. ومن العلماء الآخرين الذين قرَّبهم يزيد الأول، يزيد بن مفرغ (ت69هـ/ 688م) الذي وضع «سيرة تبع وأشعاره»[240].

واهتم الخلفاء الذين جاؤوا بعد معاوية ويزيد أيضاً بالأنساب، فيروى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك (ت 126هـ/ 744م) أمر بعمل سجل واف

---

(236) انظر : مقدمة صلاح الدين المنجّد لكتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تأليف: السلطان الملك الأشرف محمد بن يوسف بن رسول (ت696هـ/ 1296م)، تحقيق: ك. و. سترستين، مطبعة الترقي، دمشق، 1949، ص5 ـ 6 ؛ قارن: جب، علم التاريخ، ص50؛ سزكين، م1، ج2، ص16؛ الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص39 ـ 40.

(237) انظر عنه: ابن قتيبة، المعارف، ص534؛ الفهرست، ص131؛ الطبري، تاريخ م1، ص1835؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص319؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج1، ص253.

(238) أبو جعفر محمد بن حبيب (ت245هـ/ 859م)، كتاب المحبّر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، باعتناء: د. إيلزة ليختن شتيتر، حيدر آباد الدكن، 1391هـ، ص478.

(239) الفهرست، ص132؛ ياقوت، معجم الأدباء، م12، ص190؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، م1، ص261.

(240) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت356هـ/ 966م). الأغاني، 24م، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1927 ـ 1974، م18، ص255.

بأخبار العرب وأنسابها وشعرها، وقد استعان بدواوين بعض المختصين في هذا الموضع، ومنهم حماد بن سابور بن المبارك (ت156هـ/ 772 ـ 773م) الذي كان يتردد على خلفاء بني أمية، فيسألونه عما يشاؤون من أخبار العرب وأنسابها[241]. وقد ظهر من الأمويين أنفسهم من اهتم بالأنساب وأصبح عالماً فيها مثل الوليد بن روح بن الوليد بن عبد الملك الذي كان أثيراً عند الخليفة عمر بن عبد العزيز[242].

وكانت المثالب تعد جزءاً لا ينفصل من الأنساب، وقد شجع الخليفة هشام بن عبد الملك (ت125هـ/ 743م) على التأليف فيها. فكلف اثنين من المعروفين بعلمهما في النسب، وهما النضر بن شميل الحميري، وخالد بن سلمة المخزومي (ت132هـ/ 750م) بتأليف كتاب يسمى «الواحدة» في مثالب العرب ومناقبها، «وقال لهما ولمن ضم إليهما: دعوا قريشاً بما لها وعليها، فليس لقرشي في ذلك الكتاب ذكر»[243]. ويشير النص الأخير إلى انضمام أشخاص آخرين إلى هذا العمل، وتشكيل لجنة برئاسة النضر وخالد، ما يدل على ضخامة الإنجاز الذي أراده الخليفة هشام، وقد ظل كتاب «الواحدة» متداولاً بين الناس حتى القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد.

وكان لقبيلة كلب المعروفة بولائها للأمويين، والتي سكنت جنوب الشام، دور كبير في علم الأنساب، بحيث اشتهر أفرادها بأنهم «إذا نسي الناس علمهم حفظوه عليهم»[244]. وقد مهدت هذه القبيلة لظهور عدد من

---

(241) انظر: الفهرست، ص124 ـ 135 ؛ الأغاني، م6، ص70؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، م1، ص245 ـ 246؛ سزكين، م1، جـ، ص258.

(242) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص90.

(243) أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز بن محمد البكري (ت487هـ/ 1094م) سمط اللآلىء، 2م، باعتناء عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة النشر والترجمة والتأليف، القاهرة، 1936، م2، ص807 ـ 808؛ انظر، سزكين، م1، جـ2، ص35 ـ 36.

(244) ياقوت، معجم الأدباء، م16، ص139.

النسابين، ورواة الأخبار، مثل الأبرش الكلبي الذي كان مصاحباً للخليفة هشام بن عبد الملك[245]، ومحمد بن السائب الكلبي (ت146هـ/ 736م) الذي اعتمد في جمع الأنساب، إضافة إلى قبيلته، على أفضل النسابين في مختلف القبائل[246]، ويشير الدينوري إلى أن سليمان بن عبد الملك وَلّى (الكلبي) تأديب ابنه، ولكنه لم يذكر اسمه الكامل، وربما كان هذا (الكلبي) المقصود هو محمد بن السائب، أو الأبرش الكلبي، وكلاهما ينتمي إلى كلب في بلاد الشام. وقد ألزم الخليفة سليمان هذا المعلم بتعليم ابنه القرآن، والفرائض، والسنن، إضافة إلى الشعر، وأيام الناس[247]. ويعتمد الطبري في بعض أخباره عن أحداث بلاد الشام على رواة من قبيلة كلب، مثل: عبد الملك بن ميناس الكلبي[248]، وعمرو بن مروان الكلبي[249]، ويزيد بن مصاد الكلبي. وكان هذا الأخير شاهد عيان اشترك في بعض أحداث الفترة الأخيرة من العصر الأموي[250].

ويعود الفضل إلى قبيلة كلب أيضاً في نبوغ أحد الإخباريين المشهورين الذين ينتمون إليها بالولاء، وهو عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي (ت 147 هـ/ 764 م). فهو وإن كان يُعدّ من الكوفيين، ويُحسَب على مدرسة أهل العراق، فإن مصادر الكثير من أخباره تعود بالأصل إلى

(245) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت 255هـ / 868 م).البيان والتبيين،4م،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر مؤسسة الخانجي ،ط3، القاهرة ،1948،م1 ،ص 345.

(246) الفهرست ،ص139 140 ؛ وانظر أيضاً: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص40 - 41؛ مصطفى، التاريخ العربي، جـ1، ص 190 .

(247) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (282 هـ / 865 م). الأخبار الطوال، تحقيق : عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، القاهرة ،1960، ص 330 .

(248) الطبري، تاريخ، م 2 ،ص 201 .

(249) المصدر نفسه، م2 ،ص 1791 ،1793 ،1795 ،1801 ،1808 ،1851 .

(250) المصدر نفسه، م2، ص 1828 1829 .

بلاد الشام، حيث أخذها من قبيلة كلب التي يفخر بعلمها[251]. ولذلك نجده يقدم الرواية الأموية للحوادث مقابل الرواية العراقية[252]. ولن نستطرد في الحديث عن عوانة الذي نال اهتمام الكثير من المؤرخين[253]، ونكتفي بالقول إننا ندين له بتسمية علم التاريخ، لأنه صاحب أول كتاب تاريخي يحمل اسم «كتاب التاريخ» في الإسلام[254].

واهتم الخلفاء الأمويون أيضاً بالمغازي والسِّيَر، وشجعوا على دراستها والتعمق فيها في بلاد الشام. وقد استعانوا ببعض علماء المدينة المنورة لإشاعة هذه المعلومات في دمشق وغيرها من مناطق بلاد الشام. ومن أشهر من تعاون معهم في هذا المجال عروة بن الزبير بن العوام (ت94هـ/ 712م)، الذي يعد أول من ألّف كتاباً في المغازي[255]، وكان

---

(251) ياقوت، معجم الأدباء، م16، ص 139 ؛ وانظر: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص36 .

(252) المرجع نفسه، ص36 .

(253) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي(ت379 هـ/ 989 م).طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: محمد سامي أمين الخانجي، ط1، القاهرة، 1954، ص246؛ الفهرست، ص 134؛ ياقوت، معجم الأدباء، م16، ص 134 ـ 139؛ فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، ط1، بغداد، 1963، ص 128؛

Saleh-El-Ali, «Awanab. Al-HakamAl-Kalbi», The Encyclopaedia of Islam, New edition;

الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص 36 ـ 37 ؛ مصطفى، التاريخ العربي، ج 1، ص 128 ،179 ـ 180 ؛ سزكين، م1، ص127 ؛ عفت محمد الشرقاوي، أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت دون تاريخ، ص257 .

(254) الفهرست، ص134؛ وانظر: مصطفى، التاريخ العربي، ج 1 ،ص128 .

(255) محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت902هـ/ 1497م). الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، نشر مع كتاب: علم التاريخ عند المسلمين، لفرانز روزنثال، ترجمة: صالح أحمد العلي، بغداد، 1963، ص371 ـ 725، انظر ص527؛ مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة (ت1068 هـ/ 1657م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 2م، استنبول، 1941، م2، ص1747.

اتصاله بعبد الملك بن مروان، وابنه الوليد الأول (ت96هـ/ 715م) وثيقاً، ووفد عليهما في دمشق أكثر من مرة[256].

وقد احتفظ لنا الطبري، وبعض المؤرخين بنصوص بعض المراسلات التي جرت بين الخليفة عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد الأول، وبين عروة بن الزبير في المدينة المنورة، بحيث كانا يسألانه فيها عن مختلف المسائل التاريخية التي تتعلق بأحداث خاصة بحياة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد سأله عبد الملك ـ مثلاً ـ عن موقف قريش من الدعوة الإسلامية، واضطهادهم للمسلمين الأوائل، والهجرة إلى الحبشة، وموقف أبي سفيان بن حرب قبيل معركة بدر، ودور خالد بن الوليد في فتح مكة، وتاريخ وفاة خديجة بنت خويلد زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام، فرد عليه عروة بأجوبة مكتوبة[257]. كذلك أجاب عروة عن أسئلة أخرى أرسلت إليه من البلاط الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك، عَرَّف في بعضها بناحية مهمة، وهي هجرة نساء بعد الحديبية من مكة إلى المدينة رغبة في الإسلام، وموقف الرسول منهن[258].

---

(256) عن صلة عروة بالبلاط الأموي ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق: جويتن، القدس، 1936، م5، ص285، 370؛ الأصفهاني، الأغاني، م17، ص241؛ ابن قتيبة، المعارف، ص222، ابن خلكان، وفيات الأعيان، م3، ص255 ـ 258؛ حلية الأولياء، م2، ص176 ـ 183، 178 ـ 179؛ يوسف هورفتس، المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة: حسين نصار، شركة ومطبعة البابي الحلبي، ط1، القاهرة، 1949، ص12 ـ 16.

(257) الطبري، تاريخ، م1، ص1180 ـ 1181، 1284 ـ 1288، 1634، 1770؛ وقارن: هوروفتس، ص20 ـ 21؛ سزكين، م1، ج2، ص71؛ نصار، نشأة التدوين التاريخي، ص44 ـ 47؛ الملحق الأول لكتاب مغازي رسول الله لعروة بن الزبير، ص213 ـ 235.

(258) الطبري، تاريخ، م3، ص2458؛ أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت218هـ/ 833م). السيرة النبوية، 4م، تحقيق: مصطفى السقا ورفقائه دار أحياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1971، م3، ص340 ـ 341؛ محمد بن عمر الواقدي (ت207هـ/ 822م). كتاب المغازي، 3م، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، ط3، بيروت 1984، م3، ص630؛ وقارن: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص74.

إن كتابات عروة المشار إليها آنفاً تمثل أقدم المدوَّنات التي حفظت لنا عن حوادث عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، كما تمثل أقدم نصوص النثر التاريخي العربي[259]. أما بالنسبة إلى أهميتها لدور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ، فيمكن القول إن مجرد إشاعة هذا النوع من الحس التاريخي، وتشجيعه من قبل عبد الملك والوليد الأول، ووصول إجابات عروة المكتوبة إلى بلاد الشام، يمثل دفعاً قوياً لدراسة المغازي والسِّيَر في هذه البلاد. ولا شك أن البلاط الأموي احتفظ بهذه المراسلات المكتوبة، والتي أصبحت تشكل مادة أولية مهمة عن المغازي، ومن المرجح أن المؤرخين الذين أعقبوا عروة استفادوا منها، ولا سيما أولئك الذين ظهروا في بلاد الشام بعد العصر الأموي، من أمثال يحيى بن سعيد الأموي (ت194هـ/ 809م)، وأبي إسحق إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري (ت188هـ/ 804م)، وأبي العباس الوليد بن مسلم الأموي الدمشقي (ت195هـ/ 810م).

ومن العلماء الآخرين الذين استعان بهم الخلفاء الأمويون لنشر الوعي التاريخي في بلاد الشام، وحث الناس على الاهتمام بالسِّيَر والمغازي، عاصم بن عمر قتادة (ت120هـ/ 737م) الذي وفد على الخليفة عمر بن عبد العزيز فقضى دينه، وأمره أن يجلس في مسجد دمشق ليحدّث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة، ففعل[260]. ويبدو أن الدافع الذي شجع

(259) قارن : هوروفتس، المغازي الأولى، ص22.

(260) رواية ابن سعد، اقتبسها شمس الدين بن قايماز الذهبي (ت748هـ/ 1347م) تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق، نشر: فشر، بريل، 1890، ص22؛ تهذيب التهذيب، م5، ص53 ـ 54؛ وانظر عن عاصم بن عمر أيضاً : ابن قتيبة، المعارف، ص466؛ هوروفتس، المغازي الأولى، ص47 ـ 49؛ سزكين، م1، جـ2، ص73؛ خالد العسلي: «عاصم بن عمر بن قتادة» مستل من مجلة كلية الآداب، العدد 8، بغداد (1965)، ، ص3 ـ 19.

الخليفة عمر الثاني إلى الاستفادة من عاصم بن عمر، هو اهتمامه الشديد بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ورغبته في أن تشيع دراسة المغازي والسِّيَر على أوسع نطاق بين أهل دمشق، على رجل من الثقات معروف بعلمه وتبحّره في هذا الموضوع، فكان لهذه الخطوة أهمية بالغة في تقدم دراسة المغازي التي هي أحد فروع علم التاريخ في بلاد الشام.

ويعدّ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت124هـ/ 741م) من أشهر العلماء الذين بثوا المعرفة التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي، فهو وإن كان من أقطاب مدرسة المدينة المنورة التاريخية التي وضعها فوق أساس متين وحدد خطوط دراستها واهتمامها[261]، فإنه قدّم أيضاً خدمة كبيرة لبلاد الشام بتردده عليها وإقامته فيها، ونشر علمه بين أهلها، بحيث إنه وفد على عبد الملك بن مروان، وأصبح أثيراً عنده، وعند أولاده الوليد، وسليمان، وكذلك عند عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك (ت105هـ/ 724م) الذي استقضاه، ثم كان حظياً أيضاً عند هشام بن عبد الملك، وحج معه، وجعله معلماً لأولاده إلى وفاته[262]. لقد استعان الخلفاء الأمويون بمعلومات الزهري التاريخية، فيروى أن الوليد الأول سأله عن أعمار الخلفاء[263]، وأنه كتب أسنان الخلفاء الأمويين ومدة حكم كل منهم[264]، كما اعتمد الطبري في تحديد حكم الوليد الأول على رواية

(261) A.A. Dury, «Al-Zuhri, A study on the Beginings of History writing in Islam», B. SOAS, 19, (1957), P.I.

(262) انظر : ابن سعد، طبقات، م7، ص447؛ ابن قتيبة، المعارف، ص472، الطبري، تاريخ، م2، ص1811؛ حلية الأولياء، م3، ص367 ـ 368؛ البداية والنهاية، م9، ص341 ـ 342؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، جـ1، ص254؛ وعن علاقته بالأمويين انظر: حارث سليمان الضاري، الإمام الزهري وأثره في السنّة، منشورات مكتبة بسام، الموصل، 1985، ص441 ـ 453.

(263) الطبري، تاريخ، م2، ص199.

(264) المصدر نفسه، م2، ص428.

الزهري[265]. ولقد قدم الزهري خدمة مهمة أخرى للدراسات التاريخية في بلاد الشام، إذ إنه كتب رواياته، وهو يُعدّ أول من فعل ذلك بصورة منظمة[266]. ويبدو أنه ابتدأ أولاً بتدوين مواد الحديث بطلب من الخليفة عمر بن عبد العزيز، أو الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد أودعت هذه المواد بعد ذلك في خزانة الكتب في البلاط الأموي، حيث وجدت أحمال كثيرة من مؤلفاته، بعد مقتل الوليد بن يزيد (ت126هـ/ 744م)[267]. ولا شك أن لهذه الأحاديث المدوَّنة أهمية كبيرة، ولا سيما إذ عرفنا أنها كانت أساساً للكتب التي أُلّفت في المغازي فيما بعد[268].

ولم تقتصر دراسات الزهري على الأحاديث والمغازي، بل شملت الأنساب، وتاريخ صدر الإسلام[269]. وقد قدمت هذه الدراسات أرضية متينة لعلم التاريخ العربي بعامة، وفي بلاد الشام بخاصة، يضاف إلى ذلك فضله الكبير على الحركة التاريخية في هذه البلاد، لأنه نشر كتبه بين الجمهور، وحث على ذلك، فكان يحذر من «غلول الكتب» أي حبسها عن قُرائها، وكان يفتخر بنشر العلم، فيقول: «ما صبر أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري»[270]. ولقد كان للتأييد والدعم الذي لقيه

---

(265) المصدر نفسه، م2، ص1269، وانظر أيضاً: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص97 ـ 98.

(266) قارن: المرجع نفسه، ص24.

(267) ابن سعد، طبقات، م2، ص388 ـ 389؛ حلية الأولياء، م3، ص361؛ البداية والنهاية، م9، ص344؛ جب، علم التاريخ، ص54؛ هوروفتس، المغازي الأولى، ص66. الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص24، 100 ـ 101، سزكين، م1، ج2، ص76.

(268) قارن: جب، علم التاريخ، ص55.

(269) ابن هشام، السيرة النبوية، م1، ص8؛ حلية الأولياء، م3، ص361؛ وانظر: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص96؛ Duri, Op. Cit., P.9

(270) انظر: حلية الأولياء، م3، ص366؛ وقارن: نصار، نشأة التدوين التاريخي، ص64.

الزهري من لدن عدد كبير من الخلفاء الأمويين أثر في المكانة العلمية التي وصل إليها، وبفضل اهتمامهم وتشجيعهم، انتقلت جهوده في مجال الدراسات التاريخية إلى بلاد الشام، وانتشرت بين أهلها، الأمر الذي ساعد على نشأة علم التاريخ وتطويره في هذه البلاد إبان العصر الأموي.



تعريب دواوين العراق في العصر الأموي

نشر هذا البحث في مجلة آفاق عربية
العدد 12 السنة الرابعة، بغداد، 1979

أصل الدواوين وتطور وجودها قبل التعريب:

كان الديوان[271] في عهد عمر بن الخطاب (رض)، يعني السجل الذي يضم أسماء المقاتلة وأهليهم ومقدار أعطياتهم وأرزاقهم، أي ديوان الجند، ولما تعددت الدواوين صار معناه السجل بعامة، وصار أخيراً يطلق على المكان الذي يحفظ فيه السجل[272]. ويعتبر الخليفة عمر بن الخطاب أول من دَوّن الدواوين[273] ومنح العطاء وأقامه على أسس منظمة، وقبل

(271) كلمة ديوان في الأصل، كانت تطلق على الكَتَبة، ثم تحوّل المعنى إلى محل جلوسهم وعملهم، فأصبح يطلق عليه اسم الديوان: ابن قتيبة، عيون الأخبار : 1/50، الصولي، أدب الكتّاب، ص187، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص199، مقدمة ابن خلدون، ص243، بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص66.

(272) الدوري، النظم الإسلامية، ص194.

(273) الجاحظ، العثمانية، ص94، الطبري، تاريخ الرسل والملوك 1/2750 ـ 51، الجهشياري، الوزراء والكتّاب، ص16، المسعودي، التنبيه والأشراف، ص250.

عهده، كان أبو بكر الصديق (رض) عندما يقسم الأموال يعطي الناس بالتساوي ولا يرى التفضيل[274]. ويبدو أن رغبة الخليفة عمر في أن تكون هناك أسس منظمة، وثابتة في توزيع الأموال، ومنح الأعطيات، هي التي دفعته إلى الأخذ بفكرة عمل الديوان.

ويرى معظم الفقهاء والمؤرخين القدامى، أن مجيء أبي هريرة (ت59هـ ـ 678م) بأموال كثيرة من البحرين، كان هو العامل المسبب لتدوين الدواوين[275]. فقد فكر الخليفة في الكيفية التي يوزع بها هذه الأموال لكثرتها، فخطب في الناس قائلاً: «أيها الناس أنه قد جاء مال كثير فإن شئتم أن نَكيل لكم كِلْنا، وإن شئتم أن نَعُدّ لكم عَدَدْنا، وإن شئتم أن نَزِن لكم وزنًا لكم». فاقترح أحد الحاضرين على الخليفة أن يدوّن الدواوين[276]. وقد قيل إن الذي أشار على عمر بالديوان، كان الوليد بن هشام بن المغيرة[277]، لأنه رأى ملوك الشام يفعلون ذلك[278]. وهناك من يذكر اسم خالد بن الوليد (ت21هـ ـ 641م) بدلاً من الوليد بن هشام[279]. ومهما يكن من أمر، فإن تعدد الأسماء والأشخاص يدل على أن الخليفة عمر بذل جهوداً عظيمة، واستشار عدداً كبيراً من الناس، من

---

(274) أبو يوسف، الخراج، ص42، الأحكام السلطانية، ص200.

(275) استعمل أبو هريرة على البحرين واليمامة سنة 20هـ/640م)، وبقي في منصبه إلى سنة (22هـ/642م): الطبري: 1/2594، 2647، 2693، ولهذا فيكون قدومه بالأموال ومن ثم شروع الخليفة عمر بتدوين الدواوين قد تم بعد سنة (20هـ/640م).

(276) أبو يوسف، ص45، وانظر: طبقات ابن سعد، ج3، ق1، ص316، البلاذري، فتوح البلدان، ص554 ـ 55، الوزراء والكتّاب، ص16 ـ 17، الأحكام السلطانية، ص119.

(277) لم أعثر اسم الوليد مع أبناء هشام بن المغيرة المخزومي، ولعل الرجل المقصود هو: هشام بن الوليد بن المغيرة، الذي أسلم يوم الفتح، انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص70، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 144 ـ 45، 147.

(278) طبقات ابن سعد، ج3، ق1، ص212، فتوح البلدان، ص549، الطبري: 1/2750.

(279) الأحكام السلطانية، ص200، مقدمة ابن خلدون، ص244.

أجل التوصل إلى الإجراء الذي يحقق مصلحة الأمة، ويتلاءم مع الشريعة الإسلامية. وكان من كبار الصحابة الذين استشارهم عمر: عليّ الذي قال له: «تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال فلا تمسك منه شيئاً»[280]، أما عثمان بن عفان فقد كان له رأي آخر، بحيث قال: «أرى مالاً كثيراً يسع الناس وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر». وقد قارن عمر بين هذه الآراء جميعاً، ثم قرر أن يأخذ بنظام الديوان، وذلك بسبب ميله إلى السياسة المركزية وإلى تهيئة مورد ثابت للدولة[281]. ثم أمر بكتابة الناس على منازلهم فكتبوا له. وهكذا ظهر أول ديوان في الدولة الإسلامية، وهو ديوان العطاء أو الجند، وكان يتألف من سجل بأسماء المسلمين الذين يستحقون العطاء والمقاتلين، ومقدار أعطياهم، ورتب العطاء على وفق أسس معينة، يأتي في مقدمتها السبق والبلاء في الإسلام[282].

لقد حاولت بعض الروايات، أن تُرجع الفضل في عمل الديوان إلى الفرس، ومن ذلك ما ذكره ابن طباطبا[283] (ت 709هـ 1309م) من أن أحد (مرازبة)[284] الفرس هو الذي نصح الخليفة بهذا، وكذلك ما أورده

(280) طبقات ابن سعد : ج3 ق1، ص212، فتوح البلدان، ص549، الطبري : 1/ 2750، الأحكام السلطانية، ص199 ـ 200.

(281) الدوري، النظم الإسلامية، ص188.

(282) عن تفصيلات منح العطاء في عهد عمر انظر: أبو يوسف، ص43 فما بعدها، أبو عبيد، الأموال، ص 224 فما بعدها، طبقات ابن سعد، ج3، ق1، ص212 ـ 16، العثمانية، ص211 ـ 13، فتوح البلدان، ص548 فما بعدها، الطبري: 1/ 2412 فما بعدها ؛ الأحكام السلطانية، ص 201.

(283) الفخري، ص68.

(284) المرازبة : جمع المرزبان، وهم ما وراء الملوك، أي حكام الثغور وحماة الحدود، (مرزهو): الحد بالفارسية، ومرزبان هو صاحب الحد: انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص70، المعجم الذهبي: مادة (مرزبان) .

الجهشياري[285] (ت331هـ ـ 942م) من أن صاحب الاقتراح هو(الفيرزان) أو (الهرمزان)[286] بحسبما يذكره الماوردي[287] (ت450هـ ـ 1058م)، وابن خلدون[288] (ت808هـ 1405م). ولكن أبا يوسف[289] (ت 182هـ ـ 798م)، وابن سعد[290] (ت230هـ ـ 845م)، والبلاذري[291] (ت279هـ ـ 892م)، والطبري[292] (ت310هـ ـ 922م) لم يذكر أي واحد منهم لا (الهرمزان) ولا غيره من الفرس، وهذا ما يجعلنا نميل إلى اعتبار معظم الروايات التي ترجع الفضل في إنشاء الديوان إلى الفرس، أنها روايات مفتعلة من وضع الشعوبية[293].

وهناك اختلاف في التاريخ الذي دوّنت فيه الدواوين، فيذكر الطبري[294] أن سنة (15هـ/ 636م)، هي السنة التي دوِّنت فيها الدواوين،

(285) الوزراء والكتّاب، ص17، وانظر أيضاً: الصولي، أدب الكتّاب، ص 190.

(286) الهرمزان: من كبار رجال الفرس، حارب المسلمين أثناء فتح العراق، ثم أسر، وأرسل إلى عمر بالمدينة، فعفا عنه، وقد أسلم وسمي (عرفطة) وفرض له الخليفة فيء الفين من العطاء، اتهم بقتل عمر هو وفيروز المعروف بأبي لؤلؤة وجفنة، ولما طعن عمر قتل الهرمزان: طبقات ابن سعد، 5/ 64 ـ 65، المعارف، ص 187، الطبري: 1/ 2534، 2556 فما بعدها.

(287) الأحكام السلطانية، ص199.

(288) المقدمة، ص244.

(289) الخراج، ص45.

(290) الطبقات الكبرى، ج3، ق1، ص212 فما بعدها.

(291) فتوح البلدان، ص549 فما بعدها.

(292) تاريخ الرسل والملوك: 1/ 2750.

(293) انظر : الريس، الخراج في الدولة الإسلامية، ص 134 (الحاشية) من رأي الكاتب في مسألة (الهرمزان) بصورة خاصة، حيث إنه يعتبرها مخترعة أو من وضع الشعوبية.

(294) تاريخ الرسل والملوك: 1/ 2411، وفي «الأموال» ص223، أن عمر قرر توزيع العطاء منذ اجتماع الجابية، وهي قرية من أعمال دمشق، اجتمع فيها عمر بن الخطاب مع أمراء جنده في الشام سنة (15هـ / 636م) :الطبري : 1/ 4401 فما بعدها، ياقوت، معجم البلدان: 2/ 3).

في حين أن ابن سعد[295] والبلاذري[296] يذكران أن ذلك كان في سنة (20هـ/ 640م)، لكن المرجع، أن توزيع العطاء، وتدوين الدواوين، كان بعد هذا التاريخ وقد أسلفنا القول في أن قدوم أبي هريرة من البحرين بالأموال كان بعد سنة (20هـ ـ 640م)، يضاف إلى هذا أن هناك رواية أخرى تؤيد أن فرض العطاء وتدوين الدواوين كان بعد انتهاء الفتوحات في العراق والشام، ومجيء الأموال منهما[297] وذلك نتيجة لتنظيم خراج السواد خصوصاً على يدي عثمان بن حنيف[298]، وحذيفة بن اليمان[299]، والذي بلغ أكثر من مائة مليون درهم قبل وفاة عمر بن الخطاب[300].

وبعد فتح العراق واستقرار العرب فيه، أصبح في الكوفة والبصرة ديوانان، أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهو الذي وضعه الخليفة عمر، والآخر للأمور المالية وحساباتها بالفارسية[301]، لأن العرب أبقوا في البداية على معظم التنظيمات القديمة في البلاد المفتوحة، ويعود

---

(295) الطبقات الكبرى، ج3، ق1، ص213.

(296) فتوح البلدان، ص550، وانظر : الأحكام السلطانية، ص200، مقدمة ابن خلدون، ص244.

(297) أبو يوسف، ص43 ـ 44، الأموال، ص224.

(298) عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري، له صحبة، وَلاّه عمر بن الخطاب مساحة أرض السواد هو وحذيفة بن اليمان، وكان عاملاً على البصرة في عهد علي بن أبي طالب، توفي في زمن معاوية الأول، ينظر: أبو يوسف، ص36 ـ 38، المعارف، ص208، ابن حجر، تهذيب التهذيب: 7/ 112.

(299) حذيفة بن اليمان، واليمان لقب واسمه (حسل) أو (حسيل) ابن جابر من بني عبس، وهو من الصحابة، ولي المدائن في عهد عمر، توفي سنة (31هـ/ أو 36هـ/ 651 أو 656م)، طبقات خليفة ابن خياط، ص48، 130، طبقات ابن سعد: 6/ 8، تهذيب التهذيب : 2/ 219.

(300) أبو يوسف، ص26، 36 ـ 38، فتوح البلدان، 339 ـ 42، ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص14، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص133.

(301) الوزراء والكتّاب، ص38، الصولي، ص192.

سبب ذلك في رأي أحد الكتاب الغربيين، إلى أن العرب: «أتوا ليبنوا لا ليهدموا، لذلك كان من الحكمة أن يستعملوا الجهاز القائم فعلاً وبنجاح، وأن لا يستبدلوا به جهازاً جديداً بصورة مفاجئة»[302]. ومن الملاحظ هنا، أن العرب على الرغم مما تعلموه من الإغريق والآراميين والأقباط، فإن التأثير الفارسي في الدولة والحضارة كان أكبر[303]. ويبدو ذلك واضحاً من اعتراف عبد الملك بن مروان حين قال لروح بن زنباع[304] أنه «شامي الطاعة، عراقي الخط، حجازي الفقه، فارسي الكتابة»[305].

والكتابة هنا تعني مسك الدفاتر والسجلات[306]، ولقد كان هذا الأمر واضحاً بالنسبة إلى العراق بخاصة، وعلى سبيل المثال، فإن (Sprengling)[307] يعزو نجاح زياد بن أبي سفيان في حكم البصرة وأجزاء من فارس، إلى إجادته للغة الفارسية أحسن من غيره من العرب. ولقد أدرك زياد أهمية وجود الأعاجم العالمين بأمور الخراج[308] للقيام بضبط الدواوين والإشراف على الحسابات التي كانت لا تزال بالفارسية، ولهذا فقد كان يشرف على كتابة الخراج في عهده (زاذان فروخ)[309]. وقد استمر عبيد الله

---

(302) G.Philip, The Monetary Reforms of Abd Al-Malik, Journal of the Economic and Social, History of the Orient Jesho, III 1960, P242.

(303) M. Sprengling, Form Persian to Arabic , The American Journal of Semitic Languages and Literature, Vol. 56, 1939, P. 180.

(304) روح بن زنباع بن سلامة الجذامي، ويقال أبو زنباح الدمشقي، وهو تابعي جليل، وكانت منزلته عند عبدالملك، كالوزير لا يكاد يفارقه، توفي بالأردن سنة 84هـ/ 703م) وقيل إنه بقي إلى أيام هشام بن عبدالملك : ابن الأثير، أسد الغابة : 2/ 189، ابن كثير، البداية والنهاية :9/ 54 ـ 55.

(305) الوزراء والكتاب، ص35، الثعالبي، لطائف المعارف، ص61.

(306) Sprengling, Op. Cit., P. 180.

(307) Ibid., P. 183.

(308) تاريخ اليعقوبي: 2/ 279.

(309) تاريخ خليفة بن خياط: 1/ 197، الوزراء والكتّاب، ص26، وكان هذا شخصية بارزة =

ابن زياد على هذه السياسة أيضاً، فوثق بالدهاقين[310] أكثر من العرب، لأنه رآهم أبصر بالجباية، وأوفى بالأمانة، وأهون بالمطالبة[311]. وعندما خضع العراق للزبيريين، استخدم مصعب بن الزبير، فارسياً على الخراج، يدعى (سارزاذ)[312] لكن ابن أخيه حمزة بن عبدالله[313] سلك سلوكاً مغايراً، فقتل دهقان الأحواز لأنه تأخر عليه في حمل الخراج[314].

عوامل تعريب الدواوين:

إن توافر عامل الاستقرار، وطبيعة العصر الذي ظهرت فيه بوادر الانتقال من البداوة إلى الحضارة، ومن الأمية إلى حذق الكتابة، وظهور

= في التنظيمات العربية الأولى لشؤون الضرائب في النصف الشرقي من الدولة الإسلامية، وقد بقي أفراد عائلته يعملون في هذا الحقل من خدمة الحكومة مدة ثلاثة أجيال من بعده، حتى زمن العباسيين، ولو أنهم لم يتبوأوا المكانة التي كانت له. كان زاذان فروخ في الثلاثين من عمره عندما عينه زياد على الخراج، وقد احتفظ بمنصبه بعد وفاة زياد، فأصبح مستشاراً لابنه عبيدالله بن زياد. ويتصف هذا الرجل بقوة الذاكرة، فقد قيل إنه تمكن من تدوين أسماء ثمانين ألفاً من المقاتلة والذرية، إثر الحريق الكبير الذي وقع في ديوان البصرة، ولم ينس إلا امرأة واحدة، على ما في ذلك من مبالغة ملحوظة؟؟ وقد ابتعد زاذان فروخ عن العمل أثناء سيطرة مصعب بن الزبير، الذي استخدم فارسياً آخر بدله، ولم يظهر اسم زاذان فروخ من جديد حتى مجيء الحجاج بن يوسف إلى العراق: الوزراء والكتاب، ص99؛ Sprengling, Op. Cit., PP. 186-88.

(310) جمع دهقان: ويعني التاجر، أو زعيم فلاحي العجم، أو رئيس الأقليم، أو مقدم القرية، وهو تعريب (دهكان) وقيل أن أصل (دهكان) هو (ده خان) أي رئيس القرية، وقد يكون الدهقان من العرب أيضاً: أبو يوسف ص146، لسان العرب، مادة (دهقن)، أدي شير، كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، ص8.

(311) البلاذري، أنساب الأشراف: 4/ 109، الطبري: 2/ 854، ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 4/ 140.

(312) الوزراء والكتاب، ص24.

(313) حمزة بن عبد الله بن الزبير، ولاه أبوه البصرة نحواً من سنة، وكان غلاماً متهوراً لم يرض به أهل البصرة، فعزله وأعاد مصعب بن الزبير : أنساب الأشراف: 5/ 256، 265، 271، 274، الطبري: 2/ 750.

(314) أنساب الأشراف : 5/ 256، الطبري: 751.

عدد كبير من المثقفين العرب ومواليهم، بينهم كتّاب ومحاسبون مهرة[315] كل ذلك أدى إلى إزالة العقبات التي كانت تقف أمام عملية التعريب ومسك السجلات بأنفسهم.

أما على مستوى القيادة فقد كان عبد الملك والحجاج إداريين من الطراز الأول، لهذا فقد رغِبا في التعمق بالقضايا التي تواجههما، وبما أنهما لم يعرفا سوى العربية، فقد برزت الحاجة الماسة إلى تعريب أمور مختلفة[316]. إن اتخاذ اللغة العربية أداة لإدارة الدولة وضبط الأمور المالية فيها، يعني رغبة أُولي الأمر من العرب في ترؤس جهاز الدولة والسيطرة عليه، ذلك أن إجراء المعاملات الكتابية والحسابات المالية باللغة العربية، وهي لغتهم القومية الخاصة، كان يمنح هؤلاء الحكام إمكانية السيطرة على نشاط الإدارة المالية في البلاد[317]. وكان وجود الدواوين باللغات الأجنبية يعني وجود موظفين أجانب من غير العرب والمسلمين، وهذا اعتراف من الدولة بشرعية هذه اللغات، واعتبارها لغات رسمية، يبدو أن عبد الملك والحجاج لم يكونا يرغبان في هذا الأمر.

إن موضوع سيادة اللغة العربية، على أهميته، لم يكن العامل الوحيد لعملية التعريب، وخصوصاً إذا ما علمنا حرص الحجاج على ضبط الإدارة والاطلاع على كل الأمور التي تجري في الولاية. لذا، كان يفترض به أن يدرس سجلات الضرائب، ويتحقق منها بنفسه، وهذا لا يتم بطبيعة الحال، إلا بعملية التعريب، فكان هذا من أهم دوافعه لنقل الدواوين إلى اللغة العربية، كما كان يتوخى غاية أخرى، وهي الإشراف على شؤون

---

(315) مقدمة ابن خلدون، ص244.

(316) Sprengling, Op. Cit, P. 194.

(317) E. Belaev, Arabi, Islam, I Arabski Khalifat V Rannim Sredno Vekovii, (Moskova, 1965),. 187.

الإدارة المالية، ومحاسبتها، ما يفسح له المجال لحل الأزمة الاقتصادية التي كانت تهدد البلاد[318]. هذه هي الأسباب الحقيقية لعملية تعريب الدواوين، لكن المؤرخين العرب لم يتعمقوا في هذه الدوافع، بل نراهم يحاولون تعليل هذا العمل العظيم بأسباب ساذجة لا قيمة لها، من ذلك مثلاً قولهم: إن عبد الملك أمر بتعريب الدواوين في الشام لأن «رجلاً من كتّاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء فبال في الدواة..»[319] أو لأنه طلب أمراً من كاتبه الرومي، فرأى منه توانياً وتثاقلاً[320]. أما بالنسبة إلى دواوين العراق، فإننا لا نراهم يقدمون سبباً وجيهاً لعملية التعريب، وكل ما في الأمر، أنهم يصفون هذه العملية وكأنها تمّت عرضاً وبرغبة من الحَجّاج نفسه، إذ لا يوجد نص صريح فيه أمر من عبد الملك للحجاج بتعريب الدواوين، لكن هذا لا يمنع من الاعتقاد، بأن العملية تمّت نتيجة للسياسة العربية العامة للدولة، في ضوء الأسباب والعلل التي ألمحنا إليها.

عملية التعريب ودور الفرس في إعاقتها:

لقد أشرف على عملية تعريب دواوين الخراج في العراق، صالح بن عبد الرحمن[321] الذي قام بدور كبير في هذا المضمار، لقد دخل صالح

(318) انظر: العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص109؛ E.I,2. «Al-Hajjaj b. Yusuf».

(319) فتوح البلدان، ص230، الأحكام السلطانية، ص202.

(320) الوزراء والكتّاب ص40، الصولي ص192، ابن عبد ربه، العقد الفريد: 4/ 169 ـ 70.

(321) وهو من الموالي الذين نشأوا وتربوا في بيئة عربية إسلامية ووصلوا إلى مراكز ممتازة في الدولة، وكان أبوه من سبي سجستان، أصابه الربيع بن زياد الحارثي (الذي أرسل لفتح سجستان سنة 30هـ 650م) في قرية (ناشروذ)، ثم اشترته امرأة من بني تميم ثم من بني مرة. وقد كتب صالح للحجاج بعد زاذان فروخ: فتوح البلدان، ص484 ـ 85، قدامة بن جعفر، الخراج(مخطوط)، الورقة 197ب ـ 198) الوزراء والكتّاب، ص58.

إلى ديوان الخراج مع زاذان فروخ، عندما استدعي زاذان من عزلته إلى الوظيفة من قبل الحجاج. وهذا يعني أن صالحاً قد تدرب على يديّ زاذان فروخ في ديوان الخراج بالبصرة، ثم أصبح مساعده الخاص، ولهذا فقد كان كثيراً ما يحضر معه إلى مجلس الحجاج، وكان هذا الشاب يعرف الفارسية والعربية جيداً، لكن معرفته بالعربية كانت أحسن بكثير من معرفة زاذان فروخ، أو ابنه مردانشاه[322] وقد جعله هذا بالإضافة إلى حيويته، ومظهره اللطيف قريباً من قلب الحجاج، لذا فقد وجد نفسه حالاً في إمرة الحجاج وله ميزة خاصة عنده. وقد شعر صالح بذلك، فأخبر سيده زاذان فروخ، عن مخاوفه من تقديم الحجاج له، وإبعاده أستاذه، فأجابه زاذان: «لا تظن ذلك، هو أحوج إليّ منه إليك لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري»[323] لكن صالحاً أجابه، أنه يستطيع ـ لو شاء ـ أن يحوّل الحساب إلى العربية، وفعلاً حوّل قسماً منه، عندما طلب إليه زاذان فروخ ذلك لاختباره. ولما رأى زاذان نجاح صالح، خاف على مركزه، وعلى مصير السجلات الفارسية، ثم نصح أصحابه أن يلتمسوا لهم مسكناً ومكسباً غير هذا، فقد ذهب مكسبهم[324]. وطُلب إلى صالح أن يتمارض، لكن الحجاج شعر بغيابه، فأرسل إليه طبيبه الخاص، فلم يجد به علة، وعندما بلغ زاذان فروخ ذلك، أمره بالظهور من جديد[325]. وبعد ذلك صدر أمر الحجاج بنقل الدواوين إلى اللغة العربية في سنة (78هـ ـ 697م)[326]. لكن

---

(322) Sprengling. Op. Cit., P. 195.

(323) فتوح البلدان، ص368، وباختلاف يسير في الوزراء والكتّاب، ص38، الصولي، ص192، العسكري، الأوائل، ص207، ابن النديم، الفهرست، ص242، الأحكام السلطانية، ص203.

(324) الوزراء والكتّاب، ص38، الصولي، ص192، الأوائل، ص207.

(325) فتوح البلدان، ص368، الفهرست، ص242.

(326) الوزراء والكتّاب، ص38.

البلاذري[327]، يجعل بدء عملية التعريب، بعد مقتل زاذان فروخ في البصرة أيام فتنة ابن الأشعث، وذلك بعد أن أخبر صالح بن عبد الرحمن، الأمير، بما كان قد جرى بينه وبين زاذان فروخ في نقل الديوان، فحفز ذلك الحجاج على الإسراع في النقل، وعهد بذلك إلى صالح[328].

إن التاريخ الذي حدده الجهشياري[329] للتعريب، وهو سنة (78هـ ـ 697م) يحتمل أن يكون معقولاً، ولا يوجد تعارض بين عمل صالح في الترجمة، ووجود زاذان فروخ، وابنه من بعده على ديوان الخراج، لأن ما ترجمه صالح ثم بدأ بإدخاله إلى العربية، هو الكتب الرسمية وأوراق الحسابات التي تعرض أمام الحجاج، في حين أن سجلات المقاطعات والأقاليم ظلّت كما كانت بالفارسية، إلى أن حان الوقت لتغييرها أيضاً[330]. لقد أمضى صالح وقتاً غير قليل في تدريب الرجال القادرين والراغبين في إتمام هذه المهمة، وفي الوقت نفسه استمر الموظفون والكتّاب القدامى المدربون على ما كانوا عليه، في حين انهمك صالح ومساعدوه في تنظيم وتنسيق سجلاتهم في الدائرة المركزية، وبذلك تكون الخطوة العظيمة قد اتخذت على الرغم من كل الصعوبات[331].

---

(327) فتوح البلدان، ص368، أنساب الأشراف، ص352 طبعة (أهلورت).

(328) فتوح البلدان، ص368، ويرجّح (الريس) في كتابه: الخراج في الدولة الإسلامية، ص203 (الحاشية)، هذا الرأي الأخير، ويذكر أن التاريخ الذي يورده الجهشياري لنقل الدواوين لابد أن يكون خطأ، وهو يرى أنه ربما كان مقلوباً، والصواب ـ في رأيه ـ أنه في سنة سبع وثمانين (705 ـ 706م) وإذا أخذنا بهذا الرأي فمعنى هذا، أن التعريب تم في عهد الوليد الأول، وليس في عهد عبد الملك الذي توفي سنة (86هـ/705م)، وهذا غير ثابت من الناحية التاريخية.

(329) الوزراء والكتّاب، ص38.

(330) من ذلك مثلاً أن حسابات خراسان ظلت بالفارسية إلى سنة (124هـ/741م) حيث تم تعريبها في زمن نصر بن سيار، وذلك بأمر من يوسف بن عمر والي العراق، ينظر: الوزراء والكتّاب، ص67.

(331) Sprengling, Op. Cit., PP. 195-96.

لقد حارب الفرس فكرة تعريب الدواوين حتى آخر لحظة، وقاموا بمحاولتين لإعاقتها، ففي المحاولة الأولى التي تزعَّمها مردانشاه بن زاذان فروخ، حاول أن يقنع صالحاً باستحالة ترجمة المصطلحات الفارسية إلى العربية، فسأله: «كيف تصنع بدهويه (العشر) وششويه؟ (واحد من العشرين)»[332] «قال: اكتب عشر ونصف عشر. قال: فكيف تصنع بويد[333]. قال: اكتبه أيضاً والويد النيف ـ والزيادة تزاد»[334]. ولقد عبَّر مردانشاه عن يأس الفرس من صالح بن عبد الرحمن، وذلك عندما لعنه قائلاً: «قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية»[335]!. وفي المحاولة الثانية، حاول الفرس اتباع أسلوب الرشوة فبذلوا لصالح مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان، فأبى ومضى قدماً في مهمته بعد أن ثبت في وجه التهديدات والإغراءات، لكنه لم يخن زملاءه المستخدمين، وإلا لما بقوا في مناصبهم لحظة أخرى[336]. وليس غريباً بعد هذا أن يتخرج على يديْ هذا الرجل، معظم الكتّاب العظماء للجيل التالي في الشرق، يقول الجهشياري:[337] «وكان عامة كتّاب العراق تلامذة صالح». وفيه يقول عبد الحميد بن يحيى، كاتب مروان بن محمد: «لله دَرّ صالح ما أعظم منته على الكتّاب»[338]. لكن مركزه لم يكن واضحاً، فهو لم يعد بالتأكيد المساعد الخاص لزاذان فروخ، غير أنه كان مقرَّباً من

---

(332) في العربية صِيَغ ملائمة للكسور نازلاً إلى العشر، ولكن ليس هناك اصطلاح لما هو أدنى من العشر: Ibid., P. 196.

(333) الويد (Wid) تعني الأكثر قليلاً، يراجع: Ibid., P. 196.

(334) فتوح البلدان، ص368، وفي «الأوائل» ص207، أن زاذان فروخ نفسه هو الذي سأل صالحاً عما يصنعه بالإضافات عند الترجمة، فأجابه صالح: «أقول أيضاً».

(335) فتوح البلدان، ص368، الفهرست، ص242، الأحكام السلطانية، ص203.

(336) Sprengling, Op. Cit., P. 196.

(337) الوزراء والكتّاب، ص39.

(338) فتوح البلدان، ص369.

الحجاج شخصياً، ويقوم بالمهام التي تُعهد إليه مباشرة مستمداً السلطة على معاونيه، وكتّابه من قربه من الأمير، فضلاً عن قوة شخصيته[339] وقد استمر محافظاً على مركزه حتى نهاية عهد الحجاج، حيث ولي خراج العراق لسليمان بن عبد الملك[340] (96 ـ 99هـ ـ 714 ـ 717م) إلا أنه لقي نهاية مؤلمة في زمن يزيد الثاني (101 ـ 105هـ ـ 719 ـ 723م)، فقد عُذّب ومات في السجن على يد عمر بن هبيرة[341].

يذكر (E.G.Browne)[342]، أن محاولة التعريب، وتخليص دوائر الدولة من غير العرب أنتجت فقط نجاحاً جزئياً ووقتياً. وليس هذا صحيحاً، لأن النتائج التي تمخضت عن عملية التعريب كانت عظيمة جداً، وفي مقدمتها تحقق نصر اللغة العربية، على الفارسية، والرومية والقبطية. ولقد أصبح تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الجاليات في أقاليم الدولة المختلفة، فكان هذا من أهم العوامل في انتشار اللغة العربية[343] التي أصبحت لغة الثقافة والإدارة إلى جانب كونها لغة السياسة والدين، وقد تضمنت عملية نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية فقداناً كبيراً لتأثير الفرس[344]، كما كانت أحد العوامل التي أثارت استياء أعداء الدولة الأموية[345]، ولهذا فليس مستغرباً أن نرى بعض الروايات، المتأثرة بالشعوبية، تحاول أن تظهر التعريب وكأنه مرتجل، أو تنسبه إلى أسباب تافهة وهو : «أعظم حدث

---

(339) Sprengling, Op. Cit., P. 197.

(340) تاريخ خليفة بن خياط : 1/ 317، الطبري: 2/ 1282.

(341) الوزراء والكتّاب، ص58، وعمر بن هبيرة الفزاري هو والي العراق، ولاّه يزيد الثاني على العراقين (الكوفة والبصرة) سنة 103هـ/ 721م) توفي بالشام : تاريخ خليفة: 1/ 335، المعارف، ص408.

(342) «A Literary History of Persia» Vol,1 (Cambridge 1951), P. 206.

(343) الريس، عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية، ص286.

(344) Sykes, «A History of Persia» Vol 1 (London 1958), P. 550.

(345) جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، ص67 ـ 68.

ثقافي سياسي بعد جمع القرآن نظم وفق خطة شاملة»[346]. لقد كان هذا العمل يعني أكثر من مجرد التعريب لسجلات الضرائب، أنه نشر للثقافة العربية التي طغت على الثقافات الأخرى وطبعتها بطابعها الخاص وهذا أدى حتماً إلى زوال نفوذ بعض الفئات التي كان كيانها مستمداً من التفوق في الثقافة والمدنية.

(346) الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص 15 ـ 16.

أهم المصادر والمراجع

* ابن الأثير: علي بن أبي الكرم (630هـ/ 1233م).
1. الكامل في التاريخ، (بيروت، 1965 ـ 1967).
* البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (279هـ/ 892م).
2 ـ أنساب الأشراف، ج4 طبعة: Max Schlcessinger (القدس، 1938).
S.D.F.Goitein: ج5 طبعة، (القدس، 1936)
W. Ahlwardt: ج11 طبعة
(غريفزولد، 1883).
3 ـ فتوح البلدان، نشر: صلاح الدين المنجد (القاهرة، 1957).
* الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ/ 868 ـ 869م).
4. العثمانية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة، 1955).
* الجهشياري: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (331هـ/ 942م).
5. الوزراء والكُتّاب، تحقيق : مصطفى السقّا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط1 (القاهرة، 1938).
* ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (808هـ/ 1405م).
6. المقدمة، طبعة : دار إحياء التراث العربي (بيروت).
* ابن خياط : أبو عمر خليفة بن خياط العصفري (240هـ/ 854م).
7. تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق : أكرم ضياء العمري (النجف،1967).
* ابن سعد: محمد بن سعد بن منبع البصري (230هـ/ 844م).
8. كتاب الطبقات الكبير، نشر : إدوارد سخاو (ليدن، 1905 ـ 1921).
* الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى (335هـ/ 946م).
9. أدب الكتاب، باعتناء: محمد بهجة الأثرى، المطبعة السلفية (القاهرة، 1341هـ).
* الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ/ 922م).
10. تاريخ الرسل والملوك، طبعة دي غويه (ليدن، 1879 ـ 1903).

* ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا (709هـ/ 1309م).
11. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده (مصر).
* ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد (328هـ/ 939م).
12. العقد الفريد، تحقيق : أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2 (القاهرة، 1948 ـ 1953).
* أبو عبيد : القاسم بن سلام (224هـ/ 838م).
13. كتاب الأموال، طبعة: محمد حامد المفتي (القاهرة، 1353هـ).
* العسكري: أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (382هـ/ 992م).
14. كتاب الأوائل، تحقيق: محمد السيد الوكيل (طنجة، 1966).
* ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (276هـ / 889م).
15. المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب (القاهرة، 1960).
* قدامة : أبو الفرج بن جعفر (337هـ/ 948م).
16. الخراج، مخطوطة مصورة بالفوتستات في المكتبة المركزية بجامعة بغداد رقم (13)، عن مخطوطة باريس المرقمة ( ).
* الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (450هـ/ 1058م).
17. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط2 (القاهرة، 1966).
* المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (346هـ/ 957م).
18. التنبيه والإشراف، تحقيق : عبد الله إسماعيل الصاوي (القاهرة، 1938).
* اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (284هـ / 897م).
19. تاريخ اليعقوبي، طبعة : هوتسما، (ليدن، 1883).
* أبو يوسف: القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (182هـ/ 798م).
20. الخراج ط3، المطبعة السلفية، (القاهرة، 1382هـ).
* بارتولد : ف. بارتولد.
21. تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة : حمزة طاهر، ط3 (دار المعارف بمصر، 1958).
* جوزي: بندلي جوزي.
22. من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، طبعة: دار الروائع، (بيروت).
* الدوري : عبد العزيز.
23. مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مطبعة المعارف (بغداد، 1949).
24. النظم الإسلامية، ط1 (بغداد، 1950).

* العلي : صالح أحمد.
25. التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول للهجرة، ط1 (بغداد، 1953).

26. Belaev. E., "Arabi, Islami Arabski Khalifat V Rannim serdno Vekovii, (Moskova, 1966).

العرب والإسلام والخلافة العربية في العصور الوسطى المبكرة (باللغة الروسية).

27. Browne, E. G. "A Literary History of Persia, Vol. 1 (Cambridge 1951).
28. Philip, G., "The Monetary Reforms of Abd Al- alik", Journal of the Economic and Social History of the Orient, JESHO, III, 1960.
29. Sprengling. M. "From Persian to Arabic". The American Journal of Semitic Languages and Literature, Vol., 56, 1939.
30. Sykes, S. P. "A History of Persia, Vol. 1. (London, 1958).
31. The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, 1960.

وقد رمزنا لها في البحث بـ E-12



الحدود الجنوبية لولاية العراق في العصر الأموي

نشر هذا البحث في مجلة التربية والعلم
العدد 31، الموصل، 2001

للعراق في العهود الأولى، ولاسيما في العصر الأموي، حدود معروفة، أشار إليها كثير من الجغرافيين العرب، وهي تختلف عن حدوده الإدارية التي تتعلق بـ (عمل العراق)، أي المناطق التي تتبعه من الناحية الإدارية. وهذه، بطبيعة الحال، قابلة للتغيير نتيجة للظروف والأحوال السياسية، والتقسيمات الإدارية في العصور المختلفة، فيذكر ابن الفقيه الهمداني[347]، (توفي نحو سنة 289هـ/ 902م)، أن : «من ولي العراق فقد ولي البصرة والكوفة والأحواز وفارس وكرمان والهند والسند وسجستان وطبرستان وجرجان. . .». وهو في هذا يستند إلى رواية المدائني الذي يقول: إن عمل العراق من هيت الى الصين والسند والهند، يضاف إلى

(347) أبو بكر أحمد بن محمد، مختصر كتاب البلدان، نشر، دي غويه، ليدن، مطبعة بريل، 1885، ص162.

ذلك الري، وخراسان، والديلم، والجبال، وأصبهان التي هي سُرّة العراق[348].

وبطبيعة الحال، فإن هذا الوصف لا ينطبق على كل الحقب في العصر الأموي، فإن بعض الولاة عُيّنوا على الكوفة والبصرة، أو ما يسمى بالعراقَيْن فقط. مثال ذلك الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي عيِّن أولاً على العراقين، ثم أضيفت إليه بقية المناطق التي ألحقت إدارياً بالعراق، بعد توسع حركة الفتوح الإسلامية[349].

ولا شك في أن الذي يثير اهتمامنا في هذا البحث هو ولاية العراق بحدودها الجغرافية، ولاسيما القسم الجنوبي منها، كما وردت في المصادر التاريخية والجغرافية إبان العصر الأموي. وقد تم اختيار هذا العصر ليكون أنموذجاً للعصور الأخرى، لأن هذه الحدود حافظت على شكلها العام في العصور الإسلامية اللاحقة، وإن اختلف الجغرافيون في التفصيلات الدقيقة، فقد كان العراق يمتد من الجزيرة الفراتية شمالاً إلى عبادان جنوباً، ومن القادسية غرباً إلى حلوان شرقاً، وينقل ياقوت الحموي[350]، عن ابن عياش قوله بالنسبة إلى الحدود الجنوبية للعراق: «أن البحرين من أرض العراق». ولا يقصد بالبحرين هنا، الجزر التي تمثلها في الوقت الحاضر، بل كان لها مفهوم أوسع يشمل كل الأراضي التي تطل على الخليج العربي من البصرة إلى عمان.

ولا يوجد اختلاف كبير بين المنطقة التي يطلق عليها (السواد)

---

(348) المصدر نفسه، ص161 ـ 162، ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، ط2، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1948 ـ 1946: 1953/ 248.

(349) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الموصل، مطبعة الجامعة، 1985، ص58 ـ 59.

(350) معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977، 4/ 94.

والعراق بحدوده التي أشرنا إليها آنفاً. والسواد هو تعبير أدبي لإقليم العراق المزروع، حيث تميل المزروعات إلى الخضرة الداكنة، فسميت سواداً، والسواد هو أقدم أسم عربي للأراضي الغرينية على دجلة والفرات، وقد أكثر الفقهاء من استعمال هذا التعبير حتى اتسع مدلوله ليعني هو العراق لفظين مترادفين في الغالب[351]. وعلى هذا نجد في كثير من الأحيان حدود السواد مشابهة تقريباً للحدود السابقة التي يذكرها الجغرافيون المسلمون للعراق[352].

أما بالنسبة إلى الحدود الجنوبية، فإن المصادر تشير إلى اقتران امتداد العراق إلى البحر بالتسمية التي تطلق عليه، أي (العراق)، ما يؤكد أنه كان يمتد إلى مسافات شاسعة على الخليج العربي، فقد سمي العراق عراقاً لأنه سفل عن نجد ودنا من البحر[353]. والعراق لغة: شاطئ الماء، وخصّ بعضهم به شاطئ البحر، فهو على شاطئ دجلة والفرات حتى يتصل بالبحر على طوله، وأهل الحجاز يسمون ما كان قريباً من البحر عراقاً[354]. وتعد البحرين، كما أسلفنا، من أرض العراق، وهي تشمل كل الأراضي الممتدة على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعُمان.

---

(351) كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، 1954، وينظر أيضاً : صالح أحمد العلي، دراسات في الإدارة في العهود الإسلامية الأولى، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1989، ص172 ـ 173.

(352) ينظر : القاسم بن سلام (أبو عبيد)، كتاب الأموال، القاهرة، مطبعة محمد حامد المفتي، 1353 هـ، ص72، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أدب الكتّاب، باعتناء، محمد بهجت الأثري، القاهرة، المطبعة السلفية، ص219، أبو الحسين علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط2، 1966، ص173، ياقوت، معجم البلدان: 4/ 94.

(353) المصدر نفسه، 1/ 347.

(354) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ابن منظور)، لسان العرب المحيط، بيروت، دار لسان العرب، 1970 (مادة عرق).

وكانت البحرين من أعمال العراق في العصر الأموي، وحَدَّها عمان ناحية جرفار، وتتبعها اليمامة أيضاً، وربما أفردت اليمامة، ولكن، على العموم، فإن المنطقة كلها كانت عملاً واحداً، وظلت هكذا في العصر العباسي أيضاً[355].

وكانت هذه المناطق في العصر الأموي مرتبطة بالبصرة التي كان أميرها مسؤولاً عن إدارة العراق كله، والأقاليم كافة الواقعة على الخليج، ويضمنها، بطبيعة الحال، المنطقة الجنوبية التي تعرف الآن بالكويت. لكن هذا الاسم لم يرد في مصادرنا العربية القديمة أو الوسيطة، بل أطلقت تلك المصادر اسم (كاظمة) أو (كاظمة البحور) على تلك المنطقة[356]. وهي بحسبما يصفها ياقوت[357]: «جو (أي متسع من الأرض) على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان، وفيها ركايا كثيرة، وماؤها شروب واستسقاؤها ظاهر، وقد أكثر الشعراء من ذكرها...». ويظهر أن كاظمة بقيت عامرة إلى أواخر العصر العباسي، ثم خربت بعد ذلك، وهي الآن تقع في الشمال الغربي من مدينة الكويت على رأس جون الكويت، وهي مهملة متروكة، ليس فيها سوى جماعة من الصيادين[358].

وقد سكنت هذه المناطق قبائل عربية معروفة كانت تتنقّل في المنطقة، مثل بني شيبان، حيث أشار البكري[359] إلى أن : «كاظمة من

(355) ياقوت، معجم البلدان : 1/ 348.

(356) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، بغداد دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ص 249.

(357) ياقوت، معجم البلدان: 4/ 431.

(358) حسين خلف، تاريخ الكويت السياسي، بيروت، 1962: 1/ 24، عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام، بغداد وزارة الثقافة والإعلام، 1973، ص76.

(359) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد =

مياه شيبان». كذلك كانت ديار بكر بن وائل من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر، فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت[360]. كما سكنت قبائل بني تميم أيضاً منطقة كاظمة، حيث تشير المصادر إلى أن نجدة بن عامر الحنفي، أحد زعماء الخوارج في المنطقة، قاتل بني تميم في كاظمة وطويلع، وهو واد في طريق البصرة إلى اليمامة فيه ماء لبني تميم[361]، وأجبرهم على أن يؤدوا له الصدقة سنة 68هـ/687م، وبذلك امتد سلطانه إلى أطراف العراق[362].

كما سكنت المنطقة أيضاً قبائل بني عبد القيس التي جاءت من تهامة بقيادة عمرو بن الجعيد بن صبرة بن الديل بن أفصى بن عبد القيس الذي يقال له الأفكل[363]. وقد اقتسمت هذه المنطقة بين بطونها، وانتشرت في أكثر أجزائها بما في ذلك المدن والمناطق الساحلية.

وكانت تقام في مواطن عبد القيس الأسواق الأدبية على غرار سوق عكاظ، مثل سوق المشقر، وسوق دارين، وقد استقرت بطون عديدة من هذه القبائل في البصرة، ما يشير إلى تعدد مجموعاتها وانتشارها في هذه المناطق[364]. كذلك جاءت مجموعات من قبائل الأزد التي هاجرت من

= والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1364 ـ 1367 هـ: 3/ 1110.

(360) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص284.

(361) ياقوت، معجم البلدان: 4/ 15.

(362) علي بن أبي الكرم (ابن الأثير)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979: 4/ 203.

(363) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1962، ص299.

(364) ينظر: صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بيروت، دار الطليعة، 1969، ص325 ـ 326.

اليمن بعد انهيار سد مأرب، وكانت تتألف من عشائر وبطون متعددة، شأنها شأن غيرها من القبائل العربية الأخرى، ومن هذه القبائل من قصد عمان واليمامة والبحرين، ومنهم من توجه شمالاً إلى المناطق الأخرى لولاية العراق[365]، ومن القبائل الأخرى التي سكنت المنطقة، بنو سامة بن لؤي، يسمون ببني ناحية، وقد احتفظ هؤلاء بوحدتهم القبلية، فلم يندمجوا بالأزد ولكنهم صاروا حلفاء لهم، ما يدل على أن علاقاتهم كانت طيبة معهم وكان لبني سامة بارزة، وقد هاجر بعضهم من شرق الجزيرة إلى البصرة، وكانت قبائل أياد تتجول في العراق من بارق بالخورنق إلى الجزيرة غرباً فإلى كاظمة شرقاً وجنوباً[366]، وهذا يدل على وحدة هذه القبائل التي اتخذت العراق مستقراً لها، وأنها كانت تنتمي إلى تلك الأرض الواحدة، لا فرق بين كاظمة، والبصرة وبقية أرض السواد.

أما بالنسبة إلى الأحوال السياسية والإدارية لجنوب العراق، فقد كانت ـ كما أسلفنا ـ من صلاحية والي العراق، وهو المسؤول عن تعيين العمال على هذه المناطق، وقد أشار المؤرخون إلى قوائم بأسماء هؤلاء العمال الذين عيِّنوا على البحرين، واليمامة، وعمان في العصر الأموي[367].

وكانت الاضطرابات التي تقوم في المنطقة الجنوبية لولاية العراق، تعالج، بطبيعة الحال، من قبل الولاة والقادة المسؤولين في البصرة، مثال ذلك حركة عبد الله بن ثور المعروف بأبي فديك الخارجي سنة 72هـ/692م، الذي غلب على البحرين، فأرسل إليه خالد بن عبد الله الذي كان

---

(365) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص328.

(366) المصدر نفسه، ص286.

(367) ينظر: العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص337 ـ 340، النجم، البحرين في صدر الإسلام، ص153 ـ 154.

يحارب الخوارج في الأحواز، أخاه أمية بن عبد الله للقضاء على حركته، فلم يفلح أمية، فوجَّه إليه عمر بن عبيد الله بن معمر، الذي قضي عليه[368]، كذلك خرج رجل من بني عبد القيس بناحية البحرين في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، فبعث إليه الحجاج الحكم بن أيوب بن الحكم الثقفي، وكان يومئذٍ عاملاً على البصرة فقتله[369].

وقامت حركة أخرى في منطقة الخليج العربي في ساحل عمان، قادها الأخوان سعيد وسليمان أولاد عباد بن الجلند بن المستقر من الأزد، وذلك في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي[370]، وذلك لشعور العمانيين بأن استقلالهم ضمن الدولة العربية الإسلامية أصبح مهدداً بسياسة الحجاج الهادفة إلى جعل سلطة الخليفة فعالة في جميع أنحاء الدولة، وكان للحرب الأهلية بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، وكذلك بعد عمان عن مركز الدولة أثر في تشجيع الأزد على استغلال هذه الفرصة لإعادة تأكيد استقلالهم الذي حافظوا عليه منذ عهد الرسول ﷺ.

ولم يتمكن الحجاج بن يوسف من القضاء على هذه الحركة بسهولة لأن منطقة عُمان كانت منطقة جبلية صعبة الاجتياز، وتحدها من الغرب صحراء الربع الخالي التي يمكن استخدامها ملجأ للانسحاب عند الضرورة، وقد ساهمت هذه الصعوبة دون شك في فشل حملات الحجاج الأولى، بحيث دحر الأزديون جيشاً بقيادة القاسم بن شعوة المزني، وقتلوا قائده القاسم، ولما وصلت هذه الأنباء إلى الحجاج أرسل لهم جيشاً آخر

(368) أحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب (اليعقوبي)، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر (د.ت): 2/ 273، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1903: 2/ 839.

(369) اليعقوبي، المصدر السابق: 2/ 275.

(370) ينظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، النجف، 1967: 1/ 319.

قوامه نحو أربعين ألفاً من النزاريين فقط، وأعطى قيادته إلى مجاعة بن شعوة المزني، أخي القاسم الذي قُتِل في الحملة السابقة، وقد سلك نصف هذا الجيش طريق البر، في حين أن النصف الآخر اتخذ البحر طريقاً له، وقاوم الأزديون مقاومة عنيفة فدحروا الجيش البري الذي كان قد وصل عُمان مبكراً، كما تمكنوا من إحراق خمسين سفينة من سفن مجاعة، ومع ذلك لم يستطع الأزديون الصمود، ولاسيما بعد سماعهم بقدوم مدد جديد من الحجاج بن يوسف يقدَّر عدده بخمسة آلاف جندي من أهل الشام، وقد هرب زعيما الحركة مع أسرتيهما وممتلكاتهما إلى ساحل أفريقيا الشرقي، وانتهت بذلك هذه الحركة[371]. وعيَّن الحجاج بن يوسف بعد ذلك على عمان والياً، هو الخيار بن سبرة المجاشعي[372] الذي بقي هناك حتى وفاة الحجاج، حيث لم يواجه أي متاعب أخرى من قبل الأزد.

والجدير بالذكر أن هذه الحركة حظيت بمساعدة قبائل الأزد الموجودين في البصرة وكان ذلك عاملاً مساعداً في استمراريتها، ومقاومتها للسلطة الأموية، وكان من أحد إجراءات الحجاج بن يوسف، إخضاع زعماء الأزد في البصرة للمراقبة الشديدة، وذلك لمنعهم من مساعدة الثوار في عمان، وهذا يدل دلالة قاطعة على وحدة الشعب والقبائل والأهداف في منطقة الخليج العربي التي كانت تشكل الأجزاء الجنوبية لولاية العراق في العصر الأموي.

(371) عبد الأمير عبد دكسن، الخلافة الأموية 65 ـ 86هـ/ 684 ـ 705م دراسة سياسية، بيروت، دار النهضة العربية، 1973، ص242.

(372) الطبري، المصدر السابق: 2/ 1140.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن الأثير، علي بن أبي الكرم.
1 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979.
* البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز.
2 ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1364 ـ 1367هـ.
* ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد.
3 ـ جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1962.
* ابن خياط، خليفة بن خياط.
4 ـ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، النجف، 1967.
* الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى.
5 ـ أدب الكتاب، باعتناء: محمد بهجت الأثري، القاهرة، المطبعة السلفية، 1341هـ.
* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.
6 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غويه، ليدن، 1679 ـ 1903.
* ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد.
7 ـ العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، ط2، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1948 ـ 1953.
* أبو عبيد، القاسم بن سلام.
8 ـ كتاب الأموال، طبعة محمد حامد المفتي، القاهرة، 1353 هـ.
* ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد بن الفقيه الهمداني.
9 ـ مختصر كتاب البلدان، نشر، دي غويه، ليدن، 1885.
* الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب.

10 ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط2، القاهرة، 1966.

* ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري.

11 ـ لسان العرب المحيط، بيروت، دار لسان العرب، 1970.

* الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب.

12 ـ صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.

* ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي.

13 ـ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977.

* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب.

14 ـ تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر (بدون تاريخ)، توزيع دار صعب.

ب ـ المراجع الثانوية:

* خلف، حسين.

15 ـ تاريخ الكويت السياسي، بيروت، 1962.

* دكسن، عبد الأمير عبد.

16 ـ الخلافة الأموية، 65 ـ 86هـ/ 684 ـ 705م دراسة سياسية، بيروت، دار النهضة العربية، 1973.

* طه، عبد الواحد ذنون.

17 ـ العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الموصل، مطبعة الجامعة، منشورات مكتبة بسام، 1985.

* العلي، صالح أحمد.

18 ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بيروت، دار الطليعة، 1962.

19 ـ دراسات في الإدارة في العهود الإسلامية الأولى، بغداد، مطبعة المجمع العامي العراقي، 1989.

* لستر نج كي.

20 ـ بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة، بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، 1954.

* النجم، عبد الرحمن عبد الكريم.

21 ـ البحرين في صدر الإسلام، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، 1973.

الأحوال السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية
إبان العصر الأموي

نشر هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العراقي،
ج1، م44، بغداد، 1997

المقصود بجنوب غرب الجزيرة العربية في هذا البحث هو اليمن بحدوده القديمة التي كانت معروفة في العهود الإسلامية، وقد أسهب الهمداني[373] في وصف هذه الحدود، والصفة الجغرافية لهذه البلاد، التي تتكون من عدة مناطق جغرافية، يأتي في مقدمتها الهضبة الوسطى، التي تضم مناطق استقرار العديد من القبائل اليمنية المعروفة، أمثال: منطقة حمير، ومنطقة همدان، ومنطقة خولان، ومنطقة نجران. أما منطقة حضرموت التي تقع شرق هضبة اليمن الوسطى، فكانت مقراً لاستقرار القبائل المعروفة بالاسم نفسه، وقبائل كندة وبطونها المتعددة، مثل

(373) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن الأكوع، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ص90 فما بعدها.

تجيب، والسكاسك، والسكون. وتمتد منطقة الجوف ومأرب فيما بين حضرموت جنوباً ونجران شمالاً، وهي مناطق همدان المشهورة. كما سكنتها أيضاً بعض القبائل التي تنتسب إلى مذحج، مثل: مراد، وعنس، وسعد العشيرة. وتشمل منطقة تهامة، ساحل اليمن على البحر الأحمر من أم جحدم إلى باب المندب. وقد سكنتها قبائل عك، والأشعريين، بالإضافة إلى قبائل حمير التي كانت لها أراض في هذه المنطقة.

ويشير هذا الوصف الجغرافي إلى أن معظم المناطق والأماكن الجغرافية فيه قد سُميت بأسماء القبائل، الأمر الذي يدل على قوة النظام القبلي وأثره البالغ في جنوب غرب الجزيرة العربية. كما أن بقاءه حتى زمن الهمداني (القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد) يدل على مدى تغلغله وعمق جذوره في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية[374]. ويبدو هذا العامل واضحاً في مختلف حقب التاريخ اليمني، سواء قبل الإسلام أو بعده. وقد ظهر هذا بشكل ملموس في الحقبة التي أعقبت استشهاد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وما رافقها من اضطراب سياسي، ساهمت فيه القبائل اليمنية المختلفة ، سواء في داخل اليمن، أو في الأمصار. فمنها ما كان مؤيداً لموقف معاوية بن أبي سفيان في مطالبته بدم الخليفة عثمان (رضي الله عنه)، أو مؤيداً للإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في جهوده لتعزيز وحدة الخلافة الإسلامية.

وقد ابتدأت الأحداث بالتطور في اليمن منذ وصول خبر استشهاد الخليفة عثمان (رضي الله عنه)، وتعيين عمال الإمام علي (رضي الله عنه). فخرج والي الخليفة عثمان على الجَنَدْ[375]، عبدالله بن أبي ربيعة

(374) يقارن: نزار عبد اللطيف الحديثي، أهل اليمن في صدر الإسلام، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1978، ص 65.

(375) الجَنَدْ : إحدى أمهات المدن في اليمن، تقع على بعد 58 فرسخاً جنوب صنعاء، =

المخزومي، وواليه على صنعاء يعلى بن أمية، باتجاه الحجاز. لكن عبد الله بن أبي ربيعة لم يفلح في الوصول، فقد سقط عن راحلته ومات في الطريق[376]. أما يعلى بن أمية فقد خرج ومعه أموالاً طائلة، ووصل إلى الحجاز والتحق بمن كان يزمع الخروج لقتال الإمام علي في العراق[377]. ومن المتوقع أن عمال الخليفة عثمان لم يخرجوا وحدهم، ولابد من أنهم كانوا على رأس قوة من أهل اليمن، ولاسيما من منطقة حِمْير، التي كان يشرف عليها عبد الله بن ربيعة، ومن منطقة صنعاء، التي كان يشرف عليها يعلى من أمية. ويتوضح هذا من استعراض موقف أهالي المنطقتين من الأحداث، ومكاتبتهما لمعاوية بن أبي سفيان لتوجيه العمال إليهم، بدلاً من عمال الإمام علي بن أبي طالب[378].

ويبدو أن سياسة عمال الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لم

= أي نحو 348 كم، وهي تكوّن بالإضافة إلى صنعاء وحضرموت أعمال اليمن الثلاثة المعروفة في الإسلام. ينظر: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 2/ 169.

(376) أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979: 3/ 200؛ ويقارن: يحيى بن الحسن بن القاسم بن محمد بن علي، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، (القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1968) ص 94، وسوف نرمز له في الإحالات الآتية هكذا: (غاية الأماني).

(377) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غويه (ليدن، مطبعة بريل، 1879 1903 م): 1/ 3089، 3100، 3102، 3183؛ وينظر: أبي الأثير، الكامل: 3/ 207؛ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: مصطفى حجازي: القاهرة، مطبعة منير، 1965 م، ص 15، وسوف نرمز له في الحالات الآتية هكذا: (بهجة الزمن).

(378) ينظر: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، توزيع دار صعب، دون تاريخ: 2/ 197؛ أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي، الفتوح، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986م: 2/ 226 ـ 277؛ ويقارن: عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، دمشق، دار الفكر، 1408 هـ/ 1987م، ص 356، 357 ـ 358.

تأخذ في الاعتبار حراجة الموقف ودقته. فقد بالغ والي صنعاء، عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب في ملاحقة من كان يرى المطالبة بدم الخليفة عثمان (رضي الله عنه). فحبس بعضهم، الأمر الذي أدى إلى استياء قبائلهم الذين هددوا عبيد الله بن العباس بخلع طاعته، وطاعة الخليفة علي بن أبي طالب. ولما رفض الوالي إخلاء سبيل المسجونين، أظهر أهل صنعاء العصيان، ومنعوا زكاة أموالهم[379]. ولا تشير المصادر بالتفصيل إلى ما قام به والي الجَنَدْ، سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري من إجراءات في منطقته. ولكن من المتوقع أنه لاحق معارضيه، كما فعل عبيد الله بن العباس[380]. بحيث تشير رواية ابن أعثم الكوفي[381]، إلى موقف معارض لبعض أهالي الجَنَدْ، الأمر الذي تطلب من الخليفة علي ابن أبي طالب (رضي اله عنه) أن يرسل إليهم كتاباً يهددهم فيه، ويدعوهم للكف عن الخلاف. لكنهم، مع ذلك، ظلوا على موقفهم، وراسلوا معاوية بن أبي سفيان ليبعث لهم عاملاً من عنده، لأنهم ما زالوا على بيعة الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه).

وشجعت أحداث اليمن، ومراسلات أهلها معاوية بن أبي سفيان على إرسال حملة عسكرية إلى اليمن، وذلك بعد انقضاء حرب صفين والتحكيم سنة 40هـ/ 660م[382]، بقيادة بسر بن أرطأة و(ابن أبي أرطأة)،

---

(379) ابن أعثم، المصدر السابق : 2/ 266 ؛ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق : الشيخ باقر المحمودي (بيروت، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، 394هـ/ 1974م) : 2/ 453 .

(380) يشير البلاذري إلى أن والي الجند، الذي وهم في اسمه فجعله سعيد بن نمران الهمداني، صنع بأهل الجند مثلما صنع عبيد الله بن العباس بأهل صنعاء، حيث اشتد عليهم. وطرد قوماً من أنصار الخليفة عثمان (رضي الله عنه)، ينظر: أنساب الأشراف: 2/ 453 .

(381) الفتوح : 2/ 266 ـ 277 ؛ وينظر أيضاً : البلاذري، أنساب الأشراف : 2/ 453 .

(382) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق : أكرم ضياء العمري (النجف، =

وهو رجل من بني عامر بن لؤي[383]. وكانت مهمته تتلخص في التوجه إلى المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والطائف، ومن ثم إلى اليمن للسيطرة عليها، وتتبع أنصار الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فيها. ولما وصلت الحملة إلى الحجاز، كتب والي مكة أبو موسى الأشعري إلى عبيد الله بن العباس في اليمن يخبره بأمر الحملة[384]. فحاول عبيد الله هذا القيام بإجراءات احترازية ، وحث الناس على المقاومة، فجمع أهل صنعاء وحرَّضهم على القتال، فقال له فيروز الديلمي (صحابي توفي سنة 53هـ/ 673م): «ما عندنا قتال فاستر شأنك»[385] أو «فاصنع ما تريد»[386] أو «احترز في نفسك»[387]. وهو موقف يدل على عدم استعداد أهل صنعاء للوقوف إلى جانب عبيد الله بن العباس، فاضطر لترك المدينة والخروج إلى الإمام علي (رضي الله عنه)

= مطبعة الآداب، 1386هـ/ 1967م) : 1/ 182 ؛ اليعقوبي، تاريخ : 2/ 197 ؛ الطبري، المصدر السابق : 1/ 3450 ؛ ابن أعثم، المصدر السابق : 2/ 218 ؛ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد طه، مصر، مطبعة السعادة، 1386هـ/ 1967م) : 3/ 30 ؛ القاضي حسين بن أحمد العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام، نشر : الأب أنستاس ماري الكرملي، القاهرة، مطبعة البرتيري، 1939م، ص8 ـ 9.

(383) ينظر : ابن المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، جمهرة النسب (رواية السكري عن ابن حبيب)، تحقيق : ناجي حسن، بيروت، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، 1407هـ/ 1986م، ص113 ؛ أبو عبد الله المصعب الزبيري، كتاب نسب قريش، نشر : ليفي بروفنسال (ط2، القاهرة، دار المعارف، 1976 م) ص264، 439 .

(384) الطبري، المصدر السابق : 1/ 3451 .

(385) عمر بن علي بن سمرة الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، تحقيق : فؤاد سيد (القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، 1957 م) ص48 ـ 49 ؛ غاية الأماني، ص96 .

(386) أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد بن أبي مخرمة، تاريخ ثغر عدن (ليدن، مطبعة بريل، 1936 م)، أعادت طباعته مطبعة مكتبة المثنى ببغداد، 2/ 26 .

(387) عبد الرحمن بن علي الديبع، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق : محمد بن علي الأكوع الحوالي، القاهرة، المطبعة السلفية، 1391هـ/ 1971م، ص 86 .

بعد أن استخلف على صنعاء عمرو بن أراكة الثقفي[388]. وتشير روايات أخرى إلى أنه استخلف عبد الله بن عبد المدان الحارثي[389]. ولكن يبدو، وكما يفهم من رواية أبن أعثم الكوفي[390]، أن الحارثي كان عاملاً لعبيد الله بن العباس على نجران.

وعند وصول بسر بن أرطأة إلى اليمن قام بحملة واسعة للبحث عن أنصار الإمام علي (رضي الله عنه)، وقتلهم في معظم مناطق الجنوب الغربي للجزيرة العربية، مبتدئاً بنجران، حيث قتل فيها عبد الله بن عبد المدان الحارثي، وتهدد أهلها[391]. ثم سار نحو جيشان، وهي مدينة من مدن اليمن النجدية، يسكنها خليط من حِمْير[392]، فقاتل فيها مؤيدي الإمام علي (رضي الله عنه)[393]. أما في صنعاء، فقد قتل بسر عمرو بن أراكة الثقفي، خليفة عبيد الله بن العباس، واثنين من أولاد عبيد الله الصغار، كما قتل عدداً من «الأبناء»[394] الذين كانوا موالين لهمدان، وتتبع أعداداً كبيرة من رجال هذه القبيلة، الذين فر معظمهم إلى شبام التي تقوم على سفح جبل كوكبان من جهة الشرق إلى الشمال الغربي من صنعاء[395]. وامتدت عمليات بسر بن أرطأة إلى أنحاء مختلفة من الجنوب

---

(388) البلاذري، أنساب الأشراف (برواية الهيثم بن عدي) : 2/ 456 ؛ وينظر : الجعدي، المصدر السابق، ص 49 ؛ غاية الأماني، ص 96 ؛ ابن الديبع، المصدر السابق، ص 86 .

(389) البلاذري، أنساب الأشراف : 2/ 456 ؛ الطبري، المصدر السابق : 1/ 3452 .

(390) الفتوح : 2/ 232 .

(391) اليعقوبي، تاريخ : 2/ 199 ؛ ابن أعثم، المصدر السابق : 2/ 232 .

(392) الهمداني، صفة، ص 100، 202 .

(393) اليعقوبي، تاريخ : 2/ 199 ؛ ابن أعثم، المصدر السابق : 2/ 233 .

(394) الأبناء هم بقايا الجيش الفارسي الذي جاء إلى اليمن في عهد الملك سيف بن ذي يزن، ينظر : ابن الديبع، المصدر السابق، ص 87، وتعليق المحقق في هامش رقم (1)

(395) المصدر نفسه، ص 86/ 87 ؛ غاية الأماني، ص 96 - 97 ؛ وينظر : ياقوت، المصدر السابق : 3/ 318 .

الغربي للجزيرة العربية، فيقال إنه بلغ عدن[396]، والشحر، وهي ساحل حضر موت[397].

ويبدو أن الروايات قد بالغت في الحديث عن إجراءات بسر بن أرطأة، والأماكن التي وصل إليها، والأعداد التي قتلها من مؤيدي الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)[398]. ذلك أنه لم يمكث طويلاً في اليمن، بسبب سماعه بتوجيه حملة مضادة من العراق إليه، بقيادة جارية بن قدامة السعدي. وحين وصول جارية إلى اليمن، كان بسر قد هرب، وتفرق أصحابه، فلم يكن أمام جارية سوى تعقب مؤيديه وأصحابه وقتلهم، ومن ثم الرجوع إلى الحجاز[399].

ويتبين من هذا العرض السريع للأحوال السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية في أواخر عهد الخلفاء الراشدين، أن الأوضاع لم تكن مستقرة، ولم يكن هناك موقف ثابت للقبائل من القضايا السياسية التي تلاحقت في قلب الدولة العربية الإسلامية. فبينما طالبت جماعات عديدة من حِمْير، ومن أرحب وهم بطن من همدان، من منطقة الجَنَدْ، ومن صنعاء أيضاً، معاوية بإرسال عامل من قبله إلى اليمن، ووقفت معارضة لعمال الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، نجد أن حملة بسر بن

---

(396) أبو مخرمة، المصدر السابق : 2/ 26 .

(397) أحمد بن عبد الله الرازي الصنعاني، كتاب تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق : حسين عبد الله العمري وعبد الجبار زكار (صنعاء، 1974 م) ص 170 ؛ وينظر : ابن أعثم، المصدر السابق : 2/ 233. وعن الشحر، ينظر : ياقوت، المصدر السابق : 3/ 327 .

(398) انظر على سبيل المثال : ابن أعثم، المصدر السابق : 2/ 236، الذي يقدر مجموع ما قتله بسر في اليمن بنحو ثلاثين ألف رجل، علماً أن حملة بسر كانت لا تتعدى أربعة آلاف رجل، بحسبما ذكرته معظم المصادر .

(399) البلاذري، أنساب الأشراف : 2/ 457 ؛ الطبري، المصدر السابق : 1/ 3452 ؛ ابن الديبع، المصدر السابق، ص 88 ؛ أبو مخرمة، المصدر السابق : 2/ 26.

أرطأة، لم تقابل بترحاب من قبل الكثير من أهل اليمن. فقد تعرضت بطون من همدان للاضطهاد والملاحقة، وكان منهم أيضاً جماعات من بني أرحب، الأمر الذي يدل على انقسام هذه القبائل على نفسها في مواقفها من الأحداث. كذلك يشير موقف فيروز الديلمي، الذي أسلفنا الإشارة إليه، من عبيد الله بن العباس إلى التذبذب في الولاء، وخشية العواقب من قبل أهل صنعاء. ووقف أهل الجَنَدْ الموقف نفسه حين خاطبوا معاوية بإرسال والٍ من قبله، وإلا فإنهم سيكتبون إلى الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) معتذرين عما بدر منهم من خلاف[400].

ويبدو أن المواقف السياسية لبعض زعماء القبائل اليمانية قد تأثرت بعوامل نفسية وشخصية، لها علاقة بالمصالح الخاصة والتنافس على الزعامة، والقرب من مصدر القرار السياسي. فقد كان أبو معبد بن حمرة بن يريم (وهو من اللعويين أحد بطون همدان) مع معسكر الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). فلما أعطى الخليفة راية همدان إلى سعيد بن قيس الحاشدي الهمداني، غضب أبو معبد ولحق بمعاوية، ورافق حملة بسر بن أرطأة «فكان له رِجلاً ويداً في بلد همدان فنال من شيعة علي عليه السلام في بلد همدان وصنعاء...»[401]. كذلك فعل وائل بن حجر الضرمي، بحيث غادر معسكر الإمام علي (رضي الله عنه) بحجة المحاولة لإصلاح الحال في اليمن، لكنه مالأ بسراً، وأعانه على اضطهاد معارضي معاوية في اليمن[402].

وفي أوائل العصر الأموي، وعلى الرغم من جهود الخليفة معاوية بن

---

(400) ابن أعثم، المصدر السابق : 2/ 227 .

(401) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، الأكليل، تحقيق : محب الدين الخطيب، القاهرة، المطبعة السلفية، 1368هـ: 10/ 66 ؛ وينظر أيضاً : الأكليل : تحقيق نبيه أمين فارس، بيروت، دار العودة ـ صنعاء، دار الكلمة، دون تاريخ: 8/ 102 ـ 103 .

(402) البلاذري، أنساب الأشراف : 2/ 458 (برواية عوانة بن الحكم) .

أبي سفيان وأنصاره، ظلت مجموعات كبيرة من القبائل اليمنية مؤيدة لآل الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)[403]، ولاسيما همدان التي كانت تمثل قوة كبيرة في جنوب غرب الجزيرة العربية. وقد أشار الهمداني[404]، إلى هذا بقوله: «... لا يقوم لأمير باليمن أمره إلا أن يكون معه ديوان من همدان». وكان الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يقدر مدى أهمية هذه القبيلة وتأييدها، ويمتدح فرسانها الذين كان لهم مواقف جليلة في نصرته في معظم المناسبات[405]. وقد استمر تواجد أنصار اليمن لقضية الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وأولاده من بعده ولاسيما الحسين بن علي، ويدل على ذلك نصيحة عبد الله بن عباس له بعدم الذهاب إلى العراق والتوجه إلى اليمن بدلاً من ذلك: «فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية...»[406]. ويعتقد أحد المؤرخين المحدثين بصدق هذه النصيحة وصوابها، وأن اليمن كانت فعلاً موطناً لكثير من أنصار العلويين، وليس أدل على ذلك من قيام الإمامة الزيدية بعد ذلك بنحو قرنين ونصف من الزمان، وبقائها قائمة هناك أكثر من ألف عام[407].

لكن المصادر لا تشير إلى نشاط ملحوظ لأنصار العلويين في اليمن

---

(403) ينظر : غاية الأماني، ص 117 .

(404) الإكليل، تحقيق : محمد بن علي الأكوع الحوالي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1980م: 216/2 .

(405) المصدر نفسه : 84/8، 34/10 ـ 35، 46، 63 ـ 64 .

(406) الطبري، المصدر السابق : 275/2 ؛ وينظر : المسعودي، المصدر السابق : 64/3 ـ 65 .

(407) حسن سليمان محمود، تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، ط1، بغداد، دار الجاحظ، 1969م، ص 91 .

إبان العصر الأموي، ولم تقم حركات معادية من قبلهم، كما حدث في الحجاز والعراق وغيرهما من أجزاء الدولة العربية الإسلامية. ومعظم الحركات المعادية التي سجلتها المصادر المتوافرة هي حركات الخوارج، التي تعرضت لها اليمن بتأثير من الأقاليم الشرقية للجزيرة العربية.

وقبل الحديث عن هذه الحركات، لابد من توضيح الأوضاع العامة لليمن في العصر الأموي، وعلاقة الولاة بالسكان، وبالحكومة المركزية في دمشق. ونتوقع أن تسهب المصادر في هذا الأمر نتيجة اهتمامها بالأقاليم التي تقع في قلب الدولة العربية الإسلامية. ولكن مع ذلك فإن ما جاء من أخبار متناثرة عن الولاة، وأعمالهم يمكن أن يساعد في رسم صورة عامة للأوضاع في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية.

إن الأمر الأول الذي يمكن ملاحظته، هو عدم الاستقرار في تعيين الولاة، ولاسيما في الفترات الأولى من العصر الأموي، والحقبة التي استعمل ابن الزبير على اليمن. فقد استعمل معاوية بن أبي سفيان في أثناء خلافته (41 ـ 60هـ/ 661 ـ 680م) ستة ولاة[408]، كما استعمل ابن الزبير في السنوات (64 ـ 73هـ/ 683 ـ 692م) نحو تسعة ولاة، كان الواحد منهم لا يقيم في منصبه سنة واحدة أو بضعة أشهر[409]. ويعود هذا الأمر إلى طبيعة الظروف القلقة التي كانت تمر بها الدولة العربية الإسلامية، والحرب الأهلية التي انتهت بوفاة ابن الزبير. ولكن بعد الاستقرار الذي تم في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (65 ـ 86هـ/ 685 ـ 705م) وأبنائه من بعده، نلاحظ انعكاس هذا الأمر على الولاة في اليمن، حيث ظلّ بعضهم في منصبه سنوات عديدة، أمثال محمد بن يوسف الثقفي الذي

(408) ينظر : ابن الديبع، المصدر السابق، ص 91 ـ 94 ؛ غاية الأماني، ص 98 .

(409) ينظر : الجعدي، المصدر السابق، ص 51 ـ 52 ؛ غاية الأماني، ص 104 ـ 105 ؛ أبو مخرمة، المصدر السابق : 2/ 100 .

تولى اليمن بعد انتهاء حركة ابن الزبير سنة (73هـ/ 692م)، واستمر على ولايتها أيام الخليفة عبد الملك بن مروان[410]. ويوسف بن عمر الثقفي الذي دامت ولايته نحو ثلاثة عشر عاماً (رمضان 106 ـ 120هـ/ 724 ـ 738م)[411].

وكانت اليمن منذ دخول الإسلام مقسمة إلى ثلاث وحدات أو أعمال إدارية، هي صنعاء ومخاليفها، والجَنَدْ ومخاليفها، وحضرموت ومخاليفها[412]. وقد عُيّن الولاة على هذه الأقاليم الثلاثة منذ عهد الرسول ﷺ[413]. لكن المصادر لا تقدم معلومات كافية بالنسبة إلى الحقب التالية، ولاسيما العصر الأموي، بشأن جميع الولاة والأماكن التي يعيَّنون فيها. فهي تشير إلى أن بعضهم قد جُمع له المخلافان، صنعاء والجَنَد، مثل عتبة بن أبي سفيان[414] وفيروز الديلمي[415] وبحير بن

---

(410) ابن خياط، المصدر السابق : 1/ 294، 316 .

(411) المصدر نفسه : 1/ 373 ؛ الجعدي، المصدر السابق، ص 54 ؛ غاية الأماني، ص 119 ؛ بهجة الزمن، ص 17 .

(412) أبو عبد الله محمد الشافعي المعروف بالمقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر : دي غويه (ط2، ليدن، مطبعة بريل، 1906م) ص 105 ؛ وينظر : ياقوت : المصدر السابق : 2/ 169. والمخلاف عند أهل اليمن، كما يقول عمارة اليمني، عبارة عن قطر واسع، أو هو كالرستاق، والكورة، والمحافظة في الأقطار الأخرى، ينظر : نجم الدين عمارة بن علي اليمني، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط3، دون مكان، مطبعة العلم، 1399هـ/ 1979م، ص 48 : وانظر : تعليق المحقق في الصفحة ذاتها، هامش (5). ولليمن أربعة وثمانين مخلافاً، ينظر : عن أسمائها كاملة : أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة، ليدن، مطبعة بريل، 1892م، ص 317 ـ 319 .

(413) ابن الديبع، المصدر السابق، ص 67 ـ 69 ؛ بهجة الزمن، ص 14 .

(414) الجعدي، المصدر السابق، ص 50 ؛ ابن الديبع، المصدر السابق، ص 91 ؛ أبو مخرمة، المصدر السابق : 2/ 130 ؛ غاية الأماني، ص 119 .

(415) أبو مخرمة، المصدر السابق :2/ 131 .

ريسان[416]، وأن منهم من جمعت له اليمن كلها، مثل: يوسف بن عمر الثقفي[417]، ومروان بن محمد بن يوسف الثقفي[418]، في حين أنها تذكر تولي ثلاثة ولاة في آن بعد انتهاء حركة ابن الزبير، وهم: محمد بن يوسف الثقفي على صنعاء، وواقد بن سلمة الثقفي على الجَنَدْ، والحكم ابن أيوب على حضر موت[419]، ثم جمعت اليمن بعد سنة لمحمد بن يوسف الثقفي[420].

ولا تشير المصادر إلى علاقة هؤلاء الولاة ببعضهم، وهل كان كل منهم يتبع السلطة المركزية في دمشق، أم كانوا مرتبطين بوالي صنعاء، وهو المسؤول عنهم جميعاً أمام الخليفة. ومن المرجح أن الحالة الأخيرة هي التي كانت سائدة، وأن صنعاء كانت تمثل القاعدة الرئيسية في اليمن. وذلك لأن المصادر تشير في كثير من الأحيان إلى تعيين الولاة على صنعاء أو اليمن دون تخصيص، وهي تقصد بذلك ولاية اليمن بشكل عام[421]. وهناك إشارة إلى تولي أحد الولاة نيابة عن والٍ آخر، فقد عيَّن معاوية بن أبي سفيان أخاه عقبة بن أبي سفيان على اليمن، فأقام سنتين ثم رجع إلى

---

(416) ابن الديبع، المصدر السابق، ص 94 ـ 95 ؛ بهجة الزمن، ص 16 .

(417) ابن الديبع، المصدر السابق، ص 108 ؛ غاية الأماني، ص 119 .

(418) الجعدي، المصدر السابق، ص 55 ؛ ابن الديبع، المصدر السابق، ص 109.

(419) المصدر نفسه، ص 100 ؛ العرشي، المصدر السابق، ص 10 .

(420) غاية الأماني، ص 111 .

(421) ابن الكلبي، المصدر السابق، ص 629 ؛ ابن خياط، المصدر السابق : 1/ 294، 232، 373 ؛ اليعقوبي، تاريخ : 2/ 232 ؛ الطبري، المصدر السابق : 2/ 1652 ؛ الرازي، المصدر السابق، ص 88، 214، 323، 332 ؛ أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون (ط4، القاهرة، دار المعارف، 1977م) ص 267 ؛ ابن الأثير، الكامل : 3/ 496، 5/ 223 ؛ ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، جمعية المعارف المصرية، 1286هـ، نسخة مصورة بالأوفست، طهران ـ انتشارات إسماعيليان: 4/ 401 ؛ ابن الديبع، المصدر السابق، ص 91، 94، 102، 103 ؛ أبو مخرمة، المصدر السابق : 2/ 130 .

الشام، واستخلف مكانه فيروز الديلمي الذي أقام ثماني سنوات نائباً لعتبة[422]. كما استخلف يوسف بن عمر الثقفي ابنه الصلت بن يوسف، حين كلفه الخليفة هشام بن عبد الملك بولاية العراق سنة (120هـ/ 738م)[423].

وعلى الرغم من وقوع اليمن في ركن بعيد منزو في الدولة العربية الإسلامية، نجد أن اهتمام الخلفاء الأمويين بها كان كبيراً. ويبدو أنها كانت مصدراً جيداً للأموال والهدايا التي يحملها الولاة سنوياً وفي المناسبات إلى مركز الخلافة في دمشق. ويذكر اليعقوبي[424]، أن معاوية بن أبي سفيان استصفى أراضي الصوافي في اليمن، كما فعل في الشام والجزيرة والعراق، وصيّرها خالصة لنفسه، وأقطعها أهل بيته وخاصته، وأن خراج اليمن في عهده بلغ نحو مليون ومئتي ألف دينار، وقيل تسعمائة ألف دينار. وكان يزيد بن معاوية (60 ـ 64هـ/ 680 ـ 683م) قد استعمل بحير بن ريسان الحِمْيري والياً على اليمن، على مال يؤديه كل عام، وسبعين رأساً من الرقيق[425]. وهناك ما يؤيد قيام هذا الوالي بإرسال القوافل المحملة بالمنتجات اليمنية، كالحلل وغيرها، إلى يزيد بن معاوية[426].

وعلى الرغم من عدم توافر معلومات أخرى تشير إلى اشتراط إرسال أموال معلومة إلى مركز الخلافة من قبل الولاة في اليمن، فإن من الواضح

---

(422) غاية الأماني، ص 98 ؛ أبو مخرمة، المصدر السابق : 2/ 130 .

(423) ابن خياط، المصدر السابق : 1/ 373 ؛ الطبري، المصدر السابق : 2/ 1652 ؛ ابن الأثير، الكامل : 5/ 223 ؛ ابن الديبع، المصدر السابق، ص 108 ؛ غاية الأماني، ص 121، وفيه أن التاريخ هو (سنة 117هـ) وهذا وهم من المؤلف.

(424) التاريخ : 2/ 234 .

(425) غاية الأماني، ص 100 .

(426) الطبري، المصدر السابق : 2/ 277 ؛ ابن الأثير، الكامل : 4/ 40 .

أن معظم الولاة كانوا يتحرون إرضاء الخلفاء، وذلك بتقديم الأموال والهدايا إليهم. وكان بعضهم يلجأ إلى طرق وأساليب مختلفة للحصول على هذه الأموال، منها على سبيل المثال: قيام محمد بن يوسف الثقفي بتكليف رجاله بالبحث والتنقيب في الآثار والقبور القديمة للعثور على الذهب والكنوز المخفية(427). ولم يكن محمد بن يوسف الثقفي الوحيد الذي لجأ إلى هذه الأساليب، فلدينا إشارات أخرى إلى قيام ولاة آخرين بالبحث في الآثار عن الكنوز والذهب، وإرسالها إلى الخليفة في دمشق(428).

ولم تكن السلطة المركزية ترضى دائماً هذه الأساليب، فقد نهى الخليفة عبد الملك بن مروان محمد بن يوسف الثقفي عن الاستمرار في عملية البحث في القبور ونبشها طلباً للذهب والكنوز المدفونة. كما ارتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك من كثرة الأموال والهدايا المحمولة إليه من قبل الوالي نفسه حين كان يؤدي فريضة الحج، فقال له: «بلغني أنك أصبتها غصباً» فأنكر محمد بن يوسف ذلك، الأمر الذي دعا الخليفة إلى طلب استخلافه بين الركن والمقام، فحلف محمد «خمسين يميناً بالله ما غصب شيئاً منها، ولا ظلم أحداً وأصابها إلا من طيب»(429).

وتشير تصرفات بعض الولاة وسياستهم الداخلية، وطرق جمعهم للأموال إلى أن شك الخليفة الوليد كان في محله، ولاسيما بالنسبة إلى الوالي محمد بن يوسف الثقفي الذي «أساء السيرة، وظلم الرعية، وأخذ

---

(427) الهمداني، الأكليل : 8/ 146 .

(428) المصدر نفسه : 8/ 148 ـ 149، 181 ؛ وينظر : أبو محمد عبد الملك بن هشام، كتاب التيجان في ملوك حمير، نشر : كرنكو. حيدر آباد الدكن، 1347هـ/ 1928م. وقد أعاد طبعه مركز الدراسات والأبحاث اليمنية في الجمهورية العربية اليمنية ـ صنعاء، 1979م) ص 73 .

(429) الطبري، المصدر السابق : 2/ 1274 (برواية عمر بن شبه) .

أراضي الناس بغير حقها، فكان مما اغتصبه الحرجة...»[430]، وهي أرض عظيمة على نهر سردد[431]. كما فرض على أهل اليمن ضريبة من الخراج جعلها وظيفة عليهم[432]، وثابتة في أعناقهم «كالجزية يؤدونها على كل حال، إن أخصبوا أو أجدبوا، أو حيوا أو ماتوا»[433]. وقد ظلت الأمور على هذه الحال بالنسبة إلى ضريبة الخراج حتى تولي الخليفة عمر ابن عبد العزيز (99 ـ 101هـ/ 717 ـ 720م) فكتب إلى عامله على اليمن عروة بن محمد السعدي بإلغائها. ولكنها لم تلبث أن ردت بعد تولي الخليفة يزيد بن عبد الملك مقاليد السلطة في دمشق (101 ـ 105هـ/ 720 ـ 724)[434].

ونتيجة لهذه الأعمال كان عامة الناس غير راضين عن سياسة الولاة في اليمن وعمالهم في القرى[435]. ولهذا كان بعض الولاة يحاولون التقرب من الناس، ومن الفقهاء على وجه الخصوص. وتشير المصادر إلى بعض هذه المحاولات، ولاسيما موقف محمد بن يوسف من وهب بن منبه (توفي سنة 110هـ/ 782م)، وقراءته القرآن عليه، وتعيينه للقضاء

---

(430) أحمد بن يحيى جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق : رضوان محمد رضوان (مصر، مطبعة السعادة، 1959 م) ص 84 ؛ وينظر : الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة 332هـ، جمع وتحقيق : محمد بن علي الأكوع الحوالي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1979م) ص 199 .

(431) المصدر نفسه، ص 99 ج ؛ وينظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص 153.

(432) البلاذري، فتوح البلدان، ص 84 ؛ ابن الأثير، الكامل : 5/ 67 ـ 68.

(433) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق : أحمد عبيد، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1387هـ/ 1967م، ص 123 ؛ وينظر : الرازي، المصدر السابق، ص 332، حيث يورد رواية عن ابن طاووس اليماني الذي يقول : «كان على أبي ضريبة يؤديها في أرضه كل عام أخرجت الأرض شيئاً أو لم تخرجه...

(434) البلاذري، فتوح البلدان، ص 84 ؛ وينظر : ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 123؛ اليعقوبي، التاريخ : 2/ 306 ؛ ابن الأثير، الكامل : 5/ 68 ؛ الوثائق السياسية اليمنية، ص 196 .

(435) الرازي، المصدر السابق، ص 331 .

والقصص في المسجد الجامع بصنعاء[436].

كما اهتم الولاة والخلفاء أيضاً ببناء المساجد وتوسيعها وتزيينها[437]، والاهتمام بالقضاة وحسن اختيارهم[438] وتخصيص أرزاق مجزية لهم ولمساعديهم[439]. وكان محمد بن يوسف الثقفي، وأيوب بن يحيى الثقفي يحاولان التقرب من طاووس بن كيسان الهمداني (توفي سنة 106هـ/ 724م) بإرسال الهدايا والأموال إليه. لكنه كان يرفض أخذها، أو يتصدق بها على الآخرين[440]، وذلك لاعتقاده منه بجور هؤلاء الولاة، وعدم جواز التعامل معهم، أو الصلاة خلفهم. وإن اضطر إلى الصلاة خلفهم كان يعيد تلك الصلاة، لاعتقاده بعدم أهليتهم لإمامة الناس[441]. وقد دفعت هذه المواقف المتشددة من قبل هؤلاء العلماء بعض الولاة إلى اتخاذ إجراءات قوية بحقهم منها ما قام به الوالي يوسف بن عمر الثقفي من حبس وهب بن منبه، وضربه ضرباً مبرحاً، وذلك قبيل وفاته بقليل سنة (110هـ/ 782م)[442].

---

(436) المصدر نفسه : ص 296 ـ 297، 375 ـ 376 .

(437) المصدر نفسه، ص 85، 87، 88، 217 ؛ عمارة اليمني، المصدر السابق، ص 72، 74 ؛ ابن الديبع، المصدر السابق، ص 102 ؛ العرشي، المصدر السابق، ص 10 .

(438) الرازي، المصدر السابق، ص 301 ؛ أبو مخرمة، المصدر السابق : 2/ 233 ـ 234 .

(439) ينظر : الوثائق السياسية اليمنية، ص 200 التي تنقل نص كتاب عن الخليفة مروان بن محمد إلى أحد القضاة في اليمن ـ لم يذكر اسمه ـ حدد فيه رزقه بثلاثمائة درهم في الشهر، وخمسين درهماً لكل رجل من الذين يعتمد عليهم القاضي في عمله. وفي الكتاب أيضاً إلزام للوالي بدفع المبلغ دون مراجعة الخليفة، تحقيقاً للعدالة والنزاهة والاستقامة بالنسبة إلى القضاة. وأصل الكتاب مأخوذ عن مخطوط مجهول المؤلف في حوزة المحقق، وينظر عن هذا الكتاب أيضاً، ومعلومات عن المخطوط المجهول : محمد بن علي الأكوع، «دراسة لمخطوطة عن اليمن لمؤلف مجهول.، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الثاني، مطبوعات جامعة الرياض، 1399هـ/ 1979 م، ص 95 ـ 96 .

(440) الرازي، المصدر السابق، ص 309، 301، 327 .

(441) المصدر نفسه، ص 322، 358 .

(442) المصدر نفسه، ص 396، وينظر هامش التحقيق رقم (5) .

استمرت المعارضة الداخلية في اليمن لسياسة الأمويين على هذا الشكل السلبي، ولم تتخذ موقفاً إيجابياً حتى في الحالات التي كانت تتعرض فيها المنطقة لقوى تعمل من الخارج، ولاسيما الحركات الخارجية. وبالنظر إلى البعد الجغرافي لليمن، فقد كانت مكاناً مناسباً لتجمّع القوى المعادية، ولاسيما أن السلطة الأموية نفسها كانت ترسل بعض المنفيين إلى اليمن، مثال ذلك نفي الحجاج بن يوسف الثقفي لوهب بن مانوس، الذي أصله من البصرة، إلى اليمن[443] كما نفى الخليفة عمر بن عبد العزيز أيضاً نفراً من بني عقيل، وطلب من عامله أن ينزلهم في أسوأ مكان من أرض اليمن[444].

لقد تعرضت منطقة جنوب غرب الجزيرة العربية في الحقبة التي سيطر فيها عبد الله بن الزبير على الحكم في الحجاز لإحدى الحركات الخارجية، التي كانت بقيادة نجدة بن عامر بن عبد الله، الذي ثار أولاً مع نافع بن الأزرق[445]، ثم فارقه وجعل مركزه في اليمامة، ثم سار إلى البحرين سنة (67هـ/ 686م)، وحارب بني عبد القيس في القطيف وهزمهم، كما هزم أيضاً جيشاً أرسله مصعب بن الزبير من البصرة، كما أرسل حملة إلى عمان وسيطر عليها[446]. وقد جاءت هذه الانتصارات نتيجة التفكك والتجزئة التي أصابت الدولة العربية الإسلامية، وغياب السلطة المركزية. ولهذا تشجع نجدة بن عامر، فقاد مجموعة من أتباعه من عمان إلى اليمن، وقصد صنعاء. وحاول بعض الأعيان، وعلى رأسهم وهب بن منبه

(443) محمد بن حبان البستي، كتاب مشاهير علماء الأمصار، عني بتصحيحه : فلايشهمر، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ـ والنشر، 1979هـ/ 1959م، ص 193 .

(444) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 124 .

(445) زعيم فرقة الخوارج الأزارقة الذين سموا باسمه، وكانوا من أكثر الفرق عدداً وأشدهم شوكة : ينظر : الطبري، المصدر السابق : 2/ 465، 514 ـ 515، 517، 518 .

(446) ينظر : ابن الأثير : الكامل : 4/ 201 ـ 202 .

تشجيع أهل المدينة على المقاومة، لكنهم رفضوا خوفاً من قتال الخوارج قائلين : «ليس لنا طاقة بقتالهم وإنّا لنخشى أنهم يستلون سبي أولادنا، ثم إنهم صالحوهم على مائة ألف دينار واستعانوا بأهل المخاليف على تسليم المال فأعانوهم...»[447]. وتشير رواية أخرى إلى أن أهل صنعاء بايعوا نجدة حين ظنوا أن وراءه جيشاً كبير العدد، ولما تبين لهم عدم وجود مدد لقوّته الصغيرة ندموا على بيعته. ولما بلغه ذلك أخبرهم أنه يعفيهم من البيعة إن شاؤوا ويقاتلهم، فرفضوا ذاك وظلوا على بيعتهم له وأرسل نجدة رجاله إلى مخاليف صنعاء وجبى صدقاتها، كما بعث أبا فديك عبد الله بن ثور إلى حضرموت وجبى صدقات أهلها أيضاً[448]. ثم سار في موسم سنة 68هـ أو 69هـ/ 687أو 688م إلى الحج، وحاول دخول المدينة المنورة، وهاجم الطائف، واستعمل عليها أحد رجاله، وكذلك المناطق التي تلي نجران، ثم رجع إلى البحرين[449]. ولا تشير المصادر إلى قيامه بتعيين عامل على اليمن، ويحتمل أنه اكتفى بجباية صدقاتها فقط.

وتشير أحداث حملة نجدة بن عامر هذه إلى انعدام السلطة في اليمن، بحيث لم يرد ذكر لعامل ابن الزبير في تلك الفترة، أو اتخاذه أي إجراءات للمقاومة. وقد تصرف أهل صنعاء بخاصة، وبقية مخاليف اليمن بعامة بحكمة في مصالحتهم للخوارج، ودفع أذاهم عن المنطقة. ولكن يبدو أن هذا الأسلوب لم ينفع في رد فرق الخوارج المختلفة عن اليمن، بحيث يشير الجعدي[450]، إلى وثوب مجموعة من هؤلاء على اليمن بقيادة رجل اسمه قدامة بن المنذر، وذلك في سنة (71هـ/ 690م). ويضيف أبو

(447) غاية الأماني، ص 108 .

(448) ابن الأثير، الكامل : 4/ 203 .

(449) المصدر نفسه : 4/ 204 ؛ وينظر : غاية الأماني، ص 108 .

(450) طبقات فقهاء اليمن، ص 53 .

مخرمة[451] إلى أن هذا الهجوم تم في عهد أحد ولاة ابن الزبير، يدعى (أبو الجنوب)، ثم اضطربت أحوال اليمن ولم تزل كذلك حتى مقتل ابن الزبير.

وفي الحقبة التي أعقبت انتهاء حركة ابن الزبير واستعادة اليمن مع بقية ولايات الدولة العربية الإسلامية إلى الحكم الأموي، لم تتعرض اليمن إلى هجمات الخوارج من شرق الجزيرة العربية. لكن إحدى الروايات تشير إلى قيام حركة خارجية محلية بقيادة رجل يدعى عباد الرعيني، الذي تلقب بمنصور حِمْير، وخرج «مُحكماً» في ثلاثمائة من أصحابه سنة (107هـ/ 725م). وقد استطاع الوالي يوسف بن عمر الثقفي القضاء على هذه الحركة وقتل جميع أنصارها[452].

أما الحركة الخارجية المهمة التي قامت في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية في العصر الأموي، فهي حركة «طالب الحق» عبد الله بن يحيى الكندي، الذي ثار بحضرموت سنة (129هـ/ 746م) على الحكم الأموي. وكان هذا الرجل من الخوارج الأباضية[453]، المعارضين للأمويين. وقد دفعه للخروج في اليمن، بحسب قوله: الجور الظاهر، والعسف الشديد، وسيرة الولاة القبيحة في الناس. ويبدو أنه كان على اتصال وثيق بمن يشاركونه الرأي في شرق الجزيرة العربية، ولاسيما في عُمان والبصرة، فكتب إلى أصحابه هناك يشاورهم في الخروج، فكتبوا إليه قائلين: «إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فافعل». وجاء إليه من

---

(451) تاريخ ثغر عدن: 2/ 100.

(452) الطبري، المصدر السابق: 2/ 1487؛ ابن الأثير، الكامل: 5/ 141 (وقد وهم في السنة فجعلها 108هـ)؛ غاية الأماني، ص 119.

(453) ينتسب هؤلاء الخوارج إلى عبد الله بن أباض المري التميمي، وقد ظهر المذهب الأباضي سنة 64هـ/ 683م عندما خالف عبد الله بن أباض نافع بن الأزرق، واتخذ موقفاً أكثر اعتدالاً مع الذين يخالفونه في المذهب، ينظر: الطبري، المصدر السابق: 2/ 518 ـ 519.

البصرة أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي السليمي، وبلج بن عقبة السعدي، في رجال الأباضية، وهم يحملون كتباً من أصحابهم تحث على الخروج، وعدم الغلول والغدر، والاقتداء بسيرة الصالحين. فدعا أصحابه، فبايعوه ولقبوه بـ«طالب الحق»، وقصدوا دار الإمارة في حضرموت، وقبضوا على عاملها إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي، وحبسوه يوماً ثم أطلقوه[454].

وتشير روايات أخرى إلى أن عبد الله بن يحيى الكندي التقى أبا حمزة المختار في موسم عام (128هـ/ 745م) في مكة، وكان الأخير يأتي إلى الموسم في كل سنة، ويدعو الناس للخروج على الخليفة مروان بن محمد (127هـ ـ 132هـ/ 744 ـ 750م). فسمعه عبد الله بن يحيى، فدعاه إلى القدوم معه إلى حضرموت، فخرج معه أبو حمزة إلى هناك، وبايعه على الخلافة، ودعا إلى الثورة على مروان بن محمد[455]. وكان ممن خرج مع أبي حمزة ابن عمه جابر بن جبلة السليمي، ومسكنه البصرة أيضاً، وخرجت معهما بطون عديدة من نصر بن هوازن وسليمة، ومالك بن فهم، وغيرهم[456]. أما في حضرموت، فبالإضافة إلى كندة قبيلة عبد الله بن يحيى، فقد ناصرته قبائل أخرى، من أشهرها قبيلة

---

(454) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني (بيروت، نشر صلاح الدين يوسف الخليل ودار الفكر للجميع عن طبعة بولاق الأصلية) : 20/ 97 ؛ عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة (ط1، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1379هـ/ 1959م) : 5/ 106 ـ 107 .

(455) أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق : علي حبيبة، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1387هـ/ 1967م، ص 77 ؛ الطبري، المصدر السابق : 2/ 1942 ـ 1943 (برواية هارون بن موسى الفروي) ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 2/ 99 (وهو ينقل عن الطبري برواية هارون بن موس)؛ ابن الأثير : الكامل : 5/ 351 .

(456) الأزدي، المصدر السابق، ص 77 ـ 78 .

همدان التي تزعمها رجل يدعى أبرهة بن الصباح، الذي أصبح مع بلج بن عقبة السعدي، وأبي حمزة المختار بن عوف، من أشهر قادة هذه الحركة الذين اعتمد عليهم «طالب الحق» عبد الله بن يحيى[457]. كما ناصرته أيضاً قبائل حِمْير بقيادة يحيى بن كرب الحِمْيري، ومن آل ذي الكلاع بقيادة يحيى بن عبد الله بن عمر السباق، بالإضافة إلى بطون أخرى، ولاسيما من منطقة شبام حمير في حضرموت[458].

ولما وجد عبد الله بن يحيى أنه أصبح قادراً على مجابهة السلطة الأموية، كتب إلى أصحابه في صنعاء أنه قادم إليهم، واستخلف على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمي وذلك في سنة 129هـ/ 746م، وسار بجيش يقدَّر عدده بنحو ألفي رجل[459]. وكان والي اليمن في صنعاء هو القاسم بن عمر الثقفي الذي تهيأ للقاء الخوارج، فاستخلف على صنعاء الضحاك بن زمل السكسكي وخرج في جيش كبير، قُدِّر عدده بثلاثين ألف رجل. وربما بالغت الروايات في هذا العدد، ومع ذلك، لم يقدر القاسم بن عمر الثقفي على مواجهة قوات عبد الله بن يحيى المتواضعة، فهرب من المعركة، وقُتِل ابن أخيه الصلت بن يوسف مع عدد كبير من أنصارهما. وبعد الانتصار دخل عبد الله بن يحيى إلى صنعاء، واستولى على بيت المال والأسلحة فقوي بها، وكثر جمعه،

---

(457) ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 414 (الذي يسمى أبرهة بن الصباح بالحميري) ؛ الطبري، المصدر السابق : 2/ 1982 ؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق : 5/ 108 ؛ وينظر : ابن حزم، المصدر السابق، ص 428 .

(458) ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 416 ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 113 ؛ وينظر : صلاح البكري، تاريخ حضر موت السياسي، ط2، القاهرة، شركة ومطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1375 هـ/1956م: 1/ 70 .

(459) ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 406 ؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 101 (وفيه أن عدد رجال طالب الحق هو ألف رجل) ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 97 .

وجاء المؤيدون من كل جانب، وأقام في المدينة بضعة أشهر(460)، حاول فيها توخي السيرة الحسنة واستخدام اللين مع السكان، ومنع الظلم، وإقامة العدل(461).

ولما جاء موسم الحج لعام 129هـ/746م أرسل عبد الله بن يحيى الكندي أبا حمزة المختار بن عوف، ومعه بلج بن عقبة السعدي وأبرهة بن الصباح إلى مكة، وأمره أن يقيم بها إذا صدر الناس، ويوجه بَلْجاً إلى الشام. وقد اختلفت الروايات في عدد هذه الحملة، فتشير إحداها إلى سبعمائة(462)، في حين أن روايات أخرى ترفع هذا الرقم إلى عدد يراوح ما بين التسعمائة والعشرة آلاف رجل(463). ومن المرجح أن العدد كان أكثر من سبعمائة رجل، لأن المعارك التي جرت بين قوات أبي حمزة، وأهل المدينة، والقوات الشامية، كانت كبيرة اضطرت الخوارج إلى تفريق قواتهم بين مكة والمدينة، الأمر الذي يتطلب عدداً مناسباً لا يقل عن بضعة آلاف رجل.

وصل أبو حمزة إلى عرفة من طريق الطائف والناس يتهيأون لإتمام الحج، والأمير هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، والي مكة والمدينة. وقد دعا هذا الأمير الخوارج إلى المسالمة حتى ينقضي الحج، فوافقوا على ذلك، ولما كان يوم النفر الأول نضر عبد الواحد بن

(460) ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 406 ؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 101.
(461) الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 98 ؛ غاية الأماني، ص 124 .
(462) الطبري، المصدر السابق : 2/ 1981 (برواية هارون بن موسى الفروي).
(463) ينظر : ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 406 (عشرة آلاف) ؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 101 (إشارة إلى سبعمائة، وعشرة آلاف) ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 98، 99 (برواية المدائني، تسعمائة أو ألفا ومائة) ؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق : 5/ 108 (ألف رجل)؛ غاية الأماني، ص 125 (ألف رجل) .

سليمان، وأخلى لهم مكة فدخلوها بغير قتال[464]. وسار أبو حمزة في بداية سنة 130هـ/ 747م إلى المدينة، واستخلف على مكة أبرهة بن الصباح، وجعل على مقدمته بلج بن عقبة السعدي. وخرج أهل المدينة للقائهم بقيادة عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، الذي استعمله عليهم عبد الواحد بن سليمان، فالتقى الجمعان بقُدَيْد، في الطريق بين مكة والمدينة ، وجرت بينهم معركة، انهزم على إثرها أهل المدينة، وقُتِل عدد كبير منهم، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة خلت من صفر سنة 130هـ/ 747م[465].

اهتمت الخلافة الأموية كثيراً بتطورات هذه الأحداث في جنوب غرب الجزيرة العربية، ولا سيما أن الحركة الخارجية الجديدة لم تكتف بما حققته من انتصارات في اليمن، بل حاولت التوسع والوصول إلى مقر الخلافة، حيث كانت تعليمات عبد الله بن يحيى الكندي لأبي حمزة تقضي بإرسال قائده بلج بن عقبة إلى الشام. وبالفعل لم يلبث الخوارج في المدينة أكثر من أربعة أشهر، توجهوا بعدها يريدون الشام، حتى وصلوا إلى وادي القرى، وهو بين تيماء وخيبر[466]. فالتقوا هناك الجيش الذي أرسله الخليفة مروان بن محمد من الشام بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي. وكانت هذه القوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل

---

(464) الزبيري، المصدر السابق، ص 166 ؛ ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 407 ؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 102 ـ 103 ؛ الطبري، المصدر السابق : 2/ 1981 ـ 1983 ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 99 ؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق : 5/ 108 ـ 109 .

(465) ينظر عن هذه المعركة : الزبيري، المصدر السابق، ص 114، 250 ؛ ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 414 فما بعدها ؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 108 ـ 109 (وهو ينقل رواية خليفة بن خياط) ؛ اليعقوبي، التاريخ : 2/ 339 ـ 340 ؛ الطبري، المصدر السابق : 2/ 2006 ـ 2008، 2012 ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 100 ـ 103 .

(466) الطبري، المصدر السابق : 2/ 2012، 2014 ؛ غاية الأماني، ص 125 .

مجهزين تجهيزاً كاملاً، ومدربين على القتال. لهذا لم يكن من الصعب عليهم التغلب على قوة الخوارج، وقتل بلج بن عقبة الذي كان على رأس تلك القوة. وقد تتبع ابن عطية الناجين إلى مكة، حيث تجمعوا مع أبي حمزة المختار بن عوف، وكانت نتيجة المعركة التي دارت بين الجانبين بالأبطح، بالقرب من مِنَى، لصالح القوات الشامية، فقُتِل أبو حمزة، وأبرهة بن الصباح، وتشتت جمعهم[467].

ثم قرر ابن عطية السير إلى اليمن لتنفيذ توجيهات الخليفة مروان بن محمد. فلما سمع عبد الله بن يحيى الكندي بمسيره إليه، وبما حل بقواته في الحجاز، خرج من صنعاء للقائه في جيش كبير قدر عدده بنحو ثلاثين ألف رجل[468]. ويبدو أن بقاء «طالب الحق» في السلطة نحو ستة عشر شهراً، وسيرته الحسنة في أهل اليمن، قد زادت من مؤيديه وأنصاره[469]. وقد رافقه هؤلاء حتى نزل في صعدة[470] في حين أن ابن عطية عسكر في تبالة[471]، ثم التقيا، فانهزم «طالب الحق» إلى جُرَش[472]، فسار إليه ابن عطية وقاتله، فتشتت جمع «طالب الحق»، لكنه ثبت في ألف رجل من أهل حضرموت، وقاتل حتى قتل هو ومن معه. ومضى ابن عطية فدخل

---

(467) ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 415 ؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 110 ـ 112 ؛ الطبري، المصدر السابق : 2/ 2012 ـ 2014 ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 108 ـ 109 ؛ ابن الأثير، الكامل : 5/ 391 ؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق : 5/ 121 ـ 123،

(468) ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 416 ؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 113.

(469) ينظر : غاية الأماني، ص 124 .

(470) تقع صعدة على بعد ستين فرسخاً (أي نحو 360 كم) إلى الشمال من صنعاء، ينظر : ياقوت، المصدر السابق : 3/ 406 .

(471) تبالة : بلدة مشهورة على طريق اليمن، تبعد عن مكة نحو اثنين وخمسين فرسخاً (أي حوالي 312كم)، ياقوت، المصدر السابق : 2/ 9 .

(472) جرش : من مخاليف اليمن من جهة مكة، ياقوت، المصدر السابق : 2/ 126.

صنعاء، وأرسل برأس عبد الله بن يحيى إلى الخليفة مروان بن محمد في دمشق[473].

لم تهدأ الأحوال في جنوب غرب الجزيرة العربية بمقتل عبد الله بن يحيى الكندي، فقد ثار على ابن عطية أحد أصحاب «طالب الحق» في آل ذي الكلاع، وهو يحيى بن عبد الله بن عمر السباق، فاستولى على الجَنَد. فأرسل إليه ابن عطية ابن أخيه عبد العزيز بن يزيد، فانهزم ابن السباق، ومضى حتى أتى عدن أبين[474]، حيث جمع نحو ألف رجل لمقاومة السلطة الأموية. لكنه هُزم على يد قوات ابن عطية. كذلك ثار رجل آخر بساحل البحر من حمير يقال إنه يحيى بن حرب، فأرسل إليه ابن عطية من قضى على حركته. واضطر ابن عطية إلى التوجه إلى حضرموت لملاحقة خليفة «طالب الحق» الذي يدعى عبد الله بن سعيد أو (معبد الجرمي) وكان في جماعة من أهل حضرموت، فقاتلهم، لكنه توقف عن الاستمرار في الملاحقة بعد وصول كتاب من الخليفة إليه يأمره بالتوجه إلى الحجاز لإمارة الموسم، فدعا أهل حضرموت إلى الصلح، فصالحوه على أن يردّ عليهم ما أخذ من أموالهم، ويولّي عليهم من يختارونه، فرضي بذلك[475].

خرج ابن عطية مسرعاً في عدد قليل من رجاله ليلحق بالحج، وخلف ابن أخيه على صنعاء. فلما وصل وادياً من أودية مراد، في قرية

---

(473) ابن خياط، المصدر السابق : 2/ 416 ؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 113 ـ 114 ؛ الطبري، المصدر السابق : 2/ 2014 ؛ المسعودي، المصدر السابق : 3/ 257 ـ 258 ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 110 ـ 111 ؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق : 5/ 124 .

(474) عدن أبين : هي أقدم من عدن، وإليها تنسب، ينظر: عدن، المقدسي، المصدر السابق، ص 85 .

(475) ابن خياط، المصدر السابق:2/ 417 ؛ الأصفهاني، المصدر السابق : 20/ 113.

يقال لها شبام[476]، قتله جماعة منهم انتقاماً لعبد الله بن يحيى الكندي وأصحابه[477]. وفي رواية ينقلها الأصفهاني عن المدائني[478]، أن مقتل ابن عطية كان على أيدي جماعة مشركة من همدان، ومراد، وكندة. ولما بلغ أخاه الخبر، أرسل من صنعاء قوة للانتقام من الفاعلين، فقتلوا كل من وجدوه من الرجال والصبيان والنساء، وأخذوا الأموال، وخربوا القرى الواقعة في المنطقة. حتى لم يبق أحد من قتلة ابن عطية، ولا من الأباضية إلا وقتلوه، وعادوا وقد تركوا في أراضي حضرموت ذكرى أليمة لا تنسى على مر الزمن[479]. ومع ذلك، فإن كل إجراءات القمع هذه لم تستطع أن تنتزع المذهب الأباضي من منطقة حضرموت، فقد أصبحت هذه البلاد أحد مراكز هذا المذهب، حيث ذكر المسعودي هذا الأمر[480]، وأشار إلى وجود الكثير من الأباضية في حضرموت في عصره.

وبعد مقتل ابن عطية ولّى الخليفة مروان بن محمد الوليد بن عروة على اليمن[481]، وأرسل إلى أهل اليمن كتاباً طلب فيه من واليه أن يقرأه على الناس، أدان فيه، بعد مقدمة طويلة، حركة عبد الله بن يحيى الكندي، وأشار إليه باسم «عدو الله طالب الذبح أعور الأباضية»، وأشار إلى انتصار قوات الخلافة عليه وعلى أنصاره، وطالب أهل اليمن أن

(476) هناك أربعة أماكن في اليمن تسمى بهذا الاسم، والمقصود بشبام هنا هي شبام حضرموت، ينظر: ياقوت، المصدر السابق: 3/ 318 ؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص 169.

(477) ابن خياط، المصدر السابق :2/ 417؛ الأزدي، المصدر السابق، ص 114 ؛ وينظر: البري، المصدر السابق:2/ 2015 (يقول إنه قتل بالجرف)؛ غاية الأماني، ص 126 (قتل بالجرف).

(478) الأغاني :20/ 114.

(479) قارن: البكري، المصدر السابق: 1/ 71 ـ 72.

(480) مروج الذهب: 3/ 258.

(481) ابن خياط، المصدر السابق: 2/ 432 ؛ ابن الديبع، المصدر السابق، ص 114 ؛ غاية الأماني، ص 126 .

يتخذوا من هذه الواقعة عبرة للمستقبل، وأن تكون شوكتهم على أعداء المسلمين أينما وجدوا[482]. ويبدو أن هذه الأوضاع هدأت إلى حد ما بعد أحداث حركة «طالب الحق» المأساوية. ولكن لم يجْنِ الخليفة ثمار نصيحته هذه، ولم يتمتع واليه عروة بن الوليد بالهدوء طويلاً، بحيث انتهى العصر الأموي سنة 132هـ/ 750م، فكان عروة بن الوليد آخر ولاة الأمويين على اليمن.

جدول بأسماء الولاة على اليمن في العصر الأموي[483]

اسم الخليفة	اسم الوالي	الملاحظـات
معاوية بن أبي سفيان	عثمان بن عمان الثقفي	تولى بعد قيام الدولة الأموية (سنة41هـ/ 661م)
	عتبة بن أبي سفيان	على صنعاء والجند (سنتين)
	فيروز الديلمي	على صنعاء والجند (ثمان سنوات)
	النعمان بن بشير الأنصاري	(سنة واحدة)
	بشير بن سعيد الأعرج[484]	(سبعة أشهر)
	الضحاك بن فيروز الديلمي[485]	على صنعاء حتى وفاة معاوية (سنة60هـ/ 680م)

(482) الوثائق السياسية اليمنية، ص 201 ـ 203 (نقلاً عن التأريخ المجهول، لوحة: 138).

(483) تم اعتماد كل من القائمة التي أوردها ابن الديبع في قرة العيون ص 89 ـ 114، ويحيى بن الحسين في غاية الأماني، ص 98 ـ 126، أساساً لهذا الجدول، وأُضيف إليهما ما ذُكر من أسماء المصادر الأخرى.

(484) يُشير أبو مخرمة ـ المصدر السابق: 2/ 131 ـ أن معاوية عيّن بعد بشير بن سعيد الأعرج رجلاً من أهل الجند اسمه سعيد بن داود، أقام والياً لمدة تسعة أشهر، ثم توفي، فبعث معاوية الضحاك بن فيروز الديلمي.

(485) يذكر ابن الكلبي ـ المصدر السابق ـ ص 629، أن معاوية بن أبي سفيان عيّن الصحابي معن بن فضالة بن عبيد على اليمن، ولا يوجد ما يشير إلى الفترة التي عُيّن فيها، أو ترتيبه بين بقية الولاة؛ ينظر أيضاً: ابن الأثير، أسد الغابة: 4/ 401.

يزيد بن معاوية	بحير بن ريسان الحميري	على المخلافين (صنعاء والجند) حتى وفاة يزيد سنة 64هـ/ 683م.
في عهد سيطرة ابن الزبير على اليمن	الضحاك بن فيروز الديلمي	(أقام سنة)
	عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد	(أقام فيها أياماً؟)
	عبد الله بن عبد المطلب بن أبي وداعة السهمي	(أقام سنة وثمانية أشهر)
	عبيد بن الزبير[486]	
	حنش بن عبد الله الصنعاني	
	قيس بن يزيد السعدي[487]	(أقام فيها عشرة أشهر)[488]
عبد الملك بن مروان	محمد بن يوسف الثقفي/ على صنعاء وواقد بن سلمة الثقفي/ على الجند والحكم بن أيوب الثقفي/ على حضرموت	(ثم جمعت اليمن لمحمد بن يوسف الثقفي)

(486) ورد ذكر خالد بن الزبير بدلاً من عبيد بن الزبير، ينظر: الجعدي، المصدر السابق، ص 52؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص 122.

(487) أشارت المصادر إلى أسماء ولاة آخرين تولوا اليمن في عهد ابن الزبير، وهم:

خلاد بن السائب الأنصاري، ينظر: الجعدي، المصدر السابق، ص 52 ؛ أبو مخرمة، المصدر السابق : 2/ 100.

عبد الله بن مغيث بن ذي الترحم من مقري: الهمداني، الإكليل: 2/ 237 ـ 238 ؛ وقد ذكر الجعدي، المصدر السابق، ص 52 اسم والده هكذا: (معتب بن ذي الرحم).

أبو النجود مولى عثمان: الجعدي، المصدر السابق، ص 52 ؛ وأشار إليه أبو مخرمة، المصدر السابق: 2/ 100 باسم (أبو الجنوب).

(488) لا توجد معلومات ثابتة بشأن مدد إقامة بقية ولاة ابن الزبير في اليمن.

الوليد بن عبد الملك	أيوب بن يحيى الثقفي[489]	ولي صنعاء خمس سنوات في خلافة الوليد بن عبد الملك
سليمان بن عبد الملك	عروة بن محمد السعدي	استخلفه سليمان وأقره بعد وفاته عمر بن عبد العزيز. مدة حكمه من 96 ـ 101هـ/ 715 ـ 720م
يزيد بن عبد الملك	مسعود بن عوف الكلبي	مدة خلافة يزيد وسنة من خلافة هشام 101 ـ 106هـ/ 720 ـ 724م.
هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	على المخاليف كلها من سنة 106 ـ 120هـ/ 724 ـ 738م.
	الصلت بن يوسف بن عمر	إلى نهاية خلافة هشام 125هـ/ 742 ـ 743م
الوليد بن يزيد بن عبد الملك	مروان بن محمد بن يوسف الثقفي	تولى سنة 125هـ/ 742 ـ 743م
يزيد بن الوليد بن يزيد	الضحاك بن وائل السكسكي[490]	تولى سنة 126هـ/ 744م.

(489) هناك عدم اتفاق بالنسبة إلى ولاية أيوب بن يحيى الثقفي، فتشير بعض المصادر إلى توليه بعد وفاة محمد بن يوسف الثقفي في أواخر أيام الخليفة عبد الملك بن مروان، وبقائه على اليمن طوال أيام الخليفة الوليد: ابن الديبع، المصدر السابق، ص 101 ـ 102 ؛ غاية الأماني، ص 111. في حين أغفل ولايته ابن خياط، المصدر السابق: 1/ 306، وأشار إلى أن الوليد أقرّ محمد بن يوسف إلى نهاية حكمه. أما الرازي، المصدر السابق، ص 88، 214، 323، فيشير إلى أن أيوب بن الحكم تولى صنعاء خمس سنين في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك.

(490) ورد عند غاية الأماني، ص 123 باسم : الضحاك بن واصل السكسكي، وأشار إليه ابن خياط، المصدر السابق: 1/ 384 باسم: الضحاك بن زمل.

مروان بن محمد	القاسم بن عمر الثقفي	استعمله مروان سنة 127هـ/ 744م وبقي في اليمن حتى دخول عبد الله بن يحيى الكندي إلى صنعاء سنة 129هـ/ 746م
	الوليد بن عروة الثقفي	من سنة 130 ـ 132هـ/ 747 ـ 750م.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن الأثير، أبو الحسن عزالدين علي بن محمد بن عبد الكريم (630هـ/ 1232م).
1 ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، جمعية المعارف المصرية، 1286هـ، نسخة مصورة بالأوفست، طهران، انتشارات إسماعيليان.
2 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979 م.
* الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم (ت334هـ/ 945م).
3 ـ تاريخ الموصل، تحقيق: علي حبيبة، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1967م.
* الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (356هـ/ 966م).
4 ـ الأغاني، بيروت، نشر: صلاح الدين يوسف الخليل ودار الفكر للجميع عن طبعة بولاق الأصلية، 1970.
* ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت نحو 314هـ/ 926م)
5 ـ الفتوح، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1986.
* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/ 892م).
6 ـ أنساب الأشراف، تحقيق: محمد باقر المحمودي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1974/ ج2 .
7 ـ فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، مصر، مطبعة السعادة، 1959.
* الجعدي، عمر بن علي بن سمرة (ت بعد 586هـ/ 1190م).
8 ـ طبقات فقهاء اليمن، تحقيق: فؤاد سيد، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، 1957.
* ابن حبان، محمد بن حبان البستي (ت354هـ/ 965م).
9 ـ مشاهير علماء الأمصار، عني بتصحيحه، فلايشهمر، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1959.
* ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (ت656هـ/ 1258م).

10 ـ شرح نهج البلاغة، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1959.

* ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت456هـ/ 1064م).

11 ـ جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1977.

* ابن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت1100هـ/ 1689م).

12 ـ غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1968.

* ابن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط العصفري (ت240هـ/ 854م).

13 ـ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط1، النجف، مطبعة الآداب، 1967.

* ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي (943هـ/ 1536م).

14 ـ قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، القاهرة، المطبعة السلفية، 1971.

* الرازي، أحمد بن عبد الله الرازي الصنعاني (ت460هـ/ 1068م) .

15 ـ تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق: حسين عبد الله العمري والد الجبار زكار، ط1، صنعاء، 1974.

* الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب (ت236هـ/ 850م).

16 ـ نسب قريش، نشر، ليفي بروفنسال، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1976.

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/ 922م).

17 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غويه، ليدن، مطبعة بريل، 1897 ـ 1903).

* ابن عبد الحكم، أبو محمد عبد الله (ت214 هـ/ 829م).

18 ـ سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق: أحمد عبيد، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1967.

* العرشي، القاضي حسين بن أحمد (كان حياً في سنة 1318هـ/ 1900م).

19 ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام، نشر، الأب أنستانس ماري الكرملي، القاهرة، مطبعة البرتيري، 1939.

* عمارة اليمني، نجم الدين عمارة بن علي اليمني (ت569هـ/ 1173م) .

20 ـ تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط3، (دون مكان)، مطبعة العلم، 1979.

* ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت204هـ/ 819م).

21 ـ جمهرة النسب، (رواية السكري عن ابن حبيب)، تحقيق: ناجي حسن، بيروت، عالم

الكتب ومكتبة النهضة العربية، 1986.

* أبو مخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أبي أحمد (947هـ/ 1540م).

22 ـ تاريخ ثغر عدن، ليدن ، مطبعة بريل، 1936، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ/ 957م).

23 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، مصر، مطبعة السعادة، 1967.

* المقدسي، أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي البشاري (ت387هـ/ 997م).

24 ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، ليدن، مطبعة بريل، 1906.

* ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت218هـ/ 833م).

25 ـ كتاب التيجان في ملوك حِميَر، نشر، كرنكو، حيدر آباد الدكن، 1928، أعاد طبعه مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، 1979.

* الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت نحو 350هـ/ 961م).

26 ـ الإكليل، ج2، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1980،

ج8، تحقيق: نبيه أمين فارس، دار العودة، صنعاء ـ دار الحكمة، (د. ت)،

ج10، تحقيق: محب الدين الخطيب، القاهرة، المطبعة السلفية، 1368هـ/ .

27 ـ صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.

28 ـ الوثائق السياسية اليمنية من قبل الإسلام إلى سنة 332هـ، جمع وتحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1976.

* ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ/ 1229م).

29 ـ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977.

* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت284هـ/ 897م).

30 ـ تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، توزيع دار صعب (د.ت).

31 ـ كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة، لابن رستة، ليدن، مطبعة بريل، 1892.

* اليماني، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (ت743هـ/ 1343م)

32 ـ تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: مصطفى حجازي، القاهرة،
مطبعة مخيمر، 1965.

ب ـ المراجع الثانوية:

* الأكوع، محمد بن علي الأكوع الحوالي.
33 ـ «دراسة لمخطوطة عن اليمن لمؤلف مجهول»، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول. مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج2، مطبوعات جامعة الرياض، 1979.
* البكري، صلاح.
34 ـ تاريخ حضرموت السياسي، ط2، القاهرة، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1956.
* الحديثي، نزار عبد اللطيف.
35 ـ أهل اليمن في صدر الإسلام، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1978.
* الشجاع، عبد الواحد عبد الرحمن.
36 ـ اليمن في صدر الإسلام، دمشق، دار الفكر، 1987.
* محمود، حسن أحمد.
تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، بغداد، دار الجاحظ، 1969.

الهوية العربية في العصر الأموي

نشر هذا البحث ضمن كتاب : الهوية العربية عبر حقب التاريخ
المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1997

بدت بوادر الوعي العربي بالظهور في أواخر العصر الجاهلي قبيل ظهور الإسلام بقليل، وتمثَّل هذا الوعي في اللغة والأدب، وتنظيم الأسواق التجارية، وممارسة طقوس وتنظيمات دينية موحدة، بيد أنها كانت قلقة. لكن هذا الوعي كان وعياً سلبياً، لم يتح للعرب فرصة التوحيد في المجالات الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية كافة. وعندما جاء الإسلام دفع بهذا الشعور إلى الأمام، وعمّق لدى العرب الوعي بالذات، ومنحهم رسالة ذات بعد عالمي، فأصبح لديهم دولة عربية موحدة سياسياً في سلطاتها ورجالها، وحملوا رسالة الإسلام بالفتوح. وتوازت رسالة الإسلام مع العروبة حقبة طويلة، وارتفع شأن العربية وبدت لدى العرب وجهة عربية في حركة التعريب، وفي تكوين ثقافة عربية إسلامية شاملة. وشهد العصر الأموي بواكير هذه الحركة التي واكبت هذا العصر حتى نهايته.

ولكن مع ذلك، فقد استمر تيار الشعور بالنَّسب والانتماء القبلي يسيطر على أفكار الكثير من الناس في العصر الأموي، فكان هو الرابطة الأولى لديهم ومصدر اعتزازهم، وقياس العروبة والهوية العربية. ويمكننا أن نلاحظ قوة هذه الفكرة التي تعد العرب أمة متميزة في هذا العصر، والتي استمرت إلى أواخر الدولة الأموية، من موقف نصر بن سيار أمير خراسان وتحذيره الأزد وربيعة الذين خرجوا ضد مضر، من خطر المسودة، فقال عنهم:

ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالي إن هم نُسبوا[491]

وكانت القبائل تعتز بأنسابها وتحرص عليها، وترى في صراحة النسب مقياس الانتماء إلى العرب. وهي نظرة تنطوي على المحافظة وتحد من مجال توسع العروبة. وقد خلق عندهم اعتزازاً بالنسب العربي وشعوراً بالتفوق على الشعوب الأخرى[492]، وصاروا يرون لأنفسهم مزايا ليست لغيرهم، وهذا الشعور، كما يبدو، يكمن وراء النظرة القبلية إلى الموالي، وهو لا ينسجم مع النظرة الإسلامية التي عدت اللغة أساس الهوية العربية كما ورد ذلك في إشارات القرآن الكريم، فالناس عجم وعرب بلغتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[493] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّۗ﴾[494]

---

(491) أبو حنيفة أحمد بن داؤد الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، القاهرة، 1960، ص 361 ـ 362، وينظر: مجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق: عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، بيروت، دار الطليعة، 1971، ص313.

(492) عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية ـ دراسة في الهوية والوعي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1984، ص51.

(493) سورة النحل، الآية: 103.

(494) سورة فصلت، الآية: 44.

لكن فكرة عد اللغة العربية أساساً للهوية لم تكن محبذة في الأوساط القبلية، لأنها كانت تضم عملياً كل الموالي الذين دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية، وشاركوا في ثقافتهم، ورأوا أن في دخولهم للإسلام انتماء للعرب بل عدوا العربية مرادفة للإسلام، مثال ذلك جواب رباح بن أبي عمارة مولى هشام بن عبد الملك للخليفة أبي جعفر المنصور حين سأله عن هويته: أعربي هو أم مولى؟ فقال: «إن كانت العربية لساناً فقد نطقنا به، وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه»[495]، وقد شجع الإسلام هذا المفهوم في مواجهة المفهوم القبلي الذي يتمسك بالنسب ويتعصب له، وذلك من أجل توسيع دائرة الأمة، وإشاعة روح التعارف والتسامح والوحدة بين أبنائها في إطار العقيدة الجديدة[496].

كما شجع الأمويون الاتجاه الإسلامي الذي يعد كل من يتعلم العربية من الموالي عربياً. ويشير النص الآتي إلى ذلك بوضوح، قال الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق، لأهل الكوفة: «لا يَؤُمّنكم إلا عربي، فراحوا ونَحُّوا يحيى بن وثاب، وهو مولى وقارئ، عن إمامة الصلاة، فأنّبهم الحجاج قائلاً: ويحكم إنما قلت عربي اللسان»!. ويشير هذا النص أيضاً إلى محاولة أهل الكوفة المتأثرين بالنظرة القبلية لاستغلال هذا الأمر وتطبيقه على جميع الموالي القراء الأكفاء. لهذا أمر الحجاج مناديه فنادى في الناس: «إنا لم نرد القراء إنما أردنا كل مولى لا يحسن القراءة»[497].

---

(495) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق: عبد العزيز الدوري، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1978، ق3، ص148 ـ 149، نقلاً عن الدوري، التكوين التاريخي، ص51، 94.

(496) ينظر: هاشم يحيى الملاح، «الهوية القومية والثقافية للأمة العربية والدس الشعوبي»، وقائع الندوة القومية لمواجهة الدّسّ الشعوبي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1989: 1/ 55 ـ 56.

(497) البلاذري، أنساب الأشراف، مخطوط إستنبول رقم (598) نسخة الدكتور عبد الأمير دكسن، الورقة 611 ب، وينظر: عبد الواحد ذنون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الموصل، مكتبة بسام، 1985، ص124.

وفي المشرق كانت العربية أيضاً مرادفة للإسلام بنظر الشعوب التي دخلت في الدين الجديد. فقد أشار الطبري إلى أن أشرس بن عبد الله السلمي أمير خراسان، أرسل صالح بن طريف مولى بني ضبة الملقب بأبي الصيداء إلى أهل سمرقند ومن وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، ويعدهم بالإعفاء من الجزية «فأسلم الناس وبنوا المساجد، فجاء دهاقين بخارى إلى أشرس، فقالوا ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً»[498].

وقد ساعد نظام الولاء على انتشار العربية والتعريب في العصر الأموي، ففي مجتمع وحداته قبلية تؤمن بالنسب إيماناً كاملاً، كان المولى من غير العرب الذي يسلم لا يجد محله في المجتمع، ولا سيما في المدن، إلا بالارتباط بالولاء بشخص أو بعائلة أو بقبيلة. وللولاء جذور ومفاهيم ترجع إلى ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية[499]، وقد استمرت هذه المفاهيم في العصر الأموي. وكان الموالي يتعلمون العربية، وبعضهم يتابع دراساتها ويتقنها، ولا سيما من يشتغل منهم بالعلوم الإسلامية وبعلوم العربية، ومن ثم يتخذونها لغتهم فأسهموا هم والجيل الذي نتج منهم في نشر الثقافة العربية، وفي دعم الصراع بقوة مكينة أمام التحديات اللغوية الأخرى، ولا سيما الفارسية[500]. وقد عد الحجاج بن يوسف، كما أسلفنا، القراء من الموالي عرباً. ويقال عن المولى الذي يحسن العربية أنه «تعرَّب» و«استعرب»، ويشار إلى هؤلاء الموالي بـ«المستعربة» و«المتعربين». ومع أن الولاء لا يساوي النَّسب تماماً، بيد أنه كما يقول

(498) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1901: 2/ 1507 ـ 1508.

(499) ينظر تفصيلات ذلك عند: الدوري، التكوين التاريخي، ص52.

(500) شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1978، ص113.

الدوري[501]، أدى في بعض الحالات إلى الاندماج في الجماعة العربية، كما يبدو من الاختلاف في نسب عدد من الأشخاص إلى العرب أو الموالي، مثل إبراهيم النخعي، وهكذا كان الموالي عنصراً بارزاً في حركة التعريب، كما كانوا في حركة الإسلام.

لكن الولاء لم يشمل جميع المسلمين من غير العرب، بل اقتصر على من جاء إلى المدن والمراكز العربية، والتحقوا بالعرب أفراداً وجماعات. أما الزرّاع وسكان الأرياف، فقد انتشر الإسلام بينهم في القرن الأول نتيجة الفتوح العربية، وهجرة العرب من الجزيرة فيما بعد الفتح، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في نشر العربية وفي التعريب في مناطق الأرياف. وقد استمر الأمويون على سياسة الفتوح، واعتمدوا اعتماداً كبيراً على العرب في حملاتهم العسكرية. وكان العرب يشكلون القوات الرئيسية في الأمصار. وهم يتألفون عادة من العشائر التي جاءت من الجزيرة العربية في أثناء حروب التحرير في عصر الراشدين واستقرت في العراق وبلاد الشام ومصر وبقية المناطق التي امتدت إليها حركات التحرير.

وقد حرصت الخلافة الأموية على الإبقاء على الطابع العربي للأمصار الإسلامية، ولا سيما في العراق. ويمكن أن نعد بناء الحجاج لمدينة واسط في حدود السنة 81 أو 82هـ / 700 أو 701م خير مثال على ذلك[502]. وكان من أحد أهداف عقبة بن نافع لبناء مدينة القيروان، قبل ذلك سنة 50هـ/ 670م، هو جعلها قاعدة لنشر الدين الإسلامي وتعريب قبائل البربر في شمال أفريقيا[503].

---

(501) التكوين التاريخي للأمة العربية، ص53.

(502) ينظر عبد القادر المعاضيدي، واسط في العصر الأموي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1976، ص96 ـ 97، طه، العراق في عهد الحجاج، ص152 ـ 153.

(503) عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، بغداد، دار الرشيد، 1982، ص121.

وفضلاً عن استقرار المقاتلة من العرب في الأمصار، ولا سيما الكوفة والبصرة في العراق، والجابية في بلاد الشام، والفسطاط في مصر، والقيروان في شمال أفريقيا، فقد سكن العرب في أماكن أخرى خارج هذه الأمصار وفي القرى المحيطة بها[504]. ولم يقتصر الأمر على العراق والشام فحسب، بل امتد إلى مناطق نائية في المشرق، مثل أذربيجان، والهضبة الإيرانية، وخراسان[505].

ولأجل تثبيت الفتوح في الإقليم الأخير، وفي المشرق بعامة، عمل الأمويون على إقامة قاعدة متقدمة للقوات العربية الإسلامية في خراسان، فنقلوا في السنة 51هـ/ 671م خمسين ألفاً من المقاتلة العرب مع أسرهم من الكوفة والبصرة، وأسكنوهم خراسان[506]. ولا شك في أن وجود هذا العدد، فضلاً عن العرب المستقرين أصلاً في المنطقة، ساعد على نشر العربية والتعريب بين السكان المحليين.

كذلك استمرت هجرة القبائل العربية إلى مصر في العصر الأموي، ونضرب على ذلك مثالاً واحداً هو ما حصل في ولاية عبيد الله بن الحجاب عامل الخليفة هشام بن عبد الملك، في السنة 109هـ/ 729م، الذي طلب من الخليفة نقل جماعات من قيس إلى مصر، فلما أذن له جاء بألف وخمسمائة بيت وأنزلهم في بلبيس. واستمرت سياسة جلب القيسيين إلى مصر في ولاية الحوثرة بن سهيل الباهلي حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف بيت في نهاية العصر الأموي. وقد وجَّه الحجاب هؤلاء القيسيين العرب

---

(504) صالح أحمد العلي، «امتداد العرب في صدر الإسلام». مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1981، مجلد 32، ج1 و2، ص27 ـ 32.

(505) المرجع نفسه، ص32 فما بعدها.

(506) الطبري، تاريخ : 2/ 156.

للاشتغال بالزراعة وفلاحة الأراضي[507]، وكان ذلك بداية جدية لانتشار الإسلام والعربية في الريف، كما يرى ذلك المقريزي بقوله: «لم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله ابن الحجاب مولى سلول قيساً بالحوض الشرقي، فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كان انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها»[508].

وقد ارتبط التعريب ارتباطاً وثيقاً بالإسلام في شمال أفريقيا، وكانت المجموعات العربية الأولى قد جاءت نتيجة الفتوح التي تمت غالبيتها في العصر الأموي، إذ ضمت الحملات عناصر عربية من مختلف القبائل، ولا سيما من أجناد الشام. وتجدر الإشارة إلى حملة حسان بن النعمان الغساني الذي اختاره الخليفة عبد الملك بن مروان لولاية إفريقية، فسار إليها في السنة 78هـ/ 697م في جيش كبير بلغ عدده نحو الأربعين ألف رجل[509]، وقد خسر النعمان معركة مع السكان المحليين، لكن الخليفة أمده فيما بعد بكثير من فرسان العرب ورجالها[510]، فانتصر على الكاهنة زعيمة البربر، وركز جهوده بأفريقية، وبنى فيها قاعدة بحرية في تونس، وزاد من الاختلاط والاندماج بين العرب والبربر، ووجّه اهتمامه إلى نشر الإسلام فيما بينهم بوساطة الدعاة والوفود، فدخل الكثير منهم إلى الإسلام، وجند اثني عشر ألف جندي منهم في الجيش العربي الإسلامي.

---

(507) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تصحيح، رفن كست، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، 1908، ص76 ـ 77.

(508) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، القاهرة، عالم الكتب، 1960، ص101 ـ 102، وينظر: الدوري التكوين التاريخي، ص68.

(509) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر، كولن وليفي بروفنسال، ليدن، 1948: 1/ 34.

(510) أبو إسحق إبراهيم الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، نشر رفيق السقطي، 1968، ص58 ـ 59.

وكانوا يأخذون العطاء، كما منحوا نصيباً مساوياً لما يأخذه مقاتلو العرب من الغنائم[511]، وقد ساعدت هذه الإجراءات على تعريب هذه القبائل، واندماجها في المجتمع الإسلامي الجديد، وحملها للهوية العربية.

وعلاوة على ذلك أن الكثير من البيوتات والجماعات العربية استقروا في نواحي المغرب، وتملكوا الأراضي فيها، مثال ذلك صالح بن منصور الحميري، الذي دخل المغرب في الافتتاح الأول زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك، ففتح نكور في السنة 91هـ/ 709م، التي أقطعه إياها الوليد، فنشر الإسلام بين قبائل غمارة وصنهاجة[512]، كما استقرت جماعات عربية أخرى في نواح مختلفة من المغرب[513]، وكانت الخلافة الأموية تشجع مثل هذا الاستقرار العربي لإدراكها لأهميته في الامتزاج مع السكان المحليين ونشر العربية بينهم.

وفي الوقت نفسه استمر تدفق العرب ضمن الحملات التي وجهت إلى المغرب، وكان آخر هذه الحملات تلك التي قادها كلثوم بن عياض القشيري للقضاء على تمرد البربر في السنة 122هـ/ 740م، وكانت تتألف حين خروجها من الشام من نحو ثلاثين ألف عربي من قبائل الشام وأجنادها[514]. وحين سمع الخليفة هشام بن عبد الملك بهزيمة هذا

---

(511) عبد الرحمن بن عبدالله بن الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر، شارلس توري، نيوهيفن، 1922، ص201، الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص64، أبو بكر عبد الله المالكي، رياض النفوس، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1951: 1/ 35 ـ 36، ابن عذاري، البيان المغرب: 1/ 38، عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956 ـ 1961: 4/ 401، 6/ 219 ـ 220.

(512) أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر، دي سلان، الجزائر1857، ص91.

(513) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص222 ـ 224.

(514) أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر، خوليان رايبيرا، مدريد، 1126، ص14.

الجيش، أقسم أن يرسل جيشاً آخر، وألا يدع حصناً لبربري إلا وجعل بجانبه خيمة لقيسي أو تميمي[515]. إن تصرف الخليفة هشام يمكن أن يفسر على أنه إصرار على نشر الإسلام والتعريب في شمال أفريقيا مهما كانت التضحيات. وهذه سياسة عامة في هذا العصر، نفذت بعد ذلك بشكل أوضح في الأندلس وبخاصة أن عدد العرب كان قليلاً نسبياً في هذه البلاد فأوعزت الخلافة إلى والي الأندلس أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي في السنة 125هـ / 743م، أن يعمل على إسكان القبائل الشامية التي نجت من جيش كلثوم بن عياض، وعبرت إلى الأندلس، لأن عملية استقرار هؤلاء كانت ضرورة ملحة للدفاع عن هذه الولاية، ونشر الإسلام والعربية فيها[516].

وعلى الرغم من أهمية استقرار العرب في المناطق المفتوحة، ونشرهم للإسلام واللغة العربية، وتغلغلهم في مناطق الأرياف، وتعرب السكان المحليين والموالي أو استعرابهم، فإن هوية الدولة العربية لم تكن لتكتمل دون تحقيق أمرين، الأول : يخص إدارة الدولة وتعريب مؤسساتها وعملتها، والثاني : يتعلق بوضع الأسس الأولى للثقافة العربية الإسلامية المتمثلة بالدراسات الخاصة بالقرآن الكريم والحديث والمغازي والفقه واللغة والأخبار والأنساب والشعر. وقد تولت الدولة العمل على تحقيق الهدف الأول، في حين شارك العرب والمستعربة من الموالي في تعميق الدراسات الإسلامية، وإن كان للدولة أيضاً جهد يذكر في هذا المجال من طريق تشجيع مثل هذه الدراسات والاهتمام بالقائمين بها ودعمهم مادياً ومعنوياً.

لقد أبقى العرب في البداية على معظم التنظيمات الإدارية القديمة في

---

(515) الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص191.

(516) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص20، طه، الفتح والاستقرار، ص391.

البلاد المفتوحة، فكانت لغة السجلات والدواوين في العراق والمشرق اللغة الفارسية، وفي الشام اليونانية، وفي مصر القبطية ولكن بعد إعادة وحدة الأمة والاستقرار السياسي الذي شهده العصر الأموي في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، برزت الحاجة إلى تعريب هذه الدواوين، واتخاذ اللغة العربية أداة لإدارة الدولة وضبط الأمور المالية فيها، لأنها اللغة القومية الخاصة للدولة، ومن جهة أخرى، فإن تعريب الدواوين يعني إغناء العربية بمصطلحات جديدة، كما يعني دفع المثقفين من غير العرب إلى إتقان العربية للعمل في الدواوين، ومن ثم دخولهم في خط التعريب[517].

كان قد أشرف على عملية تعريب دواوين الخراج في العراق صالح ابن عبد الرحمن، وهو من الموالي الذين نشأوا وتربوا في بيئة عربية إسلامية، فاستفاد منه الحجاج بن يوسف في هذه العملية لمعرفته الجيدة باللغتين العربية والفارسية. لكن عملية التعريب في العراق لم تمر دون عقبات ومحاولات إعاقة حاولها الفرس المتعصبون الذين رأوا فيها ضربة قاصمة للفارسية، ويدل على ذلك قول مردانشاه بن زاذان فروخ، رئيس ديوان الخراج في البصرة، لصالح بن عبد الرحمن: «قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية»[518]. كذلك تم نقل ديوان الشام إلى العربية على يد سليمان الخشني في السنة 81هـ/700م. وكان يتولاه قبل ذلك سرجون بن منصور الرومي[519]، أما ديوان مصر فنقل أيضاً إلى العربية، وصرف عبد الله أثيناس عنه، وجُعل عليه ابن يربوع الفزاري من

---

(517) الدوري، التكوين التاريخي، ص56.

(518) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة، مطبعة السعادة، 1959، ص298.

(519) المصدر نفسه، ص197.

أهل حمص[520]، وأتم هشام بن عبد الملك عملية تعريب ديوان خراسان التي تولاها إسحق بن طليق الكاتب من بني نهشل في السنة 124هـ/ 721م[521]. وهكذا فتح الأمويون الباب لسيادة اللغة العربية فتحقق نصرها على الفارسية واليونانية والقبطية. ولقد أصبح التعريب لسجلات الدولة ودواوينها سبيلاً إلى تعريب الجاليات في أقاليم الدولة المختلفة، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية التي أصبحت لغة الثقافة والإدارة إلى جانب كونها لغة السياسة والدين[522].

وشملت سياسة التعريب التي اتخذها الأمويون، النقد وإصلاحه وإلغاء آثار الصور والكتابات الفهلوية واليونانية على الدراهم والدنانير، وإحلال كتابات عربية محلها. ولا يخفى ما لشكل النقد وهويته العربية من تعزيز للعروبة والإسلام، فضلاً عن أن الإصلاح كان ضرورة اقتصادية شعرت بها الدولة، فأصبح من غير المعقول أن تبقى الخلافة معتمدة في تعاملها التجاري والاقتصادي على نقود أجنبية أصبحت لا تفي بمتطلبات هذه الدولة.

ولقد نجح الإصلاح الجديد، فعرِّبت الدراهم في العراق والمشرق، والدنانير في بلاد الشام، مما كان له أثره في استقلال الخلافة اقتصادياً، وفي ارتفاع شأن النقد العربي ليصبح عمله دولية في التجارة في الشرق والغرب، وليؤكد الهوية العربية للدولة وأفرادها[523].

أما بالنسبة إلى الفعاليات الثقافية العربية الإسلامية، فقد سارت جنباً

(520) الكندي، الولاة والقضاة، ص58 ـ 59.

(521) محمد بن عبدوس الجهشياري، الوزراء والكتاب، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي 1938، ص67.

(522) ينظر : محمد ضياء الدين الريس، عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية، القاهرة، سلسلة أعلام العرب، 1962 ص286.

(523) الكندي، الولاة والقضاة، ص58 ـ 59.

إلى جنب وواكبت حقبة التعريب، بل كانت ضرورة لازمة لنجاحه، فنشطت أولاً في المدينة المنورة، ثم في مراكز الهجرة الكوفة والبصرة ابتداءً، ثم في الفسطاط والقيروان، فكانت تعبيراً عن دور هذا العصر في الحقل الثقافي الذي شارك فيه العرب والمستعربة من الموالي. وسنشير في الصفحات الآتية إلى لمحات مختصرة من هذه الفعاليات لإكمال الصورة عن دورها في تحقيق هوية الأمة العربية الثقافية.

تتصل الدراسات الإسلامية الأولى بالقرآن الكريم، رغبة في فهم التنزيل، وقد قام بها القراء الذين علّموا الناس قراءة القرآن وعرّفوهم المفاهيم الإسلامية، وتم في العصر الأموي تنقيط القرآن وإعجامه بسبب انتشار التصحيف، الأمر الذي دعا والي العراق، الحجاج بن يوسف، إلى أن يأمر كتّابه بوضع علامات للحروف المتشابهة، ويقال إن نصر بن عاصم الليثي، وقد أُحدِث الإعجام بعد ذلك بسبب استمرار حدوث التصحيف مع استعمال النقط، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام[524].

وبالنظر إلى ظهور فرق ومذاهب مختلفة، وازدياد الخلافات السياسية والمصالح الإقليمية والقبلية والتيارات الفكرية في هذا العصر، فقد شاعت رواية الحديث النبوي الشريف وكثر الوضع فيه، الأمر الذي تطلب زيادة التدقيق والنقد لتمييز الحديث الصحيح من غيره. فوضع العلماء قواعد خاصة لرواية الحديث، فنشأ ما يسمى بعلم الجرح والتعديل. كما حدث تطور مهم بالنسبة إلى علم الحديث في هذا العصر، إذ إن الخليفة عمر ابن عبد العزيز أمر بتدوينه واختار من العلماء محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت124هـ/ 741م)، وأمره بجمع السنن. فقدم خدمة كبرى للأمة

---

(524) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، تحقيق: عبد العزيز أحمد، القاهرة، 1963، ص13، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968 ـ 1972: 2/ 42.

بتدوينه الأحاديث. كذلك اهتم الخليفة هشام بن عبد الملك بتدوين الحديث، وعيَّن شعيب بن أبي حمزة الحمصي للكتابة عن الزهري. وقد ضمت خزانة الكتب الأموية أحمالاً من «دفاتر» علم الزهري كتبت لهشام ابن عبد الملك[525].

وقد ازداد الاهتمام في هذا العصر بتفسير القرآن الكريم لفهم آياته، واتجه المفسرون في هذا العصر اتجاهين، يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور، وهو ما أثر عن الرسول ﷺ وكبار الصحابة. ويعرف ثانيهما، باسم التفسير بالرأي، وهو ما يعتمد على الفعل أكثر من اعتماده على النقل. كما تسرب شيء من الإسرائيليات في التفسير برواية أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وغيرهم. وبرز في هذا العصر عدد كبير من المفسرين، كان أشهرهم عبد الله بن عباس (ت68هـ/ 687م)، الذي يقال عنه إنه أول من ألف في تفسير القرن الكريم[526]، ومن تلامذته عطاء بن رباح (ت114هـ/ 732م)، وسعيد بن جبير (ت94هـ/ 712م)، وطاووس بن كيسان اليماني (ت106هـ / 724م). وكان للفقهاء وأصحاب الفتيا في هذا العصر دور مهم في تطور الفقه الذي يستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والرأي. كان من أبرزهم سعيد بن المسيب (ت94هـ/ 712م)، وعروة بن الزبير (ت92هـ/ 710م)، ورجاء بن حيوة الكندي (ت112هـ/ 720م)، ومكحول بن عبد الله الشامي (ت113هـ/ 721م)[527].

وفرضت دراسات اللغة العربية نفسها في وقت مبكر لأهميتها في

---

(525) ينظر : عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1960، ص100 ـ 101.

(526) أبو الفرج محمد بن إسحق ابن النديم، الفهرست، بيروت، دار المعرفة، 1978، ص57.

(527) إبراهيم بن علي الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1970، ص24، 26، 53.

قراءة القرآن قراءة صحيحة، ولا سيما أنها بدأت تستخدمها أعداد متزايدة من الموالي، كما ابتدأ اللحن بالشيوع نتيجة لاختلاط العرب في الأمصار، وأثر السبايا في البيوت العربية، ما ولّد رد فعل قوي لدى العرب والمتعربين لحماية العربية والحفاظ على نقائها[528]، وقد بدأ تدوين النحو والكتابة فيه في العصر الأموي، ولاسيما في ولاية زياد بن أبي سفيان على العراق (44 ـ 53هـ/ 664 ـ 672م)، إذ بدأ أبو الأسود الدؤلي (ت66هـ/ 688م) بإعراب القرآن الكريم[529]. ويبدو أن اختلاط العربية بلغات الأعاجم في البصرة، كان يتطلب قواعد لغوية أكثر تحديداً، لهذا نشأت في العصر الأموي المدرسة الأولى للنحو في هذه المدينة التي اعتمدت في وضع قواعد النحو وأصوله على القرآن الكريم وقراءته، ويعد عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ/ 735م) أول من وضع أسس علم النحو لهذه المدرسة[530].

وكان لا بد لفهم القرآن الكريم والحديث والحرص على العربية في بيئة الحواضر المختلفة من الرجوع إلى الشعر وإلى الأعراب الفصحاء في البادية للبحث عن العربية الصافية، فشملت الدراسات شعر العرب وأخبارها وأيامها ومفردات لغتها[531]، وقد شهد الشعر منطلقات وموضوعات جديدة، وتطوراً في الأسلوب، ولعل من أهم الأسباب في ذلك، تقدير الخلفاء والأمراء للشعراء والعناية بهم وتشجيعهم[532]،

(528) الدوري، التكوين التاريخي، ص87.

(529) ابن النديم، الفهرست، ص59 ـ 60.

(530) تنظر ترجمته عند: أبو البركات كمال عبد الرحمن بن محمد الأنباري، نزهة الألباب في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة المدني (د. ت)، ص18.

(531) الدوري، التكوين التاريخي، ص88.

(532) ينظر: شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي، معجم الأدباء، بيروت، دار المستشرق، (د. ت): 10/ 128 ـ 229، 212 ـ 214، 280، 11/ 90.

وازدهار الثقافة العربية في مختلف فروع العلم والمعرفة. ومن أشهر شعراء العصر: الأخطل، وجرير، والفرزدق.

ومن الفعاليات الثقافية العربية في هذا العصر النثر وازدهار الخطابة التي تميز بها معظم الخلفاء الأمويين، فضلاً عن الأمراء منهم، ولا سيما زياد بن أبي سفيان، والحجاج بن يوسف الثقفي، ومن المعارضين عبد الله بن الزبير، وقطري بن الفجاءة وغيرهم. أما الدراسات التاريخية، فقد شهدت تقدماً ملحوظاً في هذا العصر نتيجة تشجيع الخلفاء الأمويين للتاريخ العربي والاهتمام بتدوين الحوادث التاريخية، وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان أسبقهم في هذا المضمار، فقد أشارتِ المصادر إلى أن أول محاولة لجمع الأخبار المتناثرة التي كان يسردها الرواة والإخباريون وتدوينها قد تمَّت في عهده[533]، وكان الخليفة عبد الملك ابن مروان يرسل إلى عروة بن الزبير يسأله عن قسم من الحوادث التاريخية، وكان عروة يكتب إليه بذلك[534]، كما شجع الخلفاء على نشر الوعي التاريخي وحث الناس على الاهتمام بالسِّيَر والمغازي، واستعانوا بعدد من العلماء لهذا الغرض، من أمثال عاصم بن عمر بن قتادة (ت120هـ/ 737م) الذي طلب منه الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يجلس في مسجد دمشق ليحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل[535]، ومن

(533) أبو محمد عبد الملك بن هشام، كتاب التيجان في ملوك حمير واليمن، نشر، كرنكو، حيدر آباد الدكن، 1349، ص326، 327، ابن النديم، الفهرست، ص132.

(534) الطبري، تاريخ : 1/1180 ـ 1181، 1284 ـ 1288، 1634، 1770، وينظر: عبد الواحد ذنون طه، دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في العصر الأموي، محاضر الندوة الثالثة للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي، تحرير، محمد عدنان البخيت، عمان، 1989، ص71.

(535) رواية ابن سعد، اقتبسها شمس الدين بن قايماز الذهبي ـ تراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحق، نشر، فشر، بريل، 1890، ص22، وينظر: طه، دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ، ص76 ـ 77.

الواضح أن مثل هذه الفعاليات التاريخية أدت بالتأكيد إلى أن تشيع دراسة المغازي والسِّيَر على أوسع نطاق، ولا سيما في بلاد الشام، الأمر الذي أدى إلى تقدم هذه الدراسات التي هي أحد فروع علم التاريخ.

وكان محمد بن مسلم بن شهاب الزهري من أشهر العلماء الذين بثوا المعرفة التاريخية في هذا العصر، فهو من أقطاب مدرسة المدينة المنورة التاريخية التي وضعها فوق أساس متين وحدد خطوط دراستها واهتمامها[536]، وقدم الزهري خدمة مهمة للدراسات التاريخية إذ إنه كتب رواياته، وهو يعد أول من فعل ذلك بصورة منظمة[537]. ويبدو أنه ابتدأ بتدوين مواد الحديث الشريف، كما أسلفنا، بطلب من الخليفة عمر بن عبد العزيز أو الخليفة هشام بن عبد الملك. ولا شك في أن لهذه الأحاديث المدونة أهمية كبيرة، ولا سيما إذا عرفنا أنها أصبحت أساساً للكتب التي ألّفت في المغازي فيما بعد[538].

وقد شجع الخلفاء الأمويون دراسات الأنساب، وكانت الحاجات الإدارية كتنظيم العطاء، وإسكان القبائل في الأمصار، قد أدت إلى وضع سجلات بالأنساب وعززت الاهتمام بها للحفاظ على الهوية العربية، فظهر النسابون الأولون في العصر الأموي، وكانت عنايتهم بالأنساب واضحة. ومن أشهر هؤلاء النسابين دغفل بن حنظلة البكري (ت65هـ/ 685م)، وعلاقة بن كريم الكلابي، ويزيد بن مفرغ (ت69هـ/ 688م)[539]. وكان اهتمام بعض الخلفاء كبيراً في هذا المجال فيروى أن الخليفة الوليد بن

---

(536) A.A. Dury, "AL-ZUHRI', A study on the Beginnings of History Writing in Islam". B. SOAS, 1957. P.1.

(537) ينظر: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص24.

(538) يقارن: هاملتون جب، علم التاريخ، ترجمة: إبراهيم خورشيد ورفاعة، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1981، ص55.

(539) طه، دور بلاد الشام في نشاة علم التاريخ، ص73.

يزيد بن عبد الملك أمر بعمل سجل واف بأخبار العرب وأنسابها وشعرها، واستعان في ذلك بدواوين عدد عن المختصين في هذا الموضوع، ومنهم حماد بن سابور بن المبارك (ت156هـ/ 772 ـ 773م)[540]، وكان لعدد من القبائل العربية أيضاً دور في معرفة علم الأنساب، مثل قبيلة كلب المعروفة بولائها للأمويين، إذ اشتهر أفرادها بأنهم : «إذا نسي الناس علمهم حفظوه عليهم»[541]، وقد مهدت هذه القبيلة لظهور عدد من النسابين ورواة الأخبار، مثل: الأبرش الكلبي، ومحمد بن السائب الكلبي الذي اعتمد في جمع الأنساب ـ فضلاً عن قبيلته ـ على أفضل النسابين في مختلف القبائل[542].

وهكذا يتبين أن العصر الأموي كان أساساً لتكوين ثقافة عربية إسلامية شاملة، قاعدتها العربية لغة القرآن الكريم، وهي تحوي فكرة الأمة العربية بمفهومها الثقافي، الذي يربط العروبة بالإسلام. وقامت هذه الفعاليات الثقافية على أكتاف العرب، وشارك فيها عدد من الموالي المتعربة، فتم رسم الخطوط الأولى للثقافة العربية الإسلامية، التي ستزدهر في العصور اللاحقة.

---

(540) ابن النديم، الفهرست، ص134، فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة، محمود فهمي حجازي، المملكة العربية السعودية، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية، 1403هـ، م1، 2/ 258.

(541) ياقوت، معجم الأدباء: 16/ 139.

(542) ابن النديم، الفهرست، ص139 ـ 140، وينظر أيضاً : الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص40 ـ 41.



الجهد العسكري العربي الإسلامي لتحرير منطقة الأنبار

نشر هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العراقي،
ج1، م 47، بغداد، 2000م

«1»

على الرغم من أن التقسيمات الإدارية الفارسية القديمة لمنطقة الأنبار تضعها ضمن أحد طساسيج[543]، كورة أستان العال، الذي يشمل الأنبار، وقطربل، وبادوريا، ومسكن[544]، فإن هذه الدراسة لا تتقيّد بهذا التقسيم

(543) الطسوج وحدة إدارية من تقسيمات العراق قبل التحرير، حيث كان مقسماً إلى اثنتي عشرة وحدة تسمى كل منها كورة أو رستاق ويتكون كل منها من وحدات أصغر تسمى الطساسيج، وهي ستون طسوجاً، ويحتوي كل طسوج على عدد من الرساتيق، ينظر: أبو علي أحمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفيسة، نشر: دي غويه، ليدن ـ بريل، 1891، ص107: ويقارن : صالح أحمد العلي، دراسات في الإدارة في العهود الإسلامية الأولى، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1989، ص179.

(544) أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، مختصر كتاب البلدان، نشر، دي غويه، ليدن ـ بريل 1885، ص199؛ أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة، المسالك والممالك، نشر، دي غويه، ليدن ـ بريل، 1889، ص7، قدامة بن جعفر، =

الإداري الضيق لطسوج الأنبار، الذي كان يضم خمسة رساتيق فقط[545]، بل تشمل مناطق أوسع تحيط بالأنبار من جهاتها المختلفة، فتمتد إلى الغرب والشمال لتتصل بتخوم الشام والجزيرة، كما تمتد شرقاً إلى المنطقة التي أُنشئت فيها بغداد فيما بعد. أما في الجنوب، فيبدو أن تأثير الأنبار كان يصل إلى أليس التي تعد أول أرض العراق من جهة البادية[546]، بحيث كانت تعرف بأنها قرية من الأنبار[547]. والظاهر أن هذا التأثير له علاقة إلى حد ما بوظيفة الأنبار في العصر الساساني، لأنها كانت تضم مخازن الحبوب أو الأهراء الرئيسية للأرزاق في المنطقة[548]. ومنها كانت توزع على سائر الأماكن المحيطة بها، والتي ربما ارتبطت بها اقتصادياً، وأصبحت تعد ضمن القرى التابعة لها، وأشار إليها الإخباريون والجغرافيون ضمن هذا السياق، ولكن دون أن يصرحوا بطبيعة هذه العلاقة.

لهذا فإن الأنبار كانت تحتل موقعاً سوقياً مهماً على نهر الفرات، جعل منها ومن المنطقة المحيطة بها موضع اهتمام بالغ من قبل القادة العسكريين العرب المكلفين بمهمة تحرير العراق في مراحله المبكرة، ولاسيما خالد بن الوليد، القائد العام لهذه الجبهة، الذي كان محوطاً

= الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق، محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، للنشر، 1981، ص361.

(545) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص8.

(546) أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 1/ 248.

(547) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غويه، ليدن ـ بريل، 1879 ـ 1903: 1/ 2202، ياقوت، المصدر السابق: 1/ 248.

(548) ينظر: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة، مطبعة السعادة، 1959، ص247، ياقوت، المصدر السابق: 1/ 257، محمد بن عبد المنعم الحميدي، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975، ص36.

بمجموعة من الزعماء والقادة الميدانيين البارزين، من أمثال المثنى بن حارثة الشيباني، والقعقاع بن عمرو، والزبرقان بن بدر، وعبد الله بن جرير البجلي، وبشير بن سعد الأنصاري، والأقرع بن حابس، وغيرهم.

وتركز هذه الدراسة بشكل مباشر على الروايات المتقدمة الأولى التي وردت عن التحرير، ولاسيما رواية سيف بن عمر (ت180هـ/ 796م) التي وصلت إلى الطبري من طريق السري بن يحيى، وهي رواية مفصلة إلى حد ما، ومقارنة أحداث هذه الرواية بما أورده البلاذري (ت279هـ/ 892م) على وجه الخصوص، الذي لا يشير إلى مصادره في غالب الأحيان، وقد قدمت بعض روايات أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت182هـ/ 798م) في كتابه الخراج إضافات قيّمة إلى كل من روايتي سيف والبلاذري، وأيدتها في سياقها العام، أما ما أورده قدامة بن جعفر (ت337هـ/ 948م)، فكان في الغالب تكراراً لرواية البلاذري. وعلى الرغم من تعرض الكثير من الباحثين المحدثين إلى دراسة تاريخ الفتح والتحرير، ولاسيما العسكريين الذين تناولوا هذه المواقف بالشرح والتفصيل، فإن الباحث حاول أن يجد له طريقاً مغايراً في العرض والتحليل، وذلك بالابتعاد عن التفصيلات العسكرية التي أسهب فيها الآخرون محاولاً إضفاء الصفة الأكاديمية البحتة على عناصر البحث، للتوصل إلى فهم طبيعة الجهد العسكري العربي لتحرير الأنبار، ومنطقها من خلال الروايات التاريخية المتيسرة.

«2»

كان للفرس قوات كبيرة منتشرة في منطقة الأنبار، موزعة في أماكن مختلفة، منها ثلاثة على وجه الخصوص، وهي : العين، والفِراضُ، والأنبار[549]، ويقصد بالعين بالعراق، عين التمر، وهي بلدة قريبة من

(549) الطبري، المصدر السابق : 1/ 2056.

الأنبار[550]، أما الفِراضُ، فهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات[551]. وكان من الضروري مهاجمة هذه المناطق الثلاث للتخلص من القوات الفارسية المتمركزة فيها، يضاف الى ذلك ضرورة التخلص من بقية الحاميات والمسالح الأخرى المنتشرة في المنطقة، ولاسيما في أَلِيس[552]، التي كانت تعد ـ كما أسلفنا ـ إحدى قرى الأنبار، وهي أول أرض العراق من جهة البادية[553]. وقد تمكن المسلمون من السيطرة عليها بعد معركة حامية اشترك فيها الى جانب الفرس بعض نصارى العرب من بني عجل وتيم اللات وضبيعة، وعرب الضاحية من أهل الحيرة. وقد عيّن بهمن جاذويه القائد الفارسي جابان، وأمره بالتقدم وعدم القتال حتى يلحق به، فسار جابان حتى أتى أليس، فنزل بها وقد اجتمعت إليه المسالح التي كانت بإزاء العرب. وتشير رواية سيف بن عمر[554]، إلى محاولة خالد بن الوليد في التعجيل بضرب هذا التجمع المعادي والانتصار عليه، وكان عدد قتلاهم كبيراً بحيث جرت دماؤهم في نهر الفرات، فسمّي ذلك المجرى بنهر الدم.

أما رواية البلاذري، فتجعل هذه المعركة من نصيب المثنى بن حارثة الشيباني الذي وجَّهه خالد بن الوليد لمعالجة الأمر، فتذكر أن خالداً «أتى أَلِيس فخرج إليه جابان عظيم العجم فقدم إليه المثنى بن حارثة الشيباني

(550) ياقوت، المصدر السابق: 4/ 175، 176.

(551) المصدر نفسه : 4/ 244.

(552) ينظر : أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، تحقيق: القاضي محمود الباجي، تونس، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، 1984، ص144.

(553) ياقوت، المصدر السابق : 1/ 248.

(554) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2031 ـ 2036، وينظر أيضاً : أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979 : 2/ 388 ـ 389.

فلقيه بنهر الدم، وصالح خالد أهل أليس على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس وأدلاء وأعواناً»[555]. ولا تشير هذه الرواية إلى تفصيلات المعركة، أو طبيعة القوات المعادية المشاركة فيها، وكان عدد هذه القوات كبيراً جداً بحسب رواية سيف بن عمر المشار إليها أعلاه، حتى إن الرواية تبالغ فتجعل عدد القتلى فقط في حدود سبعين ألف رجل، الأمر الذي كان يتطلب بالفعل مشاركة خالد ومن معه جميعاً في المعركة، لا الاكتفاء بتقدم المثنى بن حارثة إليها. كذلك فإن فتح أليس عنوة يؤكده إرسال خالد بخبرها الى الخليفة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، مع الفيء والسبي المأخوذ من المعركة، وحصة الخلافة من أخماس الغنائم[556].

«3»

وكان تحرير الحيرة في شهر ربيع الأول سنة 12هـ/ 633م قد شكّل مرحلة حاسمة من مراحل تحرير العراق، ولاسيما بعد أن توصل المسلمون إلى عقد الصلح مع أهلها، الأمر الذي هيأ أرضية جيدة للتفاهم مع بقية أهالي المنطقة ودهاقينها الذين جاؤوا إلى خالد بن الوليد لعقد الصلح معه، والانخراط في النظام الجديد الذي مثله العرب المسلمون، فقد كانت الحيرة أول عاصمة من عواصم الأقاليم التي تحكمها الإمبراطورية الساسانية تسقط بأيدي المسلمين، ولذا، فإن سقوطها شكّل عاملاً معنوياً أمر بصورة إيجابية على نفوس المسلمين وبصورة سلبية على الفرس. وكانت الحيرة بموقعها السوقي في العراق تمثل موطئ قدم مناسباً للتقدم في قفزة هجومية أخرى إلى الأنبار، وبقية مناطق غرب الفرات، فضلاً عن مزيتها لوقوعها على تخوم الصحراء، فهي طريق انسحاب آمن،

(555) البلاذري، المصدر السابق، ص244؛ وينظر: قدامة، المصدر السابق، ص354.

(556) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2036.

وخط رجعة إذا لزم الأمر[557]، وقد أقام خالد بن الوليد في الحيرة لمدة سنة تقريباً يراقب الموقف في العراق، ونتيجة عمليات عياض بن غنم إلى الشمال منه[558]، وكان الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قد عهد إليه بعدم القيام بهجوم اقتحامي على قوة الفرس الرئيسية إلا بعد الانتهاء من القضاء على المسالح التي بين العرب والفرس وحماية ظهر المسلمين، والتأكيد على بقاء أحد القائدين، خالد أو عياض، بالحيرة في حين يقتحم الآخر قوة العدو ويجالده[559].

وقد أرسلت في هذه الأثناء قوة للقضاء على إحدى المسالح الفارسية المتمركزة في قرية بانقيا، وهي من نواحي الكوفة على الفرات[560]، ويشير البلاذري[561]، إلى إرسال خالد لبشير بن سعد أبي النعمان بن بشير الأنصاري إلى بانقيا ومقاتلة الفرس هناك، كما يذكر رواية أخرى تنسب قيام خالد نفسه بالتوجه إلى المنطقة، الأمر الذي تؤكده رواية أبي يوسف[562]، وأنه افتتح الحصن وأخرقه وهدمه، ثم صالح أهله على دفع الجزية، كما أرسل جريد بن عبد الله البجلي إلى قرى أخرى بالسواد، فصالحهم على مثل ما صولح عليه أهل الحيرة وبانقيا[563].

والواقع أن الروايات تختلف بهذا الشأن كثيراً، ففي حين يورد البلاذري الروايات التي أشرنا إليها أعلاه، دون أن يذكر سنده، يشير أيضاً

(557) يقارن : أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن، ط3، بيروت، دار النفائس، 1977، ص263.

(558) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2056.

(559) المصدر نفسه : 1/ 2057.

(560) ينظر: أبو يوسف، المصدر السابق، ص147؛ ياقوت، المصدر السابق: 1/ 331.

(561) فتوح البلدان، ص245 ـ 247.

(562) الخراج، ص147.

(563) المصدر نفسه، ص147.

إلى قيام خالد بن الوليد بإرسال جرير بن عبد الله البجلي إلى أهل بانقيا، حيث اتفق مع أحد زعمائها «بصبهرى بن صلوبا» على الصلح وعدم القتال، وتعهد أهل بانقيا على دفع ألف درهم وطيلسان[564]، ويؤكد ابن اعتم[565] هذه الرواية فيشير إلى أن خالد بن الوليد أرسل جرير بن عبد الله البجلي على رأس ألف رجل من المهاجرين والأنصار لمقاتلة القائد الفارسي داذويه بن فرخان في بانقيا. ولما وصل جرير إلى شاطىء النهر وأراد عبوره، جاءه رجل من القرية وعرض عليه الصلح مقابل مائة ألف درهم، فرضي جرير بذلك، وكتب له كتاب الصلح، وقد هرب داذويه بعد ذلك إلى يزدجرد. لكن رواية سيف بن عمر لدى الطبري[566]، أوضح وأشمل من هذه الروايات جميعاً، وهي تؤكد قيام خالد بن الوليد بعقد الصلح مع الزعيم «صلوبا بن نسطونا بن بصبهرى» الذي جاء الى خالد بنفسه بعد صلح الحيرة، فصالحه على بانقيا وبسما، وضمن له ما عليهما وعلى أراضيهما من شاطىء الفرات جميعاً، وعقد لنفسه وأهله وقومه على عشرة آلاف دينار، وكتب لهم كتاباً بذلك شهد عليه بعض قادته من أمثال هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وحنظلة بن الربيع، وجرير بن عبدالله. وكان تحرير بانقيا وانضمامها إلى الدولة العربية الإسلامية الجديدة خطوة أخرى ساعدت في التقدم إلى الأنبار.

وقد اتخذ خالد بن الوليد إجراءات إدارية عاجلة لضبط المناطق التي تم تحريرها بعد السيطرة على الحِيرة، ولاسيما الأقاليم التي تقع بين الفلاليج إلى أسفل السواد. والفلاليج هي قرى السواد الشمالية، واحِدُها

(564) البلاذري، المصدر السابق، ص246.

(565) أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي، الفتوح، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1986: 1/ 80.

(566) تاريخ الرسل، والملوك: 1/ 2049 ـ 2050.

الفلوجة[567]، وأصبح سواد الحيرة من مسؤولية كل من القادة، جرير بن عبد الله البجلي، وبشير بن الخصاصية، وخالد بن الواشمة، وابن ذي العنق، واطر بن أبي أط، وسويد، وضرار. كما أقر المسالح على ثغورهم[568]، وكانت الثغور في زمن خالد بالسيب، وهو كورة من سورة الكوفة[569]، حيث أرسل ضرار بن الخطاب، والمتين بن حارثة، وضرار بن مقرن، وغيرهم، فكانوا يقومون بالهجمات على العدو في تلك الأصقاع الى شاطئ دجلة[570].

ومن أجل العمل على نجدة عياض بن غنم، الذي كان يقاتل في الجزيرة، اضطر خالد الى مغادرة الحيرة التي استخلف عليها القعقاع بن عمرو، ووضع على مقدمته الأقرع بن حابس. وتشير رواية البلاذري[571] إلى أن المثنى بن حارثة الشيباني كلِّف من قبل خالد بن الوليد مع حنظلة بن الربيع بن رباح الأسدي بتتبع القائد الفارسي جابان، الذي كان في جمع عظيم في تستر. وقد هرب جابان بعد سماعه بقدوم هذين القائدين. ومن المحتمل أن يكون المثنى قد رجع بعد ذلك، والتحق بقوّة خالد الرئيسية، حيث يشير البلاذري إلى قيامه ببعض الأعمال العسكرية التي كلفه بها خالد في أثناء تحرير الأنبار[572].

(567) ينظر: ياقوت، المصدر السابق، 4/ 270.

(568) الطبري، المصدر السابق، 1/ 2057 - 2058.

(569) ينظر : ياقوت، المصدر السابق: 3/ 293.

(570) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2052، 2058.

(571) فتوح البلدان، ص247.

(572) المصدر نفسه، ص247، ويقارن : محمود عبد الله إبراهيم العبيدي، بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1984، ص193 - 194، والذي يشير إلى بقاء المثنى في منطقة المدائن ومنا وجه حملاته التي كلفه بها خالد على سوق بغداد وغيرها.

«4»

ويبدو أن خالداً ارتأى التخلص من القوات الفارسية المتواجدة بالأنبار بعد أن أرسل مقدمته التي عليها الأقرع بن حابس. وتقدِّم رواية سيف التي يوردها الطبري[573]، تفصيلات دقيقة عن حملة خالد بن الوليد على الأنبار، فتشير إلى تحصن أهلها وخندقتهم على أنفسهم، كما تشير إلى دور عرب الأنبار غير المتحمس للقتال[574]، الأمر الذي أربك الحامية الفارسية فيها، واضطر حاكمها شيرزاد صاحب ساباط للتفكير في طلب الصلح. لكن وصول خالد بن الوليد على إثر مقدمته، عجَّل في نشوب القتال بين الطرفين. وكان في جيش خالد فرقة من الرماة الذين وُجّهوا من قِبَلِه برَمْيِ عيون الأعداء قائلاً : «إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونَهم ولا توخوا غيرها فرموا رشقاً واحداً ثم تابعوا ففقئ ألف عين يومئذ فسميت تلك الوقعة ذات العيون. . .»[575]. حاول شيرزاد بعد ذلك التوصل إلى الصلح مع خالد، فلم يرض خالد بشروط شيرزاد، واستمر في تضييق الخناق على الحامية، فجاء إلى أضيق مكان في الخندق المحيط بالمدينة، ونحر فيه الإبل الضعيفة حتى امتلأ، ثم عبره، فاجتمع المسلمون والفرس في الخندق، حيث دارت معركة حامية، اضطر على إثرها قائد القوة الفارسية إلى طلب الصلح على ما أراد خالد، فصالحه على أن يطلق سراحه، ويلحق بمأمنه في جريدة من الخيل دون متاع أو مال، فخرج شيرزاد إلى بهمن جاذويه[576].

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى موقف عرب الأنبار الذين أظهروا

(573) تاريخ الرسل والملوك: 1/ 2059 فما بعدها.

(574) ينظر : محمد ضيف الله البطاينة، العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الإسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق، مجلة المؤرخ العربي، العدد 22، بغداد، 1982، ص89.

(575) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2060: وينظر : الحميري، المصدر السابق، ص36.

(576) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2060: ابن الأثير، المصدر السابق: 2/ 394.

ميلاً واضحاً لعدم الدخول في القتال إلى جانب الحامية الفارسية، متعللين بتخوفهم وتشاؤمهم من رؤية الجيش العربي الإسلامي. وقد جاؤوا الأنبار ركباناً حاملين صغار جمالهم على أمهاتهم لحداثة ولادتهم، فتصايحوا من فوق السور: «صبح الأنبار شر جمل يحمل جميلة...»[577] ومن الواضح أن هذا الموقف كان يحمل أبعد من مجرد التشاؤم، وعدم الرغبة في القتال، وهو يدل على حسهم القومي وشعورهم بالانتماء إلى الفاتحين القادمين لتحريرهم. وقد أدرك هذا الأمر القائد الفارسي شيرزاد الذي كان كما يصفه الطبري، أعقل أعجمي يومئذ وأسوده وأقنعه في الناس العرب والعجم»[578]، لهذا لم ير جدوى من المقاومة وآثر السلامة والانسحاب.

ويظهر أن هذا الحس العربي لدى أهل الأنبار قد تأصل بتحضرهم وتعلمهم الكتابة، وشعورهم بالانتماء ويدل على ذلك إتقانهم للكتابة العربية التي تعلموها عن أياء، وقد أنشدوا خالداً حين سألهم عن مصدر تعلمهم الخط قائلين:

قومي أياء لو أنهم أمم — أو لو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم باحة العراق إذا — ساروا جميعاً والخط والقلم[579]

ولا نجد هذا الشعور لدى بعض عرب البوادي والأطراف، الذين كانت نظراتهم أضيق من نظرة أهل الأنبار، ولم ينظروا إلى الفاتحين الجدد تلك النظرة القومية، بل نجد أن بعضهم ينضم إلى صفوف الفرس، طمعاً، أو عصبية لمن قتل منهم في معارك سابقة نتيجة مقاومتهم للمسلمين، كما سنرى ذلك بوضوح في معارك عين التمر، والحصيد والخنافس، والمصيخ وغيرها.

---

(577) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2059.

(578) المصدر نفسه، 1/ 2059.

(579) المصدر نفسه، 1/ 2061.

ويورد البلاذري رواية تحرير الأنبار باختصار، ودون ذكر رواته لكنها تتميز بوجود عناصر أخرى تختلف عما أورده سيف، فتشير رواية البلاذري إلى وجود دور للمثنى بن حارثة الشيباني، ليس في أحداث الأنبار بالذات، بل على هامشها وأطرافها. فبعد أن وصل خالد إلى الأنبار، تحصن منه أهلها «ثم أتاه من دله على سوق بغداد وهو السوق العتيق الذي كان عند قرن الصراة فبعث خالد المثنى بن حارثة فأغار عليه فملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء وما خف حمله ثم باتوا في السليحين إلى الغرب من بغداد، وأتوا الأنبار وخالد بها فحصروا أهلها وحرقوا في نواحيها.. فلما رأى أهل الأنبار ما نزل بهم صالحوا خالداً على شيء رضي به فأقرهم. . .»[(580)].

كذلك وَجَّه خالد بن الوليد المثنى بن حارثة الشيباني للإغارة على سوق أخرى تقع إلى الشمال من الأنبار، فيها تجمّع لكلب بن وائل وطوائف من قضاعة، في حين افتتح جرير بن عبد الله البجلي بوازيج الأنبار، وأسكن بها قوماً من مواليه[(581)]، وقد مهد تحرير الأنبار وما حولها من أهل البوازيج إلى دخول مناطق أخرى في حماية الجيش العربي الإسلامي، مثل كلواذى القريبة من موقع مدينة بغداد على الشاطئ الشرقي لدجلة شمالي المدائن بنحو 25 كيلو متراً[(582)]، وقد أرسل أهل كلواذى إلى خالد ليعقد لهم، فكاتبهم، فكانوا عيوناً له من وراء دجلة[(583)].

---

(580) البلاذري، المصدر السابق، ص247، قدامة، المصدر السابق، ص356.

(581) البلاذري، المصدر السابق، ص247 ـ 248؛ وينظر أيضاً: الطبري، المصدر السابق: 1/ 2061؛ كمال، المرجع السابق، ص286؛ وبوازيج الأنبار موقع قربها، ينظر، ياقوت، المصدر السابق: 1/ 305.

(582) يقول عنها ياقوت إنها طسوج قرب مدينة السلام بغداد، وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها، وناحية الجانب الغربي من نهر بوق، بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر (الفرسخ = 3 أميال): المصدر نفسه: 4/ 477.

(583) الطبري، المصدر السابق، 1/ 2061.

وهناك خلاف بشأن عهد الأنبار الذي تم مع خالد بن الوليد وقادته، فيورد البلاذري[584]، رواية عن الشعبي أنه قال: «لأهل الأنبار عهد وعقد»، في حين يذكر قدامة[585]، رواية أخرى لا يشير إلى راويها تقول: «ليس لشيء من السواد عهد إلا الحيرة وأليس وبانقيا». ولكن ما يؤيد عهد الأنبار وصلحهم ما يذكره البلاذري أيضاً نقلاً عن «مشايخ من أهل الأنبار»، أنهم صالحوا على طسوجهم، على أربعمائة ألف درهم وألف عباءة قطوانية في كل سنة، وتولى الصلح جرير بن عبد الله البجلي، ويقال : صالحهم على ثمانين ألفاً[586]. لكن هذه الرواية تشير إلى أن الصلح تم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا غير محتمل، لأن المتفق عليه أن خالداً صالحهم مباشرة بعد التحرير سنة 12هـ/633م[587].

«5»

استخلف خالد على الأنبار الزبرقان بن بدر بن امرئ القيس التميمي، وتوجه إلى عين التمر، وهي بلدة قريبة من الأنبار، تقع غربي الكوفة[588]. وكانت تعد من الحصون العسكرية القوية التي يتجمع فيها الفرس، وقد أشار البلاذري[589] إلى وجود مسلحة عظيمة للأعاجم فيها، في حين يذكر أبو يوسف[590] أن بها مرابطة لكسرى. وفي أي حال، فقد

---

(584) فتوح البلدان، ص247؛ وإسناد الرواية ؛ وحدثني الحسين بن الأسود، قال حدثني يحيى بن آدم، حدثنا الحسن بن صالح عن جابر عن الشعبي.

(585) الخراج وصناعة الكتابة، ص356.

(586) البلاذري، المصدر السابق، ص247.

(587) ينظر: الطبري، المصدر السابق: 1/ 2060؛ ياقوت، المصدر السابق: 1/ 258.

(588) ياقوت، المصدر السابق؛ 4/ 176.

(589) فتوح البلدان، ص248؛ وينظر : قدامة، المصدر السابق، ص356.

(590) الخراج، ص147.

كان جمع الفرس فيها كبيراً بقيادة مهران بن بهرام جوبين، يساعده بعض نصارى العرب من النمر وتغلب وإياد بزعامة عقة بن أبي عقة. وتُفصّل رواية سيف في أحداث تحرير عين التمر، فتشير إلى تشجيع القائد الفارسي مهران لعقة بن أبي عقة على مواجهة خالد دون الفرس الذين ظلوا في داخل الحصن بالعين. وسرعان ما أخذ خالد عقة أسيراً، وانهزم جمعه، وقد فر مهران وغالبية جنده، واحتمى الباقون في داخل الحصن. لكن خالداً والمسلمين تمكنوا من الاستيلاء على هذا الموقع، وأُعدم عقة بن أبي عقة نتيجة خيانته وانضمامه إلى الفرس، كما قُتل أيضاً جميع من أصر على المقاومة في داخل الحصن[591]. وصالح خالد أهل عين التمر، وفرض عليهم الجزية كما فعل مع بقية المواقع الأخرى التي تمت السيطرة عليها من قبل الجيش العربي الإسلامي[592].

ووجَّه خالد بن الوليد من عين التمر بعض السرايا للاستيلاء على بعض المناطق التي تتواجد فيها مجموعات عربية من بني تغلب، وبني ربيعة، مثل حملة النسير بن ديسم بن ثور إلى الأماكن المحيطة بالعين، فتمَّت بنجاح[593]، كما أرسل سعد بن عمرو الأنصاري في جمع من المسلمين إلى منطقة تسمى صندودياً أو صندوداء[594]، بها قوم من كنده وإياد والفرس، فقاتلهم، ثم صالحهم على الجزية، وقد أسلم منهم مجموعة من نصارى العرب[595]. ويبدو أن هذه الحملات قصد منها تأمين

(591) الطبري، المصدر السابق: 1/ 1062 ـ 1064؛ وينظر : ابن الأثير، المصدر السابق، 2/ 394 ـ 395.

(592) أبو يوسف، المصدر السابق، ص147؛ البلاذري، المصدر السابق، ص249.

(593) المصدر نفسه، ص249 ـ 250.

(594) هكذا وردت عند ياقوت، المصدر السابق: 3/ 425، ولم يحدد موقعها بالضبط إنما جعلها في الطريق بين العراق والشام، وجاءت عند أبي يوسف، المصدر السابق، ص47 على أنها صندوديا.

(595) المصدر نفسه، ص147 ـ 148.

الوجود العربي الإسلامي في المناطق المحيطة بالأنبار، وعين التمر، ومحاولة ضم العناصر العربية القاطنة في تلك الأنحاء إلى سلطة الدولة العربية الإسلامية الجديدة، وتعريفها بتغير ظروف المنطقة وانتهاء السيطرة الفارسية في العراق.

«6»

لما فرغ خالد من عين التمر خلف فيها عُويم بن الكاهل الأسلمي، وخرج في تعبئته التي دخل فيها العين إلى دومة الجندل لنجدة عياض بن غنم[596]. وحاول الفرس نتيجة ابتعاد خالد التعرض للأنبار، فجاء القائدان زرمهر وروزبة من منطقة بغداد، وحاولا مهاجمتها، وتواعدا على اللقاء في منطقتي حصيد والخنافس، وهما موضعان في أطراف العراق قرب الأنبار[597]. فكتب الزبرقان بن بدر وهو على الأنبار، إلى القعقاع بن عمرو، وهو يومئذ خليفة خالد على الحيرة، يعلمه بالأمر، فبعث القعقاع أبا ليلى أعبد بن فدكي السعدي إلى الحصيد وعروة بن الجعد البارقي إلى الخنافس. ويدل هذا الإجراء على سرعة اتخاذ القادة المسلمين لقراراتهم وحركتهم في تنفيذها. فمنذ خرج الفرس من منطقة بغداد، وبلوغ خبرهم إلى الزبرقان بن بدر بالأنبار، ثم إلى القعقاع بالحيرة، سار هذا الخبر نحو 250 كيلومتراً، ثم أرسل القعقاع القائدين أبا ليلى بن فدكي، وعروة بن الجعد إلى مواقع تبعد نحو أكثر من 170 كيلومتراً في حين أن الفرس لم يبلغوا الأنبار التي لا تبعد كثيراً عن منطقة بغداد[598].

سارت قوات المسلمين لمجابهة التجمع الفارسي الذي اتجه إلى عين

(596) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2064، 2065 ـ 2066.

(597) ينظر: ياقوت، المصدر السابق: 2/ 266، 391.

(598) ينظر: كمال، المرجع السابق، ص296.

التمر، فسبقه القائدان أبو ليلى وعروة، وحالت حركتهما بين العدو وقطع الطريق عن الجيش العربي الإسلامي من البادية. ولما رجع خالد من دومة الجندل، أطلعه القعقاع بن عمرو على الموقف، فأمره خالد باللحاق بالقائدين المسلمين إلى عين التمر. ثم استخلف خالد على الحيرة عياض بن غنم، وسار بجيشه وعلى مقدمته الأقرع بن حابس، فوصل بدوره إلى عين التمر، وأشرف على تجميع القوات العربية الإسلامية فيها. ومن هناك أرسل القعقاع إلى الحصيد، حيث نشبت معركة اشترك فيها القائدان الفارسيان زرمهر وروزبة، وانتهت بمقتلهما، وهروب القوات الفارسية إلى منطقة الخنافس. وقد تولى القائد أبو ليلى بن فدكي مطاردة هؤلاء في الخنافس، وكانوا بقيادة المهبوذان الذي هرب مع فلوله إلى المُصيَّخ[(599)]، واستولى المسلمون على الخنافس[(600)].

وعلى الرغم من عدم تمكن الفرس من التعرض المباشر للأنبار، فإنهم كانوا يهدفون بالتأكيد إلى زعزعة القوات العربية الإسلامية فيها، وذلك من طريق ضرب حصار حولها من جهة الغرب، وقطع الطريق على أي مدد يمكن أن يأتي من الجزيرة العربية، لذلك فقد عبروا الفرات ورابطوا على شاطئه الغربي، لكن عدم تنظيمهم وإخفاقهم في التجمع في مكان واحد مع حلفائهم من بعض العناصر العربية، أدى إلى تمكن القوات العربية الإسلامية من الانتصار عليهم، وتشتيت شملهم، وإفشال مخططهم في تطويق الأنبار.

(599) المُصَيَّخ: مكان بين حوران والقلت، ويقع شمال غرب هيت، ويعرف بمصيخ بني البرشاء، ينظر الطبري، المصدر السابق: 1/ 2069؛ ياقوت، المصدر السابق، 5/ 144.

(600) الطبري، المصدر السابق (برواية سيف): 1/ 2067 ـ 2069؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 2/ 397.

«7»

وصلت الأخبار إلى خالد بن الوليد بتجمع قبائل معادية من تغلب بقيادة الهذيل بن عمران في المصيخ، بالإضافة إلى القوات الفارسية المندحرة في الحصيد والخنافس. فكتب إلى القعقاع بن عمرو وقائديه أبي ليلى وعروة بن الجعد، بالتوجه إلى تلك المنطقة، وواعدهم ساعة معينة من الليل، ثم خرج هو إليهم من عين التمر. فوصل في الوقت نفسه، فأغاروا جميعاً على تلك القوات المعادية بثلاثة أرتال، الأول بقيادة القعقاع، والثاني بقيادة أبي ليلى بن فدكي، والثالث بقيادة خالد نفسه. وتمت إحاطة العدو ليلاً، والقضاء على قوّته[601]، ثم لوحقت فلوله إلى الفِراض التي تقع على تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات[602]. وتعد هذه العملية الأخيرة خارجة عن وصية الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى كل من خالد بن الوليد وعياض بن غنم القاضية بتحرير العراق من المصيخ إلى الحيرة. لكن تقدُّم خالد إلى ما بعد المصيخ حتى الفراض، كان لظروف عسكرية قاهرة[603]، اضطرته إليها الحالة الأمنية، لإزالة الموقف المعادي للقوات الفارسية وبعض المتحالفين معها من النصارى، وذلك للحفاظ على ما أنجز من عمليات في منطقة الأنبار.

ولا تشير رواية البلاذري[604]، إلى هذه التفصيلات، وتجعل مسير خالد من الحيرة، أو من عين التمر إلى الشام لنجدة أبي عبيدة بن الجراح.

(601) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2069 ـ 2072؛ وينظر : عبد الجبار محمود السامرائي، معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 1984، ص114 ـ 115.

(602) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2073؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 2/ 399.

(603) يقارن: شاكر محمود رامز، تحرير العراق ـ القادسية، بغداد، مديرية المطابع العسكرية، 1984، ص191.

(604) فتوح البلدان، ص250 ـ 251.

وقد خَلَف على العراق المثنى بن حارثة الشيباني[605] الذي خرج في وداعه، فقال له خالد: «ارجع رحمك الله إلى سلطانك فغير مقصر ولا وانٍ»[606]. وكان المثنى مؤهلاً للقيام بهذه المسؤولية، فقد أقام بالحيرة، ووضع المسالح، وأذكى العيون[607]، وساهم في عمليات حربية عديدة ضد القوات الفارسية، كانت أشهرها معركتا الجسر والبويب. وعلى أثر المعركة الأخيرة اضطر الفرس إلى ترك السواد جميعه بين نهري دجلة والفرات، وقد ابتدأ المثنى بتنظيم القوات العربية الإسلامية وإعادة السيطرة على الأماكن التي انسحب منها بسبب العمليات العسكرية مع الفرس، فعيَّن على الحيرة بشير بن الخصاصة، وتهيأ للمسير إلى أليس والأنبار، فسيطر على الأولى، وتسمى معركتها بغزاة أليس الآخرة[608].

ولما كان الجيش العربي الإسلامي في حاجة إلى ما يتقوى به لمواجهة الأعداء، فقد قرر المثنى مهاجمة الأسواق الموسمية التي كانت تعقد في المنطقة، الأمر الذي سبق أن مارسه أيام عمله بقيادة خالد بن الوليد في أثناء تحرير الأنبار. وقد دله أحد الأنباريين على سوق الخنافس، كما دله أحد أهل الحيرة على سوق بغداد، فهاجم الخنافس يوم سوقها، ثم جاء إلى الأنبار، لكن دهاقينها تحصنوا منه لعدم معرفتهم إياه، فلما عرفوه، فتحوا له أبواب المدينة، وجاؤوه بالأعلاف والزاد، والأدلاء ليتوجه إلى سوق بغداد[609].

---

(605) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2122 (برواية ابن إسحق)؛ وينظر : أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، توزيع دار صعب (د. ت): 2/ 133.

(606) البلاذري، المصدر السابق، ص250، وينظر، محمود شيت خطاب، قادة فتح العراق والجزيرة، القاهرة، دار القلم، (د.ت)، ص30.

(607) ابن الأثير، المصدر السابق: 2/ 415.

(608) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2202؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 2/ 445.

(609) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2203.

وتقديراً لأهمية الأنبار وموقعها السوقي، فقد اتخذها المثنى قاعدة متقدمة لتنفيذ حملاته من أجل إعادة السيطرة على المناطق المجاورة، فكان المسلمون يمخرون السواد، وهو بالأنبار، وشنّوا الحملات فيما بين كسكر وأسفل الفرات، وجسور مثقب إلى عين التمر وما والاها من المناطق في أرض الفلاليج والعال (الأنبار وقطربل وبادوريا ومسكن)[610]، أما بالنسبة إلى المثنى، فبعد تنفيذ حملته على سوق بغداد، سار مباشرة إلى السيلحين على بعد نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً إلى الغرب من منطقة بغداد، ومنها انتهى إلى الأنبار، فرحب به أهلها ودهاقينها ثانية، واستبشروا بسلامته. وقد وعدهم بالإحسان إليهم إذا ما استقاموا على الطاعة. وأرسل من الأنبار قوة بقيادة المضارب العجلي، باتجاه عين التمر. وزيادة في استكمال هذه العمليات خرج المثنى بنفسه من الأنبار، بعد أن استخلف عليها عمرو بن أبي سلمى الهُجَيمي، واتجه صوب صفين، حيث عبر الفرات إلى الجزيرة لمتابعة أحياء من تغلب والنمر[611].

وهكذا هدفت هذه العمليات إلى تخليص منطقة الأنبار، وغرب الفرات من القوات الفارسية والقبائل المتعاونة معها، تمهيداً للسيطرة الكاملة على العراق العربي وتحريره من حكم الإمبراطورية الفارسية. ومما لا شك فيه أن هذه العمليات التي ابتدأها خالد بن الوليد في المنطقة، واستمر بها المثنى بن حارثة، قد مهدت الظروف العسكرية الملائمة لانتصار الجيش العربي الإسلامي في الموقعة الفاصلة بين المسلمين والفرس في القادسية.

(610) المصدر نفسه: 1/ 2203 ـ 2205؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 2/ 445 ـ 446.
(611) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2204؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 2/ 446 ـ 447.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية

* ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/ 1233م).
1 ـ الكامل في التاريخ، بيروت دار صادر، 1979.
* البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ/ 892م).
2 ـ فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة، مطبعة السعادة، 1959.
* الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت حوالى 710هـ/ 1310م).
3 ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975.
* ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت نحو 300هـ/ 912م).
4 ـ المسالك والممالك، نشر: دي غويه، ليدن ـ بريل 1889.
* ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر (كان حياً في 290هـ/ 902 ـ 903م).
5 ـ الأعلاق النفيسة، نشر: دي غويه، ليدن ـ بريل، 1885.
* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/ 922م).
6 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غويه، ليدن ـ بريل، 1879 ـ 1903.
* قدامة، قدامة بن جعفر (ت337هـ/ 948م.
7 ـ الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق، محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1981.
* الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه (ت نحو 289هـ/ 902م).
8 ـ مختصر كتاب البلدان، نشر: دي غويه، ليدن ـ بريل، 1885.
* ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت626هـ/ 1229م).
9 ـ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977.
* اليعقوبي، أحمد أبي يعقوب (ت284هـ/ 897).
10 ـ تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، توزيع دار صعب (د. ت).
* أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت182هـ/ 798م).

11 ـ كتاب الخراج، تحقيق: القاضي محمود الباجي، تونس، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، 1984.

ب ـ المراجع الثانوية:

* البطاينة، محمد ضيف الله.
12 ـ العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الإسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق، مجلة المؤرخ العربي، العدد 22، بغداد، 1982.
* خطاب، محمود شيت .
13 ـ قادة فتح العراق والجزيرة، القاهرة، دار القلم (د.ت)
* رامز، شاكر محمود.
14 ـ تحرير العراق ـ القادسية، بغداد، مديرية المطابع العسكرية، 1984.
* السامرائي، عبد الجبار محمود.
15 ـ معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 1984.
* العبيدي، محمود عبد الله إبراهيم.
16 ـ بنو شيبان ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1984.
* العلي، صالح أحمد
17 ـ دراسات في الإدارة في العهود الإسلامية الأولى، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1989.
* كمال، أحمد عادل.
18 ـ الطريق إلى المدائن، ط3، بيروت، دار النفائس، 1977.

الجهد العسكري العربي الإسلامي
في جبهة المشرق إبان العصر الأموي

نشر هذا البحث في مجلة رسالة الخليج العربي التي يصدرها مكتب التربية العربي لدول الخليج، العدد 9، السنة الثالثة، الرياض 1403هـ/1983

تمهيد:

للجهد العسكري العربي في العصر الأموي طبيعة خاصة، تشمل كل الجبهات التي توزع عليها هذا الجهد، ولاسيما في المشرق والمغرب، مع احتفاظ كل جبهة ببعض الخصائص المميزة بالنظر إلى اختلاف طبيعة الأرض والسكان، ويمكن ملاحظة صفة عامة في هذا الخصوص، وهي تعثر العمليات الأولى، سواء في جبهة المشرق أو في جبهة المغرب، بسبب عدم تبلور الخطط العربية في الاستقرار المنظم في الأماكن التي يتم افتتاحها. وحين أولى زياد بن أبي سفيان هذه المسألة اهتمامه البالغ، ونفذها فعلاً بإرسال خمسين ألف أسرة من العراق للاستقرار في خراسان، سارت الفتوح نحو غايتها في التقدم والاستقرار. وكذلك الحال، حين فكر عقبة بن نافع في المغرب ببناء مدينة القيروان في شمال أفريقيا، ليضمن

الاستقرار المنظم للجيش الإسلامي المساهم في الفتح. وإذا ما تتبعنا تاريخ هذين الحدثين، نجد أنه واحد تقريباً، وفي حدود سنة 50هـ، ما يشير إلى وجود سياسة مركزية موحدة انتظمت هذه الفتوح جميعاً، وأعطتها دفعاً قوياً وصلت بها إلى حدودها المعروفة في المشرق والمغرب. وفي هذا البحث تركيز مباشر على هذه الناحية، وإبرازها، وتتبع للجهود المركزية التي بذلتها الدولة متمثلة في تخويل الحجاج بن يوسف، والي العراق، صلاحيات غير محدودة لدعم وإسناد حركات الفتوح في المشرق، ذلك الدعم الذي تمثل في إشرافه على كل صغيرة وكبيرة في تجهيز الحملات والإنفاق عليها، ومتابعة نشاطها في جبهات القتال، فكان هذا، وتعاون القادة معه، ولا سيما قتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح هذه الفتوح.

الجهد العسكري العربي الإسلامي في جبهة المشرق إبان العصر الأموي

بذل الأمويون جهوداً قيّمة في الفتوح على كل جبهات الدولة العربية الإسلامية، وفي الواقع كانت محاولاتهم استكمالاً لما تم إنجازه في عهد الخلفاء الراشدين، بعد أن توقفت الفتوح بسبب النزاعات الداخلية التي حصلت في صفوف المسلمين، وقد استأنف المسلمون فتوحهم بعد أن استقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان. لكن تركيزهم كان على الجبهة الشمالية، ولم تنل المناطق الشرقية في أول الأمر إلا القليل من اهتمام الأمويين، ويعود السبب في ذلك إلى شدة الخطر البيزنطي الذي كان يهدد الدولة العربية في الشمال، كما يهددها أيضاً من الغرب، في جبهة شمال أفريقيا. وكان الروم أقرب إلى مركز الخلافة في دمشق، ولا سيما أن إمبراطوريتهم كانت لا تزال قوية، وأن أرضها الأم (آسيا الصغرى) لا تزال سليمة لم يمس العرب منها إلا بعض الثغور والدروب. وكان أباطرة الروم

المتعاقبون جادين في محاربة المسلمين بعد ما لقوه منهم في بلاد الشام ومصر. وسهَّلت الفتن والاضطرابات الداخلية بين المسلمين المهمة على الروم، فاستفحل خطرهم، فكان لا بد من توجيه كل طاقات الدولة العربية الإسلامية لمقاومته وصده.

أما المناطق الشرقية فلم تكن تشكل خطراً على الأمويين، ولا سيما أن الدولة الساسانية كانت قد انتهت ككيان سياسي بعد القضاء على الأسرة الحاكمة منذ عهد الراشدين. فلم يكن في الجناح الشرقي ما يخيف الأمويين، حتى لو انبعثت المقاومة من جديد، بسبب البعد المكاني المتسع الذي يفصل بين هذا الجناح، وقلب الدولة الأموية، ولأن إطاراً دفاعياً طبيعياً كان يقوم في بادية الشام والعراق، فضلاً عن وجود المصريين العربيين في العراق، أي الكوفة والبصرة[(612)].

ولكن ما إن تخلصت الدولة العربية الإسلامية من مشاكلها الداخلية، ولاسيما مشكلة ابن الزبير، حتى تفرغت لهذه الجبهة الشرقية، وكان لجهود الحجاج بن يوسف الثقفي، عامل الأمويين على العراق، أثر كبير على الانتصارات التي تحققت في المشرق، ولاسيما في أواسط آسيا[(613)]. وقد امتدت الفتوح حتى شملت مناطق بعيدة في هذا الاتجاه وصلت إلى حدود الصين. ويحسن بنا قبل الخوض في ماهية هذه الفتوح، وأهميتها، أن نحدد الموقع الجغرافي للمناطق التي نطلق عليها اسم المشرق، أو الجبهة الشرقية.

---

(612) قارن: شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، بيروت، 1980، ص190 ـ 191.

(613) H. Gibb, The Arab Conquests in Central Asia. London, 1989, P. 29, 54.

وانظر أيضاً: عبد الواحد ذنون طه، «الحجاج بن يوسف الثقفي، وأثره في حركة الفتوح الإسلامية»، مجلة الرسالة الإسلامية، العدد 82 ـ 83، بغداد، 1975، ص79 ـ 94.

تبدأ هذه الجهات ببلاد إيران الحالية، وخراسان التي تقع إلى شرقيها، وكانت حدود خراسان تتصل من جهة الشرق بمملكة طخارستان، ومن الجنوب الشرقي بسجستان وكرمان التي تفصلها عن بلاد الهند، ومن أمهات مدن خراسان: مرو، وهي مركزها، ونيسابور، وهراة، وغيرها من المدن التي هي دون نهر جيحون[614] وامتدت الفتوح أيضاً إلى البلاد التي تقع خلف هذا النهر، وتسمى في مصادرنا العربية ببلاد ما وراء النهر، ونهر جيحون هذا ينبع من جبال هندكوش وهضبة بامير، ويصب في بحيرة آرال، أو خوارزم، كما كانت تسمى قديماً.

ويمكن تحديد بلاد ما وراء النهر بصورة تقريبية، حيث يقع نهر جيحون إلى جنوبها، وبلاد خوارزم إلى غربها، ويجاورها من جهة الشرق بلاد الصين، أما في الشمال، فكانت تمتد إلى النهر المعروف باسم سيحون، الذي يصب أيضاً في بحيرة آرال، وهو في حدود بلاد الترك[615]، وقد عبر المسلمون هذا النهر أيضاً، فواجهوا بذلك المناطق الأصلية للقبائل التركية.

أما المنطقة التي تقع بين النهرين، فكانت مستقراً لخليط من الشعوب الآسيوية، ولاسيما الفرس والترك ومجموعة أخرى من العناصر التي تسمى في المصادر العربية بالهياطلة، وربما كان هؤلاء من الأتراك، أو من الفرس[616]. ولكن يحتمل أن يكون أصلهم من الهونيين (المغول) الذين جاؤوا إلى بلاد ما وراء النهر واختلطوا بأهلها، واستطاعوا أن يحكموها

(614) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، 1977: 2/ 350، وللمزيد من التفصيلات عن مناطق خراسان وجغرافيتها السياسية، راجع: محمد عبد الحي شعبان، الثورة العباسية، ترجمة: عبد المجيد حسيب القيسي، دار الدراسات الخليجية، بدون تاريخ، ص37 - 54.

(615) ياقوت: 3/ 294.

(616) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، مصر، 1959، ص394.

في حدود القرن الخامس الميلادي، حتى أصبحت هذه البلاد تعرف أيضاً باسم هيطل، إضافة إلى بلاد ما وراء النهر[617].

وكانت بلاد ما وراء النهر تضم عدة ممالك، من أهمها طخارستان، التي تقع في أعلى ضفتي نهر سيحون، وهي ولاية واسعة تشتمل على عدة بلاد، وتنقسم إلى طخارستان العليا والسفلى، ومن مدنها الكبيرة، بلخ، وطالقان[618]. ومن الممالك الأخرى في بلاد ما وراء النهر، مملكة الصغد، أو السغد، وهي تمتد من نهر جيحون إلى نهر سيحون، وكانت تتألف من قسمين: صغد سمرقند، وهي قصبة الصغد، وصغد بخارى، وهي من أشهر مدن الصغد. كما ضمت هذه المملكة أيضاً مدناً أخرى مهمة، مثل مدينة كش، وبيكند[619]. وهناك مملكة تقع في أسفل النهر، أو في دلتاه[620]، تُعرَف بمملكة خوارزم. أما أشهر ممالك نهر سيحون، فهي فرغانة التي تقع في أعالي سيحون وعلى ضفتيه، ومن أهم ولاياتها خُجندة[621]. ومملكة أشروسنة التي تقع شرقي فرغانة، بين سيحون وسمرقند[622]. ثم مملكة الشاش التي تقع وراء نهر سيحون إلى الشمال من أشروسنة[623].

كذلك امتدت فتوح المسلمين إلى الهند، فدخلتها من جنوبي بلاد

---

(617) انظر: ياقوت: 5/ 422، وقارن: شعبان، المرجع السابق، ص41 ـ 44. عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية (عصر الخلفاء الأمويين)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972، ص209.

(618) ياقوت: 4/ 23.

(619) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1903: 2/ 186، ياقوت: 3/ 409، 4/ 462، 1/ 533.

(620) المصدر نفسه: 2/ 395 فما بعدها.

(621) المصدر نفسه: 4/ 253.

(622) المصدر نفسه: 1/ 197.

(623) المصدر نفسه: 3/ 308.

فارس، مارَّةً بكرمان وسجستان، حيث توغلت في بلاد السند التي تقع إلى الشرق من إيران على ساحل المحيط الهندي، وبلاد القيقان التي تعد أيضاً من بلاد السند، مما يلي خراسان[624]. ومن أشهر مدن السند ميناء الدَّيْبُل، أو الديبلان، على ساحل بحر الهند[625]. وينتمي سكان هذه المنطقة إلى العنصر الآري، وإن كانت غالبية سكانها من عناصر تسمى: الهندية، كما وجدت في القيقان عناصر تركية كثيرة[626]. أما أشهر مدن سجستان، فهي قصبتها زرنج، التي تقع في منطقة أفغانستان الحالية[627].

الجهود العسكرية الأولى في جبهة المشرق:

تمَّت المحاولات العسكرية الأولى لافتتاح إيران وخراسان في عهد الراشدين. وكانت معارك القادسية وجلولاء ونهاوند قد حددت مصير الإمبراطورية الساسانية، وفتحت الأبواب أمام المسلمين. واجتاحت الجيوش العربية الإسلامية مقاطعات الأحواز، والجبال، وفارس، وأذربيجان، وطبرستان، وجيلان. وامتدت الحملات العربية للسيطرة على خراسان في عهد الوالي عبد الله بن عامر الذي عَيّنه الخليفة عثمان بن عفان على البصرة سنة 29هـ/ 649م[628]. وقد استمر هذا الوالي في جهوده لاستكمال افتتاح خراسان حتى قيام الحكم الأموي سنة 41هـ/ 661م، بحيث أصبحت ولايته تشمل إضافة إلى البصرة كلاً من خراسان وسجستان. فعمل ابن عامر على استعادة النفوذ العربي الإسلامي في هذه

(624) فتوح البلدان: ص421، ياقوت: 3/ 267.

(625) البكري، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، 1945 ـ 1947: 2/ 569، ياقوت: 2/ 495.

(626) فتوح البلدان، ص421، وقارن: عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص228 ـ 229.

(627) انظر: ياقوت: 3/ 138، 190.

المناطق[629]، بعد أن تزعزع هذا النفوذ نتيجة للحرب الأهلية التي سبقت قيام الدولة الأموية.

وقد نالت الفتوح في المشرق دفعاً كبيراً بتعيين زياد بن أبي سفيان والياً على البصرة عام 45هـ/ 665م. فبادر هذا بإرسال حملة جديدة إلى خراسان بقيادة الحكم بن عمرو الغفاري، هدفها إعادة السيطرة على الإمارات الهيطلية في طخارستان، وحققت هذه الحملة نجاحاً لا بأس به، ثم عادت إلى مرو[630]. لكن زياد بن أبي سفيان أدرك أن الحملات المتفرقة لا يمكن أن تحقق الفتح المنظم لهذه البلاد، فسارع إلى وضع خطة ثابتة تضمن استقرار العرب في البلاد المفتوحة، وذلك بأن جعل من مدينة مرو قاعدة عسكرية للعرب في خراسان. كما نقل إلى هذه البلاد خمسين ألف مقاتل مع أُسَرهم، من مِضْرَي البصرة والكوفة، ليكونوا مادة الفتح ويستقروا في خراسان[631]. واستطاع الوالي الربيع بن زياد الحارثي الذي قاد بنفسه حملة الخمسين ألف مقاتل من البصرة والكوفة سنة 51هـ/ 671م أن يتقدم مباشرةً ويفتتح مدينة بلخ صلحاً، ومن ثم يتوجه إلى القضاء على بقايا مقاومة الإمارات الهيطلية، ويفتتح قهستان عنوة[632].

لقد كانت خطة استقرار القبائل العربية في خراسان، التي نفذها زياد بن أبي سفيان، خطوة هامة دون شك في سبيل تثبيت الفتوح العربية في المناطق الشرقية. وقد أدرك الخليفة معاوية بن أبي سفيان نفع هذه الخطة، فأراد ضمان استقرار تنفيذها بعد وفاة زياد سنة 53هـ/ 673م، وذلك بتعيين ابن زياد والياً على خراسان، وفصل هذه الولاية عن ولاية

(628) فتوح البلدان، ص394.
(629) المصدر نفسه، ص399 ـ 400.
(630) الطبري: 2/ 84 ـ 85، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، النجف، 1974: 2/ 210.
(631) الطبري: 2/ 81، البلاذري، ص400.
(632) الطبري: 2/ 156.

البصرة[633]. وما إن وصل عبيد الله بن زياد إلى خراسان حتى استعد للقيام بحملة عسكرية على بلاد الصغد، فقطع النهر وافتتح بيكند، وقاتل أهل بخارى، فطالبت ملكتهم (خاتون) بعقد الصلح، وتعهدت بدفع مبلغ كبير من المال إلى المسلمين[634].

ويبدو أن حملة عبيد الله بن زياد هذه إلى بخارى لم تقتصر على تحقيق النجاح المادي العسكري فقط، بل حققت مكسباً آخر، وهو تجنيد قسم من أهالي بخارى أنفسهم في جيش المسلمين. فيذكر كل من البلاذري والطبري[635]، أن عبيد الله بن زياد حين رجع إلى البصرة كان معه نحو ألفين من رماة النِّشَاب من أهالي بخارى. ولا ريب أن هذه الخطوة تدل على أن أمر المسلمين في هذه الجبهة قد آل إلى شيء من الاستقرار والتركيز، وبدأ السكان الأصليون لهذه المناطق يتفهمون طبيعة أهداف المسلمين، ويختلطون بهم، بل ينضمون إلى صفوفهم أيضاً.

وقد توقفت حركة الفتوح قليلاً بعد نقل عبيد الله بن زياد إلى البصرة، لكن تعيين سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان عام 56هـ/ 675م أعاد النشاط إلى الجبهة الشرقية، ولاسيما أنه كان مصحوباً بقادة أكفاء من أمثال المهلب بن أبي صفرة. فقطع النهر، وقاتل الصغد، وحصرهم في مدينة سمرقند، حتى اضطرهم على الصلح ودفع الرهائن[636]. وقد حاولت (خاتون) ملكة بخارى، أن تنكث بالعهد الذي قطعته للمسلمين في حملة عبيد الله بن زياد، لكنها خشيت قوة جيش سعيد، فأعادت الصلح، وساعدت المسلمين في حصارهم لمدينة سمرقند[637].

---

(633) قارن: المصدر نفسه: 2/ 166 ـ 168، شعبان، الثورة العباسية، ص79.

(634) البلاذري، ص401، وانظر : الطبري: 2/ 169.

(635) فتوح البلدان، ص401، تاريخ الرسل والملوك : 2/ 170.

(636) الطبري: 2/ 178 ـ 179.

(637) البلاذري، ص401.

وفي عهد سلم بن زياد، الذي عيَّنه يزيد بن معاوية على خراسان عام 61هـ/ 681م بهدف القيام بفتوح جديدة، اتَّبع العرب أسلوباً آخر في تثبيت الفتوح التي كانوا يقومون بها. ففي الحملة التي قام بها سلم على سمرقند، قرر البقاء فيها حين داهمه الشتاء، على العكس من الولاة الذين سبقوه، والذين كانوا يعودون بجيوشهم إلى مرو في فصل الشتاء. إن عودة المسلمين هذه كانت تسمح لأُمراء المناطق في بلاد ما وراء النهر بتجميع قواتهم، وتعطيهم الفرصة للاجتماع والتشاور، وتنظيم المقاومة. لكن خطة سلم الجديدة فوَّتت على هؤلاء هذه الفرصة، ولو أنها في الوقت نفسه أثارت حفيظة القبائل العربية المقاتلة التي لم تتعود البقاء في برد الشتاء في مناطق القتال. لكن سلم استطاع أن يتغلب على هذه المشكلة بفضل حنكة قائده المهلب بن أبي صفرة، وبفضل الغنائم الوفيرة التي حصل عليها المقاتلون، والتي أنستهم متاعب البرد والشتاء[638].

لم يستطع العرب أن يحتفظوا بثمرات النجاح الذي أحرزوه في جبهة المشرق في عهد زياد وابنه عبيد الله، وكذلك فتوحات سعيد بن عثمان، وسلم بن زياد، وذلك بسبب الخلافات القبلية التي نشأت في خراسان على إثر الفتن الداخلية والحروب الأهلية التي أعقبت وفاة يزيد بن معاوية سنة 64هـ/ 683م. فقد اغتنم أمراء بلاد ما وراء النهر هذه الفرصة ليتخلصوا من النفوذ العربي الإسلامي بل قام بعضهم بالإغارة على المناطق التي يتواجد فيها المسلمين، حتى بلغوا قرب نيسابور[639]. وامتنع آخرون عن دفع المبالغ المالية التي اصطلحوا على دفعها للمسلمين في الفترات السابقة. ولو أن العرب المسلمين واصلوا حملاتهم في المشرق، وضغطهم

(638) الطبري: 2/ 394، وانظر: البلاذري، ص403، اليعقوبي: 2/ 238 ـ 239، شعبان، المرجع السابق، ص86.

(639) انظر: البلاذري، ص404 ـ 405

على بلاد ما وراء النهر في هذه المرحلة، لما احتاجوا إلا لعشر التكاليف والخسائر التي بذلوها فيما بعد لإعادة افتتاح هذه المناطق(640). وهكذا فإن التفرقة والاختلاف بين العرب أنفسهم في خراسان، وفي بقية أنحاء الدولة العربية الإسلامية، أدت إلى ضياع الجهود القيِّمة التي بذلت من قبل الولاة الأمويين في سبيل استكمال الفتوح في المشرق، ولم يقتصر تأثير هذه الحالة على خراسان وحدها، بل شمل مناطق أخرى أبعد مثل سجستان، التي حقق فيها العرب أيضاً انتصارات أولية في عهدي معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية(641).

الإنجازات العسكرية في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي:

بعد القضاء على حركة ابن الزبير، وتوطيد السلطة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان، نشطت حركة الفتوح العربية في جبهة المشرق مرة أخرى. وكان لتولي الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق أثر كبير على ذلك. فقد عُيّن هذا والياً على العراق سنة 75هـ/ 694م، ثم أضيفت إليه ولاية خراسان والمشرق عام 78هـ/ 697 ـ 714. وهكذا أصبحت موارد العراق وخراسان وسجستان بتصرف الحجاج، فعبأها جميعاً لدفع عجلة الفتوح، مستعيناً بالقبائل العربية في العراق وبلاد الشام. كما دعم قادته العسكريين وجهزهم بكل ما يحتاجون إليه من رجال وعتاد وأموال. ففتح قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد ما وراء النهر حتى وصل إلى حدود الصين، وعمل محمد بن القاسم الثقفي على فتح بلاد السند والهند. وهكذا استطاع

---

(640) Gibb., Op. Cit., PP. 22-23.

وقارن : شعبان، المرجع السابق، ص97، شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، ص214.

(641) انظر: البلاذري، ص532 ـ 423.

الحجاج، بحزمه وتحمّله مسؤولية الفتح، أن يحمل رايات الإسلام إلى حدود الصين والهند.

لقد كانت الحالة في المشرق حين تولى الحجاج تتطلب توطيد السلطة الإسلامية فيها، ولا سيما بعد ما انشغل العرب فترة من الزمن بسبب الخلافات الداخلية. ولهذا فقد لاقت المحاولات الأولى لإعادة افتتاح بعض هذه المناطق صعوبات بالغة. من ذلك مثلاً ما حدث لإحدى الحملات التي أرسلت إلى سجستان بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة، الذي عيَّنه الحجاج عام 78هـ/ 697م عاملاً على سجستان، وأمره أن يحارب ملكها الذي يلقب بزُنْبيل أو رُتْبيل. لكن عبيد الله بن أبي بكرة توغل في بلاد العدو توغلاً كبيراً، فاستطاع الأعداء أن يقطعوا عليه وعلى جيشه طريق العودة، ما اضطره إلى طلب الصلح، ودفع مبلغ كبير من المال لزنبيل. ولم يرض جند الكوفة بذلك، فقاتلوا إلى أن قُتل معظمهم، وفرّ الباقون، وهلكوا جوعاً وعطشاً في طريق العودة[642].

وقد أرسل الحجاج جيشاً آخر من أهل الكوفة والبصرة لحرب زنبيل، وأسند قيادته إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي. لكن الخلاف الذي وقع بين قائد هذا الجيش والحجاج أدى إلى رجوعه وعدم تحقق الغاية من إرساله إلى سجستان، ما زاد في تفاقم ضياع السلطة الإسلامية في هذه البلاد[643]. فأصبح اللصوص وقُطّاع الطرق يعبثون بالسفن والقوافل الإسلامية، ويتمتعون بحماية (داهر) ملك الدبيل، إحدى مدن السند، الذي أظهر استخفافاً واضحاً بسلطة الدولة الإسلامية[644]، ما

(642) انظر: الطبري: 2/ 1036 ـ 1038.

(643) لمعرفة تفاصيل الخلاف بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث، راجع: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، النجف، 1967/ 1/ 279، الطبري: 2/ 1045 فما بعدها.

(644) انظر: الطبري: 3/ 1276، البلاذري، ص423.

اضطر الحجاج إلى إرسال حملة أخرى بقيادة محمد بن القاسم الثقفي. وقد اهتم الحجاج بهذه الحملة اهتماماً كبيراً، وحاول أن يضمن لها النجاح فلم يغادر صغيرة أو كبيرة من شأنها إلا وأشرف عليها وأمر بتوفيرها لها[645].

وفي هذه الحملة بالذات يتضح لنا مدى التنظيم الذي كان يراعيه الحجاج في إرسال حملات الفتح العسكرية، فقسم هذه الحملة إلى قسمين: برية وبحرية، وحرص أن تصل الحملتان في وقت واحد إلى الديبل. وكان قائد الحملة البرية ـ كما أسلفنا ـ محمد بن القاسم، أما الحملة العسكرية البحرية، فكانت تتألف من سفن فيها رجال وسلاح، إضافة إلى التجهيزات الكثيرة الأخرى التي كان من المتوقع أن تحتاج إليها حملة كبيرة كهذه. وبالفعل وصلت الحملتان في وقت واحد إلى غايتهما، فاستفاد محمد بن القاسم من هذا التنظيم الدقيق الذي ساعد على نجاح تلك الحملة[646].

ومن مظاهر التنظيم في هذه الفتوح أيضاً، حرص الحجاج على الاتصالات المستمرة مع الجيوش الفاتحة في المشرق، وذلك بقصد التعرف إلى الصعوبات والعقبات التي قد تصادف تلك الحملات، ليعمل على حلها والتغلب عليها. فكانت الرسائل بين الحجاج وقائده محمد بن القاسم تصل في كل ثلاثة أيام، وفي هذه الرسائل كان محمد بن القاسم يستطلع رأي الحجاج فيما يجب أن يفعله إزاء بعض الأمور المهمة في الحملة[647]. وكانت توجيهات الحجاج بنّاءة وفعّالة في سير الجهود العسكرية، وكثيراً ما كان رأيه مصيباً في الأمور التي يكتبها إلى قادته،

---

(645) انظر: البلاذري، ص424.

(646) المصدر نفسه، ص424، وانظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت 1979: 4/ 537.

(647) انظر: البلاذري، ص424

فتنجح ملاحظاته في تخليص المسلمين من مخاطر كثيرة، وتساعدهم على فتح مدن ومناطق استعصى عليهم فتحها[648].

لقد سارت حملة محمد بن القاسم الثقفي التي كانت تتألف من ستة آلاف مقاتل من جند أهل الشام، وعدد آخر من غيرهم من القبائل العربية، إلى مكران سنة 89هـ/ 707 ـ 708م، ثم حاصرت ثغر الدبيل وفتحته عنوة، وبنى به محمد بن القاسم مسجداً. وقبل أن يغادر هذه المدينة عمل ابن القاسم على استقرار نحو أربعة آلاف من جند المسلمين فيها تثبيتاً للفتح. ثم سار عنها صاعداً نحو شمال السند، حتى بلغ نهر السند، الذي كان يسمى بنهر مهران، وكان لا يمر بمدينة إلا افتتحها صلحاً أو عنوة. وقد التقى محمد بن القاسم شمال هذا النهر داهراً، ملك الدبيل، الذي كان يقاتل هو وجنده على ظهور الفيلة، ولكن العرب استطاعوا أن يتغلبوا عليهم، وأن يقتلوا ملكهم داهراً، وبذلك ابتدأ تغلب محمد بن القاسم على بلاد السند.

ولم يزل هذا القائد يفتتح مدن السند الواحدة تلو الأخرى، حتى عبر نهر بياس، أحد روافد السند، ووصل إلى مدينة الملتان، أكبر مدن السند، فحاصرها حتى نفدت أقوات المسلمين، لكنهم صبروا حتى افتتحوها عنوة، وغنموا منها غنائم قيّمة[649]. ويُذكر أن جهود محمد بن القاسم العسكرية امتدت حتى شملت مدناً ومناطق مهمة في شمال السند، مثل قندهار، وكشمير. وتعد هذه العمليات من أعظم الإنجازات الإسلامية في هذه البلاد، فلم يجاوز أحد من القادة الأماكن التي وصل إليها إلى أيام الغزنويين[650].

---

(648) انظر: المصدر نفسه، ص536، الطبري: 3/ 199، 1201، 1203.

(649) انظر: البلاذري، ص424 ـ 427، اليعقوبي: 3/ 37 ـ 38، ابن الأثير: 4/ 536 ـ 539.

(650) قارن: عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص237، السيد عبد العزيز سالم، =

وفي الوقت الذي كان فيه محمد بن القاسم يقوم بفتوحه في مدينة السند والهند، كان هناك قادة آخرون يقومون ببذل جهود جبارة لتثبيت السلطة العربية الإسلامية في بلاد ما وراء النهر. فقد عادت الحملات تسير إلى هذه البلاد بعد أن استقرت الأمور في الدولة الأموية. لكن الفتوح لم تنشط بشكل جِدّي إلا بعد تولي الحجاج بن يوسف لخراسان إضافة إلى العراق عام 78هـ/ 697م. فولى المهلب بن أبي صُفرة على خراسان، الذي توجَّه إلى ما وراء النهر، فافتتح خُجندة، أهم ولايات مملكة فرغانة، وحاصر كش من بلاد الصغد، التي أدت إليه الإتاوة[651]. وبعد وفاة المهلب، أعقبه ابنه يزيد على ولاية خراسان، لكن جهوده العسكرية كانت محدودة، وكذلك جهود أخيه المفضل بن المهلب، الذي ولاّه الحجاج بعد عزل يزيد.

والحقيقة أن سياسة فتح ما وراء النهر لم تنتظم إلا بعد أن ولّى الحجاج بن يوسف قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان سنة 86هـ/ 705م. وكان عهد قُتَيبة في خراسان من أبرز العهود في العصر الأموي، بالنظر إلى ما تميز به من إنجازات عسكرية وادارية. فقد اتخذ أيضاً مدينة مرو قاعدة له، ومنها انطلق بجهوده في بلاد ما وراء النهر. وسار قُتَيبة أيضاً على سياسة استخدام سكان البلدان الأصليين في الفتوح. ففي حملته الأولى سنة 86هـ/ 705م سار إلى بلخ، فتلقاه دهاقينها وكبار رجالها، وساروا معه في جيشه الذي عبر نهر جيحون، فهاجم بعض الإمارات في بلاد ما وراء النهر، ولا سيما مملكة صغانيان، وشومان، وغيرهما. فاستسلم له ملوكها وأظهروا الطاعة، ثم رجع قتيبة إلى مرو بعد أن خلف

= تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ص352.

(651) البلاذري، ص407، الطبري: 2/ 1040، ابن الأثير: 4/ 954.

أخاه صالحاً على ما وراء النهر ليستمر في القيام بالفتوح في تلك المنطقة[652].

وقد صالح قتيبة (نيزك) الهيطلي، أمير باذغيس في طخارستان، التي تقع إلى الشرق من خراسان، شرط أن يتعهد بمساعدة المسلمين في جهودهم العسكرية، وقد تعهّد قتيبة مقابل ذلك بعدم الدخول إلى مدينة باذغيس[653]. وفعلاً ساعد نيزك المسلمين في حملاتهم على منطقة بخارى في السنوات 87 ـ 90هـ/ 716 ـ 719م. وقد ابتدأت هذه الحملات بالتوجه سنة 87هـ/ 716م إلى مدينة بيكند وهي أقرب مدن بخارى إلى النهر، ويقال لها مدينة التجار، لأنها مركز التجارة الصينية، فاستنجد أهل هذه المدينة بالصغد، الذين جاؤوا وقطعوا الطريق على قتيبة، حتى إن مراسلاته انقطعت مع الحجاج لمدة شهرين. لكن استبسال المسلمين وصبرهم ساعدهم على التغلب على الأعداء، ففتحوا مدينة بيكند[654]، وحصلوا على غنائم لا تحصى ساعدتهم على التزود بالسلاح والخيل، فأصبحوا في قوة كبيرة ساعدتهم على الانتصار في الحملات التالية التي تكللت بفتح مدينة بخارى ذاتها سنة 90هـ/ 719م. ويبدو أن نيزك الهيطلي خاف من انتصارات المسلمين المتكررة، فدبّر فتنة في طخارستان، فسار قتيبة إلى ملوك هذه المنطقة وصالحهم ثم تتبع نيزك وقتله[655].

وفي سنة 92هـ/ 711م، سار قتيبة على رأس حملة متوجهة إلى

---

(652) البلاذري، ص 409، الطبري: 2/ 1180، ابن الأثير: 4/ 523 .Gibb., Op. Cit., PP. 31- 32.

(653) الطبري: 2/ 1184، ابن الأثير: 14/ 577.

(654) 2/ 1186 ـ 1189، وانظر : البلاذري، ص410، ابن الأثير: 4/ 528.

(655) الطبري: 2/ 1198 فما بعدها، البلاذري، ص410، ابن الأثير: 4/ 542 ـ 54، وانظر: شعبان، الثورة العباسية، ص123 ـ 124.

سجستان بناء على أوامر الحجاج بن يوسف[656]، وذلك بعد فشل حملة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي في تحقيق نتائج إيجابية لمواجهة زنبيل، ملك سجستان، بسبب تمرد ابن الأشعث وقيامه على الحجاج. ويبدو أن هناك سبباً آخر لحملة قتيبة دفعه إلى الإسراع بالزحف على سجستان، هو رغبته في القضاء على احتمال وصول أي مدد من الإمارات الهيطلية الجنوبية إلى الشمال، ما قد يشجع هؤلاء على الخروج على السلطة العربية الإسلامية[657]. ومهما يكن من أمر، فقد شعر زنبيل بخطورة الموقف، وخشي من قدوم قتيبة، ولا سيما أن المسلمين زرعوا الأرض التي نزلوا فيها حتى ييأس العدو من انصرافهم عنه. فأرسل زنبيل إلى قتيبة يطلب الصلح[658]، فرضي قتيبة، وانصرف إلى مرو بعد أن عيَّن أحد أتباعه نائباً عنه في سجستان.

وفي السنوات التالية حتى نهاية ولايته على خراسان عام 96هـ/ 715م، ركز قتيبة اهتمامه على بلاد ما وراء النهر، فوصلت حملاته إلى فرغانة. كما امتد نشاطه حتى دلتا نهر جيحون عند خوارزم، التي دخلها سنة 93هـ/ 712م بناء على دعوة ملكها الذي أُقصي عن الحكم من قبل أخيه، فأعاده قتيبة إلى عرشه، وترك في المدينة حامية من المسلمين. وفي طريق عودته افتتح مدينة سمرقند عنوة، وفرض على أهلها الصلح، الذي تضمَّن دفع مبلغ كبير من المال للمسلمين، وأن يخرج المقاتلة من أهل المدينة، وأن يبني فيها مسجداً تقام فيه الصلاة من قبل المسلمين. وقد تم الصلح على هذا الأساس، فدخلها قتيبة، وانتخب أربعة آلاف من العرب فأسكنهم فيها، ليكونوا حامية للدفاع عنها، ثم جمع الأصنام الموجودة في

---

(656) اليعقوبي: 3/ 35.

(657) قارن: شعبان، المرجع السابق، ص127 ـ 128.

(658) البلاذري، ص391 ـ 392، اليعقوبي: 3/ 35، الطبري: 2/ 1235.

المدينة وأحرقها جميعاً، وكان أهلها يقولون: أن من استخف بهذه الأصنام هلك، فلما حرقها قتيبة بيده، اعتنق جماعة كبيرة من أهلها الإسلام[659].

مرحلة ما بعد الحجاج بن يوسف:

لقد تأثرت فتوح قتيبة وإنجازاته العسكرية بموت الحجاج بن يوسف عام 95هـ / 714م، لكنه واصل الجهاد في العام التالي، بعد أن شجعه الخليفة الوليد الأول ابن عبد الملك، فغزا كاشغر التي كانت تعد من أملاك الصين. ويذكر أنه عندما قرب قتيبة من الصين، أرسل إليه ملكها الهدايا، وطلب أن يبعث إليه بوفد من قبله يُعرِّفه بالمسلمين. وقد أرسل قتيبة الوفد المطلوب، وأمرهم أن يُعلموا ملك الصين أن قتيبة قد أقسم ألا ينصرف عن بلادهم حتى يطأها، ويختم ملوكهم، ويجني خراجهم. وقد نجح الوفد في مهمته، وأرسل معهم ملك الصين الهدايا إلى قتيبة[660]. ويبدو أن الظروف لم تكن ملائمة حتى يستكمل قتيبة فتوحه في الصين، بسبب وفاة الخليفة الوليد الأول. ومع هذا، فقد كان لجهوده الموفقة في حمل رايات الإسلام إلى هذه المناطق البعيدة أعظم الأثر في انتشار مراكز جديدة للثقافة العربية الإسلامية في وسط آسيا، كما قوَّت ومكَّنت العلاقات والاتصالات بين العرب والصين[661].

لقد وضعت خلافة سليمان بن عبد الملك حداً فاصلاً للفتوح الإسلامية في جبهة ما وراء النهر. لأن قتيبة كان يخشى من سليمان لأنه أجاب هو والحجاج، الوليد بن عبد الملك في محاولته لنزع سليمان من

(659) البلاذري، ص410 ـ 411، الطبري: 2/ 1236 ـ 1240، 1241، فما بعدها، ابن الأثير: 4/ 570 ـ 575.

(660) الطبري: 2/ 1277 ـ 1279، ابن الأثير: 5/ 5 ـ 7.

(661) قارن: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص344.

ولاية العهد، وتعيين عبد العزيز بن الوليد محله. ومع أن سليمان أقر قتيبة في ولايته على خراسان، فإن قتيبة شعر أن هذا إجراء مؤقت وأن الخليفة الجديد لابد من أن ينتقم منه[662]. ولهذا فقد أعلن قتيبة التمرد على الخليفة على أمل أن يؤيده رجاله وأنصاره في خراسان، لكن جيشه انقلب عليه، فلقي مصرعه على أيدي القبائل العربية التي أعلنت ولاءها للخليفة سليمان بن عبد الملك.

كان مقتل قتيبة خسارة كبيرة للمسلمين، لأنه يُعدّ من أعظم قادة الفتوح الإسلامية، وليس أدل على عظم قدره من أن الفتوح لم تمتد في هذه البلاد أكثر مما امتدت إليه في عهده. وتذكر الروايات أنه لما قُتل قتيبة، قال رجل من أهل خراسان: «يا معشر العرب قتلتم قتيبة، والله لو كان منا فمات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا...». والحق أن ما قام به قتيبة يعد عملاً فريداً في تاريخ الفتوح الإسلامية، ففضلاً عن براعته الحربية التي قادته إلى الانتصارات المتلاحقة في جبهة المشرق، تميز هذا القائد أيضاً ببراعة سياسية وإدارية مكنته من أن يستثمر الخلافات القائمة بين أمراء وملوك ما وراء النهر، وأن ينتفع من هذه العداوة الطبيعية بين هؤلاء ليستولي على ممالكهم الواحدة تلو الأخرى[663]. كما أنه لم يكن يخلع ملوك البلاد التي يفتتحها، بل كان يبقي على الكثير منهم حتى ينفذ إرادته الكاملة عليهم وعلى مناطقهم. يضاف إلى ذلك أنه اعتمد أيضاً على معاونة السكان الأصليين، وتقرّب إليهم، بل استخدمهم في جيشه، وفي حرسه الخاص، وهو ما كان له أثر واضح في نجاحه في إنجاز معظم فتوح المشرق. ويجب ألاّ ننسى أيضاً الدعم الذي كان يلقاه قتيبة من الحجاج بن يوسف، وكان عرب خراسان

(662) البلاذري، ص412، الطبري: 2/ 1286.

(663) الطبري: 2/ 1300، ابن الأثير: 5/ 19.

يشعرون بهذا الدعم، فلا يجدون سبيلاً إلى مخالفته، أو الانشقاق عنه، وهذا ما دعا الأستاذ جب[664] إلى القول: «إن إنجازات الجيوش الإسلامية في أواسط آسيا خلال حكم الوليد الأول كانت تعزى إلى التعاون التام بين نبوغ الحجاج الموجِّه، وقدرة قتيبة الحربية»، ويضيف جب قائلاً: «إن قتيبة بن مسلم استطاع بدعم من الحجاج أن يقوم بفتوحه، ولكن عندما اختفى الحجاج لم يكن هناك قائد ولا تنظيم يحلّ محله...».

لقد تغيرت سياسة الدولة الأموية بشأن الفتوح والعمليات العسكرية بعد وفاة الخليفة الوليد الأول، ولاسيما في عهدي سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، فقد امتنع يزيد بن المهلب الذي عُين والياً على العراق وخراسان عن القيام بحملات في بلاد ما وراء النهر. وفي هذا إشارة إلى السياسة الجديدة التي بدأها سليمان، والتي سيعلنها من بعده عمر بن عبد العزيز صراحة. وهي تنص على وجوب الانسحاب الكامل من كل بلاد ما وراء النهر، وربما كان السبب في هذه السياسة، برأي الخليفة عمر، أن العرب يجب أن يعملوا على تقوية الفتوح السابقة، ويثبتوها قبل القيام بأي فتح جديد[665]. ويدل على هذا أيضاً مخالفة يزيد بن المهلب لخطة قتيبة في التوغل في أواسط آسيا، وتوجه اهتمامه إلى مناطق أخرى تقع في الطريق بين خراسان والعراق، وهي جرجان، وطبرستان، حيث إن هذه المناطق كانت تهدد مؤخرة الجيش العربي الإسلامي في خراسان، وتقطع مواصلاته مع العراق[666]. وقد أصاب يزيد

(664) The Arab Conquests in Central Asia, P. 29.

(665) قارن: شعبان، المرجع السابق، ص143 ـ 144.

(666) انظر: الطبري: 2/1327.

بعض النجاح في هذه العمليات[667]، إلا أنها لا يمكن أن تقارن بما وصل إليه قتيبة بن مسلم في فتوحه في أواسط آسيا، تلك الفتوح التي مثلت ذروة الجهد العسكري العربي الإسلامي في جبهة المشرق في العصر الأموي.

(667) انظر: البلاذري، ص331 ـ 333.

دور العراق في
قيادة وتوجيه حركة الفتوح الإسلامية في المشرق

أدى العراق منذ تحريره في عهد الراشدين دوراً مهماً وأساسياً في عمليات الفتوح الإسلامية في المشرق، فقد كان هو القاعدة التي انطلقت منها الجيوش العربية الإسلامية إلى تلك الجهات. ذلك أن ولاية العراق كانت مسؤولة عن تحرير الأقاليم الشرقية، التي أصبحت بعد افتتاحها تابعة له من الناحية الإدارية. ولتوضيح دور العراق في هذا الخصوص لابد من الإشارة إلى ما تعارف عليه الجغرافيون المسلمون بقولهم إن: «من ولّي العراق قد وُلّي البصرة والكوفة والأحواز وفارس وكرمان والهند والسند وسجستان وطبرستان وجرجان»[668]. وهناك من يضيف أيضاً أن (عمل) العراق ـ أي ولاية العراق والأقاليم التي تتبعه من الناحية الإدارية ـ كان يمتد من هيت إلى الصين والسند والهند فضلاً عن الري وخراسان والديلم والجبال وأصبهان[669]. وهذا يدل على مدى اتساع (عمل) العراق، نتيجة

---

(668) ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ط. دي غويه، ليدن، 1885، ص162.

(669) المصدر نفسه: (برواية المدائني)، ص161 ـ 162.

إسهامه في إنجاز افتتاح هذه المناطق الشرقية، التي كانت تضاف إليه إدارياً بعد تحريرها تدريجاً من قبل الولاة والقادة المعنيين على هذه الجبهة.

فما هي هذه الجبهة، وما هو التحديد الجغرافي لما يطلق عليه اسم المناطق الشرقية أو جبهة المشرق؟. الواقع أن محاولة التحديد هذه يكتنفها الكثير من التعقيد، ولاسيما أنها تضم أراضي شاسعة تسكنها أمم مختلفة في الجنسية والثقافة. وتبدأ هذه الجهات ببلاد إيران الحالية، وخراسان التي تقع إلى الشرق منها والتي كانت حدودها تمتد لتشمل كل البلاد الواقعة شرق إيران، وقد تضم أيضاً بلاد ما وراء النهر، فهي تتصل من جهة الشرق بمملكة طخارستان، ومن الجنوب الشرقي بسجستان وكرمان التي تفصلها عن بلاد الهند. وتعد مدينة مرو من كبريات مدن خراسان، وهي مركزها، ومن مدنها الأخرى، نيسابور، وهراة، وغيرها من المدن التي هي دون نهر جيحون[670].

وامتدت الفتوح أيضاً إلى البلاد التي تقع خلف هذا النهر، وتسمى في المصادر العربية ببلاد ما وراء النهر، وينبع هذا النهر من جبال هندكوش وهضبة بامير، ويصب في بحيرة آرال، أو بحيرة خوارزم كما كانت تسمى قديماً، ويمكن تحديد بلاد ما وراء النهر بصورة تقريبية، فمن جهة الشرق تجاورها بلاد الصين، وتقع بلاد خوارزم إلى غربها. أما نهر جيحون فيحدُّها من جهة الجنوب، وتمتد من جهة الشمال إلى النهر المعروف باسم سيحون، الذي يصبُّ أيضاً في بحيرة آرال، وهو حدود بلاد الترك[671]، وقد عبر المسلمون هذا النهر، فواجهوا بذلك المناطق

---

(670) ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 2/ 350، وللمزيد من التفاصيل عن خراسان وجغرافيتها السياسية، ينظر: شعبان، محمد عبد الحي، الثورة العباسية، ترجمة، عبد المجيد حسيب القيسي، أبو ظبي، دار الدراسات الخليجية (د. ت)، ص37 ـ 54.

(671) ياقوت، المصدر السابق، 3/ 294.

الأصلية للقبائل التركية في وسط آسيا.

وكانت المنطقة التي تقع بين النهرين (سَيْحُون وجَيْحُون) مستقراً لخليط من الشعوب الآسيوية، أغلبهم من الفرس الذين انتشروا في معظم أجزائها[672]. كذلك الترك الذين كانوا يحيطون ببلاد ما وراء النهر من الشمال على الخصوص، وتمكنوا من حكم بعض أجزائها قبل الفتح العربي الإسلامي. يضاف إلى هؤلاء مجموعة أخرى من العناصر التي تسمى في المصادر العربية بالهياطلة، وهم على قول البلاذري[673]، من الأتراك أو من أهل فارس، ولكن يحتمل أنهم ينتمون إلى قبائل الهون (Hanni) المغولية الذين اختلطوا بسكان بلاد ما وراء النهر، وحكموهم أثناء تحركهم من الشرق إلى الغرب في حدود القرن الخامس الميلادي، حتى أصبحت هذه البلاد تعرف باسم هيطل إضافة إلى اسم بلاد ما وراء النهر[674].

وضمت بلاد ما وراء النهر عدة ممالك أهمها طخارستان التي تقع على ضفتي نهر سيحون، وهي ولاية واسعة تشمل عدة بلاد. وتنقسم إلى طخارستان العليا والسفلى، وتشتمل على قاعدتها مدينة بلخ، ومدن أخرى من أهمها طالقان التي هي أكبر مدنها[675]. ومن ممالك وسط ما وراء النهر مملكة الصغد أو السغد، التي تمتد من نهر جيحون إلى نهر

(672) صاعد، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق: حياة بو علوان، بيروت، دار الطليعة، 1985، ص36 ـ 37.

(673) أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، القاهرة، مطبعة السعادة، 1959، ص394.

(674) ياقوت، المصدر السابق: 5/ 422، ويقارن : ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصر الخلفاء الأمويين، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1971: 2/ 209، شعبان، الثورة العباسية، ص41 ـ 44.

(675) ياقوت، المصدر السابق: 4/ 23.

سيحون، وكانت تتألف من وحدات سياسية قبل دخول العرب إليها، أهمها صغد سمرقند، وهي قصبة الصغد، وصغد بخارى، وهي من المدن القديمة الشهيرة في المنطقة[(676)]. كما ضمت هذه المملكة أيضاً مدناً أخرى مثل مدينة كش، وبيكند[(677)]. وفي أدنى النهر، أو دلتاه، كانت تقع مملكة أخرى تعرف بمملكة خوارزم[(678)]. أما أشهر ممالك نهر سيحون فهي مملكة فرغانة، وهي أقليم جبلي واسع تقع في أعالي النهر وعلى ضفتيه، ومن أهم ولاياتها خُجندة[(679)]، ومملكة أشْروسنة التي تقع في شرقي فرغانة بين سيحون وسمرقند، ويلقب ملكوها بالأخشين[(680)]. وأخيراً مملكة الشاش التي تقع وراء نهر سيحون، إلى الشمال من أشروسنة، وهي أقليم سهلي متاخم لبلاد الترك[(681)].

وتعد الهند أيضاً ضمن المناطق الشرقية التي شملتها فتوح جبهة الشرق، فقد دخلها المقاتلون العرب القادمون من العراق عبر جنوبي بلاد فارس مروراً بكرمان وسجستان. ومن ثم توغلوا في بلاد السند التي تقع إلى الشرق من إيران الحالية على ساحل المحيط الهندي، وبلاد القيقان، التي تعد أيضاً من بلاد السند مما يلي خراسان من جهة الشرق[(682)]. ومن أشهر مدن السند ميناء الدَّيْبُل أو الديبلان، على ساحل بحر الهند[(683)].

(676) ينظر: فامبري، أرمينوس، تاريخ بخارى، ترجمة، أحمد محمود الساداتي، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1965، ص25.

(677) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ط، دي غويه، ليدن 1879 ـ 1903: 2/ 186، ياقوت، المصدر السابق: 1/ 533، 3/ 409، 4/ 462.

(678) المصدر نفسه: 2/ 395.

(679) المصدر نفسه: 4/ 352.

(680) المصدر نفسه: 1/ 197.

(681) المصدر نفسه: 3/ 308.

(682) البلاذري، المصدر السابق، ص421، ياقوت، المصدر السابق: 3/ 267.

(683) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى =

وينتمي سكان هذه المنطقة إلى العنصر الآري، وإن كان أغلب سكانها من عناصر تسمى الهندية، التي نسبت إليها البلاد، كما ضمت القيقان عناصر تركية كثيرة[684]. وتعد مدينة زرنج، التي تقع في بلاد أفغانستان الحالية، من أشهر مدن سجستان، وهي قصبتها[685].

وبعد التعرف إلى أهم المناطق الشرقية التي شملتها الفتوح العربية الإسلامية، لابد من التذكر أن الكوفة والبصرة كانتا القاعدتين الأساسيتين اللتين اضطلعتا بمهمة توجيه هذه الحملات وتنظيمها. وهما اثنتان من الأمصار التي اتخذها العرب قواعد عسكرية للقيام بحملاتهم وفتوحهم[686]. كما جعلوها مراكز لإدارة الأقاليم وإقامة الولاة وما يتصل بها من دواوين. لكن الطابع العسكري كان الصفة المميزة لهذه الأمصار طوال القرن الأول الهجري، حيث استقر فيها المقاتلة العرب على أسس عشائرية ضمن خطط خاصة بأسمائها. وكانت هذه العشائر جاهزة للقتال حين يضرب عليها البعث، أي تقديم المقاتلة للمشاركة في عمليات التحرير.

كانت الكوفة القاعدة الرئيسية في عهد الراشدين، ولاسيما بالنسبة إلى الجيوش التي افتتحت الجزيرة وشمال إيران الحالية. وقد أُنشِئت لها قواعد أمامية لانطلاق الجيوش، وهي ما تسمى بثغور الكوفة، مثل: حلوان، وماسبذان، وقرقيسيا، والموصل[687]. وقد أدت فتوح أهل

= السقا، القاهرة، 1941 ـ 1947: 2/ 569، ياقوت، المصدر السابق، 2/ 495.

(684) البلاذري، المصدر السابق، ص421، ويقارن : ماجد، المرجع السابق: 2/ 228 ـ 229.

(685) ينظر: ياقوت، المصدر السابق: 3/ 138، 190.

(686) كانت هذه الأمصار هي: المدينة في الحجاز، والجابية في بلاد الشام، وجواثا في البحرين، والكوفة والبصرة في العراق، والفسطاط في مصر، وهناك من يضيف الجزيرة أيضاً، ينظر: العلي، صالح أحمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط2، بيروت، دار الطليعة، 1969، ص14.

(687) الطبري، المصدر السابق: 1/ 2497.

الكوفة إلى انضمام مقاطعات كثيرة تحت لواء الإسلام. لكن فتوحها ابتدأت بالتناقص منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وما أعقب ذلك من فتنة واضطرابات داخلية، لكنها استرجعت دورها إبان هذا المجال في العصر الأموي.

أما البصرة فكانت قاعدة تحرير قاطع المشرق الذي يشمل الأحواز، وإقليم فارس، والجبال، وكرمان، وسجستان، وخراسان. وقد أدى المقاتلة من أهل البصرة دوراً مشرفاً في هذا الميدان، ولاسيما في أثناء ولاية القائد العربي عبد الله بن عامر عليها أول مرة سنة 29 ـ 35هـ / 649 ـ 655م[688]. أما جهوده في ولايته الثانية عليها، فتدخل ضمن الفترة الأموية في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، والتي ستبحث لاحقاً.

إن تحديد قواطع العمليات الخاصة بكل من الكوفة والبصرة لم يكن ثابتاً تماماً، فهناك مناطق مشتركة، ساهم فيها أهل العراق من كلا المصرين، مثل السوس (الشوش)، والمناطق القريبة منها، وجنديسابور وغيرها. وليس أدل على ذلك من كتابة الخليفة عثمان إلى كل من عبد الله بن عامر والي البصرة، وسعيد بن العاص والي الكوفة: «أيكما سبق إلى خراسان فهو أمير عليها»[689]، الأمر الذي شجع على تضافر جهود المصرين لإنجاز فتوح المشرق.

وعلى الرغم من أن هذين المصرين كانا المقام الرسمي للعرب في العراق، لكن عدداً كبيراً منهم امتلك القرى والضياع خارج الكوفة والبصرة وأقام فيها، كما كانت لهم حاميات متعددة في العراق، أهمها في

(688) البلاذري، المصدر السابق، ص394، 398، وينظر : المشهداني، محمد جاسم، عبد الله بن عامر، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1988، ص60.

(689) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، بيروت دار صادر (د. ت): 2/ 166 ـ 167.

المدائن، التي كانت قاعدة المُلك للساسانيين بحيث اتخذت مسلحة. وتشير رواية أبي مخنف إلى أن المدائن كانت تضم رجالاً من أشراف الكوفة وبيوتات الناس «وبها مقاتلة لا تسعها عدة إن كان كُوْنٌ بأرض جوخى أو بأرض الأنبار»(690). وقد حددت رواية أخرى عدد الفرسان في المدائن بألف فارس، وذلك في سنة 76هـ/ 695م(691). كما كانت الراذان، من قرى السواد(692)، من المسالح الثابتة التي كان يسمح لرجالها بزيارة الكوفة(693). كما كانت في منطقة بغداد زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وربما في عهد غيره من الخلفاء الأمويين أيضاً، رابطة تتألف من خمسمائة فارس(694)، الأمر الذي يدل على انتشار القوات العربية في أماكن مختلفة من العراق، واستعدادها الدائم للمشاركة في عمليات التحرير والفتوح التي تتم في الجبهة الشرقية خصوصاً على امتداد عصرَي الراشدين والأمويين.

وقد استمر العراق في دوره ضمن هذا المجال إبان العصر الأموي، واتسع مجال عمله، ولاسيما بعد استقرار الأمور للخليفة معاوية بن أبي سفيان، فعيّن عبد الله بن عامر على البصرة للمرة الثانية سنة 41هـ / 661م. وقد استكمل هذا الوالي جهوده لافتتاح المناطق الشرقية، ولاسيما في سجستان، وتمكن من استعادة النفوذ العربي الإسلامي فيها بعد أن تزعزع هذا النفوذ نتيجة للحرب الأهلية التي أعقبت استشهاد الخليفة عثمان بن

---

(690) الطبري، المصدر السابق: 2/ 980، وينظر العلي، صالح أحمد، امتداد العرب في صدر الإسلام، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1981، ص30.

(691) الطبري، المصدر السابق: 2/ 899 العلي، امتداد العرب، ص30.

(692) ياقوت، المصدر السابق: 3/ 12.

(693) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، 1968 : 6/ 280.

(694) ابن سعد، المصدر السابق، 7/ 321، العلي : امتداد العرب، ص31.

عفان. فأعدّ ابن عامر حملة كبيرة من المقاتلة العراقيين ووجّهها إلى سجستان بقيادة عبد الرحمن بن سمرة، ومعه من أشراف البصرة عباد بن الحصين الحبطي، وعمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وعبد الله بن خازم السلمي، وقطري بن الفجاءة، والمهلب بن أبي صفرة. واستطاع هؤلاء أن يدخلوا مدينة كابل عنوة، وأن يفتحوا جبهة جديدة ضد زُنْبيل ملك زابلستان. وبعد هذه الانتصارات ولى الخليفة معاوية، عبد الرحمن بن سمرة على سجستان مكافأة له على جهوده في افتتاحها[695]. أما بالنسبة إلى خراسان، فقد عهد عبد الله بن عامر بولايتها إلى قيس بن الهيثم السلمي الذي تولاها لمدة سنتين، ويبدو أنه لم يقم بجهود ملحوظة في عمليات الفتوح خلال هذه الحقبة[696].

لكن الاهتمام بجبهة خراسان ازداد بعد تعيين زياد بن أبي سفيان والياً على البصرة سنة 45هـ/ 665م. وقد حاول زياد في بادئ الأمر معالجة أمور البصرة الداخلية[697]، ثم التفت إلى أمور خراسان، وأرسل إليها حملة جديدة بقيادة الحكم بن عمرو الغفاري، الذي اعتنى باختيار رجاله البصريين. واستغرقت استعداداته نحو سنتين، ومن ثم توجّه إلى خراسان بهدف إعادة السيطرة على الإمارات الهيطلية في طخارستان، وقد حققت حملته نجاحاً لابأس به، ثم عادت إلى مَرْو[698]، التي اتُّخذت قاعدة

(695) البلاذري: المصدر السابق، ص388، وينظر : شعبان، الثورة العباسية، ص70 ـ 71.

(696) الطبري، المصدر السابق: 2/ 17، وينظر : شعبان، محمد عبد الحي، التاريخ الإسلامي، تفسير جديد، صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1983، ص97.

(697) ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي، الفتوح، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986، م3 ـ 4، ص305 ـ 308.

(698) اليعقوبي، المصدر السابق: 2/ 222، الطبري، المصدر السابق: 2/ 84 ـ 85؛ ويقارن، شعبان، التاريخ الإسلامي، ص98.

للفتوح في خراسان المقابلة لبلاد ما وراء النهر، وهي التي كانت تُعرَف أيضاً بمرو الشاهجات، أو مرو العظمى(699). وقد خلف الحكم بن عمرو غالب بن عبدالله الليثي الذي أتم مهمته في إمارات طخارستان(700).

وفي هذه الأثناء كان زياد بن أبي سفيان مشغولاً بإعادة تنظيم البصرة، فقسمها إلى خمسة أقسام يسمى كل منها خمساً، ويختص كل قسم بقبيلة معينة، وهي: تميم، وبكر، والأزد، وعبد القيس، وأهل العالية(701). وحين أضيفت الكوفة إلى ولايته في عام 50هـ/670م قام زياد بعمل مماثل، فقسمها إلى أرباع بعد أن كانت مقسمة إلى أسباع(702). ولا شك في أن الغاية من هذه التنظيمات القائمة على أساس القبائل كانت عسكرية بالدرجة الأولى وذلك لضمان سيطرة الدولة الكاملة على الأخماس والأرباع، ولاسيما بالنسبة إلى توزيع العطاء والتسجيل في الديوان. كما كانت عاملاً لصالح الاستقرار في كل من البصرة والكوفة. وقد نجم عن هذه العملية وجود عدد كبير من السكان لم تدرج أسماؤهم في سجلات الديوان، الأمر الذي دفع زياد بن أبي سفيان للتفكير بإيجاد حل يتلاءم مع مصلحة الدولة وحماية فتوحها الخارجية، وذلك بنقل مجموعة كبيرة من مقاتلي العراق إلى خراسان.

لقد أدرك زياد بن أبي سفيان أن الحملات المتفرقة لا يمكن أن تحقق الفتح المنظم واستقرار العرب في المناطق الشرقية. فسارع إلى وضع خطة ثابتة لهذا الغرض، وذلك بنقل خمسين ألف مقاتل مع أسرهم من

(699) ينظر: ياقوت، المصدر السابق: 5/ 112 ـ 116.

(700) الطبري، المصدر السابق: 2/ 85، ابن أعثم، المصدر السابق، م3 ـ 4، ص319.

(701) العلي، تنظيمات، ص53.

(702) ينظر: ماسنيون، لويس، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة، تقي محمد المصعبي، النجف، مطبعة الغريري الحديثة، 1979، ص60 ـ 61.

البصرة والكوفة ليكونوا مادة الفتح ويستقروا في خراسان[703]. وعلى العكس مما أشار إليه أحد الباحثين المحدثين[704]، أن هذه العملية كانت للتخلص من بعض المعارضين، فإن الغاية الأساسية من هذه الخطوة كانت حماية الفتوح التي تحققت في المشرق، وضمان الجند اللازم لتوسعها وامتدادها[705]. وقد استطاع الوالي الربيع بن زياد الحارثي الذي قاد بنفسه حملة الخمسين ألف مقاتل سنة 51هـ/ 671م، أن يتقدم من خراسان، ويدخل مدينة بلخ صلحاً، ومن ثم يتوجه للقضاء على بقايا مقاومة الإمارات الهيطلية، ويفتتح قهستان عنوة[706]. ثم يعود إلى مرو التي استقر فيها وفي القرى المحيطة بها هذا العدد الكبير من العراقيين المجندين لدعم الفتوح في المشرق.

وبعد وفاة زياد بن أبي سفيان 53هـ/ 673م، واصل الخليفة معاوية دعمه لسياسته في المناطق الشرقية، فعيَّن ابنه عبيد الله بن زياد والياً على خراسان، وفصل هذه الولاية عن ولاية البصرة[707]. وقد وصل ابن زياد إلى خراسان، وقام بحملة عسكرية على بلاد الصغد، ساهم فيها نحو نصف الجيش العربي وقاتل أهل بخارى، فطالبت ملكتهم خاتون بالصلح والأمان، وتعهدت بدفع مبلغ كبير من المال للمسلمين[708]. وحققت هذه الحملة مكسباً آخر هو تجنيد قسم من أهالي بخارى في الجيش العربي الإسلامي، بحيث يشير كل من البلاذري والطبري[709]، إلى أن عبيد

---

(703) البلاذري، المصدر السابق، ص400، الطبري، المصدر السابق، 2/ 81.

(704) حسن، ناجي، القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي، بغداد، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، 1980، ص108.

(705) يقارن، شعبان، التاريخ الإسلامي، ص100.

(706) الطبري، المصدر السابق: 2/ 165.

(707) المصدر نفسه: 2/ 166 ـ 168.

(708) البلاذري، المصدر السابق، ص401، وينظر : الطبري، المصدر السابق: 2/ 169.

(709) فتوح البلدان، ص401، تاريخ الرسل والملوك: 2/ 170.

الله بن زياد جلب معه حين رجع إلى البصرة نحو ألفين من رماة النشاب من أهالي بخارى. ولا ريب في أن هذه الخطوة تدل على مدى تمكن أمر المقاتلة العرب من فرض الاستقرار، ونشر مبادئ الإسلام بين السكان المحليين، الذين ابتدؤوا بتفهم أهدافهم، والانضمام إليهم. ولم يكن هذا ليتم إلا بالتمازج البشري، والاختلاط بالمجتمعات الجديدة في المشرق. وكان لأهل العراق المستقرين في خراسان، والمساهمين في حملات الفتوح وراء النهر، دور كبير في هذا المجال.

استمرت حملات الفتح في جبهة المشرق في عهد سعيد بن عثمان الذي عيَّنه الخليفة معاوية على خراسان سنة 56هـ / 675م. وقد اصطحب هذا الوالي رجالاً أكفاء وقادة عراقيين بارزين من أمثال المهلب بن أبي صفرة، وأوس بن ثعلبة التيمي، بالإضافة إلى جيش تعداده نحو أربعة آلاف مقاتل، أنفق على تجهيزهم قرابة أربعة ملايين درهم من بيت مال البصرة[710]،

وبعد وصوله إلى خراسان، قطع سعيد النهر، وقاتل الصغد، وحاصرهم في مدينة سمرقند حتى صالحوه. وقد ساعدت ملكة بخارى المسلمين في أثناء حصارهم لسمرقند[711].

تطور أسلوب الجيش العربي الإسلامي في المشرق بعد تولي يزيد بن معاوية الخلافة، وتعيين سلم بن زياد والياً على خراسان سنة 61هـ/ 681م. ففي الحملة التي قادها الأخير على سمرقند، قرر البقاء فيها حتى داهمه الشتاء، على العكس من الولاة الذين سبقوه، والذين كانوا يعودون بجيوشهم إلى مرو في فصل الشتاء. وقد فوّتت هذه الخطة الجديدة

---

(710) ابن اعثم، المصدر السابق، م403، ص311، ويقارن : الطبري، المصدر السابق: 2/ 178.

(711) البلاذري، المصدر السابق، ص401، الطبري، المصدر السابق: 2/ 179.

الفرصة على أمراء مناطق بلاد ما وراء النهر لتجميع قواهم. لكنها في الوقت نفسه كانت على حساب المقاتلة العراقيين الذين لم يتعودوا البقاء في برد الشتاء في مناطق القتال. وقد استطاع سلم بن زياد، وقائده المهلب ابن أبي صفرة إقناع هؤلاء المقاتلة بأهمية هذا الإجراء(712)، الأمر الذي أدى دون شك إلى دعم كبير لفتوح المشرق نتيجة اتّباع هذه الخطوة السوقية الجديدة.

ولكن ما يؤسف له، أن الخلافات القبلية التي نشأت في خراسان نتيجة الفتن الداخلية والحرب الأهلية التي أعقبت وفاة الخليفة يزيد بن معاوية سنة 64هـ/ 683م، أدت إلى تشجيع أمراء بلاد ما وراء النهر للانقلاب على العرب، والإغارة عليهم. وهكذا فإن التفرقة والخلاف بين العرب في خراسان، وفي بقية أنحاء الدولة العربية الإسلامية، أديًا إلى ضياع الجهود القيّمة التي بُذلت من قبل المقاتلة العرب لاستكمال الفتوح في المشرق. ولم يقتصر هذا الأمر على خراسان وحدها بل شمل مناطق أخرى، مثل سجستان التي حقق فيها العرب أيضاً انتصارات أولية في عهدي معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد الأول(713).

ولم يستمر هذا التراجع كثيراً، فبعد القضاء على حركة ابن الزبير في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وتوطيد السلطة الأموية في أيامه وأيام ابنه الوليد الأول، أصبح الجو مهيئاً لموجة جديدة من حركات الفتوح العربية الإسلامية في المشرق والمغرب. وكان لتولي قادة بارزين زمام ولايات الدولة أثرٌ كبيرٌ على ذلك. فبالنسبة إلى العراق أدى الحجاج بن يوسف الثقفي دوراً حاسماً في مجال دعم وتشجيع فتوح المشرق

---

(712) المصدر نفسه: 2/ 394، وينظر: البلاذري، المصدر السابق، ص403. اليعقوبي، المصدر السابق: 2/ 252، شعبان، الثورة العباسية، ص86.

(713) ينظر: البلاذري، المصدر السابق، ص421 ـ 423.

وتشجيعها. فقد عُيِّن والياً على العراق سنة 75هـ/ 694م، ثم أضيفت إليه ولاية خراسان والمشرق عام 78هـ/ 697م. وهكذا أصبحت القوى البشرية في العراق، والموارد المالية لخراسان وسجستان بتصرفه، فعبّأها جميعاً لدعم حركات التحرير وجهّز قادته بكل ما يحتاجون إليه. ففتح قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد تركستان، ووصل إلى حدود الصين. وعمل محمد بن القاسم الثقفي على فتح بلاد السند والهند. ولقد شجع الحجاج من يسبق من قادته في فتح البلاد بالتولية عليها، عندما كتب إلى كل من قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم قائلاً: «أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها وعلى صاحبها»[714]. وشجع محمد بن القاسم ووعده أن يجعله عاملاً على ما يفتحه من البلدان[715].

ويبدو أن الذي وجّه نظر والي العراق الحجاج بن يوسف إلى دعم الفتوح في المشرق، هو الأوضاع المتردية في تلك المناطق، التي كانت تتطلب توطيد السلطة الإسلامية فيها. ولاسيما أن الأمن أصبح مفقوداً في الأطراف النائية من الحدود، ما سمح للصوص وقطاع الطرق العبث بالسفن والقوافل، والتمتع بحماية داهر ملك الديبل في أرض السند، الذي لم يحترم سلطة الدولة العربية الإسلامية[716]. وعندما علم والي العراق أن بعض النسوة المسلمات قد تعرضن إلى مهاجمة اللصوص قرب الديبل على ساحل بحر الهند، وأن إحداهن استغاثت به ونادت: «يا حجاج»! صمم على انتهاز الفرصة، فأنذر داهراً ملك الديبل بإرجاع النسوة،

(714) جرير، جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير، شرح محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، القاهرة، دار المعارف، 1969 ـ 1971: 1/ 245، اليعقوبي، المصدر السابق: 2/ 289.

(715) ابن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط العصفري، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء، العمري، النجف، 1967: 1/ 308.

(716) البلاذري: المصدر السابق، ص423، الطبري، المصدر السابق: 3/ 1376.

ومعاقبة اللصوص. وعندما رفض داهر هذا الطلب، قرر الحجاج استخدام القوة، فأرسل حملة كبيرة للسيطرة على هذه البلاد بقيادة محمد بن القاسم الثقفي[717]. وانتهت هذه الحملة بدخول ثغر الديبل عنوة، وبناء مسجد فيه، واستقرار نحو أربعة آلاف من العرب فيه لتثبيت الوجود العربي الإسلامي، بالإضافة إلى افتتاح مناطق أخرى من السند، ولاسيما مدينة الملتان، ومناطق قندهار وكشمير[718].

كذلك شهدت جبهة ما وراء النهر دفعاً كبيراً في أثناء ولاية الحجاج بن يوسف، فما إن أنيطت به خراسان، حتى ولى عليها القائد المعروف المهلب بن أبي صفرة الذي توجَّه إلى بلاد ما وراء النهر، ودخل خُجندة، أهم ولايات مملكة فرغانة، وحاصر كش في بلاد الصغد التي أدت إليه الإتاوة[719]. وبعد وفاة المهلب تضاءلت العمليات العسكرية في المنطقة، ولاسيما في ولاية ابنيه يزيد والمفضل، الأمر الذي دفع الحجاج إلى إناطة هذه الولاية بقائده الفذ قتيبة بن مسلم الباهلي سنة 86هـ/ 705م الذي تمكن من إحراز إنجازات عسكرية هائلة في المشرق، بحيث اتخذ أيضاً مرو قاعدة له، ومنها انطلق إلى بلاد ما وراء النهر، يدعمه المقاتلة العرب في خراسان، الذين ينتمون في غالبيتهم إلى العراق، كما أسلفنا، وحقق قتيبة انتصارات باهرة كان في مقدمتها الاستيلاء على مدينة بيكند في منطقة بخارى، كما دخل مدينة بخارى نفسها سنة 90هـ/ 708م[720] وقد وصلت حملاته إلى فرغانة، كما امتد

(717) البلاذري: المصدر السابق، ص424، الطبري، المصدر السابق: 3/ 1376.

(718) البلاذري، المصدر السابق، ص425 ـ 427، ويقارن: ماجد، المرجع السابق، 2/ 237.

(719) البلاذري، المصدر السابق، ص407، الطبري، المصدر السابق، 2/ 1040.

(720) البلاذري، المصدر السابق، ص410، الطبري المصدر السابق، 2/ 1186 ـ 1189، ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979 4/ 528، 542 ـ 544.

نشاطه حتى دلتا نهر جيحون عند خوارزم التي دخلها سنة 93هـ/ 712م. كما دخل مدينة سمرقند أيضاً وفرض على أهلها الصلح الذي تضمّن دفع مبلغ كبير من المال للمسلمين، وخروج المقاتلة من أهل المدينة، وبناء مسجد في المدينة لإقامة الصلاة. وانتَخَب قتيبة أربعة آلاف من جنده العرب، أسكنهم فيها ليكونوا حامية للدفاع عنها، ودعماً للفتوح في المنطقة. وكان هؤلاء عاملاً مساعداً في اعتناق جماعة كبيرة من أهلها للإسلام بعد اختلاطهم بالسكان المحليين، واقتناع هؤلاء بتفاهة ما كانوا يعبدون من أصنام، بالمقارنة مع مثل ومبادئ الإسلام[(721)].

ولم تكن هذه الإنجازات التي تمَّت في جبهة المشرق لتصل إلى تلك النتيجة الباهرة من العظمة والتفوق والشمول، لولا تعاون ولاية العراق، وعلى رأسها الحجاج بن يوسف مع عماله وقادته في الجبهة الشرقية، ويرى الأستاذ جب Gibb[(722)] أن إنجازات الجيوش الإسلامية في أواسط آسيا خلال حكم الوليد الأول كانت تعزى بالدرجة الأولى إلى التعاون التام بين نبوغ الحجاج الموجّه، وقدرة قتيبة الحربية. ويشير في مناسبة أخرى إلى تمكن قتيبة من القيام بفتوحه بدعم من الحجاج، ولكن عندما اختفي الحجاج لم يكن هناك قائد ولا تنظيم يحلُّ محلَّه، فالقوة، برأيه، كانت من وراء الفتوحات[(723)].

ويمكن أن نضيف أيضاً عاملي التنظيم والخبرة اللذين امتاز بهما الحجاج في تجهيز الجيوش وتسييرها، كعوامل أخرى ساعدت على دعم حركة الفتوح الإسلامية ونجاحها في هذه الحقبة. فقد جهَّز الحجاج جيش

---

(721) البلاذري، المصدر السابق، ص410 ـ 411، الطبري، المصدر السابق، 2/ 1236 ـ 1240 فما بعدها، ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 570 ـ 575.

(722) H.A.R, The Arab conquests in Central Asia, London, 1923, P. 29.

(723) Ibid, P. 54.

محمد بن القاسم بكل ما يحتاج إليه من لوازم، حتى البسيطة منها مثل الخيوط، والقطن المنقوع بالخل[724]. وبلغت كلفة إعداد هذه الحملة نحو ستين مليون درهم[725]. وتضمن تنظيمها أن تُقسم إلى قسمين: برية وبحرية، وقد حرص الحجاج على أن تصل الحملتان في وقت واحد إلى الديبل. وتولى محمد بن القاسم قيادة الحملة البرية، وأقام في مدينة شيراز حتى تجمع إليه أصحابه، ووافاه الحجاج بالمقاتلة من العراق، ومن ثم سار إلى مكران باتجاه السند. أما الحملة البحرية، فكانت تتألف من سفن فيها رجال وسلاح، بالإضافة إلى التجهيزات الأخرى الكثيرة التي كان من المتوقع أن تحتاجها حملة كبيرة كهذه. وبالفعل وصلت الحملتان في وقت واحد إلى غايتها، فاستفاد محمد بن القاسم من هذا التنظيم الدقيق الذي ساعد على دعم الحملة ونجاحها[726].

وكانت اتصالات والي العراق مستمرة بقادته، يطّلع فيها على كل كبيرة وصغيرة تهم الجيش الفاتح. فكانت كتب الحجاج ترد على محمد بن القاسم، وكُتُب ابن القاسم تردّ عليه كل ثلاثة أيام، وكثيراً ما كان الحجاج يبدي توجيهاته في طريقة الفتح، أو القتال، ويحاول أن يذلل العقبات التي تعترض سير الحملات بعد اطلاعه على الوصف التفصيلي لأرض المعركة. وكانت توجيهات والي العراق بناءة وفعالة في سير العمليات العسكرية، وكثيراً ما كان رأيه يصيب في الأمور التي يكتبها لقادته، فتنجح ملاحظاته في تخليص المسلمين من مخاطر كثيرة، وتساعدهم على افتتاح مدن ومناطق استعصى عليهم الدخول إليها. من ذلك مثلاً، كتابته إلى محمد بن القاسم بكيفية نصب المنجنيق المعروف بالعروس على مدينة الديبل لتكون

---

(724) البلاذري، المصدر السابق، ص424، وينظر: البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، الجماهر في معرفة الجواهر، حيدر آباد الدكن، 1355هـ، ص48.

(725) البلاذري، المصدر السابق، ص427.

(726) المصدر نفسه، ص424، ابن الأثير، المصدر السابق، 4/ 537.

إصابته مباشرة للصنم الكبير المقام داخل المدينة[727]. ولما استعصت مدينة بخارى على قتيبة، كتب إليه الحجاج: أن صَوّرها لي، فبعث إليه بصورتها، فكتب إليه أن يأتيها من مكان كذا، وكذا، ففعل قتيبة، وتم افتتاح المدينة[728].

ولمّا كانت الاتصالات تنقطع أو تتأخر بين القادة العسكريين في المشرق ووالي العراق، يصبح قلق الوالي عظيماً، وإشفاقه كبيراً على مصير الجيوش الإسلامية. وتشير المصادر إلى أن اتصاله قُطع مع قتيبة بن مسلم سنة 87هـ/ 705م، نتيجة لحصار فُرض على قتيبة من قبل الأعداء. فأصبح والي العراق قلقاً جداً بهذا الخصوص، وأمر الناس بإقامة الصلوات في المساجد بالعراق، وأن يكثروا من الدعاء لسلامة المسلمين[729]. وكان يأمر قادته بالتروّي، وعدم المخاطرة بأرواح الجند، وأن يكونوا في مقدمة الجيش إذا غزا، وفي أُخرياته إذا قفل، وأن يأمروا جنودهم بتلاوة القرآن، لأنه أمنع الحصون[730]. وبهذه الهمة قاد الحجاج بن يوسف حركة الفتوح في المشرق، فوصلت أقصى مداها، ولولا هذا الدعم والتنظيم من والي العراق، لما استطاعت الجيوش العربية الإسلامية، أن تحقق تلك الانتصارات الباهرة، وتمد حدود الدولة العربية

---

(727) البلاذري، المصدر السابق، ص 424 ـ 425.

(728) الطبري، المصدر السابق: 2/ 1199، 1201، ويقارن: عماش، صالح مهدي، قتيبة بن مسلم الباهلي، بغداد، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، 1978، ص96.

(729) النرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر تاريخ بخارى، عربه عن الفارسية وحققه، أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، القاهرة، دار المعارف، 1965، ص72؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 528.

(730) الطبري، المصدر السابق: 2/ 1181، ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وجماعته، ط2، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1948 ـ 1953: 4/ 218.

إلى تخوم الهند والصين[731].

استمر قتيبة بن مسلم في فتوحه في جبهة المشرق حتى بعد وفاة الحجاج، فدخل مدينة كاشغر التي كانت ضمن حدود الصين. ولكن يبدو أن الظروف لم تكن ملائمة حتى يستكمل تقدُّمه في الصين بسبب وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتولّي أخيه سليمان للخلافة سنة 96هـ/715م. وقد أقر سليمان قتيبة في ولايته على خراسان، لكن قتيبة خشي أن يكون هذا إجراء مؤقتاً، وأن الخليفة الجديد لابد من أن ينتقم منه لأنه كان قد أجاب الوليد في محاولته لخلع أخيه سليمان من ولاية العهد[732]. لهذا أعلن التمرد على الخليفة على أمل أن يؤيده رجاله وأنصاره في خراسان، لكن جيشه انقلب عليه، وأعلنت القبائل العربية ولاءها للخليفة الجديد. وانتهت حياة القائد قتيبة بن مسلم نتيجة هذا التمرد الفاشل. وقد أدى هذا بالطبع إلى توقف سير عمليات الفتوح في المشرق.

والواقع أن هذه العمليات اختلفت بعد وفاة الوليد الأول، وتولّي سليمان، ومن بعده عمر بن عبد العزيز. فقد امتنع يزيد بن المهلب الذي عُيّن على العراق وخراسان عن القيام بحملات فيما وراء النهر، وفي هذا إشارة إلى السياسة التي بدأها سليمان، وأعلنها من بعده عمر بن عبد العزيز صراحة، وتنص على وجوب الانسحاب الكامل من كل بلاد ما وراء النهر. وربما كان السبب في هذه السياسة برأي الخليفة عمر، أن العرب يجب أن يعملوا على تثبيت أقدامهم في المناطق التي وصلوا إليها سابقاً قبل القيام بأي تحرُّك عسكري جديد[733]. ولهذا خالف يزيد بن

(731) يقارن: طه، عبد الواحد ذنون، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الموصل مديرية مطبعة الجامعة، 1985، ص218 ـ 223.

(732) البلاذري، المصدر السابق، ص412، الطبري، المصدر السابق: 2/ 1286.

(733) يقارن: شعبان، الثورة العباسية، ص143 ـ 144.

المهلب خطة قتيبة بن مسلم في التوغل في أواسط آسيا، وتوجَّه اهتمامه إلى مناطق أخرى تقع في الطريق بين العراق وخراسان، وهي جرجان، وطبرستان، بحيث كانت هذه المناطق تهدد مؤخرة الجيش العربي في خراسان، وتقطع مواصلاته مع العراق(734). وقد أصاب يزيد بعض النجاح في هذه السياسة، ولاسيما أنه نقل مركزه من العراق إلى مَرْو في خراسان. وعلى الرغم من اعتماده على عدد كبير من جند الشام فإنه أيضاً لم يستطع الاستغناء عن جند العراق، فقد نقل معه إلى خراسان قسماً من جند الكوفة والبصرة، الذين كان لهم دور بارز في هذه الفتوح الجديدة أيضاً(735).

وفي العقود الأخيرة من حياة الدولة الأموية لم تنقطع حركة الفتوح في المناطق الشرقية تماماً، لكنها تأثرت بالتأكيد بالأوضاع غير المستقرة التي برزت خلال هذه الحقبة. وكان ولاة العراق والمشرق يحاولون جهدهم للسيطرة على هذه الجبهة، وعلى المشاكل الداخلية فيها. من ذلك مثلاً، جهود والي خراسان سعيد بن حذيفة الذي صد حملة تركية لغزو الصغد، كما عبر النهر مرتين سنة 102هـ/ 721م(736). واستطاع الوالي سعيد الحرشي أن يعيد الحكم العربي الإسلامي على جميع بلاد الصغد سنة 103 ـ 104هـ/ 722م، ولكن بإفراط في استخدام القوة(737).

لكن العرب منوا بفشل ذريع مع جيش الترك سنة 106هـ/ 724م في ولاية مسلم بن سعيد، بحيث تقهقر الجيش العربي إلى سمرقند بعد معركة

(734) الطبري، المصدر السابق: 2/ 1327.
(735) تنظر: رواية هشام بن محمد عن أبي مخنف، الطبري، المصدر السابق: 2/ 1318.
(736) المصدر نفسه، 2/ 1420، 1430.
(737) المصدر نفسه، 2/ 1441 فما بعدها، ويقارن: الخطيب، عبد الله مهدي، الحكم الأموي في خراسان، بيروت، مؤسسة الأعلمي ـ بغداد، دار التربية، 1975، ص126..

يوم العطش، التي كانت ضربة قاصمة لوضع العرب في المنطقة الشرقية[738]. ومع هذا فسرعان ما عمل العرب على تحسين وضعهم العسكري، ولاسيما في ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المري، الذي نجح في تحقيق النصر على الترك، وخلّص بلاد الصغد للعرب في عامي 111 ـ 113هـ/ 730 ـ 731م[739]. وقد التحق بهذا الوالي عشرون ألف جندي من العراق، وعشرة آلاف من أهل البصرة، ومثلهم من أهل الكوفة، وجاؤوا إليه بقيادة عمرو بن مسلم الباهلي، وعبد الرحمن بن نعيم العامري، وساهم هؤلاء دون شك في الأحداث اللاحقة في خراسان، وفيما وراء النهر، ولاسيما منطقة سمرقند[740].

وهكذا ظل دور العراق بارزاً في أحداث المشرق سواء على صعيد دعم حركة الفتوح في أوقات القوة والتوسع، أم على صعيد المشاركة في الأحداث الداخلية والصراعات التي سادت في أواخر العصر الأموي، حتى قيام الثورة العباسية.

---

(738) ينظر : الطبري، المصدر السابق: 2/ 1478 ـ 1481، شعبان، الثورة العباسية، ص179 ـ 180.

(739) الطبري، المصدر السابق: 2/ 1540 فما بعدها.

(740) المصدر نفسه: 2/ 1552 ـ 1553؛ ويقارن : شعبان، الثورة العباسية، ص192.

موقع القادسية وأهميته في العصرين الأموي والعباسي

41 ـ 334هـ/ 661 ـ 954م

نشر هذا البحث في مجلة التربية والعلم،
العدد 14، الموصل، 1994

ارتبط اسم القادسية باسم الموقعة الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص على جيش الفرس الساسانيين، وما أعقب ذلك من فتح باب العراق على مصراعيه أمام الجيوش الإسلامية لتحريره، والاتجاه شرقاً في عملية ملاحقة قوات الفرس والقضاء عليها، ومن ثم على الإمبراطورية الساسانية. فهل عرف العرب القادسية منذ ذلك الحين، أم كانت معروفة لديهم قبل الموقعة الشهيرة؟ وهل استمرت أهمية ذلك الموقع في العصور اللاحقة أم انتهت بنهاية المعركة الفاصلة في سنة 14 هـ/ 635م؟ هذه جملة من الأسئلة التي يحاول هذا البحث الإجابة عنها، لبيان أهمية هذا الموقع قبل الإسلام، واستمرار قيامه بدور فعال في الطريق الواقع بين العراق والجزيرة العربية، فضلاً عن كونه مركزاً للمرور ولالتقاء القوافل التي تجوب منطقة جنوب ووسط العراق.

تميزت القادسية بموقع ممتاز على حافة البادية بين العراق والجزيرة العربية وكانت تمثل مركزاً حضرياً يتمتع بموقع خصيب تتوافر فيه المياه والنخيل. وقد وصفها الجغرافي العربي ابن حوقل في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد على أنها مدينة صغيرة(741)، في حين أشار إليها الرحالة ابن جبير في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد على أنها قرية كبيرة(742). ومهما اختلفت تعابير الجغرافيين في وصفها، فهي لا شك أنها كانت مركزاً آهلاً بالسكان قبل قيام الإسلام وتحرير العراق، واستمرت بعد ذلك إلى حقب متأخرة، ويدل على ذلك، شهرتها، ومعرفة أهل الجزيرة العربية بها، وأنها كانت تمثل محطة تنطلق منها القوافل التي تروم التوجه إلى الحجاز والجزيرة العربية. وقد أشار إليها الرسول ﷺ، بهذا المعنى، وذلك في أثناء لقائه مع عدي بن حاتم الطائي في محاولة لإقناعه باعتناق الإسلام، فقال: «ولعلك إنما يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدوّنا، والله ليفيضن المال فيهم حتى لايوجد من يأخذه، والله لتسمعن بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله...»(743). كما وصفها الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على أنها: «باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل وهو منزل رغيب حصين دونه قناطر وأنها مرتفعة...»(744). وحين افتتح خالد بن الوليد في عمليات

---

(741) أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979، ص215.

(742) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1981، ص167.

(743) علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت دار صادر، 1979: 2/ 286.

(744) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر دي غويه، ليدن ـ بريل، 1879 ـ 1903: 1/ 2228.

التحرير الأولى للعراق وادي العذيب الذي يبعد نحو ستة أميال جنوب غرب القادسية، بعث إليه أهل القادسية وطلبوا الصلح، أعطوه الجزية، الأمر الذي يشير إلى أنها كانت مركزاً آهلاً بالسكان، وموقعاً يستحق اهتمام القائد خالد بن الوليد الذي توجَّه إليه وعقد الصلح مع أهله، ثم توجَّه بعد ذلك إلى النجف[745].

ويتفق معظم الجغرافيين العرب والمسلمين على أن القادسية كانت المحطة الرئيسية للمتوجه من الكوفة إلى الحجاز، فهي تبعد عن الكوفة جنوباً نحو خمسة عشر ميلاً[746]. أي ما يقارب ثلاثين كيلومتراً، وينفرد ياقوت بن عبد الله الحموي[747]، فيجعل المسافة خمسة عشر فرسخاً، أي ما يعادل تسعين كيلومتراً، باعتبار أن الفرسخ الواحد يساوي نحو ستة كيلومترات[748]، ويبدو أن ياقوتاً قد وهم في هذا التقدير، لأن الخرائط الأثرية تؤيد تقدير الجغرافيين الذين أشرنا إليهم أولاً، وأن المسافة بحسب هذه الخرائط هي في حدود اثنين وثلاثين كيلو متراً تقريباً[749].

---

(745) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، تحقيق: القاضي محمود الباجي، تونس، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع (د. ت)، ص144.

(746) ينظر : أبو علي أحمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفيسة، نشر: دي غويه، ليدن ـ بريل، 1891، ص175؛ أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، البلدان، طبعة هوتسما، ليدن، 1883، ص311، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خرداذبة، المسالك والممالك، نشر: دي غويه، ليدن، 1889، ص125 ـ 126؛ الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ص299؛ أبو الفرج قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، 1981، ص78.

(747) معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 4/ 291.

(748) فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، عمان منشورات الجامعة الأردنية، 1970، ص94.

(749) ينظر : أطلس المواقع الأثرية في العراق، بغداد، مديرية الآثار العامة، 1976، (خارطة العراق الأثرية، وخارطة القادسية، وخارطة رقم 89: قضاء أبو صخير ونواحي المشخاب والقادسية والحيرة). كما ينظر أيضاً الخارطة المرفقة بالبحث.

ازداد دور القادسية كمسلك من مسالك الاتصال بين سهل العراق وداخل الجزيرة العربية بعد قيام الدولة العربية الإسلامية، وازدياد عمليات التحرير. وبمرور الأيام أصبحت تمثل أحد المسالك الرئيسية التي تربط وسط العراق، ولاسيما الكوفة والنجف بالمدن المقدسة في الحجاز، وذلك من طريق حايل في جبل شمر. وقد اشتهر هذا المسلك في العصور اللاحقة، ولاسيما في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، باسم درب زبيدة، نسبة إلى زوجة الخليفة هارون الرشيد، بالنظر إلى اهتمامها به وانفاقها على حفر الآبار في مراحله المختلفة. كما اشتهر باسم درب الحج أيضاً، وهو مسلك غير طبيعي إلى حد ما، إذ لا تتوافر فيه ظواهر جغرافية تحدد بعض أجزائه، وهو يبدأ من النجف ويتجه نحو الجنوب خلال ممر يقع بين بحر النجف وبحر الشنافية، ثم يمر بالرحبة التي هي قرية بحذاء القادسية(750)، وتقع على مسافة تبلغ نحو خمسة وعشرين كيلومتراً من النجف، ثم يستمر بعد ذلك باتجاه الجنوب حتى يصل الحجاز(751).

وتؤيد النصوص التاريخية أهمية هذا الطريق وسلوكه من قبل المسافرين والوفود الرسمية والجيوش، فيشير الطبري في بداية العصر الأموي، وفي حوادث سنة 41هـ/ 661م بالذات، إلى مرور الحسن بن علي بهذا الموقع بعد بيعته لمعاوية بالكوفة، وذلك في طريق عودته إلى الحجاز، بحيث تلقّاه الناس بالقادسية وأبدوا له امتعاضهم لتنازله عن الخلافة(752). كذلك كانت القادسية محطة مهمة في أحداث ثورة الحسين بن علي (61هـ/ 680م)، فقد ألقي فيها القبض على مسلم بن عقيل

---

(750) ياقوت، المصدر السابق: 3/ 33.

(751) ينظر: إبراهيم شريف، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي، بغداد، مطبعة شفيق (د.ت)، ص184 ـ 185، 197.

(752) تاريخ الرسل والملوك: 2/ 9، وينظر: ابن الأثير، المصدر السابق: 3/ 409.

بعد خروجه من الكوفة «حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى عبيد الله بن زياد...»[753] وكان عبيد الله لما بلغه إقبال الحسين بن علي من الحجاز، بعث إلى صاحب شرطته الحصين بن نمير التميمي، وأمره أن ينزل القادسية، وأن يضع المسالح، فينظم الخيل ما بين القادسية إلى القُطْقُطانة، ولعْلَعْ، وما بين القادسية إلى خفان[754].

ونظم الحصين بن نمير قواته في القادسية، فأرسل الحُرّ بن يزيد التميمي في ألف فارس للبحث عن الحسين بن علي، ومنعه من التوجه إلى العراق. وفعلاً استطاع أن يوقفه على بعد ثلاثة أميال من القادسية، وحظر عليه استمرار التقدم باتجاه الكوفة، أو الرجوع إلى الحجاز. فاضطر الحسين إلى التياسر من طريق العذيب والقادسية[755]. وكانت من جملة إجراءات الحصين بن نمير في القادسية أيضاً إلقاء القبض على عبد الله بن بقطر أخي الحسين بن علي في الرضاعة، بحيث أُرسل إلى عبيد الله بن زياد الذي أمر بقتله[756]، كذلك تم القبض على قيس بن مسهر الصيداوي، رسول الحسين إلى أهل الكوفة، وذلك عند وصوله إلى القادسية، وأُرسل إلى ابن زياد فقتله[757].

---

(753) الطبري، المصدر السابق: 2/ 289.

(754) المصدر نفسه (برواية ابي مخنف وهشام الكلبي): 2/ 288، 297، وينظر: ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 41، و(القطقطانة): موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف: ياقوت، المصدر السابق: 4/ 374، أما (لعلع): فهو منزل بين الكوفة والبصرة، ويبعد نحو ستة أميال عن القادسية، المصدر نفسه: 5/ 18 ـ 19، و(خفان): موضع قرب الكوفة، ويضم قريتين من قرى السواد من طف الحجاز، ويقع على طريق الحج، المصدر نفسه: 2/ 379.

(755) الطبري، المصدر السابق: 2/ 281، 297، 300، ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 46، 48.

(756) الطبري، المصدر السابق: 2/ 293، ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 42.

(757) الطبري، المصدر السابق: 2/ 282، ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 41.

وهكذا نرى أن دور هذا الموقع السوقي الممتاز هيّأ للقوات الأموية مجال السيطرة على ثورة الحسين، واستطاع أن يمنع اتصال الحسين بأنصاره في الكوفة، وهو ما كان له أكبر الأثر على فشل الثورة وقمعها. لكن موقع القادسية وإن كان قد أدى دوراً حاسماً في القضاء على ثورة الحسين، فإنه، في المقابل، أدى الدور نفسه في القضاء على بعض الذين ساهموا في قتله. فقد أصبحت هذه المنطقة مقراً لتجمع هؤلاء، ولاسيما بعد أن أخذ المختار بن أبي عبيد الثقفي في تتبعهم والقضاء عليهم. من ذلك مثلاً أنه أرسل أحد رؤساء أصحابه، أبا نمر مالك بن عمرو النهدي، الذي داهم القادسية وأخذ بعض هؤلاء القتلة إلى المختار[(758)]، كما أرسل المختار أحد رجاله على رأس قوة من مائة رجل لمداهمة قرية الأشعث القريبة من القادسية، والتي كان يتحصن فيها محمد بن الأشعث بن قيس، أحد المشاركين في قتل الحسين. وقد أحاطت القوة بقصره، لكنه تمكن من الفرار والتوجه نحو مصعب بن الزبير في البصرة، فرجعت القوة بعد أن هدمت القصر[(759)].

واستمر موقع القادسية يؤدي دوراً مهماً في عدد من الأحداث البارزة التي جرت في العصر الأموي، فقد توجّه إليها شبيب بن يزيد الخارجي بعد مهاجمته للكوفة سنة 76هـ/ 695م، وذلك في محاولة للتخلص من القوات التي أرسلها الحجاج بن يوسف الثقفي لمقاومته[(760)]. كما أصبحت القادسية أيضاً معقلاً من معاقل التمرد في أثناء حركة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، بحيث منعت قوات عبد الرحمن الحجاج بن

---

(758) الطبري، المصدر السابق 2/ 668، ابن الأثير، المصدر السابق، 4/ 239.

(759) الطبري، المصدر السابق (برواية هشام الكلبي عن أبي مخنف): 2/ 680، 718، ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 244.

(760) الطبري، المصدر السابق (برواية هشام الكلبي): 2/ 921، ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 408.

يوسف الثقفي من نزول القادسية حين جاء متوجهاً من البصرة. فبعث إليه ابن الأشعث بخيل عظيمة تضم رجالاً من المصرين: الكوفة والبصرة، فمنعوه من نزول القادسية حين مر بينها وبين العذيب، ثم سايروه حتى ارتفعوا على وادي السباع(761)، ثم تسايروا حتى نزل الحجاج دير قرة(762)، ونزلت الخيل المطاردة له بدير الجماجم، حيث جرت المعركة التي هُزمت فيها قوات التمرد وانتصر الحجاج سنة 82هـ/ 701م(763).

وفي سنة 121هـ/ 738 ـ 739م قصد زيد بن علي بن الحسين القادسية بعد أن اشتدت مطاردة والي العراق يوسف بن عمر له في الكوفة. وقد لحقه أنصاره إلى هناك وأقنعوه بالرجوع معهم قائلين: «أين تذهب منا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غداً...»(764). كذلك كان موقع القادسية محطة مهمة في أحداث السنوات الأخيرة من العصر الأموي، ولاسيما في حركة الضحاك بن قيس الشيباني سنة 127هـ / 744م، الذي استطاع السيطرة على الكوفة، واستخلف عليها رجلاً من أصحابه يدعى ملحان الشيباني الذي حاول السيطرة على حركة القوات الأموية القادمة من واسط، والتي كانت تمر عادة بالقادسية. فاصطدم بالقرب من هذا الموقع بالنضر بن سعيد والي الكوفة السابق الذي تمكن من قتله، ثم واصل النضر سيره إلى الخليفة مروان بن محمد في الشام(765). وتؤكد هذه الأحداث أهمية موقع القادسية بالنسبة إلى

---

(761) وادي السباع: من نواحي الكوفة، ينظر: ياقوت، المصدر السابق، 5/ 343.

(762) دير قرة: دير بازاء دير الجماجم الذي يقع بظاهر الكوفة على بعد سبعة فراسخ منها (42) كيلومتراً، وذلك على طريق البر للسالك إلى البصرة، ينظر، المصدر نفسه: 2/ 503، 526.

(763) الطبري، المصدر السابق: 2/ 1072 (برواية هشام الكلبي عن أبي مخنف).

(764) المصدر نفسه: 2/ 1677، 1679، 1680، ابن الأثير، المصدر السابق: 5/ 229، 234.

(765) الطبري، المصدر السابق: 2/ 1914 (برواية أبي عبيدة معمر بن المثنى)، ابن الأثير، المصدر السابق: 5/ 334، وتشير رواية أخرى ينقلها الطبري عن أبي هاشم مخلد بن=

الأحداث التي كانت تجري في مناطق وسط وجنوب العراق، وكيف أنها كانت المعبر الرئيسي للقوات المتحركة من واسط إلى بلاد الشام، فضلاً عن أهميتها المعلومة في هذا المجال سواء بالنسبة إلى القادمين من البصرة أو من جزيرة العرب[766].

وازدادت في العصر العباسي شهرة المسلك الأخير، أي الربط بين العراق وجزيرة العرب، وهناك إشارات عديدة إلى هذه الأهمية، وإلى عبور الأفراد والقوافل من القادسية، فضلاً عن أنها أصبحت مركزاً حساساً يمتلىء بمختلف العناصر المناوئة والمؤيدة للسلطة. فعلى سبيل المثال، استطاع الخليفة أبو جعفر المنصور بواسطة بعض مؤيديه أن يدبر اغتيال هاشم بن الأشتاخنج أو الأساجيج، الذي عصاه في أفريقية، فقتل بالقادسية حين كان متوجهاً إلى مكة[767]، كما نجح أنصار محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم في القادسية من رصد رسول الخليفة أبي جعفر المنصور إلى الحجاز، ونقلوا إليهما التهديدات التي أطلقها المنصور هناك، ونيته في قتلهما في الحجاز، فساعدتهما هذه المعلومات على الهرب في الوقت المناسب[768].

وبالنظر إلى أهمية طريق الحج المار بالقادسية، قام الخلفاء العباسيون ببناء القصور في مختلف مراحل هذا الطريق، فبنى أبو العباس القصور من القادسية إلى زبالة، وهي منزل معروف بطريق مكة للقادم من

= محمد، إلى أن ملحاناً قتل على يد قائد آخر من أهل قنسرين يدعى عطية التغلبي، وذلك حين وصوله إلى القادسية للتصدي للأخير، فلقيه على قنطرة السيليحين قرب القادسية، وقتله، ينظر: تاريخ الرسل والملوك: 2/ 1899، ياقوت، المصدر السابق: 3/ 298.

(766) ينظر: الطبري، المصدر السابق: 2/ 243.

(767) المصدر نفسه: 3/ 369، وينظر أيضاً: ابن الأثير، المصدر السابق: 5/ 608 الذي يسميه بابن الأساجيج.

(768) الطبري، المصدر السابق: 3/ 156.

الكوفة[769]. كذلك فعل الخليفة المنصور وابنه المهدي الذي زاد في القصور التي بناها أبو العباس، وأمر المهدي أيضاً «باتخاذ المصانع في كل منهل، وبتجديد الأميال والبرك، وحفر الركايا مع المصانع»[770]. وقد أسلفنا الإشارة إلى درب السيدة زبيدة، واشتهار هذا الطريق في العصر العباسي، بحيث كانت القادسية تمثل أحد المعالم الرئيسية فيه، والتي يستريح فيها رجال القوافل المتوجهة إلى مكة، والعائدة منها[771]. وتؤكد الأبيات الآتية التي أنشدتها إحدى الجواري العائدات من الحجاز إلى العراق حين علمت بوصول قافلتها إلى القادسية، مدى ارتباط مفهوم هذا الموقع بالوصول إلى العراق، والالتقاء بأهله وأحبائه[772]:

لما وردنا القادسية	حيث مجتمع الرفاق
وشممت من أرض الحجا	ز نسيم أرواح العراق
أيقنت لي ولمن أحب	بجمع شمل واتفاق
وضحكت من فرح اللقا	وكما بكيت من الفراق

(769) ينظر: ياقوت، المصدر السابق: 2/ 129.

(770) الطبري، المصدر السابق: 3/ 486، والمصانع: جمع صنع، وهو الحوض أو الصهريج يجمع فيه ماء المطر، والمصانع أيضاً مايصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها، ينظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المعروف بابن منظور، لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط، بيروت، دار لسان العرب (د. ت)، مادة: (صنع): 2/ 482، أما الركايا، فهي الآبار، المصدر نفسه: مادة: (ركا): 1/ 1220، والأميال: هي الأعلام المبنية في طريق مكة، وسميت بهذا الاسم لأنها بنيت على مقادير مدى البصر من الميل إلى الميل، وكل ثلاثة أميال منها فرسخ، والميل منار يُبنَى للمسافر في أنشاز الأرض وأشرافها، المصدر نفسه: مادة (ميل): 3/ 557.

(771) ينظر: عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، نشر: دي غويه، ليدن، 1867، ص59؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن، 1358هـ، أعادت الدار الوطنية طبعه في بغداد، 1990: 6/ 196، 263.

(772) المصدر نفسه: 7/ 94

ويبدو أن أهمية القادسية قد ازدادت أيضاً من الناحية الإدارية في هذا العصر، بالإضافة إلى أهميتها السوقية وموقعها الممتاز الذي ساعد على اتخاذها مركزاً للالتقاء والتجمع، فيشير الطبري في رواية ينقلها عن أحد أبناء القادسية إلى قيام الخليفة أبي جعفر المنصور بتولية أحد رجاله من خراسان سنة 145 هـ/ 762م على القادسية، فيقول[773]:

«وحدثني يحيى بن ميمون من أهل القادسية، قال: سمعت عدة من أهل القادسية يذكرون أن رجلاً من أهل خراسان يكنّى بأبي الفضل ويسمّى فلان ابن معقل ولي القادسية ليمنع أهل الكوفة من إتيان إبراهيم (ابن عبد الله بن الحسن أخي محمد ذي النفس الزكية) وكان الناس قد رصدوا في طريق البصرة فكانوا يأتون القادسية ثم العذيب ثم وادي السباع، ثم يعدلون ذات اليسار في البر حتى يقدموا البصرة، قال: فخرج نفر من الكوفة، اثنا عشر رجلاً حتى إذا كانوا في وادي السباع لقيهم رجل من موالي بني أسد يسمّى بكراً من أهل شراف، دون وأقصة بميلين من أهل المسجد الذي يدعى مسجد الموالي، فأتى ابن معقل فأخبره، فاتَّبعهم فأدركهم بخفان، وهي على أربعة فراسخ من القادسية فقتلهم أجمعين».

ويعدّ هذا النص على درجة بالغة من الأهمية، لأنه يشير لأول مرة إلى تولي القادسية من قبل أحد الولاة في العصر العباسي على الرغم من أن مهمته كانت أيضاً عسكرية بالدرجة الأولى. لكن استخدام عبارة «ولي القادسية» هي المهمة في هذا المجال، ولم نلحظ في العصر الأموي مثلاً هذا التعبير حين أُرسل الحصين بن نمير إلى المنطقة ليمنع دخول الحسين بن علي إلى العراق. كما يشير النص أيضاً بوضوح إلى الطريق التي كان يتبعها أهل الكوفة للوصول إلى البصرة «فكانوا يأتون القادسية ثم

(773) الطبري، المصدر السابق: 3/ 295.

العذيب ثم وادي السباع ثم يعدلون ذات اليسار في البر حتى يقدموا البصرة».

وأدت القادسية دوراً مهماً في بعض حركات المعارضة في العصر العباسي، فكانت ملجأ لأبي السرايا، السري بن منصور الشيباني، حين طارده القائد هرثمة بن أعين من الكوفة سنة 200هـ/ 815م، فهرب إليها، ثم سار منها إلى السوس بخوزستان[774]. كما تعرضت القادسية إلى هجوم صاحب الزنج علي بن محمد سنة 255هـ/ 868 ـ 869م، الذي أمر أتباعه بنهبها[775]. ثم تكررت محاولة نهبها وتخريبها سنة 262هـ/ 875 ـ 876م على يد سليمان بن موسى، أحد قادة صاحب الزنج[776]. وأصبحت القادسية مقراً لمعسكر علي بن زيد العلوي، وذلك بعد مطاردته من قبل قوات المعتمد على الله بقيادة القائد كيجور التركي سنة 256هـ/ 869 ـ 870م، فتخلّى عن الكوفة التي سبق أن سيطر عليها، وعسكر بالقادسية، ثم مضى منها إلى خفان، ودخل بلاد بني أسد وأقام هناك[777].

أما القرامطة فقد اتخذوها ملجأً لهم سنة 293هـ/ 905م، ولاسيما بعد فشل هجومهم على الكوفة. وتمكن عاملها إسحاق بن عمران من الانتصار على القوات التي أرسلها القائد القرمطي زكرويه بن مهرويه. فانصرف هؤلاء إلى القادسية[778]، ولكنهم سرعان ما تخلّوا عنها بعد وصول إمدادات الخلافة. فصاروا إلى موضع بينه وبينها نحو أربعة أميال يعرف

(774) ابن الأثير، المصدر السابق: 6/ 309.

(775) المصدر نفسه: 7/ 210.

(776) المصدر نفسه: 7/ 292.

(777) المصدر نفسه: 7/ 239.

(778) الطبري، المصدر السابق: 3/ 2261، عريب، المصدر السابق، ص12، ابن الأثير، المصدر السابق: 7/ 544 ـ 545.

بالصَّوْأر، حيث تمكّن قائد القرامطة زكروية من الانتصار على جند الخلافة[779]، واستمر في أعماله العدوانية إزاء السلطة، وقوافل الحجاج، والقوافل التابعة للخلافة.

ونتيجة لهذا الوضع المتردي اضطر الوزير العباس بن الحسن بن أيوب أن يكلف محمد بن داود بن الجراح، الذي كان متولياً لديوان الجيش ودواوين الخراج والضياع بالمشراق، بالخروج إلى الكوفة والمقام بها لإنقاذ الجيوش لمحاربة القرامطة. فخرج من بغداد في المحرم سنة 296هـ/ 906م، وحمل معه أموالاً كثيرة لإعطاء الجند وتسييرهم لمجابهة خطر القرامطة. ويبدو أن أحد إجراءات محمد بن داود بن الجراح، كانت السيطرة التامة على القادسية وشحنها بالجند الذين أقاموا فيها بشكل كثيف، الأمر الذي اضطر زكرويه للمسير إلى زبالة، وبث الطلائع أمامه ووراءه خوفاً من تلك القوات المتمركزة في القادسية[780]. وكان زكرويه يطمع في الاستيلاء على قافلة كبيرة فيها الكثير من الأموال والتجار، وبعض قادة الخليفة المكتفي بالله، وموظفيه المتوجهين إلى الحجاز، لكن الخلافة استطاعت أن ترسل له قوة تمكنت من النفوذ إلى القادسية على طريق خفان ومداهمة قوات زكرويه والانتصار عليها. وقد جُرح زكرويه وأُسر في هذه المعركة[781].

وعلى الرغم من ذلك، فإن القادسية ظلّت هدف القرامطة في السنوات التالية، بحيث كانوا يمارسون هجماتهم على قوافل الحجاج

---

(779) الطبري، المصدر السابق: 3/ 2262 ـ 2263.

(780) المصدر نفسه: 3/ 2273، عريب، المصدر السابق، ص17، ابن الجوزي: المصدر السابق: 6/ 60.

(781) الطبري، المصدر السابق: 3/ 2274 ـ 2275، وينظر: ابن الأثير، المصدر السابق: 7/ 550.

ورجال الدولة، ففي سنة 313هـ/ 952م دخلها القائد القرمطي أبو طاهر الجنابي، حين كان يتتبع قوافل الحجاج، فخرج إليه أهلها وسألوه أن يؤمنهم ففعل، ثم رحل إلى الكوفة[782]، وفي سنة 324هـ/ 935م، هاجم القرامطة الحُجّاج عندما بلغوا القادسية، وقد اعترضهم القائد القرمطي أبو طاهر، ومنعهم من التوجه إلى الحج، وأمرهم بالرجوع، ثم التجأ إلى القادسية، ولم يحج في تلك السنة أحد من العراق[783].

وهكذا استمر القرامطة في اتخاذ القادسية ملجأً للفرار من قوات السلطة العباسية، ومركزاً لشن هجماتهم عليها وعلى قوافل الحُجّاج. ويلاحظ المتتبع لمجريات الأحداث، أن قوات السلطة لم تكن تبقى كثيراً في المنطقة، وأنها كانت تُرسل عند الحاجة فقط، الأمر الذي أدى إلى تكرار دخول هؤلاء المتمردين إلى القادسية والخروج منها، ما مهّد إلى عدم استقرار الأوضاع وانعدام الأمن على طريق الحج الرئيسي الذي يربط العراق بالحجاز.

ويبدو أن هذه الحالة ـ أي عدم التواجد المستمر لسلطة الدولة في القادسية بشكل حازم ـ كان من أحد الأسباب التي دفعت الكثير من حركات المعارضة للالتجاء إليها واتخاذها مقراً لعملياتها، أو معبراً لحركاتها في العصرين الأموي والعباسي، وهذا أمر غريب، ولاسيما أنه تكرر عبر العديد من حركات المعارضة التي كانت تنتهي، أو يُقلَّص خطرها حين تتمكن السلطة من تدعيم مركزها في القادسية، والتحكم في المنافذ المؤدية إليها.

خارطة تبين موقع القادسية بالنسبة إلى بعض المواقع الحديثة رسمت عن خارطة العراق الأثرية لأطلس المواقع الأثرية في العراق.

---

(782) ابن الجوزي، المصدر السابق: 6/ 196.

(783) ابن الأثير، المصدر السابق: 8/ 311.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن الأثير، علي بن أبي الكرم.
1 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979.
* ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد.
2 ـ رحلة ابن جبير، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1981.
* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.
3 ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن 1385هـ، وقد أعادت الدار الوطنية طبعه في بغداد سنة 1990.
* ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي.
4 ـ صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979.
* ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله.
5 ـ المسالك والممالك، طبعة دي غويه، ليدن، 1889.
* ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر.
6 ـ الأعلاق النفيسة، طبعة دي غويه، ليدن، 1891.
* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.
7 ـ تاريخ الرسل والملوك، طبعة دي غويه، ليدن ـ بريل، 1879 ـ 1903.
* عريب، عريب بن سعد القرطبي.
8 ـ صلة تاريخ الطبري، طبعة دي غويه، ليدن، 1867.
* قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر.
9 ـ الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، 1981.
* ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري.
10 ـ لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، بيروت، دار لسان العرب (د. ت).

* الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب.
11 ـ صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.
* ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي.
12 ـ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977.
* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب.
13 ـ البلدان، طبعة هوتسما، ليدن، 1883.
* أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم.
14 ـ كتاب الخراج، تحقيق: القاضي محمود الباجي، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت).

ب ـ المراجع الثانوية:

15 ـ أطلس المواقع الأثرية في العراق، بغداد، مديرية الآثار العامة، 1976.
* شريف، إبراهيم
16 ـ الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي، بغداد، مطبعة شفيق (د.ت).
* هنتس، فالتر.
17 ـ المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، 1970.



آل الجراح في العصر العباسي الثاني

نشر هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العراقي،
ج2، م45، بغداد، 1998

أصل الأسرة ونبذة عن اهتمامات رجالها في رجالها في حقل الكتابة والتأليف:

كان آل الجراح بالأصل من كبار وجوه منطقة دير قنى الذي يبعد نحو ستة عشر فرسخاً عن بغداد (في حدود ثمانية وأربعين ميلاً)، وهو معدود في الجانب الشرقي في أعمال النهروان، بينه وبين دجلة نحو ميل واحد[784]. ويبدو أنهم كانوا يمتلكون ضياعاً في بلدة الصافية التي تقع قرب هذا الدير في أواخر النهروان ليس بعيداً عن النعمانية[785]. والصافية

---

(784) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 2/ 528.

(785) المصدر نفسه: 3/ 389.

على الأغلب موطنهم، بحيث كان بعض أفراد أسرتهم يُنْفَوْن إليها في أوقات النكبات[786]. وربما كانوا يعودون في أصلهم البعيد إلى إحدى أُسَر الموالي الفرس التي نزحت إلى هذه المنطقة[787]. ولكنهم في العصر الذي نتحدث عنه كانوا قد استعربوا تماماً، وبلغوا مرحلة متقدمة في مجال الثقافة العربية والكتابة الأدبية الرصينة. ويدل على هذا أن الوزير علي بن عيسى لم يكن يعرف حتى اللغة الفارسية، وقد احتاج معز الدولة البويهي إلى من يترجم له كلام الوزير العربي إلى الفارسية ليفهمه، وذلك حين التقاه بعد دخوله إلى بغداد سنة334هـ/ 945م[788].

يأتي على رأس هذه الأسرة داود بن الجراح، وهو جد أبي الحسن علي بن عيسى، وكان يكتب للخليفة المستعين بالله (248 ـ 251هـ/ 862 ـ 866م)، وله من الكتب كتاب التاريخ، وأخبار الكتاب، وكتاب الرسائل[789]. ويبدو أن أولاده وأحفاده قد ساروا على سنَّته فأضافوا إلى

---

(786) ينظر: أبو الحسن هلال بن المحسن الصابئ، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1958، ص152، 305، محمد بن عبد الملك الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، منشور ضمن ذيول تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1982، ص267 ـ 268، 274، 295.

(787) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1977، ص512، وينظر أيضاً: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، دار الكتاب العربي، 1931: 12/ 14، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، حيدر آباد الدكن، مطبعة دار المعارف العثمانية، 1357هـ: 6/ 351.

(788) ينظر: الهمذاني، المصدر السابق، ص362. وقد نقل هـ. ف آمدروز هذه الرواية من الهمذاني وضمنها في كتاب الوزراء للصابي: ص395.

(789) محمد بن إسحاق بن النديم، الفهرست، بيروت، دار المعرفة عن طبعة القاهرة، 1348هـ، ص185.

كتاب التاريخ، وقد ضاعت هذه الكتب جميعاً[790]. ونبغ ابنه محمد بن داود بن الجراح أيضاً في مجال الكتابة، فكتب بخطه ما لا يحصى كثرة، وأهم كتبه اثنان، هما: كتاب الورقة في أخبار الشعراء[791]، ويذكر شاكر مصطفى[792] أنه تناول في هذا الكتاب أيضاً أخبار الخلفاء مخصصاً ورقة لكل منهم، وأن مخطوط هذا الكتاب موجود في طهران، ومنه نسخة لدى الشاعر أحمد الصافي النجفي، أما الكتاب الثاني فهو كتاب تاريخي بعنوان كتاب الوزراء[793]، وقد أشار المسعودي[794] إليه باسم أخبار الوزراء، وهو من الكتب المفقودة.

أما مؤلفات الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح، فهي متنوعة، منها دينية، مثل كتابي: جامع الدعاء، ومعاني القرآن وتفسيره، ومنها أدبية، مثل الكتاب الخاص برسائله[795]. أما كتبه التاريخية، فتتمثل في كتاب الكتّاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء[796]. وهو من الكتب الضائعة أيضاً، كما هي حال بقية كتبه الأخرى، وكان عبد الرحمن بن عيسى أخو علي بن عيسى أيضاً من الكتاب المشهورين، فضلاً عن أنه

---

(790) ينظر : شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، 1979 : 1/ 210، 2/ 63.

(791) ابن النديم، المصدر السابق، ص185 ـ 186.

(792) التاريخ العربي والمؤرخون : 2/ 63.

(793) ابن النديم، المصدر السابق، ص186، وينظر أيضاً : ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 89، مصطفى، المرجع السابق: 1/ 313.

(794) أبو الحسن علي بن الحسين، التنبيه والأشراف، عني بتصحيحه ومراجعته عبدالله إسماعيل الصاوي، القاهرة، 1938 (أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست)، ص298.

(795) أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم الأدباء، بيروت، طبعة دار المستشرق (د.ت): 14/ 68.

(796) ابن النديم، المصدر السابق، ص186؛ وينظر أيضاً: مصطفى، المرجع السابق: 1/ 320 ـ 321، 2/ 63 ـ

وزّر للخليفة المتقي بالله (329 ـ 333هـ/ 940 ـ 944م). وله من الكتب، كتاب سيرة أهل الخراج وأخبارهم وأنسابهم في القديم والحديث، وكتاب التاريخ من سنة سبعين ومائتين إلى أيامه، وكتاب الخراج، وكان كبيراً ولم يتمه[797].

وقد استمرت هذه الأسرة في التأليف، فكتب أبو نصر إبراهيم بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الذي وزّر للخليفة المطيع لله (334 ـ 363هـ/ 946 ـ 974م) سنة 347هـ/ 958م[798] كتاباً فيه أخبار وحكايات نقلها عنه بعض المؤلفين وقد وقع الكتاب بيد ابن العديم، ونقل عنه بعض الحديث عن الخليفة المعتضد بالله (279 ـ 289هـ/ 892 ـ 902م)[799]. وكتب أبو القاسم عبدالله بن علي بن محمد بن داود بن الجراح، ويعرف بابن أسماء، وهي أخت علي بن عيسى، كتاباً بعنوان: الاستفادة من التاريخ، وكتاب البيان وتقويم اللسان[800]، وهما أيضاً من الكتب الضائعة، كذلك كان أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح عالماً بعلوم الإسلام، والمنطق، وله مؤلفات لغوية، وقد كتب للخليفة الطائع لله (363 ـ 381هـ/ 974 ـ 991م)[801].

دور أسرة آل الجراح في الإدارة والسياسة:

كتب عميد هذه الأسرة داود بن الجراح للخليفة المستعين بالله، كما

---

(797) ابن النديم، المصدر السابق، ص186، وينظر أيضاً: مصطفى، المرجع السابق: 2/ 64.

(798) ياقوت، معجم الأدباء: 14/ 73.

(799) ينظر، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله المعروف بابن العديم، بغية الطلب، المجلد الأول من مخطوط أحمد الثالث رقم (2925)، الورقة 119 وجه، نقلاً عن: مصطفى، المرجع السابق: 2/ 64.

(800) ابن النديم، المصدر السابق، ص186، وينظر: مصطفى، المرجع السابق :2/ 64.

(801) ينظر: ابن النديم، المصدر السابق، ص186، ياقوت، معجم الأدباء: 14/ 73، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979: 9/ 168.

أسلفنا، كذلك عمل ابنه عيسى بن داود، والد الوزير علي بن عيسى، أيضاً في الكتابة بالدواوين[802]، أما ابنه الآخر محمد بن داود، فقد تقلد مناصب عديدة، منها توليه ديوان المشرق في خلافة المعتضد بالله سنة 286هـ/ 899م[803]، كما تولى الكتابة أيضاً في خلافة المكتفي بالله (289 ـ 295هـ/ 902 ـ 908م). وتقلد بالإضافة إلى دواوين الخراج والضياع بالمشرق، ديوان الجيش أيضاً[804]، وقد كُلِّف محمد بن داود من قِبل الوزير العباس بن الحسن بن أيوب، بصفته متولياً لديوان الجيش بالخروج إلى الكوفة سنة 294هـ/ 906م والمقام بها لإنفاذ الجيوش لمحاربة القرامطة الذين كثر خطرهم وقاموا بمهاجمة قوافل الحُجّاج، فخرج محمد بن داود وحمل معه أموالاً كثيرة لإعطاء الجند وتسييرهم لمجابهة خطر القرامطة[805].

لكن الدور السياسي الكبير الذي قام به محمد بن داود، كان محاولته في تحويل الخلافة بعد وفاة المكتفي بالله من المقتدر بالله إلى عبد الله بن المعتز، فكان على رأس المنفذين لهذه الخطة، بحيث واطأ جماعة من القادة على الفتك بالمقتدر بالله والبيعة لابن المعتز، وقد تراجع الوزير العباس بن الحسن عن هذه الفكرة بعد أن كان مساهماً فيها، فقتله المتآمرون، وخلَّصوا المقتدر بالله، وبايعوا عبدالله بن المعتز ولقبوه الراضي بالله، وقد استوزر ابن المعتز محمد بن داود واستخلفه على

(802) أبو علي المحسن بن علي التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، 1971 ـ 1973: 8/ 53.

(803) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غويه، ليدن، بريل، 1879 ـ 1901: 3/ 2190؛ وينظر: التنوخي، نشوار المحاضرة: 4/ 72، الصابي، الوزراء، ص149.

(804) الطبري، المصدر السابق: 3/ 2273، الصابي، الوزراء، ص109 ـ 110، 390.

(805) الطبري، المصدر السابق: 3/ 2273؛ عريب بن سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، منشور ضمن ذيول تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1982، ص223.

الجيش، وقلد علي بن عيسى الدواوين.

لكن الحركة فشلت وانفضت الجموع التي كان قد جمعها محمد بن داود، بسبب تصدي القائد التركي مؤنس الخادم لهم، فهرب محمد بن داود، ثم عُثر عليه وقُتل سنة 296هـ/ 908م[806]، أما علي بن عيسى، فقد نُفي إلى واسط، ومنها طلب إبعاده إلى مكة، بحيث بقي هناك إلى أن تم استدعاؤه للوزارة[807].

وبرز من أحفاد داود بن الجراح عدة أشخاص كان لهم دور فعال في المجتمع، أبرزهم علي بن عيسى بن داود، الذي سنتحدث عنه لاحقاً بالتفصيل، أما بقية إخوته، فقد أدّوا أدواراً مختلفة، ويأتي في مقدمتهم عبد الرحمن بن عيسى بن داود، الذي اشتهر أيضاً بالكتابة في دواوين الدولة، وقد ضمه إليه أخوه علي بن عيسى في سنة 302هـ/ 914م في أثناء وزارته الأولى وقلده كتابته[808]، ثم وزر عبد الرحمن بن عيسى للخليفة الراضي بالله (322 ـ 329هـ/ 934 ـ 940م) سنة 324هـ/ 935م بمشورة أخيه علي بن عيسى، لكنه طلب إعفاءه من الوزارة حين عجز عن تصريف الأمور، وقُبض عليه وعلى أخيه علي بن عيسى وصُودرا على مبالغ طائلة من المال[809]، وكُلِّف في عهد المتقي بالله أيضاً بالوزارة سنة 329هـ/

(806) ينظر عن الحركة : الطبري، المصدر السابق: 3/ 2281 ـ 2283، عريب، المصدر السابق، ص31 ـ 33، المسعودي، التنبيه والأشراف، ص326 ـ 327، أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه، تجارب الأمم، باعتناء: هـ.ف أمدروز، القاهرة، مطبعة شركة التمدن الصناعية، 1332هـ / 1914م، 1/ 2 ـ 7، 9 ـ 10، الصابي، الوزراء، ص29 ـ 31، الهمذاني، المصدر السابق، ص191 ـ 193، ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 80 ـ 81، ابن الأثير، الكامل : 8/ 14 ـ 17.

(807) ينظر: الصابي، الوزراء، ص29، مسكويه، المصدر السابق: 1/ 8، 13، 26.

Harold Bowen, The life and Times of Ali Ibn Isa, Cambridge, 1927, P. 114.

(808) الهمذاني، المصدر السابق، ص205.

(809) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي لله أو تاريخ الدولة =

940م، لكن أخاه علي بن عيسى أشار عليه بعدم توليها رسمياً والاكتفاء فقط بإدارة الأعمال، بالنظر إلى عدم استقرار الأمور السياسية. وفعلاً لم تستمر إدارته التي ساعده فيها أخوه علي بن عيسى سوى تسعة أيام، بحيث قلد الخليفة المتقي لله الوزارة إلى أبي إسحق محمد بن أحمد بن إبراهيم الإسكافي المعروف بالقراريطي[810].

وقد تقلد إبراهيم بن عيسى بن داود مناصب إدارية رفيعة، منها أعمال الزاب الأعلى نيابة عن أخيه علي بن عيسى، ثم تولاها رئاسة، وذلك في خلافة المعتضد بالله على أيام الوزير عبيد الله بن سليمان. ثم تولى أعمال واسط وبعض مناطق أعمال سواد بغداد، فكشف عن اختلاسات كبيرة لابني الفرات: أحمد بن محمد بن موسى، وعلي بن محمد بن موسى، واستيلائهما على بعض الضياع السلطانية، الأمر الذي أدى إلى انتقام أبي الحسن علي بن الفرات منه حين ولي الوزارة سنة 296هـ/ 908م، فنفاه إلى الصافية، كما نكبه في وزارته الثانية سنة 304هـ/ 916م وصادره. ثم لاحقه في وزارته الثالثة سنة 311هـ/ 923م وطالبه بأموال أخرى، ونفاه إلى البصرة، وقد سُمَّ بواسطة أعوان ابن الفرات وهو في الطريق بواسط[811]. وكان إبراهيم بن عيسى قد تولى ديوان الجيش لأخيه علي بن عيسى سنة 301هـ/ 913[812]، وساهم في بعض الخدمات

= العباسية من سنة 322 ـ 333 هجرية من كتاب الأوراق، عني بنشره : ج. هيورث دن، ط3، بيروت، دار المسيرة، 1983، ص4، 65 ـ 66، 81، المسعودي، التنبيه والأشراف، ص337، مسكويه، المصدر السابق: 1/ 336 ـ 338، الصابي، الوزراء، ص359 ـ 360، الهمداني، المصدر السابق، ص298 ـ 299، ابن الأثير، الكامل :8/ 314 ـ 315.

(810) الصولي، المصدر السابق، ص203 ـ 204، المسعودي، التنبيه والأشراف، ص344، وينظر: ابن النديم، المصدر السابق، ص186، الصابي، الوزراء، ص344.

(811) المصدر نفسه، ص149 ـ 152، عريب، المصدر السابق، ص44.

(812) المصدر نفسه، ص44.

الاقتصادية للدولة، منها عمله في إصلاح أحد البثوق المعروفة باسم أبي الأسود على نهر الملك، وانفق عليه سبعمائة ألف درهم[813].

ومن الذين تقلدوا مناصب إدارية أخرى من هذه الأسرة، محمد بن عيسى بن داود بن الجراح، الذي قلده أخوه علي بن عيسى ديوان الحرم في وزارته الثانية[814]، كما تولى أبو نصر إبراهيم بن علي بن عيسى الوزارة للخليفة المطيع لله في شهر ربيع الأول سنة 347هـ/ 958م[815]، وقد استخلف عيسى بن علي بن عيسى على الحضرة سنة 334هـ/ 945م من قبل أبي القاسم بن أبي عبد الله البريدي، بعد أن تسلم الأخير ضمانة واسط من معز الدولة البويهي وغادر إليها[816]، ثم كتب عيسى بن علي أخيراً للخليفة الطائع لله، وكان محدثاً وعالماً فاضلاً، توفي سنة 391هـ/ 1001م[817].

الوزير علي بن عيسى بن داود الجراح:
حياته العملية ومناصبه الإدارية:

يعدّ علي بن عيسى من أبرز أعضاء أسرة آل الجراح وأكثرهم إسهاماً في مجال الإدارة، فقد خدم الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي نحو سبعين عاماً، كما يشير إلى ذلك ياقوت الحموي[818]، فقد وُلد عام 245هـ/ 859م، وتوفي سنة 334هـ/ 945م أو 335هـ/ 946م، عن عمر يناهز التسعين عاماً[819].

---

(813) الصابي، الوزراء، ص280، ونهر الملك «كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى»، ينظر: ياقوت، معجم البلدان: 5/ 324.

(814) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 152.

(815) ياقوت، معجم الأدباء: 14/ 73.

(816) مسكويه، لا: 2/ 88، ابن الأثير، الكامل: 8/ 465.

(817) ينظر: ياقوت، معجم الأدباء: 14/ 73، ابن الأثير، الكامل: 9/ 168.

(818) معجم الأدباء: 14/ 72.

(819) ينظر: مسكويه، المصدر السابق، 2/ 104، الصابي، الوزراء، ص305، 344، الهمذاني، المصدر السابق، ص359.

ابتدأ علي بن عيسى حياته العملية في تولي شؤون الكتابة في دواوين الدولة، وقد برز بشكل خاص مع عمه محمد بن داود في ديوان الدار الذي كان يديره أحمد بن محمد بن الفرات ساعد الوزير عبيد الله بن سليمان زمن الخليفة المعتضد بالله. ثم تقدم علي بن عيسى وكسب ثقة القاسم بن عبيد الله بن سليمان، الذي انتزع مجلس الغرب من ديوان الدار وقلده لعلي بن عيسى، ليتولى رئاسته، وذلك في حدود سنة 286هـ/ 899م[820]. فاتخذ مدينة الرقة مقراً له لإدارة هذا الديوان[821]، بحيث أبدى كفاءة مشهورة لفتت أنظار الخليفة المكتفي بالله، الذي أراد أن يوليه الوزارة، عملاً بوصية الوزير القاسم بن عبيد الله قبيل وفاته سنة 291هـ/ 903م، لكن علي بن عيسى اعتذر عن المنصب، مؤثراً على نفسه الكاتب العباسي بن الحسن[822].

وتشير بعض المصادر إلى اشتراك علي بن عيسى مع عمه محمد بن داود في محاولة تنصيب عبدالله بن المعتز خليفة بدلاً من المقتدر بالله سنة 296هـ/ 908م[823]، ويبدو أن علي بن عيسى لم يكن متحمساً للحركة، وقد تأخر عن البيعة، ولم يحضر إلا بعد الإلحاح في طلبه. وقد شهد له بذلك الوزير أبو الحسن علي بن الفرات عند المقتدر بالله، مقرراً بأنه لم يدخل في أمر عبدالله بن المعتز، ولا دخل داره وقت البيعة إلا عن ضرورة. ولهذا السبب كانت العقوبة المقررة عليه خفيفة، واقتصرت على

(820) الطبري، تاريخ : 30/ 2190: التنوخي، نشوار المحاضرة : 4/ 72؛ الصابي، الوزراء، ص148 ـ 149.

(821) الطبري، تاريخ : 3/ 2221.

(822) الصابي، الوزراء، ص387 ـ 389.

(823) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص326؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 5؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص193؛ ابن الأثير، الكامل : 8/ 15.

مصادره شكلية، والنفي إلى واسط[824]. وقد طلب علي بن عيسى السماح له بالذهاب إلى مكة ليسلم من الظنون، وينسى الخليفة ذكره، فأجابه الوزير ابن الفرات إلى ذلك[825].

وقد استدعي علي بن عيسى من مكة بعد نحو أربع سنوات لتولي الوزارة في بغداد لأول مرة، فوصلها في المحرم سنة 301هـ/ 913م، بحيث قُلد الوزارة من قبل المقتدر بالله، وذلك بالنظر إلى فساد وزارة أبي علي محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان[826]. وقد استمرت وزارة علي بن عيسى الأولى نحو ثلاث سنوات وأحد عشر شهراً، أُقيل بعدها في سنة 304هـ/ 916م بسبب ضغط الحاشية والحرم على الخليفة لإبعاده عن الوزارة، لأنه وقف ضد امتيازاتهم، وحاول تقليص النفقات التي تصرف عليهم[827]. وقد حُبس علي بن عيسى في قصر الخليفة، وتقلد الوزارة علي بن محمد بن موسى بن الفرات[828].

ولم تطل وزارة ابن الفرات هذه كثيراً نتيجة عجزه عن تلبية طلب الخليفة المقتدر بالله المتزايد إلى المال، وإغراء الحاشية به، ومحاولتهم

---

(824) الصابي، الوزراء، ص29، 154 ـ 155، مسكويه، المصدر السابق: 1/ 8.

(825) الصابي، الوزراء، ص32؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 13؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص193: ابن الأثير، الكامل: 8/ 17 ـ 18؛ وينظر أيضاً: Bowen, Op. Cit., P.114.

(826) الطبري، تاريخ: 3/ 2288، عريب، المصدر السابق، ص43، مسكويه، المصدر السابق، ص43، مسكويه، المصدر السابق، ص43، مسكويه، المصدر السابق : 1/ 26، الصابي، الوزراء، ص305.

(827) المصدر نفسه، ص306 ـ 307؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 39، 40؛ ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 138؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 98، Bowen, Op.cit., P.125 وينظر: حمدان عبد المجيد الكبيسي، عصر الخليفة المقتدر بالله 295 ـ 320هـ/ 907 ـ 932م، النجف، مطبعة النعمان، 1974، ص87، 131؛ فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية 247 ـ 334هـ/ 861 ـ 946م، بغداد، مطبعة دار السلام، 1974، ص95 ـ 96.

(828) ينظر: عريب، المصدر السابق، ص59.

دفع حامد بن العباس، أحد الطامعين بالمنصب، الذي تعهد بأداء مبلغ كبير من المال مقابل وصوله إلى الوزارة[829]. فقُبض على ابن الفرات سنة 306هـ/ 918م، وحُبس، وتقلد حامد بن العباس الذي لم يكن أهلاً للمسؤولية، فاضطر الخليفة والحاشية للاستعانة بعلي بن عيسى، الذي مضى على حبسه نحو ثمانية عشر شهراً. فأخرج عنه وطلب منه مساعدة حامد بن العباس وتولي الدواوين[830]، فأصبح كالنائب له، لكنه كان في الواقع هو الأصل لخبرته وتجربته، فكان اسم الوزارة لحامد وحقيقتها لعلي بن عيسى[831]. فقام بواجبه على أفضل ما يكون، ولم يقبل تولي الوزارة لوحده حين عرض عليه ذلك الخليفة المقتدر بالله سنة 309هـ/ 921م[832]، ما يدل على زهده في المنصب، ذلك الزهد الذي عبَّر عنه في مختلف المناسبات[833].

وفي سنة 311هـ/ 923م أعيد تعيين أبي الحسن علي بن الفرات وزيراً جديداً للمقتدر بالله، وانتهت وزارة حامد بن العباس وعلي بن عيسى المشتركة. وقد زعم ابن الفرات للخليفة أن علي بن عيسى خائن متواطىء

(829) عن تردي أحوال الوزارة في هذا العصر، وإسراف المقتدر بالله في تعيين وعزل الوزراء، ينظر: توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية 132 ـ 447هـ، ط2، الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، 1976، ص157 ـ 158.

(830) عريب، المصدر السابق، ص69، مسكويه، المصدر السابق: 1/ 58، الهمذاني، المصدر السابق، ص213.

(831) ينظر: مسكويه، المصدر السابق: 1/ 59 ـ 60، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (المنسوب)، تحفة الوزراء، تحقيق: حبيب علي الراوي وابتسام مرهون الصفار، بغداد، وزارة الأوقاف، 1977، ص54، الصابي، الوزراء، ص375؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 112؛ محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، القاهرة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، 1962، ص217.

(832) عريب، المصدر السابق، ص78.

(833) الصابي، الوزراء، ص387، 389.

مع القرامطة، فصادره، ثم نفاه إلى مكة، ومنها إلى صنعاء في اليمن[834]. فظل هناك إلى أن قبض على ابن الفرات وابنه المحسن سنة 312هـ/ 924م. فسأل القائد مؤنس المظفر الوزير الجديد، عبد الله بن محمد بن عبيد الله ابن يحيى بن خاقان، أن يأذن لعلي بن عيسى بالرجوع إلى مكة، ففعل، ثم سأل مؤنس الخليفة المقتدر بالله أن يقلده الإشراف على مصر والشام، فوافق على ذلك، وأعلم به ابن عيسى، فتولى أمر المغرب كله[835]. ثم تقلد أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن سليمان الخصيبي الوزارة، لكنه لم يستطع إدارة الأمور، فأشار مؤنس على الخليفة المقتدر بالله باستقدام علي ابن عيسى وردّ الأمور عليه، فأرسل إلى دمشق لإحضاره منها، فقدم بغداد سنة 315هـ/ 927م، واستقبله الناس بسرور بالغ[836].

لكن وزارة علي بن عيسى هذه لم تدم أكثر من سنة وأربعة أشهر، وقد اضطر أن يستعفي من الخليفة بسبب تضاعف النفقات، وميل نصر الحاجب عنه، ومحاولات الحاشية الاتصال بمحمد بن علي بن الحسن المعروف بابن مقلة الذي تعهد بضمانات مالية كبيرة أن أسند إليه منصب الوزارة. وقد تردد المقتدر بالله أول الأمر في إجابة طلب علي بن عيسى، لكنه عزله بعد ذلك في سنة 316هـ/ 928م، وقُبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن، واتُّهم أيضاً بمواطئة القرامطة، ولكن لم تثبت عليه التهمة في هذه المرة أيضاً[837].

---

(834) عريب، المصدر السابق، ص98 ـ 99؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 109، 113؛ ابن الجوزي، المنتظم : 6/ 173؛ Bowen, Op. Cit., P.226

(835) ينظر: عريب، المصدر السابق، ص107؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 141؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص246؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 151.

(836) عريب، المصدر السابق، ص112 ـ 113؛ الصابي، الوزراء، ص335 ـ 336؛ ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 202، 205؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 164؛ Bowen, Op. Cit.,P.250

(837) عريب، المصدر السابق، ص113؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 184 ـ 187، =

وقد تولى علي بن عيسى النظر في المظالم في أثناء وزارة ابن مقلة[838]. وحين أُقيل الأخير من الوزارة عام 318هـ/ 930م، عرض الخليفة المقتدر بالله، المنصب على علي بن عيسى فرفضه، وأشار بتعيين سليمان ابن الحسن، فوافق الخليفة، واشترط على علي بن عيسى أن يشرف على سائر الأمور والأعمال والدواوين، ومعاضدة سليمان بن الحسن بحيث لا ينفرد سليمان باتخاذ القرارات التي يجب أن تكون مقرونة بموافقة علي بن عيسى[839]. كذلك استمر علي بن عيسى في مزاولة هذه المهام جميعاً بما فيها النظر في المظالم في وزارة أبي القاسم عبيد الله بن محمد الكلواذاني سنة 319هـ/ 931م[840]. ولما عُزل الأخير وعُيِّن الحسين بن قاسم في السنة نفسها، اشترط هذا الوزير الجديد على المقتدر بالله عدم اشتراك علي بن عيسى معه في أمور الوزارة، فأجيب إلى ذلك، ولم يكتف بهذا، بل حاول مصادرته، ونفاه إلى الصافية بالقرب من دير قنى[841].

وفي سنة 321هـ/ 933م تولى علي بن عيسى أعمال واسط وسقي الفرات في خلافة القاهر بالله (320 ـ 322هـ/ 932 ـ 934م)[842]. وبعد خلع القاهر بالله ساعد علي بن عيسى وأخوه عبد الرحمن في أخذ البيعة للراضي بالله سنة 322هـ/ 933م. وقد اعتذر علي بن عيسى عن منصب الوزارة الذي عرضه عليه الخليفة الجديد، ورشح لذلك أخاه عبد

= الصابي، الوزراء، ص340، 342؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص256، 257؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 183 ـ 184.

(838) عريب، المصدر السابق، ص13؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص264.

(839) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 205، ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 231، ابن الأثير، الكامل: 8/ 218.

(840) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 212؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 226.

(841) انظر: عريب، المصدر السابق، ص141؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص268؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 232؛ الكبيسي، المرجع السابق، ص218.

(842) الهمذاني، المصدر السابق، ص281؛ الصابي، الوزراء، ص386.

الرحمن[843]. لكن المنصب صار أخيراً من نصيب ابن مقلة الذي عرض تقديم خمسمائة ألف دينار للخليفة. وقد اتهم ابن مقلة علي بن عيسى بمكاتبة الحمدانيين، كما اتهمه الخليفة أيضاً بحيازة بعض المال في أثناء وزارته، الأمر الذي أدى إلى صرفه وأخاه، ومصادرته ونفيه إلى الصافية سنة 323هـ/ 934م[844]. وبعد اضطرابات في بغداد وعدم تمكن الوزير ابن مقلة من دفع أرزاق الجند سنة 324هـ/ 935م، قُبض عليه ونُحّي عن الوزارة، وأُحضر علي بن عيسى، وعُرضت عليه الوزارة، فرفض قبولها وأظهر العجز، وأشار بأخيه عبد الرحمن، الذي تولاها لمدة خمسين يوماً فقط لعجزه عن إدارة دفة الأمور بسبب قلة الأموال، فعُزل وصُودر هو وأخوه علي من قبل الوزير الجديد، أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي[845].

وكانت آخر مناصب علي بن عيسى الإدارية سنة 329هـ/ 940م حيث كُلف بالنظر في ديوان المظالم في خلافة المتقي لله، وإمارة أمير الأمراء بجكم[846]، ثم استدعي في السنة نفسها لتولي الوزارة، فأبى القبول، ونصح أخاه عبد الرحمن أيضاً ـ كما أسلفنا في ترجمته ـ بعدم توليها رسمياً، أو التسمي باسمها، لكنهما وافقا بعد ضغط الخليفة على القيام بتدبير الأعمال لمدة تسعة أيام، ثم تقلد أبو إسحاق محمد القراريطي

---

(843) الصولي، أخبار الراضي بالله، ص4، مسكويه، المصدر السابق: 1/ 290 ـ 292.

(844) الصولي، أخبار الراضي بالله، ص4 ـ 5، 65 ـ 66، مسكويه، المصدر السابق، 322 ـ 325، الهمذاني، المصدر السابق، ص295.

(845) الصولي، أخبار الراضي بالله، ص81، 83، 84؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 336 ـ 338، ابن الجوزي، المنتظم : 6/ 281؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 314 ـ 315، ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص227.

(846) الصابي، الوزراء، ص343، وينظر عن بجكم: تقي الدين عارف الدوري، عصر إمرة الأمراء في العراق 324 ـ 334هـ/ 936 ـ 946م دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، بغداد، مطبعة أسعد، 1975، ص82 ـ 93.

الوزارة، فلزم علي بن عيسى وأخوه عبد الرحمن منزلهما[847].

دور علي بن عيسى في ضبط الإدارة ومعالجة الأوضاع السياسية:

تعدّ الحقبة الزمنية الممتدة من الربع الأخير للقرن الثالث للهجرة حتى نهاية العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع من أكثر الفترات تخبطاً وارتباكاً في مجال الإدارة، وعدم استقرار الأوضاع السياسية في تاريخ الدولة العباسية. وقد تميز عصر الخليفة المقتدر بالله بالذات بقسط وافر من الخلل الذي استشرى في الدولة نتيجة صغر سنه واستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه. يضاف إلى ذلك التبذير والإسراف اللذان رافقا حكمه، ما أدى إلى عجز خزينة الدولة، والحاجة الملحة إلى الأموال، ما قاد إلى الإسراف في تعيين الوزراء وعزلهم ومصادرتهم إذا ما عجزوا عن توفير الأموال[848]. لذلك عمد معظم الوزراء إلى جمع أقصى ما يمكن من أموال بطرق وأساليب غير شرعية في الغالب استعداداً لليوم الأسود الذي يطالبون به بالمصادرة بعد إقالتهم، كما أدى إلى تعيين أشخاص غير أكفاء على الأقاليم والأعمال بهدف تزويد خزينة الدولة بالمال من طريق الضمانات، والتعهد بدفع مبالغ متفق عليها لقاء تولي المنصب، وقد أدى هذا إلى زيادة مدة المنافسة والمساومة، وتدهور الزراعة، وتراجع الجباية، واحتكار الأسواق والمنتجات[849].

في مثل هذا المناخ الإداري الفاسد عمل علي بن عيسى ـ وهو وإن

---

(847) الصولي، أخبار الراضي بالله، ص203 ـ 204؛ مسكويه، المصدر السابق: 2/ 18؛ الصابي، الوزراء، ص334؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص329.

(848) يقارن: ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص211، الكبيسي، المرجع السابق، ص48؛ اليوزبكي، المرجع السابق، ص157 ـ 158؛ فهمي عبد الرزاق سعد، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1982، ص59.

(849) ينظر: عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ص89؛ اليوزبكي، المرجع السابق، ص158.

كان ابن عصره ـ لكنه، بإجماع المصادر المتوافرة، اختلف عن كثير من الوزراء المعاصرين له، حيث تميز بالتعقل، والتدين، والعفة، والبعد عن التبذل والهزل. فحاول جهد إمكانه أن يرتب الدواوين على ما رأى فيه الصلاح والسداد، ولم يكن يرضى بتقليد الأعمال الإدارية في أثناء توليه منصب الوزارة إلا لمن يعتقد منهم الكفاءة(850). ولم يقلد أولاده شيئاً من أعماله في وزارته الأولى سنة 304هـ/ 916م(851)، وحاول رفع المظالم وردَّها، فجلس بنفسه للمظالم كل يوم ثلاثاء(852). كما كتب إلى جميع العمال برفع أنواع الظلم كافة، واستيفاء الخراج على العدل والإنصاف دون محاباة للأقوياء، ولا حيف على الضعفاء. وقد أنذر كل من يعمل على تحقيق أطماع شخصية من طريق أخذ الرشوة بأقصى العقوبات، وأنه لن يتغاضى عن أي تقصير يرتكب في هذا المجال(853). وكان هو نفسه مثالاً نموذجياً لذلك، فقد ردَّ رشوة قدَّمها محمد بن جعفر العبرتائي، متولي أعمال طساسيج طريق خراسان، قيمتها عشرة آلاف دينار، كان محمد هذا يتوخى منها أن يتساهل معه علي بن عيسى فيما ضمنه من أعمال. وقد حاسبه بعد ذلك وألزمه بتسديد خمسين ألف دينار مستحقة لبيت المال، كان يحاول التهريب من دفعها(854).

وأظهر الوزير علي بن عيسى تفهماً واضحاً وسياسة حكيمة إزاء خطر القرامطة في أثناء وزارته الأولى، فقد استشاره الخليفة المقتدر بالله في

(850) التنوخي، نشوار المحاضرة: 1/ 43؛ الصابي، الوزراء، ص306، 350، 352.

(851) المصدر نفسه، ص329.

(852) عريب، المصدر السابق، ص49.

(853) ينظر، مسكويه، المصدر السابق: 1/ 28؛ الصابي، الوزراء، ص363، 364 ـ 365؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص12523 Bowen, Op., Cit., P. .. الكبيسي، المرجع السابق، ص173.

(854) الصابي، الوزراء، ص344 ـ 346.

أمرهم، فأشار بمكاتبتهم وإشغالهم بالمراسلة والطلب إليهم بالدخول في الطاعة. وفعلاً تمَّت الكتابة إليهم سنة 303هـ/ 915م حين كانوا في جنوب العراق بالقرب من البصرة، كما أرسل إليهم الهدايا، وأطلق لهم حرية التسويق بسيراف على الخليج العربي. وكان قصده من ذلك المصلحة العامة، واستعادتهم إلى الطاعة بالرفق والاستمالة. وبالفعل نجحت سياسته هذه في رد خطرهم وإطلاق سراح ثلاثة آلاف أسير كانوا بأيديهم، عاد بهم رسل الوزير إلى بغداد. وقد حاول أعداؤه التشنيع عليه واتهامه بموالاة القرامطة والتآمر معهم. ولكن كما يرى عريب بن سعد[855]، «كان الرجل أرجح عقلاً وأحسن مذهباً من الدخول فيما نسب إليه». وقد حاول أبو الحسن علي بن الفرات عبثاً في أثناء مناظرته له سنة 311هـ/ 923م أن يسجل عليه أنه تواطأ معهم لكنه، كما أسلفنا، لم يوفق في ذلك[856].

ويدل موقف علي بن عيسى إزاء القرامطة في وزارته الثانية، أنه كان لا يتهاون في سبيل مصلحة الدولة والدفاع عن بغداد. فحين اقترب هؤلاء من العاصمة ووصلوا عين التمر، وهددوا الأنبار سنة 315هـ/ 927م، قام الوزير علي بن عيسى باتخاذ إجراءات عديدة كان من نتيجتها تخليص بغداد من خطرهم، فقد استأجر خمسمائة سفينة نهرية، وجعل فيها ألف رجل، وأنفذها مع سفن أخرى من كل الأنواع مشحونة بالرجال المسلحين من فرقة الحجرية المكوَّنة من مماليك الأتراك، لمنع القرامطة من عبور نهر الفرات، كما تقدم إلى القادة العسكريين بالمسير إلى الأنبار وحفظها[857].

(855) صلة تاريخ الطبري، ص7.

(856) ينظر: المصدر نفسه، ص7؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 34 ـ 35، 109، الصابي، الوزراء، ص318 ـ 319؛ ابن الجوزي، المنتظم : 6/ 121 ـ 122.

(857) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 175 ـ 176؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص253.

وقد رتب علي بن عيسى بين بغداد ونهر زبارا، وهو موضع في نواحي الكوفة[858]، المراسلين المكلفين بالكتابة عن أخبار العدو في كل ساعة، وإرسالها على أجنحة الحمام إلى بغداد. وكان عدد هؤلاء، كما يشير مسكويه[859]، مائة رجل مع مائة طير. يضاف إلى ذلك، فقد تقدم بإجراء داخلي القصد منه سلامة مدينة بغداد من العيارين والمتشبهين بالجند الذين كانوا يقومون بمحاولات اعتداء ونهب لممتلكات الناس. فأمر صاحب الشرطة نازوك بالطواف ومواصلة الركوب ليلاً ونهاراً في بغداد، وإباحة دم من يقوم بأعمال النهب والشغب مستغلاً الظروف الحرجة، وتقدُّم القرامطة، فكان ذلك سبباً لسلامة المدينة[860].

كما قام بإجراء آخر على صعيد السياسة العليا فيما يخص هذه الحالة بالذات فبادر إلى الخليفة المقتدر بالله سائلاً إياه دعم الجهود العسكرية بماله الخاص لمواجهة القرامطة. وذلك لعدم توافر الأموال في خزينة الدولة، والطلب إلى والدته للمساهمة في ذلك، وإلا فإن الوضع خطير جداً، ويمكن أن يهدد البلد وسلامة الخليفة شخصياً، وكان من جملة ما قاله له: «إنما جمع الخلفاء المتقدمون الأموال ليقمعوا بها أعداء الدين والخوارج وليحفظوا بها الإسلام والمسلمين... والآن فلم يبق في بيت مال الخاصة شيء كبير فاتق الله يا أمير المؤمنين وتخاطب السيدة فإنها دَيّنة فاضلة فإن كان عندها مال قد دخرته لشدة تلحقها أو تلحق الدولة فهذا وقت إخراجه وإن تكن الأخرى فاخرج أنت وأصحابك إلى أقاصي خراسان فقد صدقتك ونصحتك، فدخل إلى والدته ثم عاد فأخبر أن السيدة استرأته وأمرت بإخراج خمسمائة ألف دينار من مالها إلى بيت مال

(858) ينظر : ياقوت، معجم البلدان: 3/ 129.

(859) تجارب الأمم: 1/ 179.

(860) المصدر نفسه: 1/ 180؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص255.

العامة لينفق في الرجال»[861].

ولم يقتصر موقف الوزير علي بن عيسى في حماية الدولة على اتخاذ القرارات والإجراءات، وإصدار الأوامر فحسب، بل ساهم مساهمة فعلية في صد خطر الأعداء ولاسيما على الجبهة الشمالية ضد البيزنطيين. فقد سار سنة 302هـ/ 914م في ألفي فارس معونة لبشر الخادم والي طرسوس لغزو الصائفة. فلم يتيسر لهم ذلك، فغزوها شاتية في برد شديد وثلج[862]، «وبذلك يكون هو الوزير الوحيد الذي قاد حملة عسكرية خلال عصر المقتدر بالله»[863].

ويبدو أنه كان يولي اهتماماً كبيراً بهذه الجبهة وبالأسرى المسلمين فيها، من ذلك مثلاً، أنه سمع بأن بعض الأسرى المسلمين تُساء معاملتهم لدى البيزنطيين، ويُكرهون على التنصر، فأرسل إلى بطريق أنطاكية، وجاثليق بيت المقدس، وطلب إليهما أن يكتبا إلى إمبراطور البيزنطيين بالكف عن هذه الممارسات، واحترام أسرى المسلمين وتحسين معاملتهم. وقد أفلحت جهوده في هذا المضمار، وفُكَّ التقييد عن الأسرى، وبطل التضييق عليهم بفضله[864]. وفي سنة 331هـ/ 943م، ازدادت غارات البيزنطيين على الثغور الشمالية، وكثر عدد الأسرى المسلمين، فاستغل إمبراطورهم هذه الحالة، وكتب إلى الخليفة المتقي بالله يلتمس منديلاً ببيعة الرها يقال إن النبي عيسى عليه السلام قد مسح به وجهه، وإن أُعطي هذا المنديل أطلق جميع أسرى المسلمين. وقد جمع الخليفة الفقهاء

---

(861) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 180 ـ 181؛ وينظر أيضاً: الهمذاني، المصدر السابق، ص255؛ ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 209.

(862) الطبري، تاريخ : 3/ 2291؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 86.

(863) الكبيسي، المرجع السابق، ص185.

(864) التنوخي، نشوار المحاضرة: 1/ 52 ـ 55؛ الصابي، الوزراء، ص354 ـ 355؛ ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 352 ـ 353.

والقضاة وكبار رجال الدولة، ومنهم علي بن عيسى، للخروج برأي مناسب، وكان رأي بعض الحضور أن إعطاء هذا المنديل فيه إهانة وغضاضة للمسلمين وأنهم أحق به، فقال علي بن عيسى: «خلاص المسلمين من الأسر أحق»، فأمر المتقي بتسليم المنديل، وأُطلق الأسرى[865].

وهكذا كانت المواقف السياسية لعلي بن عيسى تتسم بالصدق والجرأة والصرامة، ولهذا كان رأيه دائماً يؤخذ في الاعتبار، حتى في الأحوال التي يكون فيها خارج السلطة. فقد استشير فيمن يصلح للوزارة سنة 306هـ/ 918م، بعد قرار المقتدر بالله استبدال الوزير أبي الحسن علي بن الفرات، وكان علي بن عيسى في سجن المقتدر بالله، فجاءته رقعة فيها أسماء مجموعة من الرجال ليقول رأيه فيهم وهل يصلحون للوزارة أم لا؟ فكانت توقيعاته إزاء كل اسم من الأسماء تتسم بالنزاهة والواقعية والصراحة. من ذلك مثلاً أنه كتب أمام اسم أخيه إبراهيم بن عيسى: «شَره لا يصلح»، وأمام ابن بسطام: «كاتب سفاك للدماء»، وأمام ابن أبي البغل: «ظالم لا دين له»، وأمام حامد بن العباس: «عامل موسر عفيف قد كبر»، وأمام الحسين بن أحمد الماذرائي: «لا علم لي به، وقد كفى ما في ناحيته»، وأمام أحمد بن عبيد الله بن خاقان: «أحمق متهوّر»، وأمام سليمان بن الحسن بن مخلد: «كاتب حدث»، وأمام ابن أبي الحواري: «لا إله إلا الله»[866]، وتدل هذه التوقيعات على نزاهة علي ابن عيسى وقوله الحق حتى ولو كان على أخيه، إذا ما تعلق الأمر بتولي

---

(865) المصدر نفسه: 6/ 331؛ ماري بن سليمان؛ أخبار بطارقة كرسي المشرق من كتاب المجدل، طبع رومية الكبرى، 1899، ص2 ـ 3؛ غريغريوس بن هارون الملطي المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1958، ص165؛ وينظر أيضاً: الدوري، عصر إمرة الأمراء، ص374.

(866) عريب، المصدر السابق، ص68.

مصلحة عامة من مصالح المسلمين. وموقف علي بن عيسى هذا شبيه بموقفه حين استشاره الوزير العباس بن الحسن فيمن يقلده الخلافة بعد وفاة المكتفي بالله سنة 295هت / 907م، فرفض أن يسمّي له أحداً وقال: «أنا لا أشير بأحد ولكن ينبغي أن يتقى الله وينظر للدين»[867].

وظل علي بن عيسى موضع احترام وتقدير، مسموع النصيحة والرأي حتى آخر أيام حياته، بحيث تشير بعض الروايات إلى مقابلته لمعز الدولة البويهي سنة 334هـ/ 945م، وهي السنة التي توفي فيها الوزير علي بن عيسى على الأغلب، فاستقبله استقبالاً يليق به قائلاً: «كنا نسمع بك، فيعظم عندنا أمرك، ويكثر في نفوسنا ذكراك، وقد شاهدت منك الآن ما كنت مؤثراً وإليه متطلعاً، والدنيا خراب، والأمور على ما تراه من الانتشار، فأشر علي بما عندك في إصلاح ذلك. . .» فأجابه علي بن عيسى جواباً حكيماً أكبر فيه نيته للإصلاح معتبراً إياها بادرة خير لكل نجاح، وطريقاً للإعمار واستقامة الجند والرعية والعدل، وأشار عليه أن يبدأ بإصلاح سدود الري، وسد البثوق التي هي أصل الفساد وخراب السواد، فوعده معز الدولة بالعمل على ذلك[868].

إسهاماته في حل المشكلات الاقتصادية:

تفاقمت في عهد الخليفة المقتدر بالله الأزمة المالية بشكل كبير جداً، ويعود السبب في ذلك إلى عدة عوامل منها كثرة إنفاق الخليفة وتبذيره. يذكر مسكويه[869]، بالاستناد إلى ما أثبته بعض كتّاب أبي الحسن

---

(867) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 3.

(868) الهمذاني، المصدر السابق، ص359 ـ 362؛ وقد نقلها هـ .ف آمدروز وأثبتها في كتاب الوزراء للصابي، ص392 ـ 396.

(869) تجارب الأمم :1/ 238 ـ 241.

علي بن محمد بن الفرات لما كان وزيراً للمقتدر، أن واردات بيت المال الخاص (أي بيت مال الخليفة) خلال مدة حكم المقتدر بالله البالغة نحو خمسة وعشرين عاماً، كانت تسعة وثمانين مليوناً وثمانية وثلاثين ألف دينار. صرف المقتدر بالله نحو سبعة عشر مليون دينار منها في وجوه رسمية، في حين أنه أتلف الباقي وبذّره على نفقات البلاط، وهو يزيد على سبعين مليوناً من الدنانير. وهكذا بلغت نفقات البلاط في عهده نحو مليونين وثمانمئة وثمانين ألف دينار سنوياً، أو ما يعادل مئتين وأربعين ألف دينار في الشهر[870]. وبالإضافة إلى هذا، فقد ازداد العجز في الميزانية نتيجة إسراف بعض الوزراء وتلاعبهم بالأموال العامة، كما حدث في وزارة ابن الفرات الأولى المنتهية في سنة 299هـ/ 911م، ووزارة الخاقاني الذي أعقبه. وتناقصت أموال الخزينة أيضاً بسبب الحروب والفتن الداخلية، وإهمال الأراضي الشاسعة التي ظلت بوراً بدون استثمار[871].

وقد حاول علي بن عيسى بعد توليه الوزارة الأولى سنة 301هـ/ 913م بما أوتي من دراية وحنكة في أمور المال أن يصلح بعض شؤون الدولة ويقلص النفقات، ويبطل السنن الجائرة، والضرائب غير الشرعية الثقيلة. فأبطل المكس بمكة، وجباية الخمور بديار ربيعة، وألغى ضريبة التكملة بفارس وسوق بحر الأحواز، وهي الضريبة التي فرضت عندما سيطر الصفاريون على المنطقة، وفرّ منها بعض أهل الخراج، فأخذوا يكملون ما نقص من الباقين. ولما أعيدت المنطقة إلى سيطرة الخلافة سنة 298هـ/ 910م بقيت هذه الضريبة التي استعمل العمال العسف في استحصالها، إلى

(870) يقارن: عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط2، بيروت، دار المشرق، 1974، ص252؛ عبد الواحد ذنون طه، «ثروة الخلفاء والضياع السلطانية في العصر العباسي 132 ـ 334هـ». مجلة التربية والعلم، العدد 3، الموصل، 1981، ص125 ـ 126.

(871) ينظر: الكبيسي، المرجع السابق، ص173.

أن تم إلغاؤها في عهد علي بن عيسى نتيجة تظلم الفلاحين سنة 303هـ/915م، واستبدلت بها ضريبة الخراج على الشجر في السنة نفسها[872].

وكان يرتفع من هذه الضرائب غير الشرعية نحو خمسمائة ألف دينار في السنة، ولكنه ضحى بهذا المبلغ في سبيل إحقاق الحق والعدل، وتخليص الخليفة من الأوزار التي تلحقه من جراء استمرار الظلم[873]. كذلك منع استخدام القوة والعنف في استحصال مال الخراج، وقد كتب إلى عامل بادوريا بالجانب الغربي من بغداد[874]، ردّاً على طلبه في إكراه أهل المنطقة على دفع ما ترتب عليهم من خراج، وما أضيف إليه من مظالم متبقية عليهم، فقال: «الخراج ـ عافاك الله ـ دين لا يجب فيه غير الملازمة فلا تتعد ذلك إلى غيره». فاضطر العامل إلى أخذ البقايا الصحيحة فقط، فخفف ذلك على أهل بادوريا، وزاد ارتفاع الحاصلات في المنطقة في السنة التالية إلى نسبة «اثنين في كل عشرة»[875].

وشدد علي بن عيسى أيضاً على ضبط مساحة أراضي الخراج، وعدم الزيادة على الناس، وعندما اشتكى إليه أحد فلاّحي منطقة النهروانات،

---

(872) التنوخي، نشوار المحاضرة: 8/ 120 ـ 128؛ مسكويه، المصدر السابق: 1/ 27 ـ 28؛ الصابي، الوزراء، ص310، 311، 366 ـ 372؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص203؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 68.

(873) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 29؛ الصابي، الوزراء، ص349؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص203؛ وينظر: Bowen, Op. Cit., PP. 128, 135, 150, 164, 183

(874) عرّف ياقوت بادوريا على أنها طسوج من كورة الأستان في الجانب الغربي من بغداد، وهو على أيامه محسوب من كورة نهر عيسى بن علي، وتعود معظم أراضيها وضياعها إلى الأمراء والوزراء والكتاب والقادة والأشراف، ينظر: معجم البلدان: 1/ 317.

(875) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 31؛ الصابي، الوزراء، ص373 ـ 374؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص203؛ وينظر أيضاً: آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط4، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1967: 1/ 249.

وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط[876]، بأن مسّاحي المنطقة قد زادوا عليه مساحة أرضه، أرسل فوجاً من مسّاحي بادوريا للتحقيق وإعادة مسح الأراضي، فوجدوا أن مساحتها واحد وعشرون جريباً وقفيزاً، في حين كان المساحون السابقون قد كالوها على أنها اثنان وعشرون جريباً[877]. فأرسل علي بن عيسى كتاباً شديداً إلى مسؤولي المنطقة يهددهم فيها بعدم تكرار ما وقع قائلاً: «والله لئن عادت ظلامة أو تُحيف أحد من الرعية في معاملة أو مساحة لأقابلن على ذلك أشد مقابلة. . .»، فتحرزوا وحرسوا الناس وأنفسهم، فزادت واردات المنطقة في السنة التالية «ثلاثة في كل عشرة لأن العدل شاع، والحيف زال، فتوافرت العمارة»[878].

ومن جهة أخرى، شدد علي بن عيسى على النفقات، وأسقط الزيادات التي كان سلفه الوزير الخاقاني قد أضافها إلى أرزاق أولاد قرابة الخليفة، والحرم، والحواشي، والخدم، والفرسان، وسائر أصناف الجند، والقادة، والكتّاب، والمتصرفين، وكانت كثيرة[879]. وأخذ من واردات الضياع السلطانية، والإقطاع ليتم به العجز، حتى اعتدلت الحال دون أن يمد يده إلى بيت مال الخاصة. كذلك لم يطالب العمال بمبالغ إضافية من المرافق، كما كان يفعل ابن الفرات قبله، الذي كان يحملهم على دفع نحو خمسة وأربعين ألف دينار شهرياً. وقد وفرها علي بن عيسى عليهم، وعدَّ أخذها طريقاً إلى الضياع والتفريط بالحقوق، وخراب البلاد وظلم

---

(876) ياقوت، معجم البلدان: 5/ 325.

(877) الجريب كمقياس للأرض يساوي 1592متراً مربعاً، أما القفيز فهو 1/10 من الجريب، أو 2.159 متر مربع، فمقدار الزيادة في الحالة أعلاه هي تسعة أقفزة، أي 8.1432 أمتار مربعة، ينظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، 1970، ص96، 98.

(878) ينظر: مسكويه، المصدر السابق: 1/ 29 ـ 30، الصابي، الوزراء، ص372 ـ 373.

(879) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 29؛ الصابي، الوزراء، ص306، 316؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 68.

الرعية. كما استرجع الضياع السلطانية التي سيطر عليها ابن الفرات وأبو علي الخاقاني في أثناء وزارتيهما[880]. ونظر في كل ما يمكن أن يوفر مالاً للخزينة مهما كان ضئيلاً، حتى إنه كان يحاسب المسؤول عن تسلُّم الشعير الخاص بحيوانات دار الخلافة، وما يتبقى منه في أسافل الزوارق من الرطب والمتعفن الذي يباع بثمن بخس، ويحسب الفرق بينه وبين الجيد[881]. وعندما علم من الخليفة المقتدر بالله أنه لا يستخدم المسك في طعامه إلا نادراً، حاول إسقاط المبلغ المخصص لهذه المادة، وهو ثلاثمائة دينار في الشهر، من مطبخ دار الخلافة، لولا تدخل الخليفة واعتقاده بأن المبلغ ربما يذهب في أقوات ونفقات أقوام ليس من الإحسان قطعها عنهم[882]. وتشدد مع كل من يأخذ مالاً من خزينة الدولة دون مقابل، فأغلظ لأحمد بن العباس أخي القهرمانة أم موسى، على ارتزاقه سبعة آلاف دينار في كل شهر، وحاول معاقبته لولا تدخُّل أم موسى التي أنقذته[883].

ويعود إلى علي بن عيسى الفضل في إنشاء أول مصرف رسمي للدولة في مواجهة الظروف المالية الحرجة التي أحاطت بوزارته الأولى. فقد كلف اثنين من الجهابذة اليهود[884]، هما: هارون عمران، ويوسف بن فنحاس، بتأسيس المصرف ومساعدة الدولة، وقال لهما: «إني أحتاج في

---

(880) الصابي، الوزراء، ص306.

(881) المصدر نفسه، ص378 ـ 379.

(882) أبو الحسن هلال بن المحسن الصابي، رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد، بغداد، مطبعة العاني، 1964، ص28؛ وينظر أيضاً: Bowen , Op. Cit., P. 135. الكبيسي، المرجع السابق، ص55.

(883) عريب، المصدر السابق، ص57؛ وانظر عن أم موسى : الكبيسي، المرجع السابق، ص85 ـ 90.

(884) الجهابذة: ومفردها جهبذ، بالأصل من التجار، أو هم أصحاب البيوتات المالية أو الصرافين، ينظر : الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص155 فما بعدها.

مستهل كل هلال إلى مال أدفعه في ستة أيام من ذلك الشهر إلى الرجالة ومبلغه ثلاثون ألف دينار، وربما لم يتجه لي في أول يوم من الشهر ولا الثاني، وأريد أن تسلفاني في أول كل شهر مائة وخمسين ألف درهم، وترتجعانها من مال الأحواز في مدة الشهر، فإن جهبذة الأحواز إليكما، فيكون هذا المال سلفاً لكما أبداً، واقفاً...»[885]. وكان علي بن عيسى إذا حل المال وليس لديه وجه للإنفاق يُقرض التجار في بغداد على سفاتج[886]، وردت من الأطراف لم تحل بعد، أي لم يحل ميعاد دفعها، فكان يربح في كل عشرة آلاف دينار ألفين وخمسمائة درهم في كل شهر لحساب بيت المال، وظل هذا الرسم جارياً على يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران ومن قام مقامهما مدة ستة عشر عاماً[887]. وكانت مهمة المصرف الرئيسية تسليف الدولة ما تحتاج إليه من النقود، مع الاعتماد على واردات الأحواز كضمان[888].

ولأجل التوصل إلى فهم أفضل للأحوال المالية للدولة، قام علي بن عيسى في أثناء إدارته المشتركة مع حامد بن العباس سنة 306هـ/ 918م، بإعداد جريدة مفصلة بواردات الدولة ونفقاتها، وقد استثنى منها الحرمين، واليمن، وبرقة، وشهرزور، والصامغان، وكرمان، وخراسان، فكانت الواردات تقدر بـ 840.829.14 ديناراً. لكن الصادرات، أو (الخرج) كانت

---

(885) التنوخي، نشوار المحاضرة: 8/ 41، وورد النص أيضاً باختلاف بالألفاظ عند : الصابي، الوزراء، ص92 ـ 93.

(886) السفاتج: ومفردها سفتجة، هي أهم أداة للمعاملات المستندة إلى الائتمان، شاع استعمالها في القرن الرابع الهجري حيث صارت عاملاً مهماً في الحياة الاقتصادية، وقد استعملت في مجالات شتى، منها تسوية الديون في المعاملات التجارية، وكصكوك مسافرين، وأخيراً يمكن أن تعد السفتجة بمثابة الكمبيالة في الوقت الحاضر في مبناها واستعمالها، ينظر: الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص168 ـ 169.

(887) التنوخي، نشوار المحاضرة: 8/ 41 ـ 42؛ الصابي، الوزراء، ص93.

(888) ينظر: الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص161.

تزيد عليها بمقدار 476.436.1 درهماً[889]، الأمر الذي تطلب المزيد من الاقتصاد في النفقات. وقد طبَّق علي بن عيسى هذه السياسة مرة أخرى حين تقلد وزارته الثانية سنة 315هـ/ 927م. فأسقط كثيراً من الزيادات والأرزاق التي كان يأخذها الكتَّاب والحاشية[890]، واقتصر في أرزاق العمال على عشرة أشهر في كل سنة، أما أصحاب البرود والمنتفعين فاقتصرت أرزاقهم على ثمانية أشهر في السنة. وحط من أرزاق الرجالة والفرسان وجميع من كان يرتزق بهذين الرسمين من الكتَّاب والتجار، ومن لا يحمل السلاح. كما أسقط أرزاق أولاد المرتزقة الذين في المهود، وحط من مال الخدم والحشم وجميع الجلساء والندماء والمغنين وأصحاب الشفاعات، وأنقص أرزاق الغلمان إلى عشرة أشهر في السنة. ولازم النظر بنفسه ليلاً ونهاراً حتى استقامت الأمور وتوازن الدخل والخرج، أي الواردات والصادرات[891].

ومن جملة الإجراءات الأخرى التي اتَّبعها لزيادة الواردات، المطالبة بأموال المصادرات والضمانات التي كان قد ضمنها المصادرون. وكذلك المطالبة بأموال الصدقات بفارس وكرمان، والخراج بفارس، يضاف إليها ضمانات النهروان، وطساسيج طريق خراسان، وموات جلولاء، ونهر بوق، والزاب الأسفل، وأعمال فارس وكرمان وأصبهان[892]. كما ألزم موظفيه في بيت المال أن يقدموا تقريراً حسابياً في كل أسبوع بدلاً من التقرير الشهري المعروف باسم (الروزنامجات) الذي كان معمولاً به سابقاً

---

(889) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص22 ـ 27.

(890) عريب، المصدر السابق، ص114.

(891) ينظر : مسكويه، المصدر السابق: 1/ 152؛ الصابي، الوزراء، ص340؛ ابن الأثير، الكامل: 8/ 164 ـ 165.

(892) التنوخي، نشوار المحاضرة: 8/ 10 ـ 11؛ الصابي، الوزراء، ص337 ـ 338، 365 ـ 366.

ليتعجل الوقوف على المصروفات وما تبقى في بيت المال[893]. كما قام أيضاً، ولاسيما في أثناء إدارته المشتركة مع سليمان بن الحسن بن مخلد سنة 318هـ/ 930م ببيع الضياع السلطانية لسد العجز في ميزانية الدولة[894].

دوره في خدمة المجتمع وقيادته:

كان علي بن عيسى يعدُّ من كبار الأغنياء في بغداد، فقد كانت له ضياع في ديار ربيعة، والموصل، والشام والسواد[895]، تدرُّ عليه مبالغ طائلة من المال تقدر بأكثر من ثمانين ألف دينار في السنة. لكنه كان ينفق أكثر من نصفها في أبواب البر، وسبل الخير، وتفقُّد الطالبيين، والعباسيين، والأنصار، وأولاد المهاجرين، ومصالح الحرمين، ويبقي الباقي لنفقات منزله، وهو نحو ثلاثين ألف دينار[896]. وقد عُرف بعفته وتنزهه عن طلب الأموال[897]، وكراهيته للبذخ والإسراف[898]. لهذا فقد اقتنع بما كانت تدرُّ عليه ضياعه من مال، حتى إنه في أيام توليه الوزارة، كان يرفض أخذ الإقطاع المخصص لضياع الوزراء، وهو مائة وسبعون ألف دينار، فضلاً عن رفضه رزق الوزارة، أو راتبها البالغ سبعة آلاف دينار في الشهر. وقد كتب إلى الخليفة المقتدر بهذا المعنى معتذراً عن أخذ إقطاع الوزارة ورزقها قائلاً بأن ضيعته تكفيه، وأنه لا يقبض رزقاً لهذه

(893) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 151 ـ 152؛ وينظر الكبيسي، المرجع السابق، ص218 ـ 219.

(894) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 205؛ وينظر Bowen, Op. Cit., P. 299؛ طه، ثروة الخلفاء والضياع السلطانية، ص133.

(895) الصابي، الوزراء، ص330.

(896) المصدر نفسه، ص348 ـ 349؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص363؛ ياقوت، معجم الأدباء: 14/ 69.

(897) ينظر: الهمذاني، المصدر السابق، ص250؛ ياقوت، معجم الأدباء: 14/ 69.

(898) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص10.

الخدمة لأن مذهبه هو ترك التنعم، فشكره الخليفة على ذلك[899]. ويبدو أن علي بن عيسى قد توخى من هذا الإجراء الاقتصاد في النفقات، ضارباً أروع الأمثلة في نكران الذات. وربما كان يهدف من وراء ذلك أيضاً أن يكون قدوة حسنة لبقية الموظفين الجشعين والوزراء الطامعين في الحكم، علّهم يخففوا من شدة جشعهم وطمعهم في نهب أموال الدولة والناس[900].

ومن آثاره أيضاً رفضه القيام بعمل مسناة لداره على دجلة أسوة ببقية الدور المجاورة، رغم إلحاح أخيه إبراهيم بن علي، وقيامه بدلاً من ذلك بتخصيص المبلغ اللازم، وهو نحو مائة ألف درهم، للصرف على فقراء المسلمين، وآل الرسول عليه الصلاة والسلام[901]. وعندما ندم الخليفة المقتدر بالله على مصادرته لعلي بن عيسى بعد وزارته الأولى، بالنظر إلى ما شاهده من إخلاصه واجتهاده فيما بعد عند توليه الوزارة الثانية سنة 315هـ/ 927م، أمر بأن ترد عليه الأموال التي أُخذت منه، فاشترى علي بن عيسى بالمال ضياعاً، وضمّها إلى الضياع التي كانت موقوفة على أهل مكة والمدينة[902]. وكان علي بن عيسى قد أشار على الخليفة المقتدر بالله في وزارته الأولى بوقف المستغلات في مدينة السلام، وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار، والضياع الموروثة الجارية في ديوان الخاصة، ودخلها أكثر من ثمانين ألف دينار، على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وعلى الثغور، فقبل الخليفة برأيه، وأشهد بذلك القضاة والشهود على نفسه،

---

(899) مسكويه، المصدر السابق: 1/ 159؛ الهمذاني، المصدر السابق، ص251؛ ويقارن الصابي، الوزراء، ص306، 311.

(900) يقارن : الكبيسي، المرجع السابق، ص219 ـ 220.

(901) الصابي، الوزراء، ص311 ـ 312؛ ويقارن: ياقوت، معجم الأدباء : 14/ 71.

(902) عريب، المصدر السابق، ص114.

واستحدث علي بن عيسى ديواناً لهذه الوقوف سمّي بديوان البر[903].

ولم يكتف بهذا، بل استفاد من إقامته بمكة بعد إبعاده عن بغداد إثر فشل حركة ابن المعتز، وذلك بالاطلاع على بعض مشاكل هذه المدينة وما تعانيه من نقص في المياه، وكيف كانت السلطات تسخّر حيوانات الناس لنقل المياه من جدة إليها. فلما تولى الوزارة الأولى، اشترى عدداً كبيراً من الجمال والحمير، ووقفها على حمل الماء، ورتب لها الخدم المسؤولين عنها، ومنع السخرة وحظرها. يضاف إلى ذلك، أنه حفر بئراً واسعة في منطقة الخياطين بمكة، فخرجت عذبة، وسمّيت بالجراحية نسبة إليه. كما اشترى عيناً أخرى غزيرة المياه بألف دينار، وفتحها ووسعها حتى كثر ماؤها، فازداد الماء في مكة، ووصل إلى من يحتاج إليه من الضعفاء والمساكين[904]،

واهتم علي بن عيسى بعمارة المساجد والجوامع وتبييضها وفرشها بالحُصُر وإشعال الأضواء فيها، وأجرى للائمة والقراء والمؤذنين أرزاقاً[905]. كما اهتم أيضاً بالأمور الصحية التي تعد من مآثره القيمة في مجال خدمة المجتمع، فقد اتخذ في سنة 302هـ/ 914م مارستاناً في محلة الحربية المشهورة ببغداد قرب باب حرب، وانفق عليه من ماله الخاص، وقلّد أمره طبيبه عثمان بن سعيد بن يعقوب الدمشقي[906]. وربما كان

(903) الصابي، الوزراء، ص310 ـ 311؛ ياقوت، معجم الأدباء: 14/ 70؛ أبو المعالي المؤيد بن محمد الجاجرمي، نكت الوزراء، دراسة وتحقيق: نبيلة عبد المنعم داود، بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، 1984، ص77؛ ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص216.

(904) الصابي، الوزراء، ص311؛ وينظر .Bowen, Op. Cit., P.128

(905) ابن الأثير، الكامل : 8/ 68 ـ 69؛ وينظر أيضاً: الهمذاني، المصدر السابق، ص203.

(906) أحمد بن خليفة بن يوسف السعدي المعروف بابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1965، ص316؛ ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 128.

السبب في إنشاء هذا المارستان هو كثرة الأمراض والعلل في بغداد في السنة السابقة، أي 301هـ/ 913م، ولاسيما في منطقة الحربية وأهل الأرباض[907]، الأمر الذي استدعى ذلك الإجراء من الوزير علي بن عيسى.

كما أوعز في أيام وزارته المشتركة مع حامد بن العباس إلى الطبيب سنان بن ثابت، الذي كان يتقلد آنذاك البيمارستانات في بغداد، بتخصيص أطباء لزيارة السجناء ومعالجة المرضى منهم، فكتب إليه توقيعاً يقول فيه: «فكرت ـ أمد الله في عمرك ـ في أمر الحبوس وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم، أن تنالهم الأمراض... فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون المرضى ويزيحون عللهم فيما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة...»[908]. كذلك أمر بإنفاذ الأطباء إلى القرى والأرياف، ولاسيما إلى قرى السواد، فكتب أيضاً إلى سنان بن ثابت بذلك لتخصيص الأطباء الذين ينتقلون في أصقاعه ويعالجون المرضى فيه من المسلمين والذميين[909].

وكان لعلي بن عيسى دور واضح في مقاومة الاختلافات والتحزب والعصبية، وكل ما يؤدي إلى انقسام المجتمع. فقد أمر بهدم مسجد للحنابلة جُعل وسيلة للمشاغبة والفتنة، ووقع على الأمر الخاص بذلك

---

(907) الطبري، تاريخ: 3/ 2291.

(908) ابن أبي أُصيبعة، المصدر السابق، ص301؛ جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع (د. ت)، ص132.

(909) ابن أبي أُصيبعة، المصدر السابق، ص301؛ القفطي، المصدر السابق، ص132؛ متز، المرجع السابق: 1/ 92؛ Bowen, Op., cit., P.183؛ الكبيسي، المرجع السابق، ص175 ـ 177.

قائلاً: «أحق بناء بهدم، وتعفية رسم، بناءٌ أسس على غير تقوى من الله، فليحلق بقواعده إن شاء الله»[910]. وعندما سمع بوقوع فتن وحروب أهلية بين عشائر البلالية والسعدية في البصرة، كتب إليهما في ذلك كتاباً بليغاً ينهاهم فيه عن العصبية، ويعرفهم سوء عاقبتها[911]. وساهم أيضاً في الفصل بين الخلافات المذهبية التي تقع حتى بين أهل الذمة، فقد ورد ما يشير إلى عقد مجالس خاصة في داره يحضرها أهل العلم والقضاة والوزراء للفصل في ذلك[912].

وأخيراً يمكن القول إن علي بن عيسى كان لا يتوانى عن تقديم خدماته للمجتمع، سواء كان في السلطة أم خارجها، وله إسهامات مشهودة في مساعدة الناس الفقراء على كل الصعد. فقام في سنة 329هـ/940م، عندما كثر الموتى في بغداد نتيجة الغلاء بتكفين الفقراء والغرباء على باب داره، وعندما نَفَد ما عنده من مال لذلك استدان، ولم يتوقف عن تلك المهمة الخيرية[913]. وكان أيضاً يساعد التجار الذين يصابون بأزمات مالية، أو يتعرضون إلى إفلاس مفاجئ[914]. يضاف إلى ذلك تواضعه الذي حببه إلى عامة الناس، فكان لا يتحرج من مخالطة الطبقات الفقيرة، بحيث ورد ما يشير إلى اختلاطه بهم، وتأديته الصلاة مع الملاّحين في دجلة[915]، ما يدل على تعاطفه مع هذه الفئة من العاملين.

---

(910) الصابي، الوزراء، ص362.

(911) عريب، المصدر السابق، ص131 (برواية الصولي).

(912) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص98، والمسألة المطروحة كانت خاصة بإثنين من كبار رجال اليهود في بغداد.

(913) الهمذاني، المصدر السابق، ص325؛ ياقوت، معجم الأدباء: 14/ 72.

(914) القاضي أبو علي الحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، 1978: 2/ 276 ـ 278؛ نشوار المحاضرة: 2/ 243 ـ 245؛ الصابي، الوزراء، ص360 ـ 361، ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 354.

(915) الصابي، الوزراء، ص134؛ وينظر: سعد، المرجع السابق، ص134.

كذلك كان يحسن التصرف مع الذين يعملون معه ويداريهم، ويحاول كسب مودتهم واحترامهم، ومساعدتهم ما أمكنه ذلك[916]. وهكذا كانت إسهاماته واضحة في مجال خدمة المجتمع، ودوره بارزاً في فائدة الناس، الأمر الذي حببه إلى عامة المجتمع، فساندوه، وحاولوا حمايته من بعض رجال السلطة في القصر والجيش، الذين استاؤوا من إجراءاته الاقتصادية الهادفة إلى الحد من الإسراف في النفقات.

(916) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص10.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية

* ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/ 1233م).

1 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979.

* ابن أبي أصيبعة، أحمد بن خليفة بن يونس السعدي (ت668هـ/ 1269م).

2 ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1965.

* التنوخي، القاضي أبي علي المحسن بن علي (ت384هـ/ 994م).

3 ـ الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، 1978.

4 ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، 1971 ـ 1973.

* الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، المنسوب، (ت429هـ/ 1037م).

5 ـ تحفة الوزراء، تحقيق: حبيب علي الراوي وابتسام مرهون الصفار، بغداد، وزارة الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي، 1977.

* الجاجرمي أبو المعالي المؤيد بن محمد ،(أوائل القرن السابق الهجري/ الثالث عشر الميلادي).

6 ـ نكت الوزراء، تحقيق: نبيلة عبد المنعم داود، بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، 1984.

* ابن الجوزي أبوالفرج عبد الرحمن علي بن محمد بن علي (ت597هـ/ 1200م).

7 ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، حيدر أباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1357هـ.

* ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ/ 1063م).

8 ـ جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1977.

* الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت463هـ/ 1075م).
9 ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، دار الكتاب، للربي، 1931.
* سليمان، ماري بن سليمان (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي).
10 ـ أخبار بطارقة كرسي المشرق من كتاب المجدل، روما، 1899.
* الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن الصابي (ت448هـ/ 1056م).
11 ـ رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد، بغداد، مطبعة العاني، 1964.
12 ـ الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1958.
* الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت335هـ/ 946م).
13 ـ أخبار الراضي بالله والمتقي لله أو تاريخ الدولة العباسية من سنة 322 ـ 333 هجرية، من كتاب الأوراق، عني بنشره: ج هيورث، دت، ط3، بيروت، دار المسيرة، 1983.
* ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت709هـ/ 1309م).
14 ـ الفخري في الآداب السلطانية، القاهرة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، 1962.
* ابن العبري، غريغوريوس بن هارون الملطي (ت685هـ/ 1286م).
15 ـ تاريخ مختصر الدول، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1958.
* عريب، عريب بن سعد القرطبي (ت366هـ/ 976م).
16 ـ صلة تاريخ الطبري، منشور ضمن ذيول تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، م11، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1982.
* القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف القفطي (ت646هـ/ 1248م).
17 ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء، بيروت، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت).
* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ/ 957م).
18 ـ التنبيه والأشراف، تصحيح ومراجعة، عبد الله إسماعيل الصاوي،القاهرة، 1938، أعادت طبعه بالأوفست، مكتبة المثنى ببغداد.
* مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت421هـ/ 1049م).
* تجارب الأمم، باعتناء، هـ.ف آمدروز، القاهرة، مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر، 1332هـ/ 1914م.
* ابن النديم، محمد بن إسحق (ت383هـ/ 993م).

20 ـ الفهرست، بيروت، دار المعرفة عن طبعة القاهرة، 1348هـ.

* الهمذاني، محمد بن عبد الملك (ت521هـ/ 11227م).

21 ـ تكملة تاريخ الطبري، منشور ضمن ذيول تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، م11 ط2، القاهرة، دار المعارف، 1982.

* ياقوت، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ/ 1229م).

22 ـ معجم الأدباء، بيروت، دار المستشرق (د.ت)

23 ـ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977.

ب ـ المراجع الثانوية:

* الدوري، تقي الدين عارف.

24 ـ عصر إمرة الأمراء في العراق 324 ـ 334هـ/ 936 ـ 946م دراسة سياسة اقتصادية اجتماعية، بغداد، مطبعة أسعد، 1975.

* الدوري، عبد العزيز

25 ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط2، بيروت، دار المشرق، 1974.

* سعد، فهمي عبد الرزاق.

26 ـ العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بيروت الأهلية للنشر والتوزيع، 1983.

* طه، عبد الواحد ذنون.

27 ـ «ثروة الخلفاء والضياع السلطانية في العصر العباسي 132 ـ 334هـ»، مجلة التربية والعلم، العدد، 3، الموصل، 1981 (ص121 ـ 138).

* عمر، فاروق

28 ـ الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية 247 ـ 334هـ/ 861 ـ 946م، ط1، بغداد، مطبعة دار السلام، 1974.

* الكبيسي، حمدان عبد المجيد.

29 ـ عصر الخلافة المقتدر بالله 295 ـ 320هـ/ 907 ـ 932م، النجف، مطبعة النعمان، 1974.

* متز، آدم.

30 ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط4، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1967.

* مصطفى، شاكر.

31 ـ التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، 1979.

* اليوزبكي، توفيق سلطان.

32 ـ الوزارة: نشأتها وتطورها في الدولة العباسية 132 ـ 447، ط2، الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، 1976.

* Bowen, Harold.

33 - The life and Times of Ali ibn Isa, Cambridge, 1927.



مجتمع بغداد من خلال حكاية
أبو القاسم البغدادي

نشر هذا البحث في مجلة المورد،
العدد 4، م3، بغداد، 1974

المؤلف والحكاية:

في حكاية أبي القاسم ومؤلفها رأيان، الأول: أن الحكاية من تأليف رجل عُرف بأبي المطهر محمد بن أحمد الأزدي، وهذا الرأي يستند إلى ما جاء في مقدمة الحكاية نفسها، فقد قال مؤلفها بعد البسملة مباشرة: «قال الشيخ الأديب أبو المطهر محمد بن أحمد الأزدي رحمة الله عليه...»[917] وقد استند ناشر القصة (Adam Mez) على هذا، وعلى ورود سنة (360هـ)[918]، في متن الحكاية، فأثبت في ملحوظاته باللغة الألمانية، أن

(917) حكاية أبي القاسم البغدادي، ص1.

(918) لقد تصحّف هذا التاريخ في الحاكية إلى (306)، فبدلاً من أن يكتب الناسخ «سنة ستين وثلاثمائة» كتب «سنة ست وثلاثمائة» د. مصطفى جواد: «حكاية أبي القاسم البغدادي هل هي لأبي حيان التوحيدي؟» مجلة الأستاذ، مج/12، 300، وانظر: الحكاية، ص87.

مؤلف الحكاية هو محمد بن أحمد الأزدي، وأن عصر القصة هو القرن الرابع الهجري. وقد اعتمد كل من المفهرس يوسف اليان سركيس، والدكتور زكي مبارك، على ملحوظات الناشر في تعيين المؤلف وزمن القصة، قال يوسف اليان[919]، عن المؤلف والحكاية ما يأتي: «أبو المطهر الأزدي محمد ابن أحمد من أبناء القرن الرابع للهجرة (مؤلف) حكاية أبي القاسم البغدادي التميمي ومعها ملحوظات باللغة الألمانية للمسيو آدام طبع هيدلبرج 1902 ص146 و69».

أما الدكتور زكي مبارك[920]، فقد قال عنه ما يأتي: «لم نستطيع الوصول إلى معرفة أخباره في كتب التراجم، ولكن المسيو ميتس (Mez) هدانا في المقدمة التي صدَّر بها طبعته لهذه الحكاية إلى أن الأزدي كان يعيش في صميم القرن الرابع». ويضيف مؤيداً هذا الرأي، ومستنداً على ما جاء في متن الحكاية، أن الأزدي نفسه كانا شاباً ماجناً سنة (360هـ/ 970م)، حيث قام هو وجماعة من أصحابه بإحصاء عدد الجواري في بغداد[921]، وأنه تحدّث عن مجلس أُنس[922] قضاه مع أبن الحجاج[923] وأبي محمد اليعقوبي[924] وأبو الحسن بن

(919) معجم المطبوعات العربية والمعربة : 1/ 338.

(920) النثر الفني في القرن الرابع : 1/ 238.

(921) الحكاية، ص87.

(922) المصدر نفسه، ص88.

(923) أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن الحجاج، من شعراء القرن الرابع الهجري، يتصف شعره بالمجون والخلاعة والسخف، وإن كان له في الجد أيضاً أشياء حسنة، لكنها قليلة، تولى حسبة بغداد مدة من الزمن، توفي سنة 291هـ / 1000 ـ 1001م). الثعالبي، يتيمة الدهر: 3/ 21 فما بعدها، ابن خلكان : وفيات الأعيان: 1/ 426، ياقوت، معجم الأدباء : 4/ 6 فما بعدها.

(924) جاء في أنساب السمعاني، الورقة 901 (وجه) ما يأتي: «واليعقوبي شاعر محدث روى عن ميمون بن هارون بن مخلد الكاتب عن الحسين الضحاك خبراً لأبي نواس» وبما أن وفاة ميمون كانت سنة (250هـ664م)، فعلى هذا يكون اليعقوبي من رجال القرنين الثالث والرابع. انظر: معجم الأدباء: 4/ 30، الزركلي، الأعلام: 2/ 258، 8/ 201.

سكرة[925]، وبما أن هؤلاء جميعاً كانوا من أعيان القرن الرابع، «فحكاية أبي القاسم وضعت بلا ريب في أواسط القرن الرابع»[926].

والرأي الثاني في حكاية أبي القاسم ومؤلفها يعود إلى الدكتور مصطفى جواد، فقد نشر مقالته الموسومة: «حكاية أبي القاسم البغدادي التميمي هل هي لأبي حيان التوحيدي»[927]. وحاول فيها إثبات نسبة هذه الحكاية إلى أبي حيان التوحيدي (توفي في أواخر القرن الرابع على وجه التقريب)، وقدم أدلة مقنعة، ومقابلات عديدة شملت نصوصاً وأخباراً معينة، جاءت مشتركة بين الحكاية وبين كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي، ما يثبت أن مؤلفهما واحد. ولهذا فنحن نميل إلى الأخذ بهذا الرأي، ونعتقد في الوقت نفسه أن الأسباب التي دفعت أبا حيان التوحيدي إلى نسبة هذه الحكاية إلى مؤلف وهمي، لا تعود فقط إلى تصرفه المخالف للأمانة، المباين لصدق الحكاية، الأمر الذي عيب به أبو حيان في أكثر كتبه وأخباره، وحمل النقاد على اتهامه بالوضع والتزوير والشك فيما يتحدث به[928]. ولكن الدافع الذي جعله يخفي اسمه وينسب الحكاية إلى شخصية وهمية لا وجود لها يعود إلى محتوى الحكاية نفسها، وما جاء فيها من ألفاظ وأشعار، تجعل من الصعب على الإنسان، مهما بلغ من الخلاعة والمجون، أن يضع اسمه عليها، وأن تحسب بالتالي في قائمة مؤلفاته.

---

(925) أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن سكرة، الهاشمي، البغدادي، اشتهر بالشعر الماجن الخليع، قال عنه الثعالبي: «هو شاعر متسع الباع، في أنواع الإبداع، فائق في قول الظرف والملح... وكان يقال ببغداد إن زماناً جاء بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جداً...» توفي سنة (385هـ/ 995م). يتيمة الدهر: 3/ 3، وفيات الأعيان: 4/ 40 ـ 43.

(926) مبارك، النثر الفني في القرن الرابع: 1/ 238.

(927) مجلة الأستاذ، مج / 12، ص20 ـ 210.

(928) المرجع نفسه، ص210.

ولا يصعب على قارئ «حكاية أبي القاسم البغدادي» أن يرى الوضع والاختلاق الواضح عليها، يقول مؤلفها : «وإذا قدمت هذه الجملة فأقول: هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى آخره أو ليلة كذلك. . . .»[929]، فهو يعترف أنها مقدرة لا حقيقة، فمن المحال أن تجري كل أحداث الحكاية كما ذكر مؤلفها في يوم واحد أو في يوم وليلة.

أما بطل الحكاية أبو القاسم أحمد بن علي التميمي البغدادي[930]، فهو شخصية خيالية لا وجود لها أيضاً، نعته المؤلف بكل المتناقضات التي لا يمكن أن تجتمع في إنسان واحد مهما كان غريب الأطوار. فهو شيخ «بلحية بيضاء تلمع في حمرة وجه يكاد يقطر منه الخمر الصرف وله عينان كأنه ينظر بهما من زجاج أخضر تبصان كأنهما تدوران على زئبق، عياراً نعاراً زعاقاً طفيلياً بابلياً أديباً عجيباً رصافاً قصافاً مداحاً قداحاً ظريفاً سخيفاً نبيهاً سفيهاً قريباً بعيداً حديداً مصادقاً مماذقاً مسامراً مقامراً. . . . همازاً غمازاً هُمَزة لُمَزة سَبّاباً عَيّاباً معربداً منددا صديقاً زنديقاً ناسكاً فاتكاً غُرّة عرّة عبرة ترّهة مفروكاً مدلوكاً. . . أشرّ من طين السماكين وأنتن من ريح الدباغين. . . غرّة الزمان وعديل الشيطان ومجمع المحاسن والمقابح متجاوزاً الغاية والحد متكاملاً في الهزل والجد موفراً من الأخلاق والنفاق متخلقاً منها بأخلاق أهل العراق...»[931].

وتدور أحداث هذه الحكاية الخيالية، في أحد مجالس مدينة أصفهان، حيث يدخل أبو القاسم البغدادي دار بعض الأكابر، فيداري أهل المجلس وينافقهم، ويظهر التقوى والخشوع والتأدب والصلاح حتى إذا

---

(929) الحكاية، ص2.

(930) وجاء اسمه في نهاية الحكاية، ص145 على أنه : (أبو القاسم علي بن محمد التميمي البغدادي).

(931) الحكاية، ص2، 146.

رآهم على استعداد للهزل انقلب إلى شخص خليع متمرس في المجون، فيشبعهم نقداً وشتماً ويهجوهم، ويهجو مدينتهم أصفهان شعراً ونثراً[932]. وفي أثناء ذلك، يقارب بين بغداد وأصفهان، فيعدد الضواحي والمحلات، والأسواق، والأنهار، والجوامع، ويذكر حرف أهل بغداد، وملابس سكانها، وجواريهم، وأكلاتهم، ولهوهم، وطرق معيشتهم، ثم يعيّر الحاضرين بقلة خيراتهم، ويتباهى بكثرة خيرات العراق. ولكنه بعد أن يحضروا له ألوان الطعام والشراب، يتحول إليهم، فيمدحهم ويمدح أصفهان، ويأخذ بذم بغداد وأهاليها، وأسواقها، ومحلاتها. وعندما يثمل ينقلب على القوم، فيهجوهم ثانية إلى أن ينام من شدة السكر، ويصحو في الصباح، ويظهر الوقار، كأنه لم يكن ذاك السكير المنافق الكاذب بالأمس.

تحليل ونقد لأسلوب المؤلف والحكاية:

يقول مؤلف الحكاية في مقدمة كلامه عنها مبيناً الغاية من تأليفه إياها: «أن هذه حكاية عن رجل بغدادي كنت أعاشره برهة من الدهر فينفق منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة وعبارات أهل بلده مستفصحة ومستفضحة فأثبتها خاطري لتكون كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم...»[933] والبغدادي المقصود في النص هو أبو القاسم، بطل الحكاية. إن الأخلاق التي مثلها هذا البطل، لا يمكن أن تكون إلا أخلاق فئة، أو شريحة معينة من ذلك المجتمع الكبير، ومن عدم الأنصاف أن تؤخذ أخلاقه وعاداته، التي وردت في الحكاية، وتلصق بجميع البغداديين «على تباين طبقاتهم». فالذي

(932) الحكاية، ص21 ـ 22.

(933) المصدر نفسه، ص1.

ورد على لسان أبي القاسم، لا يمكن أن يدل إلا على أعلى درجة من درجات الانحطاط الخلقي، والتحلل من كل الفضائل، فلم يكن في كلامه أي ألفاظ مستحسنة مستفصحة، بل معظم ما جاء على لسانه كان فُحْشاً في القول، وحتى نصائحه كانت فضائح كقوله في مجلس أصفهان: «...من كان منكم له مال فلا يتوقع به حادثاً يسرع إليه ولا يخلفه لوارث لا يترحم عليه، ومن كان منكم فقيراً فليستقرض ويستدن ولا يبال بكثرة الغرماء والمطالبين افتنوا في أكل الطيبات وشرب المسكرات وسماع المطربات المحسنات و. . . تمتعوا بالجواري والغلمان تمتعوا بالصبايا والولدان لا تتخذوا من الإخوان إلا من لج في خلع عذاره ووصل بالمجون ليله بنهاره ليست له صاحبة تؤويه ولا زوجه تحظر عليه وتؤذيه قد أرسل. . . فذاك العاقل الأريب والفتى النجيب استخلصوه لأنفسكم صديقاً واتخذوه أخاً وشقيقاً...»[934] ويدعوهم إلى اللهو شعراً فيقول:

واشرب الراح التي في دنها ... شاهدت عادا ولاقت تبعاً

والغنا الطيب فاسمع منه ما ... يحظر التحصيل إلا تسمعا

وتمتع بالصبايا لا تكن ... من أناس يحظرون المتعا

* * *

أجر في اللهو إلى الحد الذي ... ترجع السبق عنه ظلعاً[935]

إن ما ذكره آنفاً يمثل الحد الذي يسمح به الأدب في ذكر الألفاظ التي وردت في الحكاية، فالانحطاط الخلقي يظهر في كل صفحة من صفحاتها، وقد لا نبالغ إذا قلنا في كل سطر من سطورها في بعض الأحيان. فمن الواضح إذن، أن المؤلف لم يكن يصف كل مظاهر الحياة

---

(934) المصدر نفسه، ص18 ـ 19.

(935) المصدر نفسه، ص20.

في عهده، ولا كل أخلاق البغداديين. لأن سياق الحكاية صريح في أنه قصد إلى جانب العبث والمجون، يقول زكي مبارك[936]: إن المؤلف «أراد أن يجعل تلك القصة مرجعاً لأكثر المعاني الهزلية فلم يترك باباً من أبواب الدعابة إلا طرقه ولم يدع معنى من معاني الخلاعة إلا ألَمّ به. وأحسبه حشر في كتابه أقذر ما رُوى من الشعر الماجن الخليع». وعندما يقارن بين رسالة للخوارزمي في وصف (الثقيل) وبين ما كتبه المؤلف يذكر مبارك[937]، أن الخوارزمي لا يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه مؤلف حكاية أبي القاسم في الإفحاش والإقذاع، ولكنه في الوقت نفسه يعتبر هذه «الأهاجي البشعة من مظاهر الحضارة في بغداد»[938]، ويدلل على ذلك بقوله:

«إن الحضارات تقتضي فنوناً من المناقب والمثالب لا تستطيعها البداوات، وعيوب أصحاب الحرف والصناعات ورذائل المترفين ومساوئ الموسرين لا تعرف إلا في الحواضر المزهرة»[939]. ويبدو لي أن في هذا التفسير ابتعاداً عن الواقع إلى حد كبير. فهل افتقدنا كل المظاهر التي تدل على حضارة بغداد، حتى نلجأ إلى «أهاجي أبي المطهر» لترشدنا إلى «قوة الحضارة في بغداد»؟، ثم إن الدكتور مبارك نفسه، وصف الكتاب كله بالسخف[940]، فهل يعقل أن نعمد إلى الأهاجي، وهي أسخف ما في الكتاب لندلل بها على حضارة بغداد العريقة وقوتها؟

ولا أقصد من كلامي هذا أن أجرّد مؤلف الحكاية من كل المحاسن،

---

(936) النثر الفني في القرن الرابع : 1/ 250.

(937) المرجع نفسه، ص346.

(938) المرجع نفسه والمكان.

(939) المرجع نفسه والمكان.

(940) المرجع نفسه، ص351.

فمن حكايته يكمننا أن نعثر على بعض الصور الفنية الرائعة. من ذلك مثلاً، وصفه للمنافق الذي يستغرق أكثر من صفحتين[941]، ووصفه للثقيل بنحو من أربع صفحات[942]. ومن طريف ما يصوره، وصفه للجمال في أثناء حديثه عن جمال النساء[943] والغلمان[944]، وكذلك وصفه للخيل والجياد[945] ومن تعابيره المستظرفة ما قاله عن الخمر أنها: «أصفى من عين الديك ومن دمعة المحب المهجور وأرقّ من دين أبي نواس وأزكى من المسك...»[946]. وللمؤلف نظرات فلسفية في المجتمع، منها تعليله لغلبة المجون على الناس فقد جعل بطل روايته يصف أحد سكان بغداد فيذكر أنه إذا سمع الغناء تمرغ في التراب وهاج وماج، وأزبد وركل برجليه ولطم وجهه ألف لطمه، فيسأله الحاضرون: «يا أبا القاسم كل هذا لسماع غناء؟! فيقول: هذه صورة إذا استولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا تملك، وغاية لا تدرك، لأنه قلما يخلو الإنسان من صبوة أو صبابة أو حسرة على فائت، أو فكر متمنى، أو خوف من قطيعة، أو رجاء لمنتظر، أو حزن على حال، فالناس كأنهم جديلة واحدة[947] في هذا الحال»[948]. ويستمر في شرح طبيعة النفس البشرية وخصائص الإنسان، فيذكر في مكان آخر: «زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له (العالم الصغير) سليل العالم الكبير لانه يصور بيده كل صورة ويحكى

---

(941) الحكاية، ص112 ـ 115.

(942) المصدر نفسه، ص117 ـ 120، ومن جملة ما يقوله عنه: «يا أول ليلة الغريب إذا بعد عن الحبيب يا طلعة الرقيب يا يوم الأربعاء في آخر صفر يا لقاء الكابوس في وقت السحر يا خرابا عند سكان العراق ياخراجا بلا غلة يا سفرا مقروناً بعلة..»

(943) الحكاية، ص76 ـ 77.

(944) المصدر نفسه، ص 65 ـ 66.

(945) المصدر نفسه، ص26 ـ 32.

(946) المصدر نفسه، ص109.

(947) أي على حال واحدة وطريقة واحدة. لسان العرب/ مادة: (جدل).

بفمه كل صوت، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ويأكل اللحم كما تأكل السباع ويأكل الحَبّ كما تأكل الطيور، ولأن فيه أشكالاً من جميع أجناس الحيوان»[949]. وبعد روايته لانتحار شخصية من شخصيات المجتمع، يقول عن الإنسان وتصرفه ما نصه: «فليس إلى الإنسان من أمره شيء وما هو أيضاً إليه فهو مملوك عليه متصرف فيما يتصرف فيه وهو يظن انه يأتي من قبله ولعمري من غلط غلط، ومن غولط تغالط، والكلام في هذا حماش[950] والإغراق فيه توسوس والإفراج عنه أجلب للإنس وأفضى لسلامة القلب من الوساوس والهواجس...»[951].

وبعد، فإن هذه الحكاية تزخر بالحقائق الاجتماعية والاقتصادية، التي يمكن أن نتلقطها من بين ألفاظها الخليعة، ولعل أول حقيقة اجتماعية كبيرة يمكن أن نستنتجها من الحكاية، هي وجود طبقة من الناس ذات ذوق اجتماعي يلائم هذه القصة، وما ورد فيها من تعبيرات، بحيث وجد مؤلفها تشجيعاً وقُرّاء يتعاطفون مع آرائه وأسلوبه. ففي تلك العهود وما بعدها أُلفت كثير من الأدبيات لتسلية هذا القطاع من المجتمع، ولا نستغرب هذا في مجتمع كثر فيه عدد الجواري والغلمان، وطغت عليه عناصر أجنبية مختلفة، وشاعت فيه الخلاعة والمجون، وراجت فيه عادات قبيحة نجدها مبثوثة في صفحات هذه الحكاية.

وليس من همنا في هذه الدراسة أن نتوسع في ذكر أسباب انتشار المجون واللهو والغناء، في ذلكم العصر، وللقارئ أن يرجع في ذلك إلى

(948) الحكاية، ص78 ـ 79.

(949) المصدر نفسه، ص2.

(950) أي مثير للغضب، يقال أحمشت الرجل إذا اغضبته وكذلك التحميش، لسان العرب، مادة: (حمش).

(951) الحكاية، ص83.

رسالة عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي[952]، حيث تناول الموضوع بشيء من التفصيل، فذكر أسبابا لانتشار اللهو والمجون منها: انتهاء الفتوح، وكثرة أوقات الناس، ووفرة وسائل اللهو من مال، وغلمان، وجوار، وخدم، وقصور عامرة، وكذلك أثر الشعوب الفارسية والبيزنطية التي أختلط بها العرب[953]. ويمكن أن نضيف سبباً آخر له أهمية كبيرة في هذا المجال، وهو حدة التمايز الاجتماعي، وسوء أحوال الطبقة الفقيرة، وحرمانها من الثروة التي تكدست بأيدي طبقة اجتماعية صغيرة. وقد أدت هذه الأحوال ببعض الناس إلى العيش في الخيال، والالتجاء إلى هذا النوع من الأدب الخليع الماجن، ليقتلوا أحزانهم، وينسوا همومهم وحاضرهم المؤلم. كما دفعت البعض إلى التخلص من حياته بالانتحار غرقاً، لأسباب لا تتعدى ما ذكرناه آنفاً، منها خلو اليد، وسوء الحال، والمرض، وعشق غلام[954]، وما يعقب ذلك من الحيرة التي يغرب معها العقل ويخذل عندها الرأي .

تبدو بغداد عاصمة الخلافة العباسية من خلال الحكاية، وكأنها الأمل والغاية القصوى، فنازلها لا يرى إلا جمالاً وكمالاً، ولا يسمع من ألحانها إلا سحراً حلالاً[955]، «وحصباؤها جوهر، ونسيمها عنبر، وترابها مسك أذفر. . .»[956]، قال أبو القاسم بطل الحكاية :

من أي أقطارها أتيت رأيـ ـت الحسن حيران في جوانبها[957]

ولكنها على الرغم من هذا الوصف، كانت «جنة الموسر، وعذاب

(952) المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة، ص147 ـ 151، 279، 286، 228.

(953) المرجع نفسه، ص147.

(954) الحكاية، ص83.

(955) المصدر نفسه، ص24.

(956) المصدر نفسه، ص21.

(957) المصدر نفسه، ص24.

المعسر»[958]، فمجال اللهو والتمتع كان واسعاً أمام من يمتلك الأموال الطائلة، والجواري الحسان، والقصور الغَنَّاء. وليس معنى هذا أن غيرهم من الطبقات كانوا محرومين من المتعة، فقد كانت بغداد وما يحيط بها من بساتين وقرى عامرة، محلاً دائماً للنزهة الخلوية، يؤمها عشاق المتعة وطلابها، وكانت السفن تنقل من يرغب بالتنزه في دجلة إلى واسط، وترجع آخر النهار. وقد يحلو للبعض عدم الرجوع وقضاء الليل هناك[959]. ومن أماكن اللهو في بغداد، شط الصراة[960]، ومطالع الفرات، والزبيدية[961]، ومسناة دار المعزية[962] وغيرها.

ومن القرى التي اشتهرت باللهو والمواخير، بصرى[963]، وأوانا[964]، والقفص[965]، والبردان[966]. ولقد كانت منطقة قطربل[967] -

---

(958) المصدر نفسه، ص73.

(959) المصدر نفسه، ص89 ـ 90.

(960) الصراة: نهر في منطقة بغداد الغربية يصب في دجلة، ثم أصبح يسمى بنهر (الصراة العظمى) لتمييزه عن نهر آخر يتفرع منه كان يعرف باسم (الصراة الصغرى)، وكان هذا يسقي قسماً من البساتين الواقعة على الجانب الأيسر من الصراة العظمى، ثم يعود فيصب في النهر الذي تفرع منه : انظر: مصطفى جواد و أحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، ص6.

(961) الزبيدية : منطقة كانت تقع إلى الشمال من بغداد، وهي بالأصل قطيعة كانت لجعفر بن المنصور، ثم انتقلت فيما بعد إلى زبيدة زوج الرشيد، فسميت الزبيدية، المرجع السابق، ص78، 128.

(962) أنشأها معز الدولة، على حد الدار المعزية من جهة دجلة، عرضها مائة أجرة، أو سبعون على قول التنوخي، المرجع السابق، ص138 ـ 139.

(963) بصرى: من قرى بغداد قرب عكبرا، معجم البلدان: 1/ 654.

(964) أوانا : بلدة كثيرة البساتين والشجر، من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ (30 ميلاً) من جهة تكريت، معجم البلدان، 1/ 395.

(965) القفص : قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا، كانت من مواطن اللهو ومعاهد التنزه ومجالس الفرح، تنسب إليها الخمور الجيدة، والحانات الكثيرة، معجم البلدان : 4/ 150.

(966) البردان : من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها (21 ميلاً) وهي من نواحي دجيل، معجم البلدان : 1/ 553.

(967) قطربل: اسم قرية قريبة من بغداد، ينسب إليها الخمر، كانت منتزهاً وحانة =

مثلاً ـ مأوى لأمثال أبي القاسم يقصدونها ليشربوا بها الخمر التي تقدمها بنات النصارى المتزينات، من سكان المنطقة. فقد كانت المواخير والحانات تدار على الأغلب من قبل النصارى والروم، وتقوم بناتهم على خدمة الرواد، ويبدو أن أصحاب هذه المواخير كانوا يطلبون أسعاراً عالية لخمورهم كما قال أبو القاسم :

وسلام على مواخير بصرى	**وأوانا والقفص والبردان**
ليت شعري مذ غبت عنها على كم	**قرر البائعون سعر الدنان**
بين خمر تباع في دار روم	**كل يوم بأوفر الأثمان[968]**

ويظهر أن التقدم الزراعي في العراق، كان قد بلغ أوجه في ذلك العصر، بحيث أصبح وادي مدينة أصفهان، الذي يفخر به أهله، لا شيء أمام مزارع وقرى العراق. ويتجلى لنا هذا من نظرة أبي القاسم التهكمية إليه وإلى أهله فقد قال لهم: «لو أن واديكم هذا الذي تفخرون به بالعراق لما ارتضوه لقريتين ولا سقوا منه مزرعتين»[969].

ولم تكن الزراعة وحدها هي المتقدمة في البلاد، فالحقائق الاقتصادية توضح لنا بجلاء انتشار التجارة على نطاق واسع بين العراق ومختلف بقاع العالم المعروف آنذاك، بحيث كانت تنقل إليه المواد المختلفة، فيتنافس على شرائها أثرياء بغداد، مثل السجاد المغربي، والمطارح الأرمنية، والقطف الرومية، والمقاعد التسترية[970]، والمخاد

= للخمارين، وقيل اسم طسوج من طساسيج بغداد أي (كورة) يقع إلى المشرق منها، معجم البلدان : 4/ 371 (طبعة بيروت).

(968) الحكاية، ص48.

(969) المصدر نفسه، ص24.

(970) نسبة إلى مدينة (تستر) بخوزستان، معجم البلدان: 2/ 29 (طبعة بيروت).

الذهبية الدبيقية[971]، وحصر سامان وعبادان، الدقيقة النسج والتي تطوى بالعرض، كما تطوى الثياب[972]. يضاف إلى ذلك، أنواع العطور المختلفة التي تأتي من مناطق بعيدة، فإذا ألقينا نظرة على تعدد هذه العطور وكثرة أنواعها، تبين لنا بوضوح حقائق اجتماعية جلية تدل على ترف المجتمع أو بتعبير أدق، ترف طبقة خاصة من هذا المجتمع، تستعمل مثل هذه الكماليات، وتبذل بسخاء في سبيل الحصول عليها. وفي الحكاية ذكر لما يزيد على سبعين نوعاً من أنواع العطور، منها: السكرية، والمسك الصيني، والكافور، والمثلثة البرمكية، والصفراء، التي كانت لا تؤثر في الثياب، ومنها أيضاً «ماء الورد الجوري قطاف ساعته حديث عرق يغوص في مسام الشَّعر فتبقى رائحته أسبوعاً»[973].

الأطعمة والمأكولات البغدادية:

كانت الموائد الخاصة، عامرة بأنواع الأطعمة، فمن أكلاتهم المترفة التي ذكرت في الحكاية نجد «كبود الدجاج المسمن وصدور البط بماء التفاح وماء حب الرمان والتوت الشامي»[974]، والكبود المفروكة بالبيض الطري المعمول بالكزبرة الحديثة والزعفران[975]، ولحوم الحملان والجداء السمان المطيبة بالدارصين وبماء الزبيب المدقوق وبماء حب الرمان[976].

---

(971) نسبة إلى قرية في مصر اسمه (ديبق)، المصباح المنير: 290/1، ويقال إن الأقمشة والثياب التي تسمى بهذا الاسم تنسب أيضاً إلى قرية ببغداد تقع على نهر عيسى في الجانب الغربي، ولا نستطيع التفريق بين المنسوجات الدبيقية البغدادية، والدبيقية المصرية، لأنها ترد منسوبة إلى (ديبق) دون تخصيص، انظر: ناجي معروف، «الثياب البغدادية في العصور العباسية». مجلة الأقلام، ج5، السنة الخامسة، ص60.

(972) الحكاية، ص36.

(973) المصدر نفسه، ص27.

(974) المصدر نفسه، ص29.

(975) المصدر نفسه والمكان.

(976) المصدر نفسه، ص40.

ومن المآكل الأخرى، الرزّ باللبن، المطبوخ مع مواد أخرى، والمرصع بالحمص ومن فوقه السكر الدقيق. وكان الكباب من أنواع الطعام المعروفة، وبخاصة الكباب الرشدي، ولعله سمّي بهذا الاسم نسبة إلى الخليفة الرشيد. أما المشويات فقد كوّنت جانباً هاماً من الموائد الفاخرة، وقد اشتهر شواء باب الكرخ بجودته في بغداد[977]. ومن ألوان الشواء المعروفة: الدجاج المسمن الهندي، والبط الكسكري[978]، والحملان التركمانية الأصل المدورة التي لا يعرف طولها من عرضها بالنظر إلى سمنها، فكانت هذه الحملان الرضع تُشوى على النار، ويوضع في أفواهها ضروع أمهاتها.

كل دجاجا وفراخاً وجداً واشو حملانا صغارا رضعا

ولنستمع إلى أبي القاسم يصف لنا بعض ألوان الطعام من خلال وصفه لأحد الفضوليين المشهورين بالأكل:

فأنزل الويل بالقلايا وبالجدا الرضع السمان

ولا يلذ الرقاق[979] إلا باللحم والشحم في مكان

ولا يلذ الخبيص[980] إلا فالوذجيا[981] بزعفران

---

(977) المصدر نفسه، ص92.

(978) نسبة الى مدينة (كسكر) القريبة من واسط، وكانت تشتهر بالفراريج، وقيل إن معنى (كسكر)، هو (بلد الشمير) أو (عامل الزرع)، ينظر: البكري، معجم ما استعجم: 4/ 1128، معجم البلدان: 274/ 4.

(979) الخبز الرقيق، ومن أنواع الخبز أيضاً، هناك السميذ، انظر: الحكاية، ص92.

(980) الخبيص: نوع من الحلوى، وكان على أنواع مثل خبيص اللوز، والخبيصة اليابسة، والأهوازية، ويقول عنه الفيومي: إنه نوع من الطعام، المصباح المنير: 1/ 251.

(981) الفالوذج: من الحلويات المشهورة المعروفة لدى أهل بغداد، وقد اشتهر الفالوذج المصري بجودته، انظر الحكاية، ص92، الوراق، «الطبيخ وإصلاح الأغذية والمأكولات»، مخطوط (الورقة 13 أ) عن: بدري محمد فهد، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، ص131

حتى تراه بغير حنا مختضب الكف والبنان[982]

ومن مآكل بغداد المشهورة أيضاً، العصيدة[983]، وكانت على أنواع، منها: العصيدة المنصورية، والعصيدة البرمكية[984]. وكان الثريد والهريسة من الأنواع المعروفة الأخرى. أما السكباج[985]، فقد كان من ألذ الماكوت التي تقدم في الصيف والشتاء. وكذلك القطايف المقلية. ومن أهم أنواع المشهيات المعروفة: الخيار المنقوع بالخل، والباذنجان المخلل المعمول بماء حب الرمان: «يصرع بحموضته الطير من جو السماء، ويقلع عن المعدة الصفراء»[986]، ويظهر البيت الآتي، بعض المآكل غير المرغوبة، مثل الخس، والهندبا[987].

يبطش بالعتق السمان ولا يعرض للهنديا ولا الخس[988]

واشتهرت أنواع عديدة من الجبن في بغداد، مثل: الجبن الرومي، والجبن الدينوري، ويبدو أن النوع الأخير كان يعتبر من الأنواع الرديئة[989]، وهناك أيضاً الزيتون المدخن المخلوط باللوز المقشور والصعتر، وقد اشتهر ببيع الجبن والزيتون، بَقّال في الكرخ يدعى:

---

(982) الحكاية، ص10.

(983) العصيدة: دقيق يُلتّ بالسمن ويُطبخ، والعاصد هو الذي يعصدها أي يديرها ويقلبها، لسان العرب ـ مادة: (عصد).

(984) الحكاية: ص41.

(985) السكباج: يتكون بصورة رئيسية من اللحم المطبوخ مع الجزر أو الباذنجان، وهو طعام معروف، المصباح المنير: 1/ 429.

(986) الحكاية، ص38.

(987) الهندبا: نوع من النبات قريب الشبه بالخس، عريض الأوراق في طعمه مرارة، انظر: ابن البيطار، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»: 3/ 198.

(988) الحكاية، ص10، والظاهر أن البيت من شعر العامة، وكذلك كثير مما ورد في هذه الحكاية.

(989) المصدر نفسه، ص122.

(كيكي)[990]. ومن أهم أنواع الحلويات التي اشتهرت في بغداد، الخبيص، والفالوذج، وقد أسلفنا ذكرهما، وكذلك الزلابية، وبخاصة الزلابية القاهرية، والزلابية المحشوة بدهن الفستق[991]، ومن أهم أنواع الفواكه: الموز، والشاهبلوط، والفستق الرطب، وقصب السكر، والبطيخ المتعدد الأنواع، والسفرجل، والرمان، والمشمش، والكمثرى الشامي[992]، إضافة إلى الجوز المقشر الأبيض[993]، والفستق المقشور[994]، والزبيب الطائفي[995]، وقصب السكر المقطع المغسول بماء الورد[996].

وقد عرف البغداديون أصنافاً عديدة من الخمور، مثل: الخمرة العراقية، والسورية، والبابلية، والصريفينية[997]، واشتهر ببيع الشراب الصريفيني في ذلك العصر رجل يدعى (ابن سيرين)[998]. ومن أنواع الشراب الأخرى: الشقيق، والعتيق، والحريق، والعندم، والياقوت، والعقيان، والنور، والنار، والورد الجني، والجلنار، واللهب الثاقب، والذهب الذائب[999].

إن ما ذكرناه من أصناف الأطعمة والحلويات والفواكه والخمور

(990) المصدر نفسه، ص86.
(991) المصدر نفسه، ص41.
(992) المصدر نفسه، ص43 ـ 44.
(993) المصدر نفسه، ص38.
(994) المصدر نفسه، ص39.
(995) نسبة الى مدينة الطائف التي تشتهر بالزبيب.
(996) الحكاية، ص48.
(997) نسبة الى مدينة صريفون في سواد العراق، قرب عكبرا وأونا، على ضفة نهر دجيل، وهي قرية كبيرة كانت تشتهر بالبساتين، معجم البلدان، 3/ 384.
(998) الحكاية، ص86.
(999) المصدر نفسه، ص46.

وغيرها، لا يعني بالضرورة، أنها كانت معروفة ومتوافرة لدى جميع سكان بغداد، بل إنها قد تكون شائعة عند الأثرياء وطبقة الوزراء والأعيان وغيرهم ممن يسمح لهم دخلهم العالي، بإقامة المآدب الفخمة التي تتصدرها مثل هذه الأطعمة، وقد كان لأفراد هذه الطبقات الغنية، طباخون مهرة، لهم إلمام وحذق بصنعة الطبخ، ولنقرأ هذا النص الذي يصف طباخاً حاذقاً يدعى (نارنج) فهو يمثل نموذجاً لطباخي الخاصة في ذلك العصر: كان «...عنوان النعم وترجمان المروة وطبيب الشهوة أحذق من رُئيَ من أهل صناعة، أطهر من الماء في نظافته أرهفهم سكيناً وأعدلهم تقطيعاً وأذكاهم ناراً... كان لا يجمع بين لونين ولا يوالي بين طعمين، يخالف بين طعام الغداء والعشاء ويباعد بين ألوان الصيف والشتاء، يكتفي باللحظة ويفهم بالإشارة ويسبق إلى الإزارة كأنه مطلع على الضمير من الزائر والمزور، كان والله يطبخ ما يفيق شهوة النعسان والثكلان والمخمور والمغموم، وكان إذا فرغ من الألوان فيقال له: يا نارنج إلى أي شيء تحتاج؟ فيقول: إلى قوم جياع...»[(1000)].

بعد الانتهاء من الأكل يأتي خادم بطست وإبريق، فيغسل القوم أيديهم، وكانوا يستعملون في ذلك الأشنان[(1001)]، الذي يضيفون إليه بعض المواد المطيبة أو غير المطيبة، كالأرز المطحون، والطين الخراساني والمسك، والكافور فيصبح هذا الأشنان «سلطانياً ملوكياً يرغي كما يرغي الصابون ويزبد كما يزبد السدر»[(1002)]، فينظف الأيدي مما علق بها من الطعام، وبعد الأكل ينظفون أسنانهم ويخللونها بواسطة السواك،

(1000) المصدر نفسه، ص101 ـ 102.

(1001) الأشنان: نبات لاورق له، إلا أن أغصانه دقيقة رخصة، فيها ما يشبه العقب وهي على أنواع مختلفة، ابن البيطار: 1/38 ـ 38.

(1002) الحكاية، ص41 ـ 42.

ويستعملون الخلال السلطاني أو الخلال المأموني المطيب[1003].

ويغَضّ النظر، عن أن فئة معينة فقط هي التي كانت تتمتع بهذه الحياة الرغيدة، وتستعمل هذه الأنواع من المأكل، وتلك الطرق الاجتماعية أثناء المآدب، فإن هذه الصورة التي حاولنا إظهارها يمكن أن تعطينا فكرة عامة عن مدى تقدم وتطور المجتمع البغدادي في القرن الرابع للهجرة، ومدى ترف الطبقة الخاصة في هذا المجتمع، واهتمامها بمظاهر التقدم والحضارة.

الملابس:

تنوعت الملابس البغدادية وتعددت، فاشتهر منها الثياب[1004]، بأنواعها المختلفة، مثل: الثوب الدبيقي الشقيري، والقيراطي الزهيري، والرداء العدني، والتنيسي والدمياطي[1005]، والثياب الديباج[1006] الموشاة بالذهب، والعتابي[1007]، الدبيقي المعلم[1008]، ومن أنواع الملابس الأخرى: القميص[1009]، والدراعة[1010]، ويبدو من البيت الآتي، أن

(1003) المصدر نفسه، ص41.

(1004) جمع ثوب، وهو رداء واسع فضفاض عرض ردنيه يساوي على وجه التقريب طوله، ويصنع من الحرير، ترتديه النساء حيث يردن مغادرة منازلهن، ينظر: دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص90 ـ 91.

(1005) جاءت أسماء هذه الثياب نسبة إلى مدن مختلفة، مثل دبيق، وعدن، وتنيس، ودمياط.

(1006) الديباج: من الدبج، وهو النقض والتزيين، وهو نوع من الثياب الخضر، ينظر: ابن سيدة، المخصص، 4/ 76.

(1007) استعار هذا القماش اسمه من اسم أحد شوارع بغداد، ينظر: دوزي، المعجم المفصل، ص93.

(1008) الحكاية، ص35.

(1009) يعمل القميص من الكتان أو الشاش الموصلي، أو من الحرير (وبخاصة قميص النساء)، وكانت القمصان غالباً ما تكون بيضاء، أما قمصان الأغنياء فهي مزركشة الحواشي والفتحات عادة، ومطرزة بالحرير تطريزاً يدوياً. وللقميص كُمّان واسعان للغاية يهبطان =

القميص كان يُلبس فوق الدراعة:

حــــــــنيـــــــذ لـــــــبـــــــس الـــــيــــوم قـــمــيـــصـــاً فـــوق دراعـــة[1011]

ومن الملابس المعروفة: الطيلسان[1012] الذي كان لبسه يضفي شيئاً من الهيبة والوقار على صاحبه[1013]. وكان لا يستحسن خروج الشخص من داره بغير طيلسان، ولا يفعل ذلك إلا سكران فَقَد رشده[1014]. ومن الملابس الأخرى التي كانت تلبس في الشتاء عادة: الجبّة[1015]، وقد تكون منقوشة في بعض الأحيان[1016]، ويلبس الإزار[1017]، من فوق الملابس، وكان الشخص إذا دخل مجلساً ألقى إزاره من عليه[1018]. ولم

= الى المعصم، ويتدلى القميص الى منتصف الساقين، ينظر: دوزي، المعجم المفصل، ص300 ـ 301.

(1010) الدراعة: رداء مفتوح من الأمام، أعلى القلب مزرر بأزرار وعرى، المرجع السابق، ص146.

(1011) الحكاية، ص8.

(1012) الطيلسان: نوع بسيط من الخمار الذي يطرح على الرأس والكتفين، أو يلقى أحياناً على الكتفين فقط، وقد يصنع من الكتان الرقيق، ينظر: دوزي، المرجع السابق، ص229 ـ 220.

(1013) الحكاية، ص5.

(1014) المصدر نفسه، ص109.

(1015) الجبة: رداء يسبل على ثياب أخرى، وللجبة ردنان في غاية القصر، وجبب الشتاء مبطنة بالفراء، وقد تكون من الصوف أو من القطن او الجوخ، ولبست الجبب من قبل النساء أيضاً، لكن جبة النساء تختلف عن جبة الرجال، في أنها ليست متسعة، وبخاصة من الأمام، وأنها عادة أقصر من جبة الرجال، وترتدي النساء المترفات جبة من الجوخ ومن المخمل والحرير، وهي مطرزة بالذهب أو بالحرير الملوّن، وبصورة عامة تختلف نوعية الجبة، وشكلها باختلاف المناطق التي تستعمل فيها، ينظر: دوزي، المرجع السابق، ص91 ـ 98.

(1016) الحكاية، ص9.

(1017) استعمل لفظ (الإزار) في العهود الإسلامية الأولى (يعني الثوب بصورة عامة، مهما كان شكل هذا الثوب، وقد عرف فيما بعد، إنه قطعة من النسيج تلتف بها النساء العربيات، إذا أردن الخروج من الدار، دوزي، المرجع السابق، ص31 ـ 32.

(1018) الحكاية، ص85.

تكن الأُزُر مقصورة على الرجال فقط، بل شاركت النساء في لبسها، فكن يضعنها على رؤوسهن أو يلقينها على وجوههن، وكن يستعملن أزر القصب ذات اللون الأبيض الرقيق أو الأزرق[(1019)]. ولُبِست السراويل[(1020)] من قبل النساء أيضاً فضلاً عن الرجال، وكن يلبسن أيضاً أردية القصب المزينة الدقيقة الأعلام والطرز[(1021)]. وكانت الألبسة المصنوعة من القطن تُلبس في الأوقات والمواسم الباردة ويبدو ذلك واضحاً من البيت الآتي:

لبست ذا القطن من البرد   أم أنت كمثرى نهاوندي[(1022)]

وكانت العمامة[(1023)] لباس الرأس المعروف للرجال في ذلك الوقت، وهي قطعة من القماش تلَفّ حول الرأس وتكون في العادة بيضاء، تصنع من أقمشة مختلفة، وقد تكون من ألوان أخرى أيضاً، ولُبست العمائم من قبل بعض النساء ولكن على نطاق ضيّق.

ومن الطريف في هذا المجال أن نثبت نموذجاً لملابس إحدى جواري ذلك العصر، كما وصفها أبو القاسم في الحكاية حين قال[(1024)]: «تجيء وعليها غلالة جري الماء[(1025)]، وسراويل شق المرارة[(1026)]، وتكة

(1019) المصدر نفسه، ص54.

(1020) السراويل: كلمة مأخوذة من الفارسية (شلوار) وكان مستعملاً منذ العهود الإسلامية الأولى ولُبست السراويل في معظم المناطق الإسلامية، ويختلف شكلها ونوعيتها باختلاف المناطق، وتكون سراويل النساء عادة طويلة قد تصل الى كعوب أقدامهن، ويغلب اللون الأزرق على هذه السراويل، ينظر: دوزي، المرجع السابق، ص168 ـ 174.

(1021) الحكاية، ص53.

(1022) المصدر نفسه، ص9.

(1023) المصدر نفسه والمكان، وانظر: دوزي، المرجع السابق، ص250 ـ 254.

(1024) الحكاية، ص53 فما بعدها.

(1025) الغلالة: ثوب مفرط في الشفوف والخفة، ينظر: دوزي، المرجع السابق، ص261، ولعلها سميت هنا بـ (جرى الماء) لشفافيتها ورقتها المتناهية.

(1026) لقد مر شرح (السراويل)، أما تعبير (شق المرارة)، فأرجّحُ أنه كناية عن شديد =

أبريسم[1027]، خضراء سلقية من عمل الجواري، تلتف برداء من القصب «عودي دقيق الأعلام والطرز عليه تزائين أحسن - والله - من تحاسين الصين مطوياً أربع طاقات... مُرصَّع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر...»، وتمد على وجهها إزار قصب أبيض رقيقاً، وهي من ورائه في إزار آخر أزرق اللون، تشد أطرافه إليها، فتبدو متنقبة، وعندما تتوسط المجلس تحسر عن وجهها النقاب[1028]، ثم تبدأ بالعزف والغناء.

الصناعات والحرف:

إذا تعددت الصناعات والحرف في مجتمع ما، دل ذلك على تقدُّم المجتمع، وتنوع حاجاته، ورقيِّه في مدارج الحضارة، والمجتمع البغدادي في القرن الرابع للهجرة، بلغ شأواً عظيماً من حيث تعدد الحرف وتنوعها، وكثرة الصناعات ودقتها، وإن أصحاب الحرف المعروفة في بغداد هم من: الوراقين، والخطاطين، والخياطين، والخراطين، والزرادين، والمزوقين، والطباخين، والطحانين، والمطربين، ومن لا يحصى عدداً من الحذاق المعجزين[1029].

ونستطيع أن نتبين دقة بعض الصناعات وجمالها من أوصاف أبي القاسم لبعض معالم قصور الخاصة، وللحاجيات المستعملة في المجتمع. فتعددت الأروقة والأيونات، والأبهاء المشرفة في تلك العصور التي

= افتتان المرء بهذا النوع من اللباس وجماله.

(1027) التِّكّة: رباط السراويل، وهي مشد مطرز النهايتين بالحرير الملون في أغلب الأحيان، يستعملها الرجال والنساء على حد سواء لربط التبان حول مدار السرة، دوزي، المرجع السابق، ص82 - 85.

(1028) النقاب: قطعة من القماش تضعها المرأة على وجهها إذا أرادت التبرقع، المرجع السابق، ص342.

(1029) الحكاية، ص24.

غشيت سقوفها بالساج، وزيّنت تعاريجها بالآبنوس والعاج[1030]، ما يدل على المستوى الرفيع الذي وصل إليه فن البناء والزخرفة في ذلك العصر. ومن جهة أخرى، فإن صناعات معيَّنة كصناعة الزجاج مثلاً، تبدو على درجة كبيرة من التطور، فالكؤوس كانت «كقشرة الذرة البيضاء مجردة أو محفورة كأنها مخروطة من دارة القمر»، والأقداح كأنها البلور خالية من الخدوش. ولا تقل قناني الشراب جودة عن هذه الكؤوس[1031]. هذا بالإضافة إلى الأنواع العديدة من الزجاجيات، مثل: البلور المخروط، والمحكم المجرود، والمينا الأخضر، والقطولي المُذهّب[1032]. ويوضح لنا النص الآتي مدى تقدُّم صناعة الأدوات المنزلية، فهذه: «منارة ملوكية كأنها مصنوعة من الذهب الإبريز قطعة واحدة بغير كسر ولا وصل ولا لحام يزهر سراجها بخمس فتائل....»[1033]، ويعمل هذا الشمعدان على الزيت النقي بحيث لا رائحة ولا دخان.

أما أسواق بغداد، فكان منها ما يسمّى بحسب الحرف التي تمارس فيها، مثل: سوق النخّاسين، لبيع الجواري والعبيد، وسوق الحلائين، صانعي الحلويات، وسوق الرفائين[1034]، لرفو الملابس. ومنها ما يسمّى بأسماء أخرى، مثل: سوق الثلاثاء[1035]، وسوق يحيى[1036]، وسوق

(1030) المصدر نفسه، ص35 ـ 36.

(1031) المصدر نفسه، ص46.

(1032) المصدر نفسه، ص45.

(1033) المصدر نفسه والمكان.

(1034) المصدر نفسه، ص22.

(1035) كانت سوقاً لأهل كلواذا يقيمونها في أول ثلاثاء من كل شهر وذلك قبل أن يبني المنصور بغداد، وهي تقع على الحد الجنوبي من سور بغداد الشرقية، ينظر: مصطفى جواد و أحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، ص16، 117 ـ 118.

(1036) تقع في بغداد الشرقية، سميت بهذا الاسم نسبة إلى يحيى بن خالد البرمكي، المرجع السابق، ص114.

العطش[1037]، وسوق العروس[1038]. وكان سوق الدواب من أكثر هذه الأسواق مضايقة لمن يدخله، لأنه كان لا يأمن على نفسه من لكمة أو صدمة، أو لطمة تصيبه من شدة الزحام والإقبال على بيع وشراء الدواب[1039].

ولم تكن الحرف والأعمال مقتصرة على الرجال فقط، بل إن نساء بغداديات كُنّ يعملن في مهن عديدة وبخاصة الفنية منها، مثل الغناء، والعزف على الآلات الموسيقية. وقد اشتهرت العوادات، والزمارات والطبالات، والرقّاصات[1040]، ومن العوادات المشهورات (مواهب) التي يقول فيها ابن الحجاج:

تمام الحج أن تقف المطايا ... على دار تحل بها مواهب[1041]

وكان في بغداد أساتذة لتعليم السباحة، مثل الطوّا والزنابيري، ويظهر أن هناك أشكالاً عديدة للسباحة عرفت في بغداد، من ذلك مثلاً: «الشق والذرع والغمر والاستلقاء والتزاور والشكلبي والطاروسي والعقربي والمقرفص والموزون والكامل والطويل والمقيد»[1042]. وانتشر في بغداد العديد من الملاحين الذين كانوا يستخدمون قواربهم للنقل والنزهة. وكانت المراكب والسفن كثيرة العدد، وتختلف باختلاف أشكالها وأعمالها، وقد سمى لنا أبو القاسم نحو عشرين نوعاً نذكر منها:

(1037) تقع في محلة العطش في الكرخ، أسسها سعيد الخرسي في عهد المهدي، وقد عرفت باسمه ثم أطلق عليها الأهلون اسم «سوق العطش»، ينظر: المرجع السابق، ص122.

(1038) لم أعثر على اسم هذا السوق في «دليل خارطة بغداد الفصل»، ولاجل زيادة التفاصيل عن بقية أسواق بغداد ومحلاتها وخططها ينظر هذا المرجع في أماكن متفرقة.

(1039) الحكاية، ص65.

(1040) المصدر نفسه، ص50.

(1041) المصدر نفسه، ص89.

(1042) المصدر نفسه، ص107.

السميريات[1043]، والزبازب[1044]، والطيارات[1045]، والشذاوات[1046]، والحراقات[1047]، والزلالات[1048]، والخيطيات[1049]، والكار[1050]، والقرقور[1051].

الجواري والغناء:

لم يشتهر من جواري بغداد، على الرغم من كثرة عددهن، سوى المغنيات. فقد أحصى مؤلف الحكاية مع جماعة من أصحابه عدد الجواري المغنيات في سنة (360هـ/ 970م)، فبلغ أربعمائة وستين جارية مغنية في جانبي بغداد، أما عدد الغلمان المغنين، فبلغ خمسة وسبعين غلاماً. وكان عدد الحرائر المغنيات أقل بكثير، فلم يزد على العش. ويستثنى من هذه الإحصائية، الجواري والحرائر اللائي كن يستترن ولا يتظاهرن بالغناء، أو أن رقابة الأولياء عليهن كانت شديدة[1052]. وفيما يأتي ثَبْتٌ بأسماء بعض

(1043) السميريات: من أنواع المراكب التي يقاتل فيها ثم استعملت للنقل والنزهة في دجلة ناجي معروف، زوارق بغداد، مجلة الأقلام، جـ4 السنة الثالثة، ص15.

(1044) الزبازب: من مراكب القتال السريعة، وقد استعملت للهو والعبور، المرجع نفسه، ص12 ـ 13.

(1045) الطيارات: الطيار مركب استعمله الخلفاء العباسيون ووزراؤهم ببغداد، ومما يدل على سعته، أن صلاة الجمعة كانت تقام فيه أثناء الغرق، المرجع نفسه، ص16 ـ 17.

(1046) الشذاوات: مفردها شذاوة، وهي سفن صغار مثل الزبازب، المرجع نفسه، ص16.

(1047) الحرافات: سفن يقذف منها النار على العدو، ثم استعملت للعبور، وكان الأغنياء يتنافسون في بنائها وتزيينها، فأخرجوها على صور الحيوان والطير، المرجع نفسه، ص11.

(1048) الزلالات: كانت تتخذ للركوب والنقل، وتذكر أحياناً بالزلاجات، المرجع نفسه، ص14.

(1049) الخيطيات: نوع من المراكب كانت تصنع بالبصرة في الأبلة، ويركب فيها إلى الصين، المرجع نفسه، ص12.

(1050) الكار: يطلق على السفن المنحدرة المحملة بالطعام في موضع واحد. المرجع نفسه، ص20.

(1051) القرقور: سفن كبيرة تبلغ سعتها ما بين ستة عشر وعشرين ذراعاً، المرجع نفسه، ص20.

(1052) الحكاية، ص87.

الجواري والغلمان الذين اشتهروا بالغناء، ممن ورد اسمهم في الحكاية : زادمهر جارية أبي علي بن جهور، وهي بارعة الجمال، طيبة الغناء، عباراتها تشجي، وحديثها يلهي[1053]، وخرعوبة التي جمعت الذكاء مع الملاحة والفطنة والفصاحة[1054]، وقهوة جارية ابن الرصافي، وصلفة جارية أبي عابد الكرخي، وبنت حسنون، وخلوب جارية ابن أيوب القطان، ودرة جارية أبي بكر الجراحي، وعليّة، ودرة البصرية، وفترة القصرية، وخاطف، وسندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد، وعلوة جارية ابن علوية، ونهاية جارية السلمى، وريحانة جارية ابن اليزيدي، وترف، وأقحوان جارية ابن الأعمى، وروحة جارية ابن الرصافة، ومنتظم وعلوة جاريتا بنت خافاقان، وحبابة أبي تمام الرنني[1055]. وكانت هذه مغنية ونائحة، تنوح في الكرخ، وقد تهالك الناس عليها وعلى نوحها بالعراق، اشتراها رجل خراساني بثلاثين ألف درهم[1056]. وصابة[1057]، ودلال جارية ابن قهوة[1058]، ومن المغنين : ابن بهلول كان إذا غنّى «زلزل الدنيا بصوته الناعم ورنته الرخيمة وإشاراته الخالية وحركته المدغدغة وطرفه البارع ودماثته الحلوة»[1059]، وغلام الأمراء، والموصلي[1060]، ومذكور، وابن القصباني، وعلون غلام ابن عرس[1061].

(1053) المصدر نفسه، ص71.
(1054) المصدر نفسه، ص76.
(1055) المصدر نفسه، ص78 ـ 82.
(1056) المصدر نفسه، ص83.
(1057) المصدر نفسه، ص84.
(1058) المصدر نفسه، ص87.
(1059) المصدر نفسه، ص84.
(1060) المصدر نفسه والصفحة.
(1061) المصدر نفسه، ص84، 86.

وجواري بغداد - برأي أبي القاسم - جمعن الخَلق والخُلق، واللطافة، والنعومة، واللين. وإذا اجتمعت في جارية صفات مثل: رواية النوادر، والأجوبة الحاضرة، وحدّة المزاج، وسرعة الحركة بغير طيش ولا إفراط. ملكت القلوب والأسماع، وارتفع سعرها، وزاد الطلب عليها. وكما أسلفنا فقد بيعت (حبابة) النائحة بثلاثين ألف درهم، في حين أن سعر الجارية الواحدة من الجواري اللاتي لا يجدن الغناء، كان لا يزيد على خمسة آلاف درهم[1062]. والجواري البغداديات لا يعرفن إلا الدنيا والدينار، فقد كانت إحداهن (زادمهر) لا تتورع عن بيع جسدها بدينارين[1063]. وغالباً ما تضطر الجارية المغنية إلى سلوك طرق معوجة بحكم عملها، وملاقاتها لكثير من الرجال[1064]. وكان أصحاب الجواري، يستعملون طريقة العزل في اتصالاتهم بهن، ما يسبب لديهن نفوراً وضجراً: «وكان إذا تعاطاها يعزل عنها فضجرت ليله ورمت به عن نفسها...»[1065]، ويبدو من هذا أن أصحاب الجواري كانوا لا يحبذون إنجاب الأطفال منهن، لما يترتب على ذلك من حقوق جديدة للجارية أم الولد، بحيث لا يحق لصاحبها أن يبيعها ما دام حياً، فإن مات تصبح حرة.

وكان أصحاب الجواري، كثيراً ما يقيمون الحفلات الغنائية، ومجالس اللهو، التي تحييها جواريهم، فيدعون إليها أصحابهم وأصدقاءهم. وقد تتدلل الجارية على سيدها ولا تقبل الغناء إلا بحسب مزاجها، وبخاصة إن كان لها نفوذ عليه[1066]. ولم يكن إحياء مجالس

(1062) المصدر نفسه، ص35.
(1063) المصدر نفسه، ص72 ـ 73.
(1064) المصدر نفسه، ص74.
(1065) المصدر نفسه، ص72.
(1066) المصدر نفسه، ص71.

اللهو مقصوراً على الجواري فقط، فللمغنين نصيب كبير في هذا المجال، وإذا ما فُتن صاحب المجلس بغناء المغنّي، بذل له المال بسخاء، فيعطيه الملابس الفاخرة، وما يكفيه من الذهب لمدة أسبوع، ويقيم على شرفه الموائد العامرة بكل ما لذ وطاب من الطعام والشراب. ولم تكن الخمر تشرب في كل مجلس من مجالس الغناء، لأن هذا كان يتوقف على رب الدار وصاحب المجلس، وإن كان في الغالب يلبي طلب الحضور إذا أصرّوا على الشراب[1067].

وتختلف زينة الجواري باختلاف البيئة الاجتماعية، والمستوى المعاشي الذي يتواجدن فيه. فقد كانت زينة بعضهن بسيطة، مثل الأساور في المعاصم، والخلخال في الأرجل، في حين أن المشهورات منهن يتزين بحلي نفيسة تبلغ قيمتها ألوف الدنانير، مثل مسابح العنبر في العُنُق، والحلي الذهبية على الصدور، وهي مرصعة بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر[1068]. ونفقات هؤلاء الجواري بالذات كانت كبيرة، ومتطلبات معيشتهن كثيرة. فإحداهن مثلاً (خرعوبة) كانت تنام على سرير من خشب العود كلفته ألف درهم[1069]، والأخرى (زادمهر) لم يكن يكفيها خمسة وثلاثون درهماً في الشهر لمعيشتها، فكانت تشكو إلى صاحبها وتقول: «لو شربت بها فقاعاً ما كفتني ولو شربت بها دبقاً ما أغنتني...»[1070]، وهددته إن لم يتداركها ويعطيها ما يكفيها من النفقة، فإنها سوف تسلك طريق الغناء، وما يتبع هذا الطريق... لتعيش الحياة الرغيدة التي تريد.

(1067) المصدر نفسه، ص86.
(1068) المصدر نفسه، ص53.
(1069) المصدر نفسه، ص76.
(1070) المصدر نفسه، ص73.

الطفيليون:

كان الطفيليون ظاهرة اجتماعية فريدة في المجتمع البغدادي، فكانوا ينتهزون الفرص في مناسبات الأعراس، والختان، ويدخلون إليها من غير سابق دعوة. وهذا بطبيعة الحال أسهل من العمل، أو الشراء، أو التعامل مع البقّال والقصّاب. وصوَّر المؤلف، الطفيلي بصورة رائعة حين قال: «...يشم القدور شم الذباب وإذا ما استبان آثار عرس أو ختان أو مطمعاً في اختلاب لم يروع دون الدخول ولم يرهب على الباب لكزة البواب، ذاك أشهى من التكلف والعزم وغيظ البال والقصاب يرى ركوب البريد في طلب الثريد...»[1071]، وكان هؤلاء الطفيليون لا يهمهم إلا الأكل بغض النظر عن صاحبه أو مصدره فالواحد منهم «يغشى عليّاً لقدره ومعاوية لقدره»[1072]، إن رأى طعاماً لزم جانبه لا يبغى عنه حولاً:

مصمم إن رأى خواناً[1073] شد على جانب الخوان[1074]

وإن سمع بوليمة سعى إليها:

فلو كان في يوم الوليمة في لظى لجاءت به ريح الجرادق والقدر[1075]

والطفيليون ثقلاء أحيانا، عُيِّر أحدهم: أنه أثقل من طفيلي يعربد على الندماء، ويقترح أنواع الغناء، ويتشهى - بعد أكل الغداء والعشاء - ألوان الصيف في الشتاء[1076].

(1071) المصدر نفسه، ص13 ـ 14.

(1072) المصدر نفسه، ص10.

(1073) الخوان: الذي يؤكل عليه، وجمعه أخونة، لسان العرب، مادة: (خون).

(1074) الحكاية، ص10.

(1075) المصدر نفسه، ص15.

(1076) المصدر نفسه، ص120.

بعض الأمثال البغدادية:

من ملاحظتنا لبعض الأمثال البغدادية التي جاءت في الحكاية، نستطيع أن نكوّن فكرة عامة عن طبيعة المجتمع ومستواه في التفكير وقياس الأمور، فالمثل: «إذا مات الراعي تفرقت الغنم»[1077]، يشير إلى مجتمع يقدس الفرد، ويعتبره الكل في الكل، أما الشعب، بحسب هذه النظرة، فلا أهمية له في تطور التاريخ وسير أحداثه. وتتجلى النظرة المصلحية بالمثلين التاليين: «من ليس يدك في قصعته لا تبال بصلعته»[1078]، «مع الذئب يعبث ومع الراعي يستغيث»[1079].

وعن قلة الذوق الاجتماعي كان يضرب هذا المثل للشخص الذي لا تُرغب زيارته، فهو لا يكتفي بالزيارة منفرداً، بل يستصحب معه ثانياً: «فأرة ما وسعها الثقب في ذنبها مكنسة»[1080]، وعن الثقيل أيضاً: «أبرح من ثقل الدين وأمرّ من وجع العين»[1081]، ومثل يضرب عن تابع صديق السوء الذي يجلب له المصائب : «فمن كان دليله البوم كان مأواه الخراب»[1082]، وهناك أمثلة بغدادية أخرى، تُلمح إلى الكثير من المعاني والمغازي الاجتماعية المستترة، منها:

«قيل لِوَتَدٍ: ما أسرع دخولك فقال: لو علمتم ما خلفي من الدق لعذرتموني»[1083].

(1077) المصدر نفسه، ص98.

(1078) المصدر نفسه، ص8.

(1079) المصدر نفسه، ص11.

(1080) المصدر نفسه، ص14.

(1081) المصدر نفسه، ص69.

(1082) المصدر نفسه، ص15.

(1083) المصدر نفسه، ص98.

«إذا شبع الحايك سمّى ابنته ملكة»[1084].

«إذا ظهر الوالي اختبى رفيقهم»[1085].

ومن المؤسف أن هذه الأمثال جميعاً لم تستغل في هذه الحكاية إلا في معان ومواضيع لا يمكننا أن نعتبرها إرشادية في أي حال، يضاف إلى ذلك أن هناك الكثير من الأمثال التي أعرضنا عن ذكرها لخلاعتها وسخف معانيها[1086].

(1084) المصدر نفسه، ص74.

(1085) المصدر نفسه، ص92.

(1086) انظر على سبيل المثال: ص8، 9، 14، 94 ـ 95 من الحكاية.

المصادر والمراجع

* الأزدي: محمد بن أحمد ؟؟؟؟

1 ـ حكاية أبو القاسم البغدادي، (مطبعة كرل ونتر في هيدلبرج، 1902).

* البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت487/ 1094م).

2 ـ معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، 1945 ـ 1947).

* ابن البيطار: أبو محمد عبدالله بن أحمد الأندلسي (ت248هـ/ 862م).

3 ـ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، (مصر، 1292هـ).

* الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت429هـ/ 1037م).

4 ـ يتيمة الدهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة (مصر، 1377).

* جواد: مصطفى جواد.

5 ـ حكاية أبي القاسم البغدادي هل هي لأبي حيان التوحيدي؟ مجلة الأستاذ، مج/ 12، 1963 ـ 1964.

* جواد وسوسة: مصطفى جواد و أحمد سوسه.

6 ـ دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد، 1958).

* ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن بكر (ت681هـ/ 1282).

7 ـ وفيات الأعيان، مطبعة السعادة (مصر، 1948).

* دوي : رينهارت.

8 ـ المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل (بغداد، 1971).

* الراوي : عبد اللطيف عبد الرحمن.

9 ـ المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة، مكتبة النهضة (بغداد، 1971).

* الزركلي: خير الدين .

10 ـ الأعلام، ط3 (بيروت، 1961).

* سركيس: يوسف إليان.

11 ـ معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، (مطبعة سركيس بمصر، 1928).

* السمعاني: أبو سعيد عبد الكريم بن محمد (ت562هـ/ 1167).
12 ـ الأنساب، نشر: مارجليوث (لندن، 1912).
* ابن سيدة: أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت458هـ/ 1065).
13 ـ المخصص، المطبعة الأميرية ببولاق (القاهرة، 1316 ـ 1320م).
* فهد: بدري محمد.
14 ـ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (بغداد، 1967).
* الفيومي: أحمد بن محمد بن علي (ت770هـ/ 1268م).
15 ـ كتاب المصباح المنير (القاهرة،1909).
* مبارك: زكي مبارك.
16 ـ النثر الفني في القرن الرابع، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة، 1924).
* معروف: ناجي معروف.
17 ـ الثياب البغدادية في العصور العباسية، مجلة الأقلام، ج5، السنة الخامسة.
18 ـ زوارق بغداد، مجلة الأقلام، ج4، السنة الثالثة.
* ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ/ 1211م).
19 ـ لسان العرب (بيروت، 1956).
* ياقوت: شهاب الدين أبي عبدالله الحموي (ت626هـ/ 1228م).
20 ـ معجم الأدباء، باعتناء: مارجليوث (مصر، 1923 ـ 1925).
21 ـ معجم البلدان، باعتناء: وستنفيلد، لايبزك، 1870، وطبعة (بيروت، 1957).

ملامح عن جهاز الشرطة في العصر العباسي

نشرت مقتطفات من هذا البحث في مجلة الشرطة، العدد 30، بغداد، 1975
ومجلة الجامعة، العدد 5، السنة العاشرة، الموصل، 1980

صاحب الشرطة:

اقتصر لفظ «صاحب الشرطة» في العصر العباسي على الشخص المسؤول عن الأمن والنظام، ولهذا فقط كانت واجباته قريبة الشبه بواجبات رؤساء الشرطة في يومنا، مع بعض التباين الذي يفرضه التطور، واختلاف طبيعة كل من العصرين. وتعد إقامة أحكام الجرائم، واستيفاء الحدود، من العوامل الأساسية التي قررت وضع الشرطة في ذلك العصر وكان الذي يقوم بهذه الأمور يسمّى صاحب الشرطة[1087].

ويمكن تلخيص بعض مهام صاحب الشرطة، بالاستناد إلى ما جاء في رسالة الخليفة الطائع لله (363 ـ 381هـ/ 974 ـ 991م) إلى فخر الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه، فصاحب الشرطة يجب أن يتقدم بقمع الجُهّال،

(1087) مقدمة ابن خلدون، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص251.

وردع الضلاّل، وتتبع الأشرار، وطلب الدعاء، وأن يقيم حدود الله على من استحقها[1088]. ويذكر ابن خلدون أن أحكام الشرطة لم تكن عامة التنفيذ في كل الطبقات، بل كان حكمهم على الدهماء، وأهل الريب[1089]. ولكن على الرغم من ذلك، فإن صاحب الشرطة كان يستطيع معاقبة الوزراء، وجلد أبناء القادة الكبار، تنفيذاً لأوامر الخليفة، أو ولي عهده[1090]. وله الحق في محاسبة الأفراد الذين يعتنقون المذاهب المعادية للدولة[1091]. كما كان يعاقب من يزَوّر توقيع الوزير، وطريقة المعاقبة في مثل تلك الحالة، هي أن يُضرَب المزوِّر بالسوط، ثم يُطاف به في المدينة على جمل، ليكون عبرة لغيره[1092]. ويبدو أن صاحب الشرطة كان مسؤولاً عن السجون وتفتيش ما يدخل إليها من الأطعمة وغيرها[1093]. وكان يُنتدب هو والشرطة من أعوانه للقضاء على الفتن التي قد تحدث داخل السجون، أو إلقاء القبض على المسجونين الهاربين وإعادتهم إلى السجن[1094]. وكان عليه أيضاً أن يقضي على الفتن التي

(1088) الصابي، المختار من رسائل أبي إسحق إبراهيم بن هلال بن زهرون، تنقيح وتعليق: الأمير شكيب أرسلان، لبنان، 1898: 1/ 96 ـ 115. وانظر: نص الرسالة عند القلقشندي، صبح الأعشى، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية، القاهرة: 1580 ـ 31.

(1089) المقدمة، ص251.

(1090) الصابي، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1958، ص323، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر أباد الدكن، 1357هـ: 6/ 49.

(1091) من ذلك مثلاً أن نازوك الذي تولى منصب الشرطة بمدينة السلام سنة 310هـ/ 922م طالب نفراً من أصحاب الحلاج بالرجوع عن مذهبهم، فرفضوا، فضرب أعناقهم وصلبهم في الجانب الشرقي من بغداد، ووضع رؤوسهم على سور السجن في الجانب الغربي، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، 6/ 189.

(1092) الصابي، الوزراء، ص224 ـ 225.

(1093) ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، مصر، 1329، ص103.

(1094) ابن الجوزي، المنتظم: 6/ 146، ص153.

تحدث بين العوام، وأن يردع العيارين[1095]. كما كان يتولى بنفسه أحياناً إذاعة البلاغات والمناداة بها في جانبي بغداد لتحذير المجرمين وإبعادهم. ويظهر أنه كان مسؤولاً أيضاً عن عمارة سور المدينة وأبوابها، وله حُرّاس يتفقدون الدروب من أول الليل إلى آخره[1096]. وكان ضمن واجباته أن يحكم غلق أبواب المدينة، ويتفقد من يدخل إليها ومن يخرج منها[1097]. ومن مهماته الأخرى، منع المظلوم من الانتصار لنفسه، وأن يأمر العامة أن يدلّوا على المجرمين، ولا ينبّهوهم للهرب[1098].

ويبدو مما تقدم الأهمية الكبيرة لنفوذ صاحب الشرطة في العصر العباسي، الأمر الذي دفع بعضهم إلى كتابة أسمائهم على الفرش والمقاعد والستور شعوراً بالعظمة[1099]. وكان صاحب الشرطة يتولى دعوة من يرشحه الخليفة لمنصب الوزراء[1100]، ويسير في موكب الوزير الجديد مع مجموعة من القادة والغلمان[1101]. وقد بلغ من نفوذ بعضهم، أنهم كانوا يتدخلون في مبايعة الخلفاء[1102]. بل بلغ من قوة ونفوذ نازوك، الذي تولى منصب الشرطة ببغداد سنة (310هـ/ 922م)، أن استطاع في سنة (317هـ/ 929م) أن يؤلّب الناس والفرسان المسلمين الذين زاد عددهم على اثني عشر ألفاً للهجوم بهم على دار الخلافة، وخلع الخليفة المقتدر بالله (295 ـ 320هـ/ 908 ـ 932م)، وينصب القاهر بالله (320 ـ 322هـ/ 932 ـ

(1095) المصدر نفسه : 8/ 66 ـ 67.
(1096) المصدر نفسه: 6/ 276.
(1097) ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص 103.
(1098) المصدر نفسه: 104.
(1099) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1966: 11/ 56.
(1100) الصابئ، الوزراء، ص28، مسكويه، تجارب الأمم، باعتناء: هـ. ف. أمدروز، مصر، 1332: 1/ 7.
(1101) الصابي، الوزراء، ص 336.
(1102) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1966: 8/ 16 ـ 17.

934م)، ليتقلد بعد ذلك إضافة إلى منصبه كصاحب للشرطة في بغداد، منصب الحجابة أيضاً[1103]. وكان توزون التركي[1104]، من السطوة بحيث تقلد الشرطة إلى جانب كونه قائداً للجيش، وأميراً للأمراء، وزاد نفوذه فاستطاع أن يخلع الخليفة المتقي (329 ـ 333هـ/ 940 ـ 944م) ويسمل عينيه، ثم ينصِّب المستكفي بالله محله[1105] سنة (333هـ/ 944م).

إن ما ورد من أمثلة يدل على مقدار ما كان يتمتع به بعض أصحاب الشرطة في بغداد من نفوذ وسطوة تصل إلى حد التمرد على الخلفاء، ومحاولة خلعهم واستبدالهم، أو قتلهم، أو سمل عيونهم، وكلّ هذه الأحداث لا تبدو واضحة إلا في الأحوال التي كانت تضعف فيها الخلافة، ويشتد فيها النفوذ الأجنبي، وتكثر الدسائس والمؤامرات. أما في أوقات قوة الخلفاء، فالعكس هو الذي يحدث، ونجد للخليفة عيوناً على المتنفذين في البلاد، ومنهم صاحب الشرطة، ينقلون إليه ما يستجد من الأمور التي تثير الريبة والشك، تلك هي الشرطة السرية[1106]، التي سنتعرض لها بعد قليل.

وثمة أمر آخر يجب التطرق إليه، ولو بشيء من الإجمال، عند البحث في أعمال وصلاحيات صاحب الشرطة، ذلك هو ماهية وعدد القوة التي كانت بإمرته، وكيفية إدارتها، وتوزيع أعمالها. وفي الواقع يصعب

(1103) ابن الجوزي، المنتظم : 6/ 221 ـ 222، وانظر : فاروق عمر، الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، بغداد، 1974، ص61 ـ 62.

(1104) قلده الخليفة المتقي منصب إمرة الأمراء سنة (331هـ ـ 942م وتوفي سنة (334هـ / 945م)، انظر : ابن الجوزي: 6/ 334، ابن الأثير : 8/ 399 ـ 448 .

(1105) ابن الجوزي: 6/ 338، ابن الأثير : 8/ 419، وانظر فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ص57.

(1106) انظر : عبد الواحد ذنون طه، جهاز الأمن والشرطة السرية في العصر العباسي، مجلة الشرطة، العدد 30، 1975، ص56 ـ 60.

على الباحث أن يثبت عدداً معيناً لأفراد القوة التي كان يستخدمها صاحب الشرطة في تلك الفترة، لقلة المعلومات التي ترد في هذا المجال أولاً، ولأن ما يرد منها لا يمكن تعميمه على كل العهود ثانياً. وقد أورد لنا مسكويه[1107] عدد أفراد الشرطة ببغداد، الذين كانوا بإمرة مؤنس الخازن سنة (299هـ/ 912م)، فذكر أنها بلغت نحواً من تسعة آلاف فارس وراجل. وقد ارتفع هذا العدد في إمرة نازوك، فوصل إلى أربعة عشر ألفاً من الفرسان والمشاة[1108]. لكن القوة المهيمنة التي كانت تنزل إلى المدينة للسيطرة عليها وحفظ الأمن فيها، كان قوامها خمسمائة رجل[1109].

وقد قسمت بغداد إلى أرباع، فكان لصاحب الشرطة معاونون ومساعدون في هذه الأرباع[1110] يساعدونه في إقرار الأمن والنظام في المدينة. ويستعين صاحب الشرطة بصورة خاصة باثنين ممن يعتمد عليهم، فيعيّن كل واحد منهما على أحد جانبي بغداد ويدعى صاحب الجسر[1111]، ولكل واحد من هذين المعاونين محله الخاص في الجانب الشرقي أو الغربي من بغداد[1112]، ومنه يكتب إلى صاحب الشرطة يومياً بما يحدث في دائرة اختصاص[1113]. يضاف إلى ذلك أن صاحب الشرطة كان يقوم أحياناً ببث العيون والجواسيس لجمع الأخبار ومتابعة المجرمين، والتعرف إلى أماكنهم لغرض القبض عليهم[1114]. وكانت شرطة بغداد

(1107) تجارب الأمم: 1/ 20.

(1108) هلال الصابي، رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد، بغداد، 1964، ص9.

(1109) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مادة : (شرطة).

(1110) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر : دي غويه، ليدن، 1879: 3/ 682.

(1111) ابن طيفور، بغداد، بيروت، 1968، ص13.

(1112) المصدر نفسه، ص38.

(1113) المسعودي، مروج الذهب ومعاون الجوهر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة، القاهرة، 1958: 4/ 95.

(1114) الطبري : 3/ 1024.

تستعين بالتوابين. والتوابون بحسبما يعرفهم المسعودي[1115]، «هم شيوخ أنواع اللصوص الذين قد كبروا وتابوا فإذا جرت حادثة علموا مِنْ فِعل مَن هي. فدلوا عليه، وربما يتقاسمون اللصوص ما سرقوه». وكان يُصرف لهؤلاء عشرة دنانير في الشهر لكل واحد منهم[1116]. وبالإضافة إلى هؤلاء، فلصاحب الشرطة حرس خاص يجوبون المدينة في الليل لحفظ الأمن[1117]. فإذا ما عثر أحدهم على ما يريبه في أحد من الناس، رفع أمره إلى صاحب المسلحة[1118]. ويقوم هذا بدوره في عرض الأمر على صاحب الجسر[1119] الذي يتصرف في الأمر، إلا إذا كانت المسألة ذات أهمية كبيرة، فترفع عندئذٍ إلى صاحب الشرطة للنظر فيها.

يتضح مما تقدم أهمية الأعمال والمهام التي يقوم بها صاحب الشرطة في العصر العباسي، كما يمكن ملاحظة دقة توزيع الأعمال وتنظيم الاختصاصات، التي تدل على مدى ما وصلت إليه أجهزة الشرطة، اعتباراً من الغلمان الموكلين بحراسة أبواب المدينة[1120]، إلى صاحب الشرطة المسؤول الأول عن الأمن والنظام في المدينة.

(1115) مروج الذهب: 4/ 248.

(1116) المصدر نفسه: 4/ 250.

(1117) ابن أبي الربيع، سلوك المالك، ص103، الطبري: 3/ 1074، آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط1، القاهرة، 1940: 2/ 234.

(1118) نعني بأصحاب المسالح اليوم ما يعرف بمراكز الحراسة والحماية: مصطفى جواد، مجلة الشرطة، العدد 2 ـ 3، 1965، ص27. والمسالح: «مواضع القوم الذين معهم السلاح.... والمسلحة قوم في عدة بموضع مرصد قد وكلوا به...» ابن سيدة، المخصص، بيروت، ؟: 2/ 76. وجاء في كتاب «الفتوة» لابن المعمار، ص289، ما يفهم منه أن (المسالحة) جمع (لمسلحي)، هو المرابط في المسلحة من الجند والشرطة والحرس. (تحقيق ونشر: مصطفى جواد وآخرين، بغداد، 1958.

(1119) الطبري: 3/ 1074.

(1120) الصابي، الوزراء، ص218.

صاحب الخبر وأهل الأخبار:

هناك ما يحمل على الاعتقاد أن منصب صاحب الخبر في العصر العباسي كان مستقلاً عن منصب صاحب الشرطة، بل إن صاحب الخبر لا علاقة له بجهاز الشرطة العام، ولا يتَّبع تنظيماته. لكن الشرطة تنظيم من تنظيمات الدولة، كان لها شرطتها السرية الخاصة بها، كما كان للخليفة صاحب خبره الخاص، هذا فضلاً عن الوزراء الذين استخدموا هم أيضاً أهل الأخبار لتزويدهم بالتقارير السرية اليومية.

ولنبدأ أولاً بالشرطة، فقد كان أفرادها يقدمون تقارير سرية يومية إلى صاحب الشرطة تسمّى (رقاع أصحاب الشرطة)، يخبره كل واحد منهم «بخبر يومه وما جرى في عمله»[1121] ومن جملة هموم هؤلاء مراقبة نساء الوزراء والأمراء المبعدين عن الخدمة، وتقديم التقارير عن التحركات المريبة التي قد تصدر عن بعض هؤلاء النسوة[1122]. وكانت التقارير التي ترسل إلى صاحب الشرطة أو غيره من المسؤولين، تسمّى (الرقاع)، ومفردها (رقعة)[1123]. وكان لجهاز الشرطة عيون ومعتمدون لجمع الأخبار، ومتابعة المجرمين، والتعرف إلى أماكنهم[1124] يضاف إلى ذلك أن الشرطة كانت تستعين بالتوّابين كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

وبالنسبة إلى الوزراء، فقد كان لهم، كما قدَّمنا، أصحاب أخبارهم الخصوصيون في بغداد وخارجها[1125]، وكان صاحب خبر الوزير يكتب إليه بما يقوله الناس عنه وعن عمله[1126]، وعن المؤامرات السياسية التي

(1121) التنوخي، الفرج بعد الشدة، القاهرة، 1955، 2/ 273.
(1122) المصدر والمكان نفسيهما.
(1123) ابن طيفور، بغداد، ص36، الصابي، الوزراء، ص242.
(1124) الطبري: 3/ 1024.
(1125) الصابي، الوزراء، ص336.
(1126) المصدر نفسه ص379.

يدبّرها منافسوه، وعن الأراجيف التي تنتشر في البلد بشأن عزله أو بقائه في السلطة[1127]. وكان هؤلاء المخبرون الذين ينقلون تلك المعلومات إلى الوزراء، نشيطين ويتميزون بالسرعة إلى درجة مذهلة[1128].

أما الخلفاء فيظهر أنهم كانوا يعيّنون موظفاً خاصاً للأخبار يسمّى صاحب الخبر أيضاً[1129]، وكان هذا يكتب إلى الخليفة مباشرة[1130]. ويفترض أن تتوافر في هذا الرجل صفة الأمانة وخشية الله سبحانه وتعالى، فقد أوصى الخليفة المأمون (198 ـ 218هـ/ 813 ـ 833م) إبراهيم ابن السندي حين أراد أن يوليه الخبر بمدينة السلام قائلاً: «...فانظر أن تعمل بما يجب لله عليك ولا تراقب أحداً غيره...»[1131].

كانت الأخبار تعتمد على مراقبة الناس من غير أن يشعروا أو أن يكون لهم سابق علم بذلك، وكان ينقلها في بعض الأحيان، الأطفال، والنساء، والمحتالون، وأبناء السبيل، وغيرهم. لهذا لم يكن يفترض منها أن تصح أو أن يلزمها شاهدا عدل وقد قال إبراهيم بن السندي متولي خبر بغداد للمأمون حين ناقشه في مدى صحة أحد الأخبار: إن أراد أمير المؤمنين «ألا نكتب بخبر ولا نرفعه حتى يصح بالعدول والبراهين فعلت ذلك، وعلى أن لا يتهيأ ذلك في سنة مرة أو مرتين»[1132]. وكان أصحاب الأخبار يؤمرون أن يمزقوا ويتلفوا (الرقاع) التي فيها تجاوز على السلطات، وألا يرفعوها إلى الخليفة[1133].

(1127) المصدر نفسه، ص48.
(1128) المصدر نفسه، ص383.
(1129) ابن طيفور، بغداد، ص37.
(1130) المصدر نفسه، ص38.
(1131) المصدر نفسه، ص35.
(1132) المصدر نفسه، ص36.
(1133) المصدر نفسه، ص37.

ولا يحق لصاحب الخبر أن يتدخل في شؤون ومهمات صاحب الشرطة، بل هو يكتب ما يسمع ويرى فقط. وعلى سبيل المثال، فقد قال عياش بن قاسم - متولي الجسرين في عهد المأمون - لإبراهيم بن السندي، صاحب الخبر، عندما تعرض إبراهيم لمجلس عياش: «إنما أنت صاحب خبر تكتب ما تسمع وترى وليس لك أن تتكلم في مجلسي وأمري ونهيي، فإن أمسكت وإلا أمرت من يجر برجلك حتى يرمي بك في دجلة»[1134]. إن هذا النص يبين العلاقة بين صاحب الشرطة، وصاحب الخبر، الذي حاول أن يتعدى حدود صلاحياته بالتدخل في مجلس صاحب الشرطة وهذه العلاقة التي يشوبها نوع من التوتر، هي نتيجة متوقعة، بالنظر إلى طبيعة عمل صاحب الخبر وأعوانه الذين كان يفترض بهم أن يراقبوا ويتلقطوا الأخبار من أي مصدر كان، وينقلوها إلى الخليفة، فكان من الطبيعي أن تصبح تنظيمات الشرطة، وتصرفات أفرادها، هدفاً مهماً لصاحب الخبر. فإذا ما وقعت بعض الأخطاء سارع إلى رفعها إلى الخليفة، ليطّلع على ما يجري من أمور في دولته. وفي النص الآتي تأييد لما ذهبنا إليه، يقول إبراهيم بن السندي بعد توليه خبر مدينة السلام: «...ثم نهضت فبثثت أصحاب الأخبار في أرباع بغداد فَرُفع إليّ أن صاحب الحرس أخذ امرأة مع رجل نصراني من تجار الكرخ فهجم عليها فافتدى النصراني نفسه بألف دينار، قال: فرفعت بهذا الخبر إلى المأمون...»[1135]، وهذا يعني أن صاحب الحرس، وهو من الشرطة، خلى سبيل التاجر النصراني الذي ضبط في وضع مريب مع إحدى النساء لقاء ألف دينار، وفي هذا تقصير متعمد بواجبه، استطاع صاحب الخبر أن يقع عليه ويخبر به الخليفة فوراً.

(1134) المصدر والمكان نفسيهما.

(1135) المصدر نفسه، ص 35.

لقد استمر جهاز الأخبار السري هذا في عمله طوال العهد العباسي، ووصل إلى أعلى حد من الكفاءة في خلافة الناصر لدين الله (575 ـ 622هـ/ 1180 ـ 1225م) فقد استطاع أحد هؤلاء الموظفين السريين أن يستمع حتى إلى الذي يحدّث نفسه على انفراد، فينقل كلامه إلى الخليفة الناصر[1136]. لكن الخليفة الجديد الذي أعقب الناصر، وهو الظاهر بأمر الله (622 ـ 623هـ/ 1225 ـ 1226م) لم يَرُقْ له اتساع هذا الجهاز وتطور أعماله التي شملت مراقبة الناس في دروبهم، وبيوتهم. ويشير ابن الأثير[1137] في حوادث سنة (622هـ/ 1225م) إلى هذا الأمر بقوله: «...أن العادة كانت ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع ببعض الأصدقاء على نزهة، أو سماع، أو غير ذلك، ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير، فكان الناس من هذا في حجر عظيم. فلما ولي هذا الخليفة ـ جزاه الله خيراً ـ أتته المطالعات على العادة[1138]، فأمر بقطعها، وقال: أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم ؟ فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له: إن العامة تفسد بذلك، ويعظم شرّها، فقال: نحن ندعو الله أن يصلحهم».

أسلحة الشرطة العباسية

أدت الشرطة العباسية دوراً مهماً في الحياة العامة، فقد كانت مسؤولة عن حماية أرواح الناس وممتلكاتهم، وتوفير الأمن وإقرار النظام في

(1136) الصفدي، نكت الهيمان في نكت العميان، المطبعة الجمالية بمصر، 1329هـ، ص94 ـ 95.

(1137) الكامل في التاريخ: 12/ 443.

(1138) المطالعات، وهي التقارير المحررة عندهم في ذلك العهد، انظر : مصطفى جواد، مجلة الشرطة، العدد 5، 1967، ص30.

البلاد، فما هي القوة التي كان يستخدمها أفراد الشرطة؟ وما هي الأسلحة التي كانت في حوزتهم إبان ذلك العصر لتنفيذ مهماتهم الجسيمة؟

استخدمت الشرطة العباسية، فضلاً عن الأسلحة الاعتيادية المعروفة، كالسيوف، والخناجر، والتروس، بعض الأدوات الأخرى التي كانت خاصة بهم، أهمها : الطربزين - وجمعها الطربزينات - وهي ضرب من الفؤوس، التي يعبر عنها بالطبر[1139]، ولا تزال تعرف بهذا الاسم عند أهل بغداد حتى الوقت الحاضر[1140]، وهناك من يرى أن الطربزين، هي سكين طويل معلق يحمله أصحاب الشرطة[1141]، ولكن من المرجّح، هو ما أسلفنا ذكره من أنها ضرب من الفؤوس. ويبدو أن حمل الطربزين لم يكن مقصوراً على الشرطة فحسب، بل كان يحمله بعض الخاصة من الناس أيضاً[1142]. ولكن في الواقع كانت هذه الآلة خاصة بالشرطة وتقترن بها، فكان يظن بكل من يحملها أنه منها. ومن الطريف في هذا المجال أن بعض اللصوص قد استغلوا الطربزين لإخفاء شخصياتهم، والتنكر بزيّ الشرطة، فمنهم من يتقلد هذه الآلة كأنه شرطي ثم يدخل البيت الذي يريد السرقة منه من أي طريق وبأيّ صلة فإذا أظفر به صاح بصاحب الدار أنْ قُم وامضِ معي فقد أتيت لجلبك إلى صاحب الشرطة في تهمة كذا، فيظن صاحب البيت ومن يكون رآه من الناس أن الأمر كذلك فلا يقبضون عليه قبضهم على السارق بل يمتثل المأمور منهم أمره حتى إذا خرج ووجد

(1139) الجواليقي، المُعرَب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، 1969، ص276، مقامات بديع الزمان الهمداني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1889، ص162.

(1140) انظر: تعليق ميخائيل عواد علي رسوم دار الخلافة، المصابي، بغداد، 1964، ص13، هامش (4).

(1141) متز، المرجع السابق، 2/ 234.

(1142) الصابي، الوزراء، ص236.

سبيل النجاة أفلت»[1143].

ومن أساليب الردع التي استعملتها الشرطة العباسية إزاء المجرمين، أو من يغضب عليهم الخليفة، من الوزراء والأعيان، أن يُضرَب المتهم منهم بـ (القلوس)[1144]. وكان الضرب بالسوط[1145]، والمقارع[1146]، والتكبيل بالحديد، والقيود الثقيلة[1147]، أمراً شائعاً في معاقبة المجرمين، أو أخذ اعترافاتهم بالقوة. وقد اتبع هذا الأسلوب بصورة خاصة مع الوزراء المغضوب عليهم من قبل الخليفة لحملهم على التصريح بما لديهم من أموال وممتلكات.

وللشرطة مكان خاص بهم، يسمّى بـ (مجلس الشرطة)، حيث تنفذ العقوبات في رحبة هذا المجلس أحياناً، فيجتمع العامة لحضورها، ولاسيما إذا كان المعاقب مشهوراً أو معلوماً لدى الجمهور[1148].

وكان أفراد الشرطة يحملون التروس، كما كان لهم زيّ وأعلام خاصة، وإذا ساروا في الليل، حملوا الفوانيس واصطحبوا معهم كلاب الحراسة[1149]. وللشرطة فرقة أو جماعة تسمّى بـ (النفاطين)[1150]، ويبدو أن مهمة هؤلاء كانت تنحصر في حمل المواد المشتعلة ورميها في أوقات الاضطرابات، وفتن العامة. أما سلاح صاحب الشرطة نفسه، فكان

(1143) مقامات الهمداني، ص162.

(1144) جمع (القلس): وهو حبل ضخم من ليف أو خوص، وقيل حبل غليظ من حبال السفن، انظر : ابن منظور، لسان العرب، مادة (قلس).

(1145) الصابي، الوزراء، ص116، مسكويه، تجارب الأمم: 1/ 81.

(1146) الصابي، الوزراء، ص116، 323.

(1147) المصدر نفسه، ص116.

(1148) مسكويه، تجارب الأمم: 1/ 74، 81.

(1149) حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، 1966، 2/ 677.

(1150) مسكويه، تجارب الأمم: 1/ 121.

الدبوس، الذي يحمله بيده، إضافة إلى سلاحه الاعتيادي، فيخرج في جولاته مع معاونيه، ويتبعه في العادة عدد من الغلمان[1151].

(1151) الصابي، الوزراء، ص60.

مصادر ومراجع البحث

أ ـ المصادر الأولية:

1 ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1966.
2 ـ التنوخي، الفرج بعد الشدة، القاهرة، 1955.
3 ـ الجواليقي، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق: محمد شاكر، القاهرة، 1969.
4 ـ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر أباد الدكن، 1357هـ.
5 ـ ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
6 ـ أبن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبر الممالك، القاهرة، 1329هـ.
7 ـ الصابي، رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد، بغداد، 1964.
8 ـ المختار من رسائل أبي إسحق إبراهيم بن هلال بن زهرون، تنقيح وتعليق الأمير شكيب أرسلان، لبنان، 1899.
9 ـ الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1958.
10 ـ الصفدي، نكت الهيمان في نكت العميان، المطبعة الجمالية بمصر، 1329هـ.
11 ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غويه، ليدن، 1897.
12 ـ طيفور، بغداد، بيروت، 1968.
13 ـ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن مطبعة الأميرية، القاهرة (د.ت).
14 ـ ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، مكتبة المعارف، بيروت، 1967.
15 ـ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبع السعادة، القاهرة، 1958.
16 ـ مسكويه، تجارب الأمم، باعتناء، هـ. ف. امدروز. القاهرة، 1332هـ.
17 ـ ابن المعمار، الفتوة، تحقيق: مصطفى جواد وآخرين، بغداد، 1958.
18 ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار لسان العرب، بيروت 1970.

19 ـ الهمداني، مقامات بديع الزمان الهمداني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1889.

ب ـ المراجع الثانوية:

20 ـ الباشا، حسن، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، 1966.

21 ـ دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مادة : شرطة.

22 ـ طه، عبد الواحد ذنون طه، جهاز الأمن والشرطة السرية في العصر العباسي، مجلة الشرطة، العدد 30، 1975، ص56 ـ 60.

23 ـ عمر، فاروق، الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، بغداد، 1974.

24 ـ متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، 1941.



ثروة الخلفاء والضياع السلطانية في العصر العباسي
132هـ ـ 334هـ

نشر هذا البحث في مجلة التربية والعلم،
العدد 3، الموصل، 1981

المقدمة

لا يخفى أن الاهتمام بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية أصبح اليوم حجر الزاوية في الدراسات التاريخية التي تستهدف التعرف العميق إلى صيغ الحياة وتطور الأحداث في الماضي. وعلى الرغم من أن هناك قناعة كاملة لدى غالبية المؤرخين المحدثين من أن التركيز في الدراسات يجب أن يكون على مجموع فئات الشعب، وهم محقّون في هذا لأنه الأسلوب الأفضل للتوصل إلى رسم صورة قريبة من واقع المجتمع المدروس. ولكن من ناحية أخرى يجب عدم إهمال أيّ شريحة من شرائح المجتمع، حتى ولو كانت قليلة العدد، ولاسيما إذا ما كانت ذات تأثير بيّن في رسم السياسة العامة والأحداث البارزة. ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث الذي يهدف إلى دراسة ثروة الخلفاء العباسيين الخاصة، ومصادرها ووجوه

اتفاقها، كما يهتم أيضاً بالأسباب التي مهدت لهم السبيل للحصول على هذه الثروة. وبما أن الضياع السلطانية كانت تشكل مورداً هاماً ورئيسياً للثروة الشخصية للخلفاء وذويهم، فقد ركز البحث أيضاً على تلك الضياع، وأصولها، وأنواعها، وكيفية حصولهم عليها، ومقدار وارداتها وأهميتها لبيت المال الخاص بالخليفة. وأخيراً فإن جمع الثروة من قبل البيت الحاكم يعطي لنا صورة واضحة من صور الاستغلال والإثراء غير المشروع كما حصل في عهد المقتدر على سبيل المثال.

أولاً: ثروة الخلفاء:

غلب على الخلفاء العباسيين الأوائل التدبير والاقتصاد، وليس هذا غريباً لأنهم كانوا مؤسسي دولة تحتاج إلى الكثير من التدبير والحكمة في اتفاق الأموال. يضاف إلى ذلك، لم تكن هذه الدولة الفتية تمتلك في بداية أمرها الكثير من الموارد التي تساعد وتشجع على الاتفاق. فلم يكن همُّ الخليفة الأول أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي (132 ـ 136هـ/ 749 ـ 753)، على سبيل المثال، إلا تثبيت أركان الدولة والقضاء على مناوئيها من بقايا الأمويين وغيرهم من الثوار، كالخوارج[1152]. فأنفق الكثير من الأموال في هذا السبيل، ولم تكن له ثروة شخصية يُعتد بها، بل توفي ولم يخلف، كما يُروى سوى بعض الثياب[1153]. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الخليفة الثاني، أبو جعفر المنصور (136 ـ 158هـ/ 754 ـ 775م) الذي يعدّ بحق مؤسساً للدولة العباسية. فلقد اشتهر بالتدبير والاقتصاد في إنفاق الأموال، حتى ضُرب به المثل بالشحة والبخل،

(1152) انظر : الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر : دي غويه، ليدن 1879 ـ 1901 ج3، ص54 57، 61، 75 ـ 76، 78، 80.

(1153) المصدر نفسه، ج3، ص88، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1965، 1966، ج5، ص460.

فسمّي بأبي الدوانيق، أو المنصور الدوانيقي، لأنه كان يتشدد مع البنائين والصناع الذين اشتغلوا في بناء بغداد، ويحاسبهم على الحبة والدانق، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم[1154]. ولم يقتصر الأمر على بناء بغداد بل شمل كل مصروفات الدولة الأخرى[1155]. ولهذا فقد جمع في بيت ماله مبلغاً كبيراً بلغ أربعة عشر مليون دينار وستمائة درهم[1156]. وقد تكون هناك بعض المبالغة في هذا المبلغ، لكنه يدل على شدة حرصه وضخامة الأموال التي جمعها[1157].

لكن الخلفاء الذين جاؤوا بعده أظهروا نوعاً من الترف وحباً للثروة وهذا أمر طبيعي، ظهر نتيجة لروح العصر، وللتغيرات التي طرأت على المجتمع في ذلك العهد الذي تميز بالترف والازدهار الاقتصادي، وبشكل خاص، الخلفاء والفئات الغنية. فكثرت مجالس الغناء والطرب، وزاد من إقبال الناس نحو الجواري والمغنيات حتى بلغت قيمة الواحدة منهن آلاف الدنانير[1158]. وبانت مظاهر الترف الاجتماعي والثراء الكبير في المأكل والملبس والمشرب، وفي المواكب الرسمية والقصور وغيرها[1159]. وإن

(1154) الطبري، تاريخ: ج3، ص326.

(1155) انظر، الجهشياري، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين القاهرة، 1938، ص138 ـ 139.

(1156) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1967، ج3، ص318.

(1157) قارن: خولة شاكر الدجيلي، بيت المال نشأته وتطوره من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري، بغداد، 1976، ص182.

(1158) الصولي أخبار الراضي بالله والمتقي لله، أو تاريخ الدولة العباسية من سنة 322 ـ 333 هـ من كتاب الأوراق، نشر: هيورث دن، القاهرة 1935 ص101 ـ .

(1159) انظر: فاروق عمر فوزي، العصر الذهبي عصر الازدهار الحضاري، مجلة المؤرخ العربي، العدد 15، بغداد، 1980، ص 101، عبد الواحد ذنون طه «مجتمع بغداد من خلال حكاية أبي القاسم البغدادي»، مجلة المورد، م3، العدد 4، بغداد، 1974، ص14 ـ 25.

كانت هذه المظاهر لا تشمل بطبيعة الحال المجموعات الأخرى من المجتمع التي كانت تشكو من الفقر والحرمان. وعندما حل العصر العباسي الثاني (218 ـ 334هـ/ 833 ـ 945م) ازدادت عناية الخلفاء ببيت المال الخاص ـ الذي هو خزانة الخليفة الخاصة ـ وأخذوا يميلون إلى ادخار أموالهم والإنفاق من بيت مال المسلمين.

واشتهر من خلفاء هذا العصر الذين اهتموا بجمع الثروة المعتضد بالله (279 ـ 289هـ/ 892 ـ 902م) الذي كان يدَّخر في كل سنة من سني خلافته نحو مليون دينار. وقد توفي وفي بيت ماله بضعة عشر مليون دينار[1160]. ثم أعقبه المكتفي بالله (289 ـ 295هـ / 902 ـ 907م) الذي خلَّف أربعة عشر مليون دينار[1161]، ويزيد الثعالبي من هذا المبلغ، فيذكر مُبالغاً، أن المكتفي خلف نحو مائة مليون دينار، إضافة إلى الألوف من مجامر الذهب، وهي التي يوضع فيها الجمر أو النار المتقدة[1162].

ولم يكن جمع الثروة مقتصراً على الخلفاء وحدهم، فقد امتلك ذووهم ونساؤهم الكثير من الأموال والضياع. فكانت ـ على سبيل المثال ـ غلة ضياع الخيزران أم الهادي والرشيد، مائة وستين مليون درهم[1163]. وكانت غلة أم محمد الواثق من أراضيها نحو عشرة ملايين دينار في العام

(1160) المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص232 ابن الجوزي، المنظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، 1357هـ، ج5، ص136.

(1161) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، القاهرة، 1914 ـ 1915، ج1، ص238 ـ 241، الصابي، الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، طبعة دار إحياء الكتب العربية، 1958، ص 317 وانظر : آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، القاهرة، 1957، ج1: ص211 ـ 212.

(1162) الطائف، المعارف، القاهرة، بدون تاريخ ص118، 146 وعن شرح مجامر الذهب انظر: ابن المنظور، لسان العرب: مادة (جمر) بيروت، دار لسان العرب، م1، ص495.

(1163) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص348.

تنفقها في جواريها[1164]. وقد وُجِد لقبيحة أم المعتز أموالاً مخبأة في الدهاليز وحيطان القصر بمبلغ مليوني دينار نقداً، ومالاً كثيراً من التحف والجواهر[1165]. وكانت السيدة شغب أم المقتدر تمتلك أموالاً عظيمة، وقد بلغ دخل ضياعها في كل عام مليون دينار، كانت تنفق معظمها[1166]، وبشكل خاص ما تتصدق به على مصالح الحجاج، وما تساهم به للدولة في أثناء المَلمّات[1167]. وعندما قُتل المقتدر سنة 320هـ/ 932م أقرّت ببعض ما تبقّى عندها من أموال، فكانت قيمتها نحو مائة وثلاثين ألف دينار[1168]. وهو مبلغ ضئيل إذا ما قورن بدخلها المرتفع المذكور أعلاه. والمرجّح أن هذه الأرقام التي يذكرها المؤرخون فيها نوع من المبالغة، لكنها تدل حتماً على ضخامة الأموال التي كانت في حوزة الخلفاء وذويهم.

ترف وتبذير الخلفاء:

ونتيجة للأموال الطائلة التي كانت ترد إلى بيت المال الخاص، غالى بعض الخلفاء في الترف والتبذير. فارتفعت نفقات البلاط العباسي، وبلغت حداً كبيراً، كما سنرى فيما بعد. ومما يُذكر بأن المأمون (198 ـ 218هـ/ 813 ـ 833) وزع من مالِ خراج كان قد جاءه أكثر من أربعة وعشرين مليون درهم في يوم واحد[1169]. وكان المعتصم (218 ـ 227هـ/ 833 ـ

(1164) الطبري، تاريخ، ج3، ص1720.

(1165) المصدر نفسه، ج3، ص1719.

(1166) ابن الجوزي، المنتظم ج6، ص253، وانظر: حمدان عبد المجيد الكبيسي، عصر المقتدر بالله : بغداد، 1974، ص117.

(1167) مسكويه، تجارب، ج1، ص181 ابن الجوزي، المنتظم، ج6 ص209.

(1168) مسكويه، تجارب، ج1 ص244.

(1169) ابن طيفور، كتاب، بغداد القاهرة، 1949، ص147.

842) وابنه الواثق (227 ـ 231هـ / 842 ـ 847م) لا يلبسان القميص إلا لبسة واحدة، إلا أن يكون الثوب نادراً غريباً[1170]. وفرَّق المتوكل (231 ـ 241/ 847 ـ 861م) في مناسبة ختان ابنه المعتز أموالاً طائلة، حتى إن غلمانه أخذوا ينادون في المجلس: «أن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء»[1171]. ويذكر الطبري، أن المتوكل منح خمسين ألف درهم إلى أحد الشعراء من أجل بيتين من الشعر[1172]. ويشير المسعودي إلى أن النفقات لم تكن في عهد من العهود ولا في وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل. ويقال إنه أنفق على ثلاثة من قصوره أكثر من مائة مليون درهم، ومات وفي بيوت أمواله أربعة ملايين دينار وسبعة ملايين درهم[1173]. وتصدق الراضي بالله (322 ـ 329هـ / 934 ـ 940م) بألف دينار بعد أن أفتى له بعض الفقهاء المتزلفين بشرب النبيذ[1174]. وقد يبدو هذا المبلغ قليلاً، لكنه قياساً بتدبير الخلفاء الأوائل كأبي جعفر المنصور مثلاً، الذي كان يحاسب على الدانق، مبلغ كبير وإسراف وتبذير. ويقول الصولي: «ما رأيت البلور عند ملك أكثر منه عند الراضي ولا عمل ملك فيه ما عمل ولا بذل في أثمانه ما بذل حتى أصبح له منه مالم يجتمع لملك»[1175]. وربما كان الصولي مبالغاً في قوله هذا لأنه كان يعيش في بلاط الراضي. أما ذروة الإسراف فكانت من مميزات عهد سابق لهذا الخليفة، ألا وهو عصر المقتدر (295 ـ 320هـ / 908 ـ 932).

يذكر مسكويه بالاستناد إلى ما أثبته بعض كتاب أبي الحسن بن

(1170) الجاحظ، كتاب التاج في أخلاق الملوك، القاهرة، 1914، ص154.

(1171) الثعالبي، لطائف المعارف، ص122 ـ 133.

(1172) تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص1467 ـ 1468.

(1173) مروج الذهب، ج4، ص122.

(1174) الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص47.

(1175) المصدر نفسه، ص20.

الفرات عندما كان وزيراً للمقتدر، أن وارد بيت المال الخاص (أي بيت مال الخليفة) خلال مدة حكم المقتدر البالغة خمسة وعشرين عاماً كان تسعة وثمانين مليوناً وثمانية وثلاثين ألف دينار، صرف المقتدر نحو سبعة عشر مليون دينار منها في وجوه رسمية، في حين أن الباقي أتلف وبذّره على نفقات البلاط، وهو يزيد على سبعين مليوناً من الدنانير[1176]. وهكذا بلغت نفقات البلاط في عهد المقتدر نحو مليونين وثمانمائة وثمانين ألف دينار سنوياً، أو ما يعادل مائتين وأربعين ألف دينار في الشهر[1177]. ولكي نأخذ فكرة عن بعض أوجه البذخ العجيب في بلاط هذا الخليفة، يكفي أن نعرف أن قصوره كانت مؤثثة ومزينة بترف بالغ، فكانت تحتوي على نحو ثمانية وثلاثين ألف ستارة من الحرير الخالص المطرز بالذهب، وفي ما يربو على اثنين وعشرين ألف بساط من أنواع مختلفة ومن حياكة أماكن مختلفة. وكان في اسطبلاته نحو ألف حصان نصفها بسروج مزينة بالذهب والفضة، والنصف الآخر مسرج بسروج مزينة بالديباج. وكان في خدمة المقتدر سبعمائة حاجب، وسبعة آلاف مملوك[1178]. وما يدل على إسراف المقتدر البالغ ما تميز به أحد قصوره المسمى بدار الشجرة، حيث كان بتلك الدار شجرة مصنوعة من الفضة لها ثمانية عشر غصناً تزن - كما يذكر الخطيب البغدادي - خمسمائة ألف درهم[1179]. وهذه المعلومات التي يذكرها المؤرخون عن قصور المقتدر وزينتها والعديد من أثاثها مبالغ فيها بالتأكيد، لكنها تشير من ناحية أخرى إلى الترف الباذخ الذي كان يعيش فيه هذا الخليفة.

(1176) مسكويه، تجارب، ج1، ص238 - 241، وانظر : ابن الأثير، الكامل، ج8، ص243.

(1177) قارن، عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري بغداد، 1948، ص249 - 267.

(1178) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة، 1931، ج1، ص101 - 103.

(1179) المصدر نفسه، ج 1، ص102.

مصادر ثروة الخلفاء:

إن الذي يهم البحث في هذا المجال هو مصادر بيت المال الخاص، أو بيت مال الخليفة الذي يكون عماد ثروة الخلفاء. وكانت موارد هذا البيت في أوائل القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد تتجمع من الأموال الآتية[1180]:

1. الأموال المختلفة التي يتركها الآباء لأبنائهم في بيت المال الخاص.

2. مال الخراج والضياع العامة الذي يُجبى من أعمال فارس وكرمان (بعد إسقاط النفقات). ويبلغ مقدار ذلك في السنوات من (299 ـ 320هـ/ 911 ـ 932م) ثلاثة وعشرين مليون درهم، منها أربعة ملايين كانت تُحمل إلى بيت المال العام، والباقي وهو تسعة عشر مليون درهم، إلى بيت المال الخاص.

3. الأموال المحمولة من الشام ومصر. وربما كان المقصود منها الهدايا واللطف، وجزية أهل الذمة التي كانت تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أميراً للمؤمنين.

4. المال الذي يؤخذ من المصادرة لأموال الوزراء والكتاب والعمال المعزولين، وما يحصل من جباية ضياعهم، والمال الذي يؤخذ من التركات. وكان الخليفة يرث مال الخدم ومال من لا ولد له من موالي أسرة الخلافة. ولما كان الأشخاص المصادرون في الغالب سادة ذوي مناصب تدر الربح والرزق الكثير، فإن مالاً كثيراً كان يجري إلى خزانة الخليفة. وعلى سبيل المثال فقد صادر الواثق في عام (229هـ/ 843م) كُتّابه

(1180) انظر: مسكويه، تجارب، ج1، ص238 ـ 240، وقارن: آدم متز، المرجع السابق، ج1، ص212 ـ 213، خولة الدجيلي، المرجع السابق، ص188، فما بعدها.

وألزمهم بدفع مقدار كبير من المال[1181]. وقد أكثر المتوكل أيضاً من المصادرات حتى أصبح شبه ضريبة على الموظفين الكبار، ولعله كما يشير الدكتور عبد العزيز الدوري، اعتبرها وسيلة لاسترجاع بعض أموال الدولة التي أخذها هؤلاء بطرق غير مشروعة[1182].

وقد أصبحت المصادرة من أهم المظاهر التي تميز بها عصر المقتدر وإمرة الأمراء، فأصبحت واسعة الانتشار، وشملت العديد من الوزراء والحاشية وكبار موظفي الدولة والقضاة والتجار وغيرهم. وتعد المعلومات التي أوردها الصابي عن الأفراد الذين صودروا أيام وزارة ابن الفرات الثالثة للمقتدر أفضل دليل على انتشار المصادرات واستشرائها في هذا العصر[1183].

5. ما كان يحصَّل إلى بيت المال الخاص من أموال الضياع والخراج في السواد والأحواز والمشرق والمغرب، وسنتكلم فيما بعد بالتفصيل عن ضياع الخلفاء .

6. ما كان يوفره الخلفاء، فالمعتضد والمكتفي، على سبيل المثال، كانا يوفران مليون دينار في كل سنة[1184].

ولكن بحلول القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، أصبح الخلفاء أقلّ حرية في التصرف ببيت المال الخاص بسبب دخول العناصر الأجنبية وتدخُلها في الحكم، واستئثار القادة ورجال الدولة بالأموال. ونتيجة لهذا

(1181) الطبري، تاريخ، ج3، ص1330 ـ 1331، وانظر أيضاً: خولة الدجيلي، المرجع السابق، ص195.

(1182) دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد، 1945، ص51 وانظر أيضاً: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة، 1903، ج2، ص165.

(1183) الصابي، الوزراء ص44 ـ 52، وانظر : حمدان الكبيسي، المرجع السابق، ص553، فما بعدها.

(1184) مسكويه، تجارب، ج1، ص241.

فقد قُلِّصت سلطة الخليفة السياسية، وبالتالي أثرت على سلطته المالية أيضاً، فحُرم الخليفة من أمواله، وكُفَّت يده، وقُدِّر له شيئاً يسيراً فقط. وكان أول من حُددت سلطاته المالية من الخلفاء، هو الخليفة الراضي بالله[1185]. ففي سنة (334هـ/ 945م) استولى معز الدولة البويهي على كل الأمور المالية من يد الخليفة، وخصص لمصاريفه ألفي درهم في كل يوم[1186]. وبعد أن فتح معز الدولة البصرة، قطع عن الخليفة الألفي درهم، وعوَّضه عنها ضياعاً من ضياع البصرة يبلغ واردها السنوي مائتي ألف دينار[1187]. وهكذا انخفض دخل الخليفة بعد سنة (334هـ/ 945م) كما يشير الدكتور الدوري، إلى نحو 70٪ مما كان عليه في عصر المقتدر[1188].

ثانياً الضياع السلطانية:

الضياع عند أهل الحضر هي مال الرجل من النخل والكرم والأرض، والضيعة أيضاً الأرض المغلة[1189]. ويراد بالضياع هنا المزارع[1190]، وهي تعدّ عماد الثروة الشخصية لمالكيها. وقد ورث العباسيون الضياع العديدة التي خلفها بنو أمية وأتباعهم[1191]، وأضافوا إليها ووسعوها بطرق مختلفة، منها الشراء، أو الهبات[1192]، والمصادرة[1193]. ولهذا فقد

(1185) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص323، ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة، بدون تاريخ، ص230.

(1186) مسكويه، تجارب، ج2، ص87.

(1187) المصدر نفسه، ج2، ص108، ابن الجوزي، المنتظم، ج6، ص357.

(1188) انظر: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص250.

(1189) ابن المنظور، لسان العرب، مادة (ضيع) م2، ص559

(1190) جرجي زيدان، المرجع السابق، ج2، ص129.

(1191) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص90.

(1192) المصدر نفسه، ص118 ـ 118.

(1193) الصولي، أخبار الراضي بالله والمتقي لله، ص83، وانظر أيضاً: ص89.

اتسعت إلى حد بعيد أملاك الأسرة العباسية، وعلى رأسها الخلفاء وأصبحت ضياعهم السلطانية منتشرة في مناطق عديدة من العراق، مثل السواد والكوفة والبصرة وواسط ونواحي بغداد وحول الموصل[1194]، وفي الأحواز والري وأصبهان في إيران[1195]، وفي أرمينية[1196]. ولم يكن الخلفاء العباسيون في أول الأمر يغتصبون الضياع والأموال، لكن بعضاً ممن كانوا في خدمتهم تسلطوا ومدوا أيديهم إلى ضياع الناس. وكان بعض الخلفاء ينصفون المتظلمين من أصحاب الضياع، فإن لم يتمكنوا من منع الوزراء والموالين لهم من ضياع الناس وأموالهم، كانوا يتخذون طريق المصادرة. والضياع التي تصادر بهذه الطريقة تعود إلى الخليفة أو الدولة، وهكذا كثرت الضياع عند الأسرة العباسية الحاكمة.

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى ازدياد عدد الضياع عند الخلفاء وذويهم، نظام الإلجاء، فقد كان الأهالي الضعفاء يقومون بإلجاء ضياعهم إلى الأقوياء من أقارب الخليفة أو العمال، للتخلص من جباة الخراج الذين كانوا يغضون النظر عن هذه الأراضي الملجأة ويصفحون عن جباية بعض الضرائب المستحقة عليها. وبهذا يخفف الخراج عن أصحاب الضياع الأصليين. وبمرور الزمن تصبح هذه الضياع ملكاً للملجأ إليه، في حين أن وضع المالك الأصلي يتبدل إلى حالة مزارع في الأرض. وتعود هذه الطريقة بالأصل إلى العصر الأموي، حيث ألجأ الكثير من الفلاحين في السواد أراضيهم إلى مسلمة بن عبد الملك بن مروان في أثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق[1197]. وهناك أمثلة على هذه الحالات

(1194) قدامة بن جعفر، الخراج وصنعة الكتابة، نشر. دي غويه، ليدن 1889، ص241. الصولي، المصدر السابق، ص145، مسكويه، تجارب، ج1، ص60 ـ 61، 405.

(1195) الطبري، تاريخ، ج3، ص2140، مسكويه، تجارب، ج1، ص60.

(1196) الطبري، تاريخ، ج3، ص1584.

(1197) قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص241، وانظر أيضاً. جرجي زيدان، المرجع

بعد قيام الدولة العباسية، ففي عهد المنصور، على سبيل المثال، ألجأ رجل من أهل الأحواز ضيعته إلى الوزير سليمان بن مخلد المعروف بأبي أيوب المرياني، فخفف عنها الخراج، تُحمل مقابل ذلك مائة ألف درهم في السنة إلى الوزير[1198].

وفي العصر العباسي الثاني (218 ـ 334هـ/ 833 ـ 945م) أصبحت مصادرة الأموال شيئاً مألوفاً، لذلك صار امتلاك الناس للضياع والأراضي وسيلة مريحة لتشغيل الأموال بخاصة، وأن الخراج كان عليها قليلاً. وحتى الخلفاء وذووهم كانوا يتبعون هذه الطريقة للمحافظة على ما يملكونه من أموال. فنجد أم المقتدر ـ مثلاً ـ تمتلك الضياع والأراضي لتحافظ على أموالها، لكنها لم توفّق في ذلك لأن القاهر الذي تولى الخلافة بعد ابنها المقتدر (320 ـ 322هـ/ 532 ـ 934م)، أجبرها على حل أوقافها جميعاً[1199]. وتعد هذه الطريقة، أي تحويل أكثر أراضي الخلافة العباسية إلى ضياع، من أحد أسباب قلة الجباية في العصر العباسي الثاني.

لقد كان امتلاك الخلفاء العباسيين وذويهم للضياع السلطانية يزداد في أيام الرخاء، وذلك بشراء أراض جديدة. أما في أيام الشدة وأزمات الميزانية، فكانوا يبيعون منها لتلافي شغب الجند وتسديد رواتبهم. وكانت هذه الضياع السلطانية تتعرض دائماً للخطر، ولاسيما عندما تضعف الحكومة، بحيث يقتطع كبار المُلاَّك الأقوياء والوزراء بعضها ويضيفون ذلك إلى ممتلكاتهم[1200].

السابق، ج2، ص130، الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ص 34 ـ 35.

(1198) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص118.

(1199) مسكويه، تجارب ج1، ص356، ابن الجوزي، المنتظم، ج6، ص ص 36 ـ 254، ابن الأثير، الكامل، ج8، ص ص 245 ـ 46.

(1200) مسكويه، تجارب، ج2، ص244.

أنواع الضياع السلطانية:

كانت الضياع التي يمتلكها رجال الدولة وأصحاب الثروة من الأهالي وغيرهم تسمّى بالضياع العامة، أما الضياع السلطانية ـ موضوع هذا البحث ـ فكانت مقسمة إلى عدة أقسام ولكل قسم تسمية تدل عليه:

1. الضياع المستحدثة، وهي التي أضيفت حديثاً[1201].

2. الضياع المرتجعة، وهي التي اقطعت من قبل، ثم ألغى الخليفة إقطاعها وأرجعها إلى حوزته[1202].

3. الضياع العباسية.

4. الضياع الخاصة.

5. الضياع الفراتية.

ولايوجد في المصادر الأولية ما يدل على معنى الأسماء الثلاثة الأخيرة، لكن جرجي زيدان يرجح أن الضياع العباسية هي في الغالب ملك لبني العباس من أهل الخليفة وأقاربه، وأن الضياع الخاصة هي ضياع الخليفة نفسه، والفراتية هي الضياع التي تقع على ضفاف نهر الفرات[1203].

وبالنظر إلى وجود عدد كبير من الضياع السلطانية عند الخلفاء وذويهم وأتباعهم، فقد اضطرت الدولة إلى إنشاء عدة دواوين لإدارة الضياع السلطانية[1204]. فمن هذه الدواوين مثلاً: ديوان الضياع

(1201) المصدر نفسه، ج1، ص244.

(1202) عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبري، نشر، دي غويه، ليدن، 1897، ص145.

(1203) تاريخ التمدن الإسلامي، ج2، ص125، وانظر أيضاً، الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص26.

(1204) مسكويه، تجارب، ج1، ص152.

الخاصة[1205]. وديوان المرتجعة الذي أنشأه الخليفة المقتدر ليشرف على الضياع والمستغلات والأموال التي استرجعها من الناس نتيجة لإفلاس الخزينة[1206]. وديوان الضياع المقبوضة الذي يضم الضياع المضافة نتيجة المصادرة[1207]. وكان للسيدة شغب أم المقتدر ديوان خاص لإدارة ضياعها[1208]. ومن الشخصيات التي تولت إدارة بعض هذه الدواوين، محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي تولى ديوان زمام الخراج والضياع السلطانية في وزارة الحسن بن مخلد[1209]، وكذلك محمد بن علي بن مقلة، الذي تولى ديوان الضياع الخاصة والمستحدثة في وزارة علي بن عيسى الثانية للمقتدر سنة 315هـ/ 927م[1210]. ومن الدواوين الأخرى ديوان الضياع الذي قلده الوزير محمد بن علي بن مقلة إلى أخيه الحسن بن علي سنة 316هـ/ 928م. وكذلك ديوان الضياع الفراتية الذي تقلده الأخ الثاني لابن مقلة، العباس بن علي، في السنة نفسها[1211]. وكانت كل ضيعة أو أكثر تعهد إلى عامل يضمن خراجها، أو يعطيها بدوره بالضمان إلى شخص آخر[1212].

واردات الضياع السلطانية وأهميتها لبيت المال الخاص:

للضياع السلطانية أهمية خاصة بالنسبة إلى الخلفاء وذوي قرباهم،

(1205) الصابي، الوزراء، ص300.
(1206) عريب بن سعد، المصدر السابق، ص145.
(1207) الصابي، الوزراء، ص48.
(1208) مسكويه، تجارب، ج1، ص143.
(1209) الصابي، الوزراء، ص284.
(1210) مسكويه، تجارب، ج1، ص152، انظر أيضاً
Harold Bowen. The life and Times of Ali Ibn Isa, Cambridge, 1927, P. 299.
(1211) عريب بن سعد، المصدر السابق، ص135.
(1212) مسكويه، تجارب، ج1، ص ص 59 ـ 152، وانظر أيضاً، الدوري، المرجع السابق، ص26، محمد ضياء الدين الريس، الخراج في الدولة الإسلامية، القاهرة، 1957، ص485.

وكذلك بالنسبة إلى بيت المال الخاص. وإذا ما أخذنا في الاعتبار تبذير معظم الخلفاء للأموال، نرى أهمية الدور الذي كانت تؤديه واردات هذه الضياع في إنفاق الخلفاء. وكان الخليفة ينفق من بيت المال الخاص على موسم الحج والغزوات والصوائف، وعلى فداء أسرى المسلمين والقيام بنفقات الرسل الواردين. أما المنح والأعطيات وكل ما يتعلق بنفقات الخلافة، فكان يؤخذ من بيت المال العام[1213]. بل حتى لو وكّل إلى بعض القضاة ليشرفوا على ضياع الخلفاء، أو بعض مواريثهم وأموالهم، فإنهم كانوا يتسلمون أرزاقهم من بيت مال المسلمين لا من دخل الضياع[1214]. ولم تكن الضياع السلطانية تعامَل معاملة بقية الأراضي الأخرى لأن عمال الخراج كانوا يغضّون النظر عن كثير من الأموال المطلوبة لهذه الضياع. ولو عوملت في مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة بقية الأراضي الأخرى، لزاد خراجها كثيراً. وعلى الرغم من ذلك فقد كان خراج الضياع السلطانية يزيد على مليون ونصف المليون في السنة ـ كما سنرى بعد قليل ـ غير ما هو منها في واسط وغيرها، ما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها.

وكانت واردات الدولة العباسية كثيرة، ولكن لا يتوافر لدينا تفصيل لمقدار الجباية إلا في عهد المقتدر (295 ـ 320هـ/ 908 ـ 932م) حيث رفع وزيره علي بن عيسى تقريراً بما كان من مقدار الجباية لعام 306هـ/ 918م. وهذه القائمة تتحدث عن جباية أموال الدولة بصورة عامة، ويوضح القسم الرابع منها جباية الأموال الخاصة والموقوفة، وهي فيما يلي، نقلاً عن الفون كريمر Von Kremer[1215]:

(1213) الصابي، الوزراء، ص27، وانظر : آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج1، ص ص 202، خولة الدجيلي، بيت المال، ص201.

(1214) أبو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة، 1382 هـ، ص187.

(1215) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي : 2/ 119، الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي =

دخل جباية الضياع السلطانية	دينار
الضياع المستحدثة	289.036
الضياع العباسية (باستثناء ما حول واسط)	144.760
الضياع الفراتية	617.126
الضياع الخاصة	516.447

يتضح من هذه القائمة أن جباية الضياع السلطانية لسنة واحدة بلغ 1.567.369 ديناراً. كما يتضح من الأرقام أيضاً أن الضياع الفراتية ربما كانت أوسع جزء من بقية الضياع، ويأتي بالدرجة الثانية الضياع الخاصة، ثم المستحدثة، ثم العباسية ويبدو أيضاً أنه ربما لم تتوافر معلومات كافية لعلي بن عيسى عن جباية واسط وما حولها، ولهذا فقد استثنيت من هذه القائمة :

تقلص وتصفية الضياع السلطانية:

ولكن بعد سنة 317هـ/ 929م أي بعد انقلاب مؤنس الخادم على المقتدر، أخذت الضياع السلطانية تتقلص بسرعة نتيجة إفلاس الخزينة وثورات الجند وشغبهم للحصول على الرواتب. فقد باع الوزير ابن مقلة في هذه السنة كثيراً من هذه الضياع[1216]. وكذلك كان بيع الضياع السلطانية يشغل القسم الأعظم من انتباه كل من الوزيرين علي بن عيسى وسليمان بن الحسن بن مخلد، أثناء عجز الميزانية زمن إداراتهما المشتركة في عهد المقتدر[1217]. وفي سنة 319هـ/ 931م باع الوزير الحسين بن القاسم ضياعاً بنحو خمسمائة ألف دينار[1218]. وفي سنة 320هـ/ 933م أمر

= في القرن الرابع الهجري، ص26، نقلاً عن Von Kremer, Uber das Einnahmebudget des Abbasiden- Reiches vom Jahre 306, Wienm 1887. (Ali b. isa, P. 31).

(1216) مسكويه، تجارب، ج1، ص200.

(1217) المصدر نفسه، ج1، ص205، وانظر أيضاً: Bowen, Op. Cit, P. 299.

(1218) مسكويه، تجارب، ج1، ص226، وانظر : حمدان الكبيسي، المرجع السابق ص236.

الخليفة القاهر ببيع العديد من الضياع الخاصة والفراتية والعباسية والمستحدثة والمرتجعة وما يجري مجراها في سائر النواحي[1219]. ونتيجة لاستمرار أزمة الخزينة استمر البيع عام 321هـ/ 933م، حيث باع الوزير ابن مقلة ضياعاً بما قيمته مليونان وأربعمائة ألف دينار[1220]. وعلى الرغم من هذا بقيت بعد خلع القاهر عام 322هـ/ 934م ضياع سلطانية كثيرة من كل الأنواع[1221]. لكن استمرار أزمة الخزانة أدى إلى المزيد من البيع، وهكذا، فقد اضطر ابن مقلة إلى بيع العديد من الضياع السلطانية المتبقية ليتمكن من تسديد الديون المستحقة على الدولة للتجار[1222]. لكن نهاية الضياع السلطانية كانت في سنة 334هـ/ 945م، وذلك باستيلاء معز الدولة البويهي على مقاليد الأمور ومالية الدولة، فخصص للخليفة كما ذكرنا سابقاً راتباً يومياً مقداره ألفا درهم[1223]. ثم عاد وقطع هذا الراتب، وأقطعه بدله إقطاعاً خاصاً به، يبلغ إيراده نحو مائتي ألف درهم في السنة[1224]، وأصبح هذا الإقطاع في حماية الأمير البويهي[1225]. .

يتضح مما تقدم مدى الثروة التي جمعها بعض الخلفاء وذوو قرباهم، والضياع التي كانت في حوزتهم، وكذلك البذخ الذي تميز به بعضهم. ومن الملاحظ أن شدة الإسراف والتبذير لم تكن ظاهرة واضحة عند الخلفاء العباسيين الأوائل الذين كرسوا جهودهم لبناء الدولة وتثبيت

(1219) مسكويه، تجارب، ج1، ص245، وانظر أيضاً: عريب بن سعد، المصدر السابق، ص185.

(1220) مسكويه، تجارب، ج1، ص260، وانظر : خولة الدجيلي، المرجع السابق، ص193.

(1221) مسكويه، تجارب، ج1، ص265.

(1222) المصدر نفسه، ج1، ص329.

(1223) المصدر نفسه، ج2، ص87، ويذكر ابن الأثير، أن المبلغ المخصص كان خمسة آلاف درهم، انظر، الكامل، ج8، ص450.

(1224) ابن الجوزي، المنتظم، ج6، ص357.

(1225) مسكويه، تجارب، ج2، ص341.

أركانها. أما بالنسبة إلى الخلفاء اللاحقين، فمن الطبيعي أن يرافق عهدهم شيء من التسلط والاستغلال والرغبة في جمع الثروة على حساب الطبقات الفقيرة من المجتمع. وهذه سمة تميز حكام العصور الوسطى بوجه عام. وهي تدل في الوقت نفسه على مدى ابتعاد هؤلاء الحكام عن مبادئ الإسلام الأساسية القائمة على العدل وحماية حقوق الرعية. وإذا ما عقدنا مقارنة يسيرة بين ما كان يقوم به الخلفاء الراشدون من تحري العدل في توزيع الأموال ومحاسبة أنفسهم قبل الآخرين على التصرف بأموال الأمة، وهؤلاء الخلفاء المتأخرين الذين انغمسوا في البذخ والإسراف، تبين لنا مدى الفرق الشاسع بين الطائفتين. وليس هذا غريباً، فعصر الخلفاء الراشدين وبعض الخلفاء الأمويين، والخلفاء العباسيين الأوائل، يعدّ من عصور القوة والازدهار في تاريخ الأمة، على حين كانت عصور السيطرة الأجنبية اللاحقة على الدولة العباسية من عهود التدني والانحطاط. ولا يخفى أن الممارسات التي قام بها عدد من خلفاء هذه الحقبة، والمقربين إليهم، من السيطرة وجمع الأموال والبذخ والتبذير على حساب الشعب، كانت عاملاً أساسياً في هذا الانحدار، وتمكين القوى الأجنبية من التسلط على الحكم، وجر الدولة إلى هاوية السقوط. وهذه الحقيقة تؤكد أهمية التمسك بأهداف أُمّتنا الإنسانية، والعمل على صيانة مبادئها القائمة على العدل والمساواة، وتوفير الرخاء الاقتصادي للشعب، لأن هذا هو طريق التقدم والقوة والازدهار.

مصادر ومراجع البحث

* ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ/ 1238م)
1 ـ الكامل في التاريخ، طبعة بيروت، بيروت، 1965، 1966.
* الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت429هـ/ 1037م)
2 ـ لطائف المعارف، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة بدون تاريخ.
* الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/ 869م).
3 ـ كتاب التاج في أخلاق الملوك، القاهرة، 1914.
* الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس (ت331هـ/ 942م).
4 ـ كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين، بغداد، 1938.
* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت597هـ/ 1200 ـ 1201م).
5 ـ المنتظم في أخبار الأمم، حيدر آباد، 1357هـ.
* الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت463هـ/ 1070م).
6 ـ تاريخ بغداد، القاهرة، 1931.
* الدجيلي، خولة شاكر .
7 ـ بيت المال نشأته وتطوره من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري، بغداد، 1976.
* الدوري، عبد العزيز الدوري.
8 ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بغداد، 1948.
9 ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد، 1945.
* الريس، محمد ضياء الدين الريس.
10 ـ الخراج في الدولة الإسلامية، القاهرة، 1957.
* زيدان، جرجي زيدان.
11 ـ تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة، 1903.
* الصابي، أبو إسحق هلال بن إبراهيم بن زهرون (ت448هـ/ 1056م).
12 ـ الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، طبعة دار أحياء الكتب العربية، 1980.
* الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت335هـ/ 946م).

13 ـ أخبار الراضي بالله والمتقي لله، أو تاريخ الدولة العباسية من سنة 322 ـ 333هـ من كتاب الأوراق، نشر : هيروث دن، القاهرة 1935.

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ/ 922م).

14 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر : دي غويه، ليدن 1879 ـ 1901.

* ابن الطقطي، محمد بن علي بن طباطبا (ت709هـ/ 1309م).

15 ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة بدون تاريخ.

* طه، عبد الواحد ذنون طه.

16 ـ (مجتمع بغداد من خلال حكاية أبي القاسم البغدادي)، مجلة المورد، م3، العدد 4، بغداد، 1974.

* ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن طاهر (ت280هـ/ 893 ـ 894م).

17 ـ كتاب بغداد، القاهرة، 1949.

* فوزي، فاروق عمر فوزي.

18 ـ «العصر الذهبي عصر الازدهار الحضاري» مجلة المؤرخ العربي، العدد 15، بغداد، 1980.

* قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت337هـ/ 948م).

19 ـ كتاب الخراج وصنعه الكتابة، نشره: دي غويه، ضمن كتاب: المسالك والممالك لابن خرداذبة، ليدن، 1889.

* القرطبي، عريب بن سعد القرطبي (ت370هـ/ 980م).

20 ـ صلة تاريخ الطبري، نشر : دي غويه، ليدن، 1897.

* الكبيسي، حمدان عبد المجيد

21 ـ عصر المقتدر بالله، بغداد، 1974.

* متز، آدم متز.

22 ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، 1957.

* المسعودي، أبو الحسن علي بن علي (ت346هـ/ 956م).

23 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1958.

* مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (421هـ/ 1030م).

24 ـ تجارب الأمم وتعاقب الهمم، باعتناء : هـ.ف. آمدروز، القاهرة 1914 ـ 1915.

* ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت711هـ/ 1311م).

25 ـ لسان العرب، بيروت دار لسان العرب.

* أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت192هـ/ 807م).

26 ـ كتاب الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، 1382هـ.

27- Bowen. Heriold, The life and Times of Ali Ibn Isa, Cambridge. 1927.



طبيعة الحركة الشعوبية

قدم هذا البحث إلى (ندوة الدسّ الشعوبي)
المنعقدة في بغداد للفترة من 2 ـ 5 مايو (أيار) 1988

طبيعة الحركة الشعوبية:

يختلف الباحثون في طبيعة الحركة الشعوبية، وهل هي فكرة اعتنقتها جماعة من الناس، أم أنها كانت حزباً سياسياً، أو منظمة دينية، أو مدرسة فلسفية، أو مجموعة من المساجلات الأدبية التي قامت لمقاومة السيادة العربية في مجالي الفكر، والعقيدة[1226]، بل لقد ذهب بعضهم بعيداً جداً في محاولة إضفاء طبيعة طبقية على الشعوبية، وذلك باعتماد التحليل المادي أساساً في دراستها، فكانت النتيجة، الوقوع في تحليلات خاطئة، ومواقف متناقضة لا تخدم سوى وجهة نظر الشعوبية في موقفها من الإرث الحضاري العربي الإسلامي[1227].

(1226) انظر مختلف الآراء التي أوردتها زاهية قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972، ص22 ـ 23.

(1227) انظر : حسين قاسم العزيز، «دراسة في الشعوبية»، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 81، =

إن الدراسات الرصينة التي قام بها مؤرخون متخصصون في تاريخ هذه الحركة وطبيعتها وأساليبها وأهدافها، تبين أنها لم تكن حركة فئة معينة أو طبقة اجتماعية خاصة، بل ساهم فيها جماعات متعددة، وعلى مستويات مختلفة، من عامة، وتجار، وكُتّاب، ووزراء، وأمراء، بين أُمّيين ومثقفين. وهي لذلك تمثل إجماع الجهد الذي بذلته فئات مختلفة من جماعات غير عربية، بهدف زعزعة الكيان العربي الإسلامي، وإضعافه، وإرباكه، ولصد تيار الثقافة العربية الإسلامية، ونسف التراث[1228]. فهي إذن حركة اجتماعية، أراد معتنقوها ـ إضافة إلى ما ذُكر أعلاه ـ التقليل من شأن اللغة العربية، ومهاجمة التراث العربي الإسلامي، والتشكيك بدور العرب التاريخي، والاستهزاء بالقيم والمُثُل العربية، مقابل الإشادة بالإرث الحضاري الأعجمي، والتمجيد بالقيم والسجايا غير العربية، وإحياء الثقافات الأعجمية[1229].

ولو تتبعنا الأماكن التي ظهرت فيها هذه الحركة لتبين لنا أنها انتعشت في الأقاليم الحدية من الدولة العربية الإسلامية، ولا سيما العراق من جهة المشرق، والأندلس من جهة المغرب. وقد يكون هذا ناشئاً، كما يرى عبد العزيز الدوري، عن وجود دول وأمجاد انتهت بالفتوحات العربية في هاتين الجبهتين، الساسانية في بلاد فارس، والقوطية في الأندلس، وعن وجود حضارات فيهما غمرها الإسلام، فضلاً عن أنهما على أطراف الأراضي العربية، حيث تلتقي التيارات الثقافية والدينية المتعارضة

= بغداد، 1976، ص65 ـ 88، ورد فاروق عمر على هذا المقال: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، مكتبة النهضة، ط2، بغداد، 1985، ص 133 ـ 167.

(1228) عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة، ط2، بيروت، 1980، ص11 ـ 12.

(1229) فاروق عمر فوزي، حول طبيعة الحركة الشعوبية، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج2، م 36، بغداد، 1985، ص197.

وتتصادم[1230]. وبالنظر إلى اختلاف ظروف كل من الأندلس والعراق، بسبب تعرُّض الأولى للكيانات الأسبانية المسيحية في الشمال والشمال الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية، فقد استهدفت الشعوبية هناك ضرب الإسلام، ومن خلال ذلك ضرب العروبة. فكانت طبيعة الشعوبية في الأندلس صليبية مذهبية، استخدمت القوة المسلحة المتمثلة في حركة الاسترداد المسيحية، والإرهاب والاضطهاد المتمثل بمحاكم التفتيش، للوصول إلى أهدافها في اجتثاث العرب والحضارة العربية الإسلامية من الأندلس. وقبل ذلك عبَّر الشعوبيون من الصقالبة وغيرهم عن وجهات نظر معادية للعروبة والإسلام، والافتخار بالعجم، وذلك في الحقب التي سبقت اضمحلال الوجود العربي الإسلامي. ولاسيما في عصر الطوائف، حيث نشأ أحمد بن غرسيه الذي يعد من أقوى الأصوات الشعوبية في الأندلس[1231].

أما في العراق، فكانت الأولويات المستهدفة تختلف عن الهجوم الشعوبي في الأندلس. وكما يلاحظ فاروق عمر[1232]، كانت العربية بمفاهيمها وقيمها هي المستهدفة أولاً وقبل كل شيء، ومن خلال ذلك تعرضت الشعوبية إلى الإسلام. ويعود السبب في ذلك إلى موقع العراق باعتباره الحد الشرقي للوطن العربي، وأنه الأرض التي تفاعلت عليها مبادئ وأفكار تعود إلى حضارات راسخة في القدم، كان لا بد لها من أن تؤكد نفسها مرة أخرى بعد حروب التحرير، وقيام الدولة العربية الإسلامية. ومن جهة أخرى، فإن تركيز الشعوبية في هجومها على العروبة في العراق، يعود إلى الصراع الحضاري الطويل بين العرب والعجم،

(1230) الجذور التاريخية للشعوبية، ص11

(1231) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة ط5، بيروت، 1978، ص171.

(1232) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص192.

ونظرة هؤلاء الاستعلائية العنصرية، وأطماعهم التوسعية عبر التاريخ، ونكرانهم لأيّ فضل لجيرانهم العرب في ميدان الحضارة والسياسة. وقد استمر هذا الصراع عبر حقب التاريخ القديم والوسيط والحديث والمعاصر، وعبَّر عن نفسه بعد تأسيس الدولة العربية الإسلامية، في حركات الشعوبية والزندقة، والخرمية، وغيرها من الحركات التي اعتمدت على السلاح حيناً، وعلى الفكر، والدس حيناً آخر.

ولا يُعرف مصدر مصطلح «الشعوبية» بالضبط، وهل أُطلق على الشعوبيين من قِبَل أنصارهم أو أعدائهم. على أن هذه التسمية لم تكن جديدة، كما يرى المستشرق هاملتون جب[1233]، بل كانت تسمية قديمة تلبست معنى جديداً. فالشعوبية بالأصل هم الخوارج الذين أنكروا - لأسباب دينية - أن يكون هناك أي تفاضل بين الشعوب والقبائل. ولكن شتان بين هذه الشعوبية التي تنادي بالمساواة بين الشعوب، وشعوبية الفرس الذين نادوا بأفضليتهم، أو أفضلية غيرهم من الأمم غير العربية على العرب، ودافعوا عن دعواهم بحجج اجتماعية وثقافية. وفي أي حال، فإن كلمة «الشعوبية» أُطلقت على معتنقي هذه الفكرة، بعد أن أسفروا عن وجههم العنصري المعادي للعرب والإسلام، وكان الجاحظ[1234]، هو أول من استخدم هذه اللفظة، وتبعه بعد ذلك الكُتّاب الآخرون.

وعلى الرغم من أن لفظ «الشعوبية» لم يظهر ويستعمل إلا في العصر العباسي، فإن بوادر هذه الحركة ظهرت في العصر الأموي، وكان يغذيها

(1233) دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة : إحسان عباس ورفاقه، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1974، ص88.

(1234) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، باعتناء : عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1948 ـ 1950: 3/ 14، 29 ـ 30 ؛ البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، 1958، ص 228.

جملة عوامل، منها: الحضارة الإيرانية، وما حققته من وعي بين شعوبها، وظهور الإسلام، وقيام الدولة العربية الإسلامية، التي اصطدمت مع الدولة الساسانية، وانتصرت عليها. فكان هذا التصادم، وما أعقبه من اندحار سياسي وحضاري للفرس، هو الذي أجَّج الروح الشعوبية لدى هذه الجماعات. ويضاف إلى ذلك، أن ظهور الإسلام، وما يحمله من مبدإ التوحيد، كان يناقض تماماً مبدأ الثنوية، الذي يميز كل الديانات الفارسية القديمة. فكان هذا عاملاً أساسياً في عدم تقبُّل الفرس للوضع الجديد المتمثل بالسيادة العربية وانتشار الدين الإسلامي. ولكن بالنظر إلى قوة الدولة العربية الإسلامية، لم يستطع هؤلاء الشعوبيون أن يعبروا بصراحة عن موقفهم المناوئ للعروبة والإسلام، فاتخذوا لهم ستاراً يختفون من ورائه. وظهرت حركتهم الشعوبية في أول أمرها تدعو، باسم المبادئ الإسلامية، إلى المساواة بين العرب والموالي، متخذة شعار «أهل التسوية».

وكان هذا الشعار شعاراً إسلامياً يهدف إلى تطبيق أفضل لمبادئ الإسلام، وتحقيق المساواة والعدالة لكل الفئات التي تعد نفسها محرومة في المجتمع سواء كانت عربية أو غير عربية. وكان العرب أول من رفع راية التسوية في حركات عربية كثيرة في القرنين الأول والثاني الهجريين ضد الأمويين والعباسيين .وقد وجد الموالي في هجوم الأحزاب السياسية العربية على الأمويين وحكمهم ما يناسب وجهتهم، فانضموا إلى هذه الحركات تحقيقاً لأهدافهم. لكن انضمامهم إلى هذه الأحزاب كان محدوداً من قبل قيام الثورة العباسية، لاختلاف الأهداف الرئيسية لكلا الفريقين[1235].

(1235) قارن: الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص14.

وكان لا بد لأهل التسوية من أن يستتروا بالدين في ذلك الوقت المبكر، بالنظر إلى تغلغل مبادئ الإسلام وتوسع تياره من جهة، ولقوّة ونشاط العرب من جهة أخرى. فتعلقوا بفكرة العدل والتسوية لأن «الناس كلهم من طبقة واحدة وسلالة رجل واحد»[1236]، فبحثوا في آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة عمَّا يعزز دعواهم، فركَّزا على الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1237]، وقد تمسكوا بهذه الآية الكريمة فترات طويلة من حركتهم وتستروا خلفها وتفننوا في تفسيرها بحيث تلائم نظرتهم العنصرية الضيقة. فقالوا بأنّ الشعوب من العجم والقبائل من العرب، وأن تقديم الشعوب على القبائل في الآية هو تفضيل للمقدَّم على المؤخَّر. وأشاروا أيضاً إلى أن الشعوب لا يرجعون بأصولهم إلى جد أعلى، أو نسب واحد يعرفونه، بل ينتسبون إلى المدائن والقرى والأقاليم، في حين أن القبائل تنتسب إلى الآباء والأجداد.

وهم بهذا يؤكدون على حضارة الشعوب ووحدتهم، وعلى بداوة القبائل وانقسامها[1238]. لكن وجهة النظر العربية الإسلامية المضادة للشعوبية ترفض هذا التفسير العنصري، وتفسير الشعب بأنه وحدة نسب أكبر من القبيلة من حيث العدد. وخير من يمثل هذا الاتجاه، هو محمد بن جرير الطبري في تفسيره الشهير للقرآن الكريم[1239]، فهو رغم كونه فارسي الأصل، لكنه عربي مسلم في الفكر والولاء والثقافة. وكان هؤلاء الشعوبيون يرددون بالإضافة إلى هذه الآية آيات أخرى، منها قوله تعالى:

(1236) ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة، 1928: 2/ 254.

(1237) سورة الحجرات، الآية: 13.

(1238) الدوري، المرجع السابق، ص24.

(1239) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، القاهرة، 1954: 26/ 138 فما بعدها، فوزي، حول طبيعة الحركة الشعوبية، ص203 ـ 214.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1240]، في كل مناسبة يفتخر بها العرب بمحمد عليه الصلاة والسلام باعتباره من العرب، ويدعمون احتجاجهم هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1241]، وبقوله جل شأنه أيضاً: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[1242]. وهكذا فقد استغلت الشعوبية في أول أمرها آيات القرآن الكريم استغلالاً كبيراً، ووظّفتها بما يتفق وميولها ومعتقداتها السياسية والدينية[1243]. كما احتجّتْ أيضاً ببعض الأحاديث النبوية الشريفة، ولاسيما ما جاء في خطبته عليه السلام في حجة الوداع: «لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بتقوى الله»[1244].

ولم يكن هذا الموقف من الشعوبية نابعاً من فهم عميق بمبادئ الإسلام، أو حباً في تطبيق هذه المبادئ، لأنهم عُرفوا بمواقفهم المعادية للرسول واصحابه الكرام، حيث أشار الجاحظ[1245]، إلى هذا بقوله: «والشعوبية. . . المبغضون لآل النبي وأصحابه ممن فتح الفتوح وقتل المجوس وجاء بالإسلام. . .». لهذا فقد انصبَّ كره الشعوبيين على الإسلام، ومن جاء به، لأنه كان الدافع المباشر والسبب الحقيقي الذي دفع العرب إلى تحرير العراق وبقية المناطق العربية الأخرى، والقضاء على الدولة الساسانية، ولكنهم مع هذا اضطروا للدخول في الإسلام تظاهراً وتستراً به للعمل على هدمه من الداخل. ولهذا، فقد نشأت

(1240) سورة الأحزاب، الآية : 40.

(1241) سورة الحجرات، الآية : 10.

(1242) سورة الأحزاب، الآية : 5.

(1243) انظر: عبد الله سلوم السامرائي، الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ص29.

(1244) أحمد بن أبي يعقوب، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت : 2/110.

(1245) البخلاء، ص228.

حركات سرية عديدة تعمل ضمن هذا المفهوم لهدم السلطان العربي الإسلامي، أو هدم الإسلام، وتوزعت إلى فرق كثيرة إمعاناً في التستر والاختفاء. وهذه هي الفرق التي تسمّى بالغلاة، الذين كانوا يتمسكون بتراثهم الديني المجوسي، ولا يكشفون إلا طرفاً من آرائهم المغالية في الإمامة. وكانت هذه الفرق تحمل آراء غريبة تسترت عليها بالإسلام، وبالالتفاف حول آل البيت، واتخذت من هذا المنطلق محوراً لبدعها وآرائها المناهضة للإسلام. وكان من أخطر هذه المبادئ، هو مبدأ الحلول، والتناسخ، والبداء، والتأويل. وحاولت من خلال هذه المبادئ الهدامة أن توجِّه ضربة عنيفة إلى الدين الإسلامي من طريق إحاطته بهذه المعتقدات الغريبة التي تعمل على هدمه من الداخل وخنقه من الخارج[1246].

ومن طريق مبدأ الحلول والتناسخ، هدف الشعوبيون إلى ضرب الإسلام في أهم ركن من أركانه، ألا وهو التوحيد، لادعائهم بأن روح الله أو نوره يمكن أن يحل في الأشخاص، وأن روح الله تناسخت في الأنبياء، ثم انتقلت إلى الأئمة الذين تظاهر الشعوبيون بالولاء لهم أو لواحد منهم، وغالوا في ذلك من أجل ضرب مبدأ التوحيد والطعن في آل البيت. وقد استغلوا أيضاً فكرة البداء للطعن في الذات الإلهية، لأن البداء يعني أن الله سبحانه وتعالى يخبر أن يفعل الأمر، ثم يبدو له فلا يفعله، فهو لهذا تغيير في الإرادة الإلهية لقرار قد اتخذ سابقاً. وقد أتاحت هذه الفكرة المجال لادعاء النبوة والطعن بها، وفي هذا خطورة على الدين والمجتمع، بحيث يمكن لأي مدّع أن يستغل البداء، ويدّعي العلم، ويتحدث عن الغيب، معتمداً على هذه الفكرة في تبرير الحالات التي لا تتحقق، مدعياً بأن الله قد بدا له فغَيَّر ذلك.

(1246) البخلاء، ص228.

واستغلت معظم الفرق الغالية مبدأ التأويل في محاربة الإسلام، فادعوا بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، وتنزيلاً وتأويلاً. فأوّلوا آياته وفقاً لأغراضهم، وطعنوا في مبدأ التوحيد وفي النبوة، كما ضربوا مبدأ المعاد، وما يتعلق به من بعث، وعقاب، وثواب، وأنكروا الفرائض على هذا الأساس. ولهذا فإن القول بمبدأ التأويل كان من أخطر الوسائل التي استغلها الغلاة للهجوم على الإسلام وهدم مقوماته. لأنه توجّه بالدرجة الأولى إلى القرآن مرجع الإسلام الأول، محاولاً نقضه وإبعاده عن المهمة التي أُنزل من أجلها، وفي ذلك هدم للإسلام ومقوماته[1247].

وقد ازداد نشاط هؤلاء الغلاة في أواخر العهد الأموي، وكان لبعضهم دور في الثورة العباسية، وقد انتبه نصر بن سيار والي خراسان إلى دورهم الخطير ووجهتهم المعادية للعروبة والإسلام. فحذر منهم القبائل العربية في خراسان، وكشف نواياهم الشريرة المتمثلة بقتل العرب من طريق التظاهر بالانخراط في صفوف الثورة العباسية. وأن وجهتهم كانت فارسية محضة، بحيث وجد الكثير منهم في أبي مسلم الخراساني المنقذ المنتظر، فنقلوا الإمامة إليه وإلى رجال آخرين من الفرس[1248].

وكانت الزندقة تمثل مظهراً آخر من المظاهر التي اختفت وراءها الحركة الشعوبية، ولاسيما في الحقل الديني، للعمل على تدمير الإسلام وهدمه. والزنديق هو من يعتنق المذهب المانوي، وهو من المذاهب الثنوية الفارسية. وقد اتسع هذا اللفظ ليشمل الشعوبيين باعتبار أن العروبة والإسلام مفهومان مترادفان في القرنين الأول والثاني الهجريين. ولذلك فإن الشعوبية والزندقة ولا بد من أن يكونا مترادفين أيضاً، فمن يكره

(1247) لمزيد من التفصيلات عن هذه المبادئ انظر : السامرائي، المرجع السابق، ص53، فما بعدها.

(1248) الدوري، المرجع السابق، ص29.

العرب يكره الإسلام، والعكس صحيح[1249]. وهكذا فإن الشعوبية تنتهي في أغلب الأحيان بالخروج على الإسلام بالزندقة، فهي تبدأ بالتهجم على العرب إلى مهاجمة العربية، وتنتهي بالهجوم على الإسلام. لأن هدفهم في الأساس هو هدمه من الداخل لتحقيق مآربهم، ويشير عبد العزيز الدوري إلى إدراك الجاحظ للصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة، بحيث يقول الجاحظ: «فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف»[1250].

ومن هذا النص يظهر الترابط الواضح بين العروبة والإسلام، وأن العداء للعروبة يؤدي إلى الزندقة في كثير من الأحيان. ويشير الجاحظ أيضاً إلى أن الشعوبية تؤدي إلى التجاوز على الدين، وإلى تجاوز القيم كافة، وذلك بقوله: «ثم إنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً ولا أقل غُنماً من أهل هذه النِّحلة»[1251].

وقد تطورت الحركة الشعوبية بمرور الأيام، وظهرت على حقيقتها العنصرية، ولا سيما بعد انتصار الثورة العباسية، التي نادت بالتسوية بين العرب وغيرهم في المجتمع، كما أشركت الفرس في السلطة والجيش والإدارة. ولهذا لم يعد شعار «التسوية» مناسباً لهذه المرحلة، وفي الوقت نفسه، لم يرض معتنقوه بما تم إنجازه في العصر العباسي الأول. لأن هذا الشعار، كما أشرنا سابقاً، كان ستاراً للعمل ضد العروبة والإسلام.

(1249) فاروق عمر، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص113 ـ 114.

(1250) البيان والتبيين : 3/ 14، الدوري، المرجع السابق، ص58 ـ 59.

(1251) البيان والتبيين : 3/ 29 ـ 30ك الدوري، المرجع السابق، ص59.

فكشف الشعوبيون عن آرائهم ومواقفهم، وهاجموا العرب لتحقيق عنصريتهم المقيتة. ولم يعد هناك مجالاً للفصل بينهم وبين أهل التسوية، بل اختلط اللفظ حتى عند الكُتّاب القدماء الذين تناولوا هذا الموضوع في العصر العباسي. وفي هذه المرحلة بالذات ظهرت العصبية الضيقة لديهم، وأصبح شغل الشعوبي الشاغل العمل على تصغير شأن العرب، وتفضيل الأجناس الأخرى عليهم. وقد افترض الشعوبيون ضمن هذا السياق فرضيات واهية لتبرير الهجوم على العرب. فزعموا بأن الفرس من أبناء إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، والعرب من ولد إسماعيل. وبما أن سارة الحُرّة هي أم الأول، وهاجر الأمة هي أم الثاني، فهم - أي الفرس - أفضل من العرب لأنهم أحرار. كما جسَّم الشعوبيون أخطاء العرب، واعتبروا الخطأ الواحد الذي وقع فيه بعض العرب، خطأً عاماً يشمل جميعهم، واستغلوا ذلك وعابوه عليهم ولاسيما مسألة وَأْدِ البنات، الذي مارسته بعض بطون تميم على نطاق ضيّق[1252].

وقد حاول كُتّاب الشعوبية ومؤيدوها من الأدباء وغيرهم مستندين إلى عصبية عنصرية جامحة للتقليل من شأن الثقافة العربية الإسلامية والاستهانة بها. واتخذوا لتحقيق هذه الغاية سبلاً مختلفة، منها إكثارهم من الترجمة عن الفارسية في موضوعات تتصل بصميم الذات الفارسية، كالأدب والتاريخ والتقاليد والمثل. كما وضعوا الكثير من التصانيف ونسبوها إلى الفرس القدماء ليضفوا عليهم من الأمجاد ما يساعد على إحياء الوعي الفارسي والتقليل من شأن الحضارة العربية الإسلامية. وقد حاولوا أيضاً أن يعيدوا إحياء المراسيم الفارسية والتقاليد الإدارية، ووجدوا استعداداً وتشجيعاً من الوزراء الفرس في العصر العباسي. ويقابل هذه المحاولات محاولات أخرى معاكسة للتشكيك بالثقافة العربية الإسلامية، والتأليف في

(1252) السامرائي، المرجع السابق، ص 121.

مثالب العرب والحط منهم ومن أنسابهم ومفاخرهم[1253].

وأخيراً يمكننا أن نلاحظ النظرة العنصرية الضيقة للشعوبية حتى في تفسيرها لمصطلحَيْ (الشعوب) و (القبائل). فهي قد ادّعت بأن الله فضّل الشعوب (العجم) على القبائل (العرب) لأنه قدّم ذكرهم في الآية القرآنية التي أشرنا إليها سابقاً. وهذا يناقض شعار المساواة الذي رفعه «أهل التسوية»، الذي تستروا وراءه في أول أمرهم، الأمر الذي يؤكد عنصرية الشعوبية وطبيعتها المناهضة للعرب والإسلام.

(1253) انظر: الدوري، المرجع السابق، ص50 ـ 55.

المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

1. القرآن الكريم.
2. الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، البيان والتبيين، باعتناء: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1948 ـ 1950.
3. البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، 1958.
4. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، القاهرة، 1954.
5. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد، العقد الفريد، القاهرة، 1928.
6. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت (د.ت).

ب ـ المراجع الثانوية:

7. جب، هاملتون، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة : إحسان عباس ورفاقه، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1974.
8. الدوري، عبد العزيز، الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة، ط2، بيروت، 1980.
9. السامرائي، عبد الله سلوم، الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980.
10. عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ط5، دار الثقافة، بيروت، 1978.
11. العزيز، حسين قاسم، «دراسة في الشعوبية»، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 81، بغداد، 1976، ص65 ـ 88.
12. عمر، فاروق، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، مكتبة النهضة، ط2، بغداد، 1985.
13. ، حول طبيعة الحركة الشعوبية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 31، الجزء 2، بغداد، 1985.
14. قدورة، زاهية، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972.



تأثيرات مشرقية في الحضارة الغربية

نشر هذا البحث في مجلة بين النهرين،
العدد 97/10 بغداد 1997

أبو بكر الرازي أنموذجاً للعلوم الطبية:

كان لبعض العلماء المسلمين والعرب دور بارز وحاسم في التأثيرات المشرقية التي انتقلت إلى الغرب في العصور الوسطى. ويتناول هذا البحث دراسة عالم واحد برز في العلوم الطبية، ولد وعاش في المشرق، لكن كتبه ومؤلفاته عُرفت جيداً في الغرب الأوروبي، ذلك هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. وسيتم التركيز على تكوينه الطبي، ومدى إسهامه في هذا المجال في المشرق الإسلامي، ولاسيما في بغداد عاصمة الدولة العباسية، كما سيُبحث أيضاً كيفية تعرُّف الغرب إلى إنجازاته في مجال الطب، بحيث تمتد الإشارة باختصار إلى أهم طرق الاتصال، ولاسيما صقلية والأندلس، ودور الترجمة في نقل مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية. وأخيراً تمت الإشارة إلى أشهر أعماله التي انتقلت إلى الغرب، مثل كتاب الحاوي في الطب، وكتاب المنصوري، وأهم المجالات التي استخدمت فيها،

ولاسيما المدارس الطبية الأوروبية التي استفادت منها ودخلت ضمن مقرراتها الدراسية لقرون عديدة في العصور الوسطى.

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في مدينة الري إلى الجنوب من طهران الحالية، في حدود سنة 251هـ/ 865م، وتوفي سنة 313هـ/ 925م. وكلا التاريخين مختلف عليهما في المصادر العربية. كان الرازي منذ صغره راغباً في العلوم العقلية، وقد درس الفلسفة والمنطق والكيمياء والأدب والهندسة، ولكنه اشتهر في الفلسفة والطب[(1254)]. وفاق في العلم الأخير جميع أطباء زمانه، فكانت الرحال تُشدّ إليه لأخذ هذا العلم منه[(1255)]. وتشير إحدى الروايات إلى أن اهتمامه بالطب بدأ وله من العمر أكثر من ثلاثين عاماً، وذلك حين غادر الري إلى بغداد، ودخل إلى أحد مستشفياتها صدفة، فأثارت انتباهه قوارير الأشربة الطبية وموادها العشبية التي تملأ رفوف الصيدلية، فسأل عنها الصيدلاني، ثم كرر دخوله إلى المستشفى، وأطّلع على بعض حالات المرضى، ومن هنا جاء اهتمامه بالطب وابتدأ بدراسته[(1256)]. والحقيقة أن هذه الرواية لا تقدم تعليلاً مقنعاً لبداية اهتمامه بالطب، فليس من المعقول ألاّ يكون للرازي بعد سن الثلاثين أي معرفة بالعقاقير، أو بحالات المرضى، ولا يكتشف ذلك إلا بعد دخوله إحدى مستشفيات بغداد بالصدفة. والأكثر احتمالاً أنه دخل ذلك المستشفى متعمداً للاطلاع على كيفية معالجة المرضى فيها، وأنواع العقاقير المستخدمة، وربما لمقارنتها مع ما كان يعرفه من ذلك في الري. ومن المحتمل أنه تُلْمِذَ في بغداد لثابت بن قرة الحراني، أو ابنه سنان بن

(1254) محمد بن إسحق النديم، الفهرست، بيروت، دار المعرفة، 1978، ص504.

(1255) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة (د.ت) : 5/ 158.

(1256) موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، بيروت، دار ـ مكتبة الحياة، 1965، ص415.

ثابت، أو غيرهما من الأطباء المتواجدين في ذلك الوقت ببغداد. ومع هذا فإن قراءات الرازي الواسعه في المؤلفات الطبية، وذكاءه، وقوة ملاحظته على تطور الأمراض وأعراضها، ومتابعة تأثير الأدوية على دوراتها، كانت هذه جميعاً معلمه الأول، إن لم تكن كل معلميه معاً[1257].

وبعد اشتهاره في ممارسة الطب عاد إلى مسقط رأسه الري، حيث تولى إدارة بيمارستانها أو مستشفاها زمناً[1258]. ثم عاد إلى بغداد، حيث تمت استشارته في الموضع الذي يجب أن يبنى فيه البيمارستان الجديد، والذي هو من المرجح البيمارستان المقتدري الذي أنشأه الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة 306هـ/ 918م. أو هو البيمارستان الصاعدي الذي بني على عهد الخليفة المعتضد بالله (279 ـ 289هـ/ 892 ـ 902م)[1259]. فلما كمل بناء ذلك المستشفى، أُختير الرازي من بين مائة من أفاضل الأطباء ليرأس إدارته[1260].

بلغ الرازي ذروة النجاح في الطب، وفاق جميع أطباء زمانه، وقصده المرضى من كل مكان. وكان له تلاميذ يلتفون حوله لتلقّي العلم في مجلسه بشكل حلقات. فحلقة التلاميذ القريبة منه هم الطلبة المتقدمون في الدراسة، والحلقة التي تليها من الطلبة الأقل خبرة، أما الحلقة البعيدة، فهي للطلبة المستجدين. فكان الرجل المريض يأتي فيصف مرضه لأول من يلقاه منهم، فإن كان عندهم علم بالمرض عالجوه، وإن هم لم يعرفوا مرضه انتقل إلى الصف الذي يليه حتى يصل إلى مجلس الرازي، فيشرح

(1257) كمال السامرائي، «التعريف بأبي بكر الرازي»، بحث مقدم لندوة (أبو بكر الرازي وأثره في الطب) للفترة 11/ 11 ـ 12/ 11/ 1987، بغداد، مركز التراث العلمي العربي، ص6.

(1258) أبو القاسم صاعد بن أبي أحمد، طبقات الأمم، تحقيق: حياة بو علوان، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1985، ص137.

(1259) ينظر: فرات فائق، أبو بكر الرازي حياته ومآثره، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1973، ص12.

(1260) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص415.

لهم مرضه وعلاجه[1261].

جمع الرازي بين الاطلاع والخبرة، ولهذا فقد وصفه ابن جلجل بأنه طبيب بيمارستاني[1262]، فقد تجلت مواهبه أستاذاً ومؤلفاً وممارساً. وكان له نظام واضح في تعليم الطب النظري والطب السريري، وله رأي واضح في امتحان الأطباء. كما وضع نظاماً لتنسيق أسماء الأدوية باللغات اليونانية والسريانية والعربية والفارسية والهندية، ومقاديرها. وفي مجال التأليف كان الرازي واسع الإطلاع إلى درجة الإحاطة بكل فن، وكان نتاجه العلمي كثيراً زاد على مائتي كتاب[1263]، نصفها طبي، وجميعها باللغة العربية، شملت العلم النظري والطب السريري، وهي في العلم النظري منسقة مبوّبة، وفي الطب السريري مجموعة مشاهداته والتعليق عليها. وعلى هذا قام مجد الرازي، لأنه عمل لم يُسبَق إليه من قبل. وهكذا فإن تجاربه وملاحظاته الطبية كان لها منزلة خاصة وأهمية كبيرة في مجال الطب، فاستحقت الاهتمام والتقدير، وأصبحت مؤلفاته مراجع يُرجع إليها عند الاختلاف. واعتمد معظم الذين ألفوا في العلوم الطبية في البلاد الإسلامية كافة منذ القرن الرابع حتى الحادي عشر للهجرة/ العاشر إلى السابع عشر للميلاد، على مؤلفاته بأشكال مختلفة، اقتباساً أو استعانة بها أو بمختصراتها[1264]، ومن هؤلاء ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ علي بن عباس (ت384هـ/

(1261) ينظر: جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف الثقفي، تاريخ الحكماء، ليسبك 1903، ص18.

(1262) سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد السيد، القاهرة، 1955، ص77.

(1263) ينظر: ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص421 ـ 427، حميد موراني وعبد الحليم منتصر قرارات في تاريخ العلوم عند العرب الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، 1974، ص142.

(1264) سامي خلف حمارنة، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ الطب والصيدلة ـ دمشق، مطبعة الترقي، 1969، ص95.

994م)، وأبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (ت428هـ/ 1036م)، وأبو القاسم الزهراوي (ت500هـ/ 1106م)، وموسى بن ميمون (ت601هـ/ 1204م)، وضياء الدين ابن البيطار (ت646هـ/ 1248م)[1265].

والآن ننتقل إلى كيفية تعرُّف الغرب إلى هذا العالم العربي المسلم، وما هي أهم آثاره التي انتقلت إلى أوروبا في العصور الوسطى، وكيف تم هذا الانتقال. فمن المعروف أن أهم مناطق الاتصال التي عبرت منها الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا هي صقلية والأندلس. فقد حكم العرب صقلية نحو قرنين من الزمن، كما دام تواجدهم في الأندلس أكثر من ثمانية قرون، وبطبيعة الحال فرض هذا الوجود مزيجاً من الثقافة والاحتكاك مع السكان المحليين، ومع الجيران الشماليين في أوروبا. كما قام النورمان بعد سيطرتهم على صقلية ببسط رعايتهم على الدراسات العربية، واقتبسوا العادات الإسلامية بصورة واسعة حتى صار من الصعب على الباحثين الأوروبيين عدم القبول بوجود نفوذ عربي علمي كبير على المعاهد في هذه الجزيرة، ولاسيما مدرسة سالرنو الطبية التي كانت تضم الكثير من الأطباء المسلمين الذين يعالجون السكان المحليين بغض النظر عن ديانتهم وجنسياتهم[1266].

وتعود بدايات التأثير العربي على مدرسة سالرنو عادة، أو تختلط مع اسم قسطنطين الأفريقي (Constantions Africanus ت480هـ/ 1087م)، الذي جاء إلى هذه المدينة، ثم استقر في كنيسة Benedictin Abby of Mont Cassino

(1265) فائق، المرجع السابق، ص147 ـ 148.

(1266) The Legacy of Islam , edited by : sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume, Oxford, Oxford University Press, 1965, P. 242. وينظر : الترجمة العربية لهذا الكتاب حيث بدّلَ المترجم عبارة (الأطباء المسلمين) بـ (الأطباء المسيحيين)، فتغير المعنى تماماً !! : تراث الإسلام، تعريب : جرجيس فتح الله، (بحث ألفريد غيوم - الفلسفة وعلم الكلام)، ط2، بيروت، دار الطليعة، 1972، ص354.

وأشغل نفسه في عمل ترجمات لاتينية تعتمد على مؤلفين في الطب العربي والإغريقي أفادت كثيراً العالم اللاتيني، وكان أثرها واضحاً في النهضة الأوروبية. وهكذا لم ينتهِ القرن الثالث عشر للميلاد / السابع للهجرة، إلا وكانت العلوم الطبية العربية شائعة بشكل كبير في سالرنو[1267].

ومع بداية القرن الرابع عشر ضعفت وانتهت مدرسة سالرنو، لكن الطب العربي كان مسيطراً في كل مكان في مدارس أوروبا الطبية، ذلك أن إقبال الأمم اللاتينية على نقل الحضارة العربية الإسلامية كان كبيراً، ولا سيما في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وبرزت في مدينة طليطلة Toledo، بعد أن سيطر عليها الأسبان سنة 478هـ/ 1085م حركة قوية للترجمة من العربية إلى اللاتينية. وكان نجاحهم فيها أكثر شمولاً وأعمق وأدقّ وأكثر وضوحاً من الترجمات التي تمت في سالرنو، ذلك لأن طليطلة كانت تتمتع بإمكانيات هائلة وفّرتها لها مكتباتها العربية العظيمة التي انتقل إليها آلاف المجلدات من الشرق[1268]. وقد شجع كبير أساقفة طليطلة (دون ريموندو) (Don Raimondo) الباحثين على السفر إلى هذه المدينة لنقل الكتب العربية إلى اللاتينية. وكان إقبال دون ريموندو بخاصة، والكنيسة الكاثوليكية بعامة على نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الأمم اللاتينية نتيجة مباشرة، ودليلاً قوياً على اعترافهم بتفوقها، وعلى رغبتهم في الإفادة منها، ومحاولة التغلب على المسلمين في أقوى نواحيهم، وهي الثقافة[1269].

(1267) ينظر: محمد كامل حسين، «في الطب والأقربازين»، فصل ضمن كتاب: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص288 ـ 289.

(1268) Julian Ribera, Disertaciones y Opusculos, Vol. I. P. 212.

نقلاً عن : عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1979، ص6.

(1269) حسين، في الطب والأقربازين، ص29.

وأول ما اهتم به مترجمو مدرسة طليطلة هو الكتب العربية التي تتضمن علوم اليونان، ثم امتد نشاطهم إلى مختلف الكتب العربية. فشملت الترجمات حقولاً مختلفة، منها: الحساب، والفلك، والتنجيم، والطب، والفلسفة، لمؤلفين مسلمين معروفين من أمثال: الخوارزمي (ت232هـ/ 850م)، والفرغاني (ت257هـ/ 870م)، والفارابي (ت339هـ/ 950م)، وابن سينا (ت428هـ/ 1036م)، والغزالي (ت505هـ/ 1111م)، وابن رشد (ت595هـ/ 1198م). ويهمنا هنا ذكر اسم الرازي فقط، الذي هو مدار هذا البحث.

لقد عُرف هذا العالم من طريق مؤلفاته الطبية الضخمة التي نُقِلت إلى اللغة اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. فانتشرت في المدارس الطبية الناشئة في أوروبا، وأصبحت أساساً للتعليم فيها، كما اعتمد عليها الكثير من المؤلفين في حقل العلوم الطبية. ويأتي في مقدمة هذه الكتب، كتاب الحاوي، الذي تم نقله أول مرة إلى اللغة اللاتينية في صقلية من قبل الطبيب اليهودي فرج بن سالم (فراغوت (Farragut بأمر من (كارل أنجو (Karles Anjou، ملك نابولي وصقلية (1266 ـ 1285م)، ففرغ منه عام 678هـ/ 1279م، ولعل بعض المترجمين المسلمين قاموا بمساعدته[1270].

بلغ عدد الأجزاء لهذه الترجمة خمسة وعشرين جزءاً، وعُرف باسم (Liber Continens)، وقد طُبع هذا الكتاب بترجمته اللاتينية سنة 892هـ/ 1486م بعنوان : (Liber Dictus Elhavi) وتكرر طبعه في البندقية في الأعوام : 906هـ/ 1500م، 912هـ/ 1506م، 915هـ/ 1509م، 949هـ/ 1542م بعنوان (Continens Rasis). كما طُبعت أجزاء كثيرة منه بصورة منفردة، وكانت آخر

(1270) يوجين أ. مايرز، الفكر العربي والعالم الغربي، ترجمة، كاظم سعد الدين، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986، ص118.

طبعة له في سنة 1196هـ/ 1781م في جوتنجن بألمانيا. ومما يؤسف له أن الطبعة الأولى لهذا الكتاب في اللغة العربية تأخرت حتى عام 1375هـ/ 1955م، بحيث تم طبعه من قبل دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن، واكتمل بثلاث وعشرين مجلداً سنة 1391هـ/ 1971م.

كذلك انتقل إلى الغرب كتاب الرازي الآخر المعروف بالمنصوري الذي ألفه للأمير منصور بن إسحاق بن إسماعيل صاحب خراسان[1271]. وهو في عشرة أجزاء، وقد ترجمه جيرارد الكرموني Gerardo de Cremona في القرن الثاني عشر للميلاد[1272] بعنوان (Liber Medicinalis ad Almansorem) وعلى الرغم من أنه أصغر حجماً من كتاب الحاوي، فإنه اشتهر كثيراً في الغرب الأوروبي، ولاسيما الجزء التاسع منه الذي تمتع بشهرة واسعة بحيث ترجم بمفرده بعنوان: (Nonus Almansoris) وقد طبعت الترجمة اللاتينية لكتاب المنصوري في ميلان سنة 886هـ/ 148م، وسنة 895هـ/ 1480م، وفي البندقية سنة 903هـ/ 1497م، وليون سنة 916هـ/ 1510م، وبازل سنة 951هـ/ 1544م. أما الجزء التاسع فطبع منفرداً في البندقية في الأعوام 888هـ/ 1483م، و896هـ/ 1490م، و 899هـ/ 1493م، و 903هـ/ 1497م، وفي بادوا سنة 885هـ/ 1480م. كذلك قد ترجم الجزء الثالث منه إلى اللغة الإيطالية بعنوان[1273]:

(Libro tertio dello Almansore, Chaimato cibaldone)

أما مقالة الرازي المعروفة بكتاب في الجدري والحصبة، فتعدّ من أعظم ما خلّفه في مجال الطب. فهي عمل فذ من حيث قوة الملاحظة والتحليل والتمريض، لأنها أول بحث محكم في الأمراض المعدية، وأول

(1271) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص423.

(1272) مايرز، المرجع السابق، ص108.

(1273) ينظر: فائق، المرجع السابق، ص152.

مجهود فني للتفرقة بين الجدري والحصبة. وقد نقلت هذه الرسالة في زمن مبكر إلى اللغة اللاتينية، ونشرت في البندقية وبازل وستراسبورج ولندن وجوتنجن بعناوين مختلفة، منها (De Variolis et morrbillis ou de peste) و (Liber de pesti lentia) وطُبع النص العربي مع الترجمة اللاتينية في لندن عام 1180هـ/ 1766م، كما ترجمت إلى لغات أوروبية عديدة، منها الإنكليزية، بحيث طبعت بها نحو أربعين طبعة بين سنتين 904هـ/ 1498م، و 1283هـ/ 1866م[1274].

وترجمت كتب أخرى للرازي إلى اللغة اللاتينية، منها كتابا: المدخل إلى صناعة الطب، وأوجاع المفاصل، ترجمهما جيرارد الكرموني[1275]. وتُرجمت مقالته في الحصى المتولد في الكلى والمثاني إلى اللغة اللاتينية، وطبعت في باتافيا سنة 916هـ/ 1510م. ويطول بنا الأمر لو عددنا كل ما نقل من كتب الرازي إلى اللغة اللاتينية، لكننا نكتفي ببعضها فيما يأتي، وهي لاشك قد أثرت جميعها في أوروبا:

* كتاب أقرباذين (Antidotarium)، ترجمة: إبراهيم الكسلري سنة 750هـ/ 1349م.

* كتاب تقسيم العلل أو كتاب التقسيم والتشجير، ترجمة: جيرارد الكرموني.

* كتاب المرشد ويسمّى كتاب الفصول، ترجمة موسيس بونون، وطبع في ليدن سنة 904هـ/ 1498م.

* كتاب في القولنج.

* كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها.

(1274) المرجع نفسه، ص152 ـ 153.

(1275) مايرز، المرجع السابق، ص108.

* مقالة في الأدوية المستعملة في الطب والعلاج وقوانينها وجهة استعمالها .

* مقالة فيما ينبغي أن يقدم من الأغذية والفواكه وما يؤخر منها.

* رسالة في العطش وازدياد الحرارة لذلك[1276].

بعد هذا الاستعراض لأهم مؤلفات الرازي التي نُقلت إلى اللغة اللاتينية، نعود إلى أثرها على الغرب، وأهم المجالات التي استخدمت فيها، ولاسيما في المدارس الطبية الأوروبية. وتعدّ مدرسة مونبلييه Montpellier التي تأسست في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد من أهم المدارس الأولى التي استفادت من مؤلفات الرازي وغيره من علماء المسلمين، ولاسيما ابن سينا. وهناك بعض الغموض في البدايات الأولى لهذه المدرسة، ولكن من المرجح أن جماعة من العرب واليهود القادمين من الأندلس اشتركوا في تأسيسها. وهكذا فإن تاريخ الطب في هذه المدرسة مرتبط بالدوائر العربية في أسبانيا وجنوب فرنسا، فضلاً عن سالرنو أيضاً[1277] .

ويعود الأثر العربي في هذه المدينة إلى وقت مبكر، منذ أن استقر فيها بعض المسلمين بعد معركة بلاط الشهداء، وانتصار شارل مارتل (Charles Martel) سنة 114هـ/ 732م. فاتخذ بعض الفارين من المعركة مدينة مونبلييه ملجأً لهم. وظلت نسبة لابأس بها من السكان العرب في هذه المدينة إلى وقت متأخر مثل القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد. ومن

(1276) فائق، المرجع السابق، ص154 ـ 155.

(1277) Hasting Rashdall, The Universities of Europe in the Middle Ages, ed, F.M. Powicke and A.B. Emden, Oxford, Oxford University Press, 1963, Vol., 11, PP. 117 , 120, 121

المحتمل أيضاً أن بعض التقاليد العلمية الطبية أو المهارات ظلت بعد سقوط معظم قواعد الأندلس في أسبانيا. ومن ثم انتقلت إلى جنوب فرنسا، فكانت أساساً للدراسات الطبية في هذه المنطقة. وقد استمرت هذه المدرسة تؤدي دورها بجهود الأفراد والأساتذة من المسلمين حتى أواخر القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد، عندما رفعها البابا نيقولا الرابع (Nicholas IV) في عام 688هـ/ 1289م إلى مرتبة جامعية، وخصصها تقريباً للعلوم الطبية[1278]. وبعد ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية، أصبح الأمر أكثر سهولة وتقبلاً من قبل الطلبة الأوروبيين، ودخلت هذه الكتب ضمن المقررات الدراسية لهذه الجامعة، وغيرها من جامعات أوروبا.

وقد أشار البروفسور دالماس Dalmas، أستاذ الأمراض النسائية بكلية الطب في هذه الجامعة أوائل القرن الحالي، في محاضرة ألقاها عن (فضل العرب على جامعة مونبلييه)، إلى جهود الأطباء من العرب في التدريس بهذه الجامعة، وأن أسماء بعضهم لا تزال منقوشة على لوحة الأستاذية بمدخل كلية الطب[1279]. ولاشك في أن قرب هذه المدينة من الأندلس واتصالها مع مدارسها المزدهرة قد أدى ـ كما أسلفنا ـ إلى ازدهار دراسة الطب فيها، فضلاً عن تدريس الكثير من المقررات التي تعتمد على كتب العرب الطبية، ولاسيما كتب الرازي وابن سينا وغيرهما.

وعلى سبيل المثال نذكر أن المقررات الدراسية التي حددها البابا كليمنت الخامس (Clement V) عملاً بنصيحة أطباء مونبلييه، مثل آرنولد

(1278) Ibid., Vol. II, P. 130.

(1279) أشار إلى هذه المحاضرة الأمير شكيب أرسلان في ترجمته لكتاب رينو: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1966، ص296، هامش(1)، وأيد كلامه بشهادة أخرى تفيد سماعه لهذه المعلومات ذاتها من أمير الشعراء أحمد شوقي، الذي درس الحقوق في هذه الجامعة، وأنه التقاه بباريس سنة 1893م، حيث روى له الخبر.

الفيلانوفي (Arnold of Villanova) وآخرين في سنة 709هـ/ 1309م بالنسبة إلى دراسة طلاب الطب، كانت تتضمن كتب جالينوس، والرازي، وابن سينا، وقسطنطين الأفريقي، وإسحق اليهودي. وعلى الرغم من دخول كتب الرازي ضمن مقررات هذه الكلية، فإن كتب ابن سينا كانت الأشهر، والأكثر استعمالاً في هذا المجال، ولاسيما الجزءين الأول والرابع من كتاب القانون Primus Cononis و Quartus Cononis، اللذين حُدِّدا ضمن قائمة المحاضرات في سنة 741 هـ/ 1340م. وإذا كان عدد الطلاب كافياً، أمكن تدريس أجزاء أخرى من قانون ابن سينا، وكتب أخرى لجالينوس، والرازي، وإسحق اليهودي[1280].

ولم يقتصر الأمر على جامعة مونبلييه فحسب، بل دُرِّسَت كتب الرازي وابن سينا في معظم مدارس الطب الأوروبية، بحيث اعتمدت هذه المدارس كتبهما زمناً طويلاً[1281]. فكانت على سبيل المثال أساساً للتدريس في جامعة لوفان (Louvain) حتى القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد، كما ثُبِّت ذلك في برنامجها لعام 1026هـ/ 1617م. ويظهر من هذا البرنامج أن مؤلفات علوم اليونان الطبية لم تنل من الحظوة إلا قليلاً، فقد اقتصر أمرها على بعض جوامع الكلم لبقراط، وبعض الخلاصات لجالينوس[1282].

واشتهر كتاب الحاوي للرازي كثيراً في مدارس أوروبا الطبية، فكان على سبيل المثال أحد الكتب التسعة التي تتكون منها مكتبة الكلية الطبية

(1280) Rashdall, Op. Cit., Vol. II, P. 127-128.

(1281) Ibid., Vol. I, PP. 236, 246, 436, Vol. II, PP 33, 121, 127.

(1282) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1979، ص589، جلال مظهر، مآثر العرب على الحضارة الأوروبية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960، ص129.

في جامعة باريس عام 797هـ/ 1394م[1283]. وعندما أراد الملك لويس الحادي عشر (888Louis XI - 899هـ/ 1461 - 1483م) استنساخه، اضطر إلى دفع مبلغ كبير من الذهب والفضة مقابل استعارته له[1284]. وقد ظل كتاب الرازي الآخر المعروف بالمنصوري ولاسيما الجزء التاسع من ترجمته اللاتينية، متداولاً بأيدي طلاب الطب في أوروبا حتى القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد[1285]. واستمر هذا الجزء مرجعاً هاماً في علم التداوي (Knowledge Therapeutie) في أوروبا لمدة طويلة بعد عصر النهضة[1286]. وكان كتاب المنصوري يشكل جزءاً من المقررات الطبية الدراسية لجامعة طبنجن (Tubingen) في نهاية القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلادي[1287]. كما دُرِّس المجلد السابع من هذا الكتاب في جامعة بولونيا أيضاً[1288]. وقد علقت كلية الطب بجامعة باريس في أحد أروقتها صورة ملوّنة للرازي، وأخرى لابن سينا، اعترافاً بفضلها وعلمها[1289]. ولم يقتصر الأمر على كلية باريس الطبية، بل إن معظم مدارس الطب المؤسسة في أوروبا استخدمت الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية، ومنها كتب الرازي، أساساً لتدريس الطب فيها، ولاسيما مدارس مونبلييه، ورانس، وبولونيا، وبادوا، وأورليان، ونابلي، وأوكسفورد، وكمبردج، وأنجيه (Angers)[1290].

(1283) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة، محمد بدران، القاهرة، 1967: 13/ 191.

(1284) لوبون، المرجع السابق، ص589.

(1285) ديورانت، المرجع السابق: 13/ 191.

(1286) Donald Campell, Arabain Mediecine and its influence on the Middle Ages, London, 1926, ol. I. P.68, نقلاً عن: فائق، المرجع السابق، ص149.

(1287) Ibid., P. 175.

(1288) Rashdall, Op. Cit , Vol.I. P.246.

(1289) ديورانت، المرجع السابق: 13/ 192، جلال مظهر، علوم المسلمين أساس التقدم العلمي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص34.

(1290) Rashdall, Op. Cit., Vol.I, PP.117,120-121, 127; وينظر أيضاً: بدوي، المرجع السابق، ص21 - 22.

ولم يقتصر تأثير مؤلفات الرازي الطبية على الجامعات الأوروبية فحسب، بل تأثر بها الكثير من الأفراد المهتمين بالطب في أوروبا الذين اقتبسوا منها وضمنوها في مؤلفاتهم وبحوثهم. من ذلك مثلاً ما قام به الدو براندينو دا سينا Aldo Brandino da Siena، الذي يعدّ الجزء الرابع من كتابه Reigme du corps ترجمة حرفية من كتب الرازي[1291]. كذلك فقد اعتمد جلبرت الإنكليزي Gilbertus Anglicus (ت689هـ/ 1290م) على مؤلفات الرازي في كتابه المعروف باسم (Laurea Angelicana)، الذي نشر في ليون عام 906هـ/ 1500م[1292]. وتعد معظم كتابات روجر بيكون (Roger Becon ت 692هـ/ 1292م) الطبية عبارة عن اقتباسات من كتب الرازي وابن سينا المترجمة إلى اللاتينية[1293]. كذلك اقتبس موندينى دي لوتس (ت727هـ/ 1326م) الكثير مما جاء في كتابه التشريح (Anatomia) من الترجمات اللاتينية لمؤلفات الرازي[1294].

أما في الجراحة، فقد اعتمد كي دي كولياك (Guy de Chauliac ت 770هـ/ 1368م) الطبيب الفرنسي الذي كان من أعظم جراحي العصور الوسطى، على مؤلفات الرازي، واستعمل بعض الأسماء التي أخذها من الرازي وابن سينا في التشريح[1295]. كذلك استعان الجراح الشهير أندريا فيسالوس (A. Vesalius) بالشروح اللاتينية لكتاب المنصوري في إعداد كتابه المعنون: (Paraphrasis in nonum librum Rhazae) في حدود سنة 942 هـ/ 1535م[1296].

(1291) الدوميلي، العلم عند العرب، ترجمة، عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، القاهرة، دار القلم، 1962، ص451.

(1292) نقلاً عن فائق ،المرجع السابق، ص149. Campell, Op. Cit., Vol. I. P. 175.

(1293) Ibid., P., 175.

(1294) حمارنة، المرجع السابق، ص206.

(1295) Campell, Op. Cit., Vol., I. P. 168, 176: نقلاً عن : فائق، المرجع السابق، ص150.

(1296) حمارنة، المرجع السابق ص98.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن أبي أُصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم.

1 ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965.

* ابن جلجل، سليمان بن حسان الأندلسي.

2 ـ طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد السيد، القاهرة، 1955.

* ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد .

3 ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة (د.ت).

* صاعد، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن.

4 ـ طبقات الأمم، تحقيق: حياة بو علوان، بيروت، دار الطليعة، 1985.

* القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف.

5 ـ تاريخ الحكماء، ليبسك، 1903.

* ابن النديم، محمد بن إسحاق.

6 ـ الفهرست، بيروت، دار المعرفة، 1978.

ب ـ المراجع الثانوية:

* أرسلان، الأمير شكيب .

7 ـ تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1966.

* بدوي، عبد الرحمن.

8 ـ دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1979.

* حسين، محمد كامل.

9 ـ «في الطب والأقربازين»، فصل ضمن كتاب : أثر العرب والإسلام في النهضة

الأوروبية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.

* حمارنة، سامي خلف.

10 ـ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ الطب والصيدلة، دمشق، مطبعة الترقي، 1969.

* مييلي، الدو.

11 ـ العلم عند العرب، ترجمة، عبد الحليم النجار ومحمد يوسف، القاهرة، دار القلم، 1962.

* ديورانت، ول.

12 ـ قصة الحضارة، ترجمة، محمد بدران، القاهرة، 1967.

* السامرائي، كمال.

13 ـ «التعريف بأبي بكر الرازي»، بحث مقدم لندوة (أبو بكر الرازي وأثره في الطب) للفترة 11/11 ـ 12 ـ 11/1987، مركز التراث العلمي العربي، بغداد.

* غيوم، الفريد.

14 ـ «الفلسفة وعلم الكلام» بحث ضمن كتاب: (تراث الإسلام)، تعريب، جرجيس فتح الله، ط2، بيروت، دار الطليعة، 1972.

* فائق، فرات.

15 ـ أبو بكر الرازي حياته ومآثره، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1973.

* لوبون، غوستاف.

16 ـ حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1979.

* مايرز، يوجين. أ.

17 ـ الفكر العربي والعالم الغربي، ترجمة، كاظم سعد الدين، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986.

* مظهر، جلال.

18 ـ علوم المسلمين أساس التقدم العلمي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.

19 ـ مآثر العرب على الحضارة الأوروبية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960.

* موراني، حميد، ومنتصر، عبد الحليم.

20 ـ قراءات في تاريخ العلوم عند العرب، الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، 1974.

* Rashdall, Hasting.

21 - The Universities of Europe in the Middle Ages, ed, F.M. Powicke and A.B. Emden, Oxford, Oxford University Press, 1963.

22 - * The Legacy of Islam, edited by: Sir Thomas. Arnold and Alfred Guillaume, Oxford, Oxford University Press, 1965.



المحتويات

